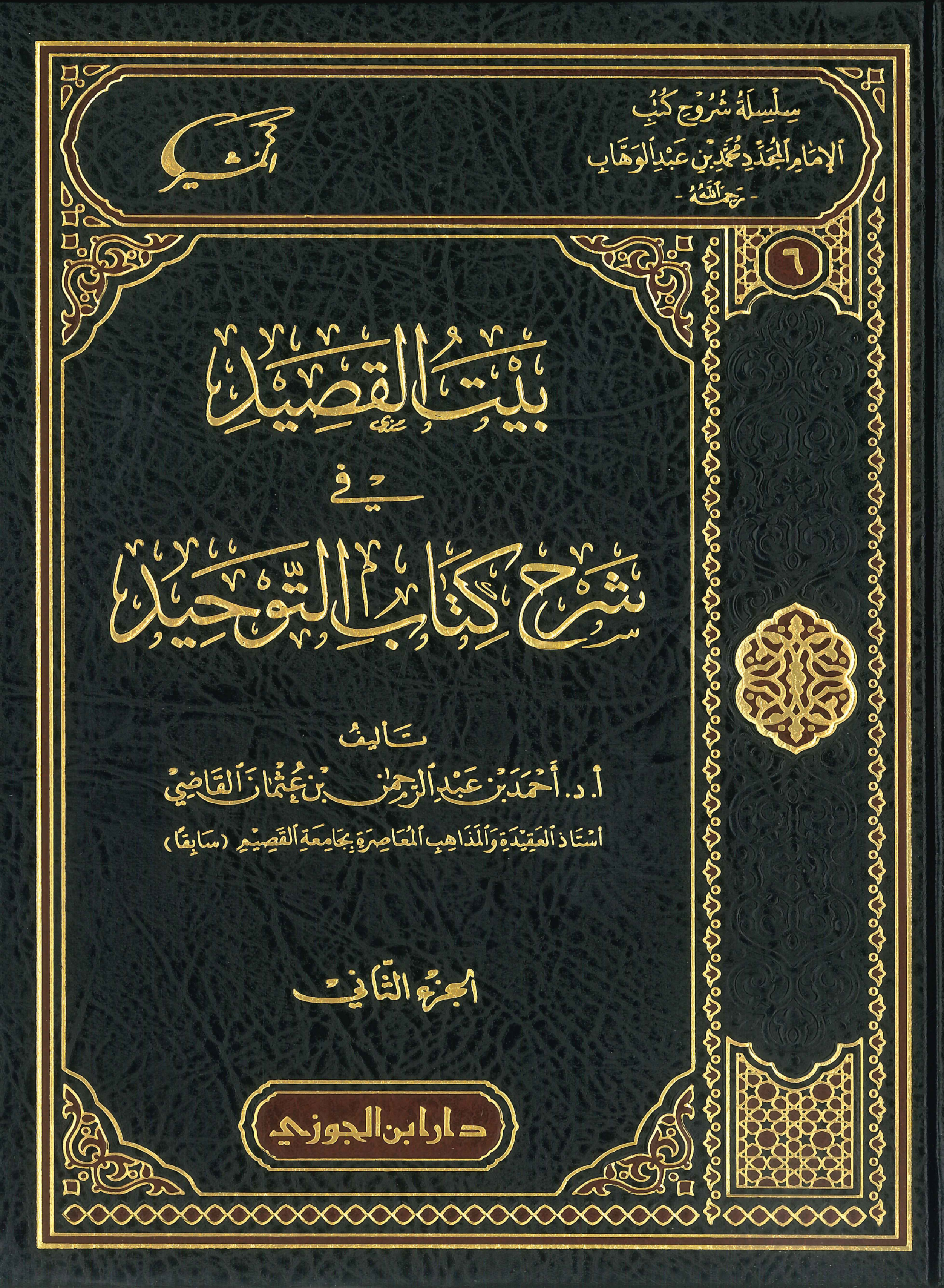
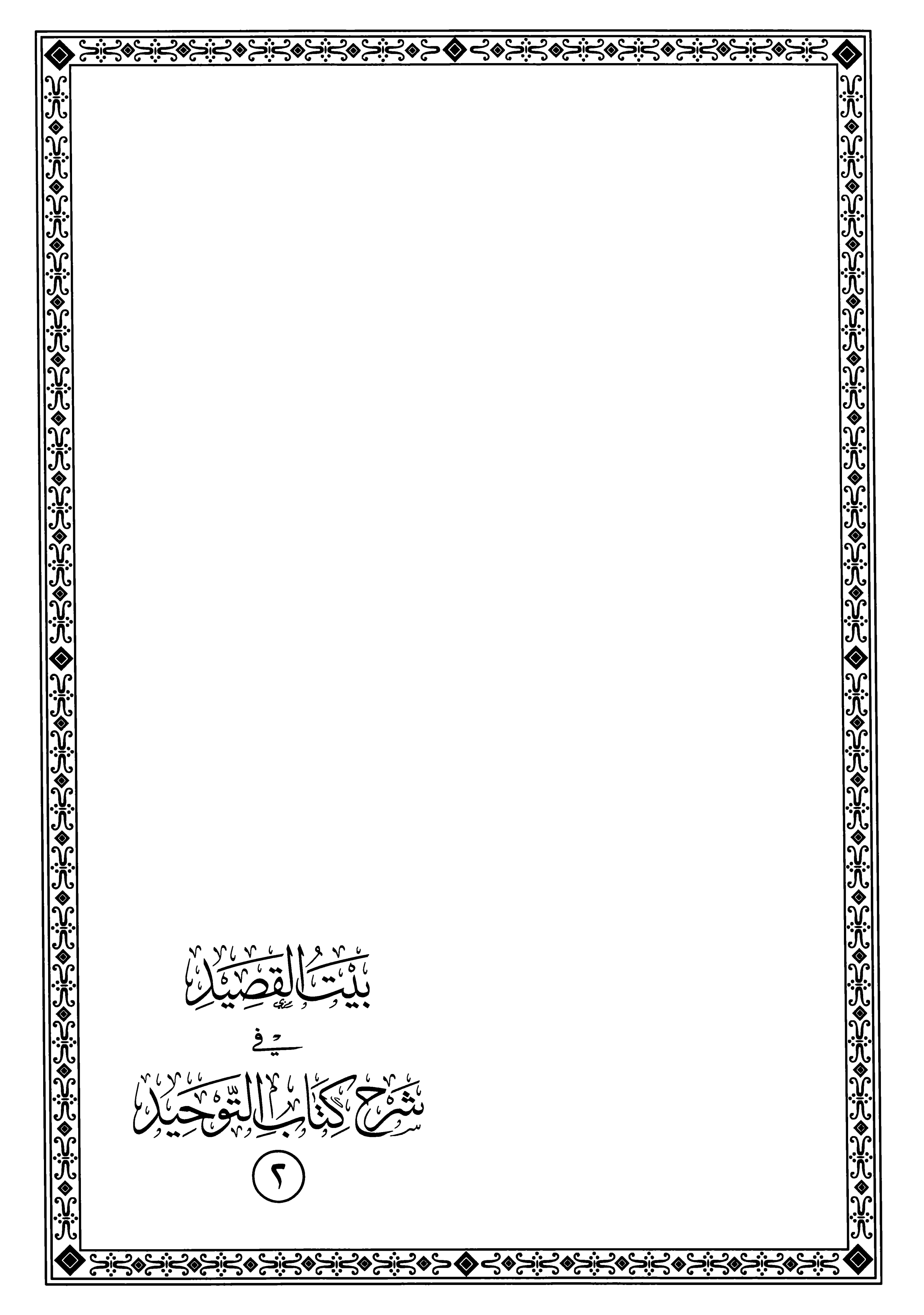

سلسلة شروح كتب
الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
- رحمه الله -
المشير
٦
بيت القصيد
في
شرح كتاب التوحيد
تأليف
أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم (سابقاً)
الجزء الثاني
دار ابن الجوزي



بيت القصيد
في
شرح كتاب التوحيد
٢



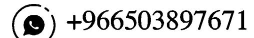


دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:
الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان
ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣
٠١٣٨٤١٢١٠٠
ص ب. واصل: ٨١١٤
الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦
الرقم الإضافي : ٤٩٧٣
الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥
جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨
الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢
جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩
جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:
بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠
فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:
القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠
جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨


aljawzi@hotmail.com
+966503897671

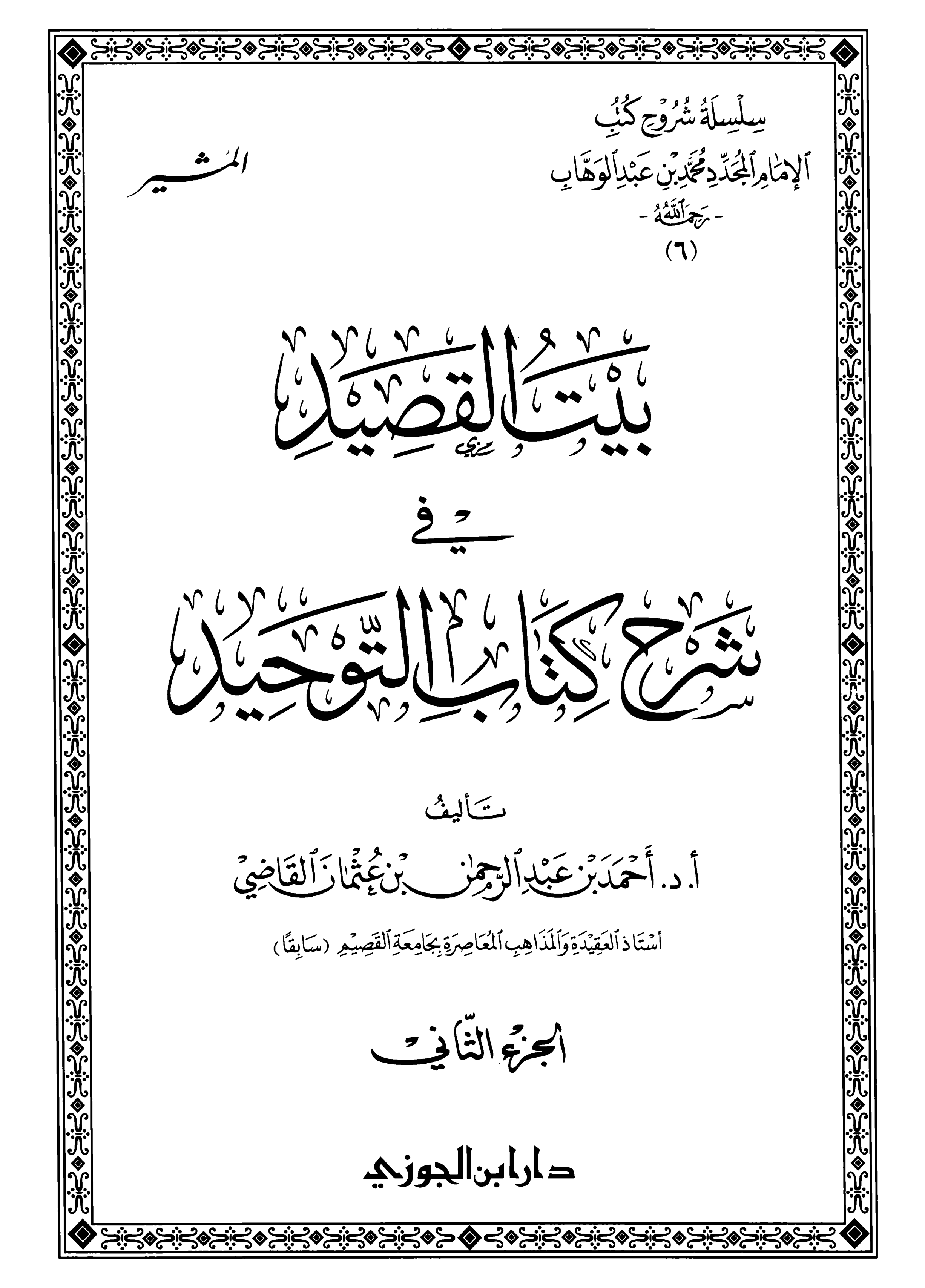
aljawzi
eljawzi
aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القاضي، أحمد عبد الرحمٰن
بيت القصيد في شرح كتاب التوحيد لابن عبد الوهاب مجلدين. / أحمد عبد الرحمٰن القاضي. - الدمام، ١٤٤٢هـ
٢مج.
ردمك: ٨ - ١٤ - ٨٣٣٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ٢ - ١٦ - ٨٣٣٨ - ٦٠٣ - ٩٧٨ (ج٢)
١ - التوحيد ٢ - العقيدة الإسلامية أ. العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٤٢/٨٠٣٣

الطَّبعَة الأولى
١٤٤٣هـ

الباركود الدولي: 9786038338148





سلسلة شروح كتب
الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب
- رحمه الله -
(٦)

المشير

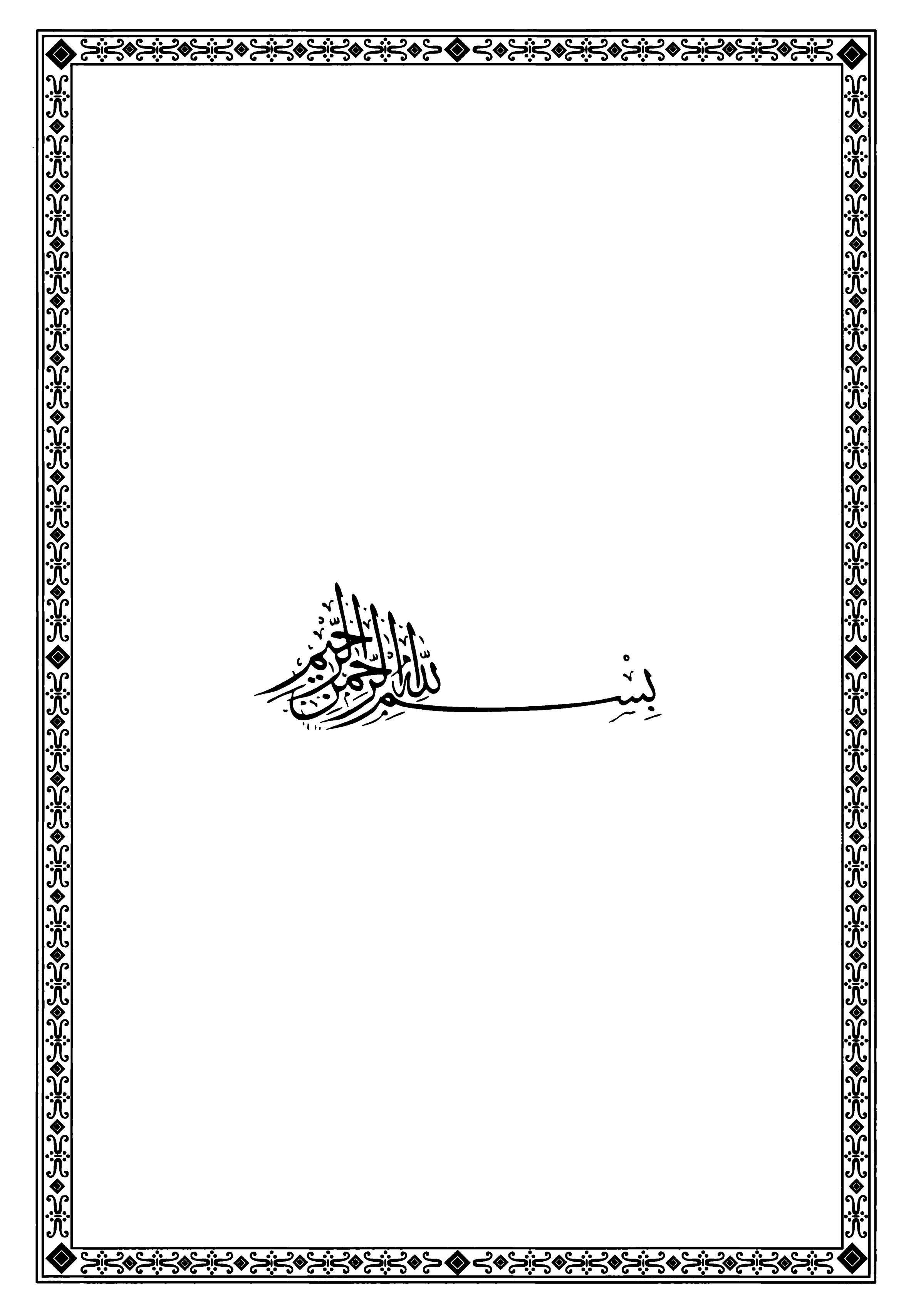
بيت القصيد في شرح كتاب التوحيد

تأليف

أ. د. أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم (سابقًا)

الجزء الثاني

دار ابن الجوزي


بسم الله الرحمن الرحيم



باب ما جاء في النشرة

عن جابر أن رسول الله ﷺ سُئل عن النشرة، فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمد، بسند جيد[(١)]، وأبو داود[(٢)]، وقال: سُئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله[(٣)].

وفي البخاري: عن قتادة: قلتُ لابن المسيب: رجل به طب، أو يُؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه[(٤)].

وروي عن الحسن: أنه قال: لا يحل السحر إلا ساحر[(٥)].

قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

الأول: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٤١٣٥) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في النشرة برقم (٣٨٦٨) وصححه الألباني.

(٣) ظاهر قول الشيخ رحمه الله: «وقال» أن هذا يعود إلى أبي داود، ولأبي داود سؤالات، للإمام أحمد، وهو كتاب مطبوع، وليس ما ذكره المصنف منها، ولا في مسائل الإمام أحمد برواية ابنه عبد الله، ولا برواية الكوسج، وغيرها. وقد نقله بعض أهل العلم عن الإمام أحمد، كابن مفلح، فإنه قال في الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٧٧): «قال جعفر: سمعتُ أبا عبد الله سئل عن النشرة فقال: ابن مسعود يكره هذا كله».

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب هل يستخرج السحر؟ (٧/ ١٣٧).

(٥) في فتح الباري، لابن حجر (١٠/ ٢٣٣) بلفظ: «وكان الحسن يكره ذلك يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر». وفي الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/ ٧٧) بلفظ: «وقد قال الحسن: لا يطلق السحر إلا ساحر».

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز[1].

الشرح

قوله: (باب: ما جاء في النشرة)؛ أي: باب ما جاء في حكمها وأنواعها؛ وذلك أن الأمر يحتمل الجواز، والمنع. فلما كان بعض أنواع النشرة منافياً للتوحيد، لما فيه من الاستعانة بالشياطين؛ وذلك بالوقوع في السحر نفسه، ناسب إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد؛ لأن النشرة قد تكون من فعل الشياطين.

والنشرة في اللغة: مأخوذة من النشر وهو التفريق؛ والنشر عكس الطي، فالنشر يدل على السعة، ضد الضيق والحرج؛ ولهذا قال عن أصحاب الكهف: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ [الكهف: ١٦]؛ وذلك أن المصاب يكون في كرب وضيق، فإذا تداوى فكأنما فُرِّق ذلك عنه فانتشر بعد أن كان مضيقاً عليه. **فالنشرة**: نوع من العلاج؛ يكون بالرقية، ويكون بغيرها، فمنه: ما يكون مباحاً، ومنه: ما يكون محرماً.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما ذكر المصنف رحمه الله ما يتعلق بالسحر، وبيّن شيئاً من أنواعه، وذكر الكهان وما يصدر منهم، أتبع ذلك بهذا الباب المتعلق بالنشرة، فإن الناس إذا أصابهم السحر، طفقوا يبحثون عن حَلِّه، والخلاص من شره، فربما وقعوا في النشرة الشركية.

قوله: (عن جابر: أن رسول الله ﷺ سُئل عن النشرة، فقال: «هي من عمل الشيطان» رواه أحمد، بسند جيد) (أل) في (النشرة) عهدية، فلهذا بادر النبي ﷺ بالقول: بأنها من عمل الشيطان؛ لأن النشرة المسؤول عنها هي ما كان معهوداً في الجاهلية من حل السحر بسحر مثله، فيحصل بالاستعانة بالشياطين، واستجدائهم، وتقديم النذور والقرابين لهم، فيقعون في الشرك الأعظم، الذي

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ٣٠١).

حرمه الله تعالى. فكان جواب النبي ﷺ منصباً على نوع من النشرة، وهي التي كانت معروفة في الجاهلية.

قوله: (وأبو داود، وقال: سُئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله): أبو داود السجستاني رحمه الله من تلاميذ أحمد، فسنده إليه متصل. فأخبر الإمام أحمد، بما بلغه من العلم، أن ابن مسعود رضي الله عنه يكره ذلك. وقد تقدم أنه يكره التمائم التي تكون من القرآن، لكن هذه الكلية التي ذكرها الإمام أحمد رحمه الله تُحمل على النوع الممنوع فقط، ولا يدخل فيها الرقى، والأدعية الشرعية، قطعاً. وقد سُئل الإمام أحمد رحمه الله عن رجل يزعم أنه يحل السحر، فقال: قد رخص فيه بعض الناس، قيل: إنه يجعل في الطنجير ماءً، ويغيب فيه، ويفعل كذا، فنفض يده كالمنكر، وقال: ما أدري ما هذا؟ قيل له: فترى أن يُؤتى مثل هذا يحل السحر؟ قال: ما أدري ما هذا[1]، فتبرأ أحمد رحمه الله، من هذا الصنيع، ولم يقره؛ لأن فيه شعوذة. ومثل هذا كان موجوداً في هذه البلاد، وربما لا يزال، ويسمونه «صب الرصاص»، فإذا أصيب الإنسان بعين، يأتون إلى هذا المصاب ويضعون فوق رأسه إناءً، ويصبون فيه رصاصاً ذائباً، ويزعمون أن صورة العائن تتشكل فيه! فهذا لا يحل، وهو ضرب من الشعوذة والسحر والاستعانة بالشياطين.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة، حيث تضمن تحريم النشرة، وأنها من عمل الشيطان، فهي منافية للتوحيد.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن النشرة الجاهلية.

٢ ـ أن للشيطان عملاً، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقال: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: ١٥].

---

(١) الكافي في فقه الإمام أحمد (٤/٦٦)، والمغني، لابن قدامة المقدسي (١٠/١١٣).

٢ ـ مشروعية سؤال العلماء في النوازل.

٣ ـ عزو المفتي الجواب إلى من هو أعلم منه.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: **(وفي البخاري عن قتادة)** هو: قتادة بن دعامة السدوسي، ثقة من حفاظ التابعين، كانت وفاته سنة (١١٨هـ).

قوله: (قلتُ لابن المسيب: رجلٌ به طب)؛ أي: سحر، ولكن يسمونه طِبّاً من باب التفاؤل، كما جاء في حديث سحْر النبي ﷺ: «**فقال أحدهما للآخر: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب**»(١)؛ أي: مسحور، فكانوا يسمون من به سحر مطبوب، أو به طب، كما كانوا يسمون اللديغ سليماً، تفاؤلاً بالسلامة.

قوله: (أو يُؤَخَّذُ عن امرأته) (يُؤَخَّذ) بالتضعيف، وضُبط بالتخفيف، والمعنى واحد؛ أي: أنه يصرف عن امرأته، وهذا من أعمال السحرة، فيجعلون الزوجة تتعلق بزوجها، أو يجعلون الزوج يتعلق بزوجته تعلقاً غير طبيعي، ويسمى «العطف»، أو يجعلون الزوجة تنفر من زوجها، أو يجعلون الزوج ينفر من زوجته نفرة عجيبة، بحيث لا يطيق أحدهما قرب الآخر، ولا رائحته، ولا مسه، ويلحقه من جراء ذلك ألم عظيم، ويسمى «الصرف»، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] وهذا كله من أعمال السحر الشائعة قديماً وحديثاً.

ومن الإشاعات التي تقولها العامة، ولا دليل عليها: أن من عقد شيئاً عند عقد النكاح، فإنه يؤدي إلى صرف الزوج عن زوجته، حتى إنهم يكرهون أن يشبك الإنسان أصابعه أثناء عقد النكاح، لكن هذا لا دليل عليه.

قوله: (أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع، فلم ينه عنه): هذا يدل على أن ابن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ لا يرى بأساً بالنشرة، لكن يظهر من جوابه أنه لحظ أن النشرة نوعان: منها ما ينفع، ومنها ما يضر، فسوَّغ ما ينفع؛ وذلك أن الله تعالى قد قال في آية السحر: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده برقم (٣٢٦٨)، ومسلم في كتاب السلام، باب السحر برقم (٢١٨٩).

وأما قول بعض الفقهاء: لا بأس بحل السحر بسحر مثله! فلا يسلم، ففي الحديث: «**إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِي حَرَامٍ**»(١)، وعن ابن مسعود موقوفاً: «إِنَّ اللهَ لَمْ يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فِيمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ»(٢).

قال ابن قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «فأما الذي يحل بالسحر؛ فإن كان بشيء من القرآن، أو شيء من الذكر، والأقسام، والكلام المباح، فلا بأس به. فإن كان بشيء من السحر، فقد توقف أحمد عنه، قال الأثرم: سمعت أبا عبد الله يسئل عن رجل يزعم أنه يحل السحر، فقال: قد رخص فيه بعض الناس، قيل لأبي عبد الله: إنه يجعل في الطنجير ماءً، ويغيب فيه، ويعمل كذا، فنفض يده كالمنكر، وقال: ما أدري ما هذا، قيل له: فترى أن يؤتى مثل هذا يحل السحر؟ فقال: ما أدري ما هذا. وروي عن محمد بن سيرين، أنه سئل عن امرأة تعذبها السحرة، فقال رجل: أخط خطّاً عليها، وأغرز السكين عند مجمع الخط، واقرأ القرآن. فقال محمد: ما أعلم بقراءة القرآن بأساً على حال، ولا أدري ما الخط والسكين. وروي عن سعيد بن المسيب، في الرجل يؤخذ عن امرأته، فيلتمس من يداويه، فقال: إنما نهى الله عما يضر، ولم ينه عما ينفع. وقال أيضاً: إن استطعت أن تنفع أخاك فافعل. فهذا من قولهم يدل على أن المعزِّم ونحوه، لم يدخلوا في حكم السحرة؛ لأنهم لا يسمون به، وهو مما ينفع ولا يضر»(٣). فهذه ثلاثة آثار عن السلف:

ـ فأما المروي عن أحمد رَحِمَهُ اللهُ، فليس في السؤال أنه يحل السحر بالسحر! وليس فيه ما يدل على التوقف؛ بل فيه ما يدل على الإنكار والتبرؤ: (فنفض يده كالمنكِر، وقال: ما أدري ما هذا، قيل له: فترى أن يؤتى مثل هذا يحل السحر؟ فقال: ما أدري ما هذا).

ـ وأما المروي عن ابن سيرين، فإنه أبى أن يقر غير القرآن، وبرأ من الخط والسكين.

ـ وأما المروي عن ابن المسيب، فإنه يدل على رفض السحر؛ لأنه يضر ولا ينفع، كما قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم

---

(١) أخرجه ابن حبان برقم (١٣٩١)، وحسنه الألباني في غاية المرام (٣٠، ٦٦).
(٢) أخرجه البخاري في باب شراب الحلواء والعسل (٧/ ١١٠).
(٣) الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/ ١١٧).

بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ [البقرة: ١٠٢]، وإنما سوغ ما ينفع. واختلاف الاصطلاحات لا يغير الحقائق، فلو سمي الساحر «معزِّماً» أو غير ذلك، فالحكم واحد.

لكن قد يطلق بعضهم النشرة على ما لا يدخل في حدها، فإن النشرة: حل السحر بسحر مثله، فلو قصد من يدله على موضع السحر، أو يستخرجه له، دون أن يحله بسحر، فإن ذلك لا يدخل، بالضرورة، في النشرة الشيطانية، وإنما يلتحق بمسألة الاستعانة بالجن، وهل يمكن أن تقع على وجه غير شركي، أم لا.

قوله: (وروي عن الحسن أنه قال: «لا يحُل السحر إلا ساحر») هذا من الحسن حكم بمنع النشرة، إذا وقعت على سبيل السحر؛ إذ السحر محرم، منهي عنه، ومن موارد الشرك بالله، فلا يقدر على حل السحر إلا ساحر، والساحر لا يمكن أن يؤدي عمله إلا بالاستعانة بالشياطين، وذلك ممنوع.

فأراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ من نقل هذه النصوص أن يُبيّن اختلاف المنقول عن السلف في جواز النشرة، التي هي حل السحر عن المسحور، فظاهر كلام سعيد بن المسيب: الجواز، وظاهر كلام الحسن: المنع، ثم عقّب على ذلك بكلام جامع مبين، لابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يرفع هذا الإشكال، حيث قال ابن القيم: «النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

الأول: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز»[1].

وهذا هو فصل الخطاب في هذه المسألة، فيقال النشرة **نوعان**:

أحدهما: ما وقع على سبيل الشرك بالله، والتقرب للشيطان، من قبل الناشر والمنتشر، فهذا لا يحل بحال؛ لقوله: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤/ ٣٠١).

عليكم»[١]، وهؤلاء السحرة يطالبون من أتاهم بأمور تكشف عن خبث طويتهم، فأحياناً يطالبونه ـ والعياذ بالله ـ بتلويث المصحف، ووضعه في القاذورات، أو ذبح شاة أو تيس أو ديك أسود، ولا يذكر اسم الله عليه، فيقع الذبح لهذا الجني، الذي يستعينون به، أو يطالبونه بإحراق البخور تعظيماً للجني المعظم عندهم، لكي ينفذ له ما أراد، فكل هذا من الشرك الأكبر.

ثم إنه يترتب على تسويغ حل السحر بالسحر، مفاسد عديدة، **منها**:

١ ـ مصادمة النصوص الصحيحة، الواردة في تحريم إتيان السحرة، كما تقدم، ومنها ما جاء في حديث معاوية بن الحكم: «وَإِنَّ مِنَّا رِجَالاً يَأْتُونَ الْكُهَّانَ، قَالَ: «**فَلَا تَأْتِهِمْ**»»[٢].

٢ ـ ما ورد بخصوص النشرة، وأنها (من عمل الشيطان) بإطلاق.

٣ ـ رواج سوق السحر والشعوذة، وتعلق العامة بهم، وانصرافهم عن الطرق الشرعية.

٤ ـ أكل أموال الناس بالباطل.

٥ ـ استزلال المصاب إلى الوقوع في الشرك، بذبح، أو نذر، أو قول، أو فعل، منافٍ للإيمان.

٦ ـ سوء العاقبة، في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩].

الثانية: ما وقع بالعوذ الشرعية، والحروز الإيمانية، فهذا مشروع، والله تعالى لم يدع عباده دون مخرج؛ بل أمرهم بالأسباب الشرعية، والأدوية الحسية، وقد جاء في الحديث: «**ما أنزل الله داء، إلا قد أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله**»[٣]، وقال الله ﷻ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأشربة، باب شراب الحلواء والعسل (٣٢٨/١٧) موقوفاً على ابن مسعود. وأخرجه مرفوعاً البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٩٧١١) وصحح وقفه الألباني في غاية المرام (ص٣٦) (٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في باب: تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، برقم (٥٣٧).

(٣) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٣٥٧٨) وقال محققو المسند: «صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن».

هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧]؛ أيّاً كان ذلك الضر؛ لأن (ضر) نكرة جاءت في سياق الشرط، فتدل على العموم. فإذا قوي اليقين عند العبد المبتلى بالعين أو بالسحر، بأن الله ﷻ هو الذي يجيب الدعوات، ويكشف الكربات، فإن الله ﷻ يستجيب له، فهو المدبر سبحانه، ولو شاء أتلف مادة السحر أيّاً كانت، وأينما كانت، ولو كانت مدفونة في قبر، أو ملقاة في قعر البحر، أو غير ذلك. فعلى العبد أن يفعل الأسباب الشرعية؛ كالرقى والدعاء، والأسباب الحسية؛ كالأدوية المباحة، كما قال ابن القيم رحمه الله، فيرقي نفسه، أو يرقيه غيره، ويحافظ على الأوراد. وإذا كان الأمر يتعلق بمعاناة عضوية، فيتناول الأدوية المناسبة.

فالواجب: التوكل على الله ﷻ، وألا يدب اليأس إلى النفس، وكثير من الناس إذا اضطرب مزاجه، أو أصابه أدنى عارض نفسي أو عضوي، تبادر إلى ذهنه: أنه قد عُمل له عمل، أو أصابته عين. والعين حق، والسحر حق، لكن لا يجوز للإنسان أن يعتمد على الظنون بلا بينة؛ بل عليه أن يفعل ما في وسعه، وما أتاح الله له من الأسباب. وأما القطع بشيء من هذه الأشياء دون دليل وبينة، فلا؛ لأنه يفتح على الإنسان باب التوهم، وسوء الظن بالمسلمين.

وبعض الرقاة الجهلة ـ وللأسف ـ يصنع هذه الأوهام؛ فيأتيه الرجل أو المرأة، يعاني مرضاً ما، فيقول له: وقع لك كذا وكذا، ويأتي بالعجائب؛ يقول: دخل بك اثنان من الجن، أو ثلاثة، حتى قال أحدهم: دخلت فيك قبيلة! فيخرج من أتى هؤلاء بعلة، بألف علة! ويصاب بالانهيار والتوتر البالغ. فمن اشتغل بالرقية، فليس مطلوباً منه أن يقدم تشخيصاً لما جرى؛ لأن هذا أمر غيبي، لا يعلمه إلا الله، وإنما عليه أن يقرأ على المريض، وينفث، كما قال النبي ﷺ: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل**»[1]، ويوصيه بالأوراد الشرعية، والتوكل على الله، ويطمئن قلبه، ويذكره بأنه لا يصيبه إلا ما كتبه الله له.

ولا يجوز للراقي أن يتباهى بإخبار المَرقي بما جرى له، وما وقع منه؛ بل إن هذا مدعاة إلى الشك في هذا المعالج، فربما كان يستعين بالجن. فلا يقال: هذه عين، وهذا سحر، إلا بيقين، أو بقرينة قوية. ومن شأن ابن آدم أن يصاب

---

(١) سبق تخريجه.

بهذه الأعراض، فليس كل ما يقع من الآفات والأعراض مرده إلى العين أو السحر، وإن كانت العين حقاً، والسحر كذلك، لكن لا بد من دليل؛ ولهذا لما جرى لبعض أصحاب النبي ﷺ أنه عرض، قال النبي ﷺ: «**هل تتهمون له أحداً؟**» قالوا: نتهم عامر بن ربيعة، فدعا رسول الله ﷺ عامراً، فتغيظ عليه، قال: «**علام يقتل أحدكم أخاه؟ ألا بَرَّكت؟! فاغتسل له**» فغسَّل له عامر وجهه، ويديه، ومرفقيه، وركبتيه، وأطراف رجليه، وداخلة إزاره، في قدح، ثم صب عليه، من ورائه، فراح سهل مع الناس ليس به بأس[(١)]. فالواجب الحذر من الوقوع في الوهم والشك، وتوزيع التهم على المسلمين، فإن هذا باب لو دخل فيه الإنسان لن يخرج منه سالماً، وسيقع في دوامة من الظنون، وربما أصابه من الهم والغم، أكثر مما لو أصابه سحر حقيقي، أو عين حقيقية.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

لقول النبي ﷺ: «**هي من عمل الشيطان**» والمراد بها نشرة الجاهلية.

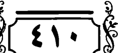
الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه عما يزيل الإشكال.

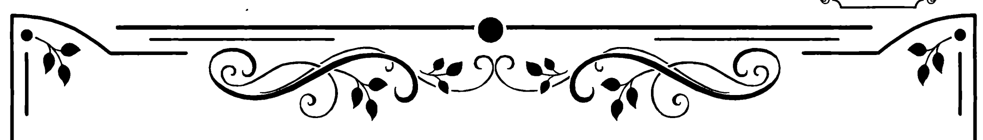
أن المنهي عنه هو ما كان فيه استعانة بالشياطين، والمرخص فيه هو ما وقع على وجه شرعي، من الأدوية المباحة، والرقى والتعويذات الشرعية.

* * *

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب، باب العين برقم (٣٥٠٩)، والنسائي في السنن الكبرى في وضوء العائن برقم (٧٦١٩) وصححه الألباني.





باب ما جاء في التطير

وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [يس: ١٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر»[(١)]، أخرجاه. زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول»[(٢)].

ولهما: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل» قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»[(٣)].

ولأبي داود بسند صحيح: عن عروة بن عامر، قال: «ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[(٤)].

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك» «وما منا إلّا، ولكن الله يُذهبه بالتوكل» رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب لا هامة برقم (٥٧٥٧)، ومسلم في كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر... (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر... برقم (٢٢٢٠)، (٢٢٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب لا عدوى برقم (٥٧٧٦)، ومسلم في كتاب السلام، باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم برقم (٢٢٢٤).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في الطيرة برقم (٣٩١٩) وضعفه الألباني.

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الطب، باب في الطيرة برقم (٣٩١٠)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب السير، باب ما جاء في الطيرة برقم (١٦١٤)، وابن ماجه في كتاب الطب، =

ولأحمد: من حديث عبد الله بن عمرو: «مَن ردَّته الطِّيَرة عن حاجته فقد أشرك»، قالوا: وما كفارة ذلك؟ قال: «أن يقول: اللَّهُمَّ لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[1].

وله: من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردَّك»[2].

الشرح

📖 **قال المصنف** رحمه الله:

(**باب: ما جاء في التطير**)؛ أي: من الوعيد؛ إذ أن التطير مذموم كله؛ بلا تفصيل. وهو مأخوذ من الطير، وأصل ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يتشاءمون بالطيور، فإذا أراد أحدهم سفراً، أو عملاً، زجر الطير، فإن ذهبت يميناً تفاءل، وإن ذهبت شمالاً تشاءم. ثم إنه توسع مدلول التطير حتى صار في الاصطلاح أعم من ذلك، فصار يشمل: التشاؤم بكل مرئي أو مسموع، وزاد شيخنا ابن عثيمين رحمه الله: «أو معلوم»[3]، وهذا من المواضع القليلة التي يكون فيها التعريف الاصطلاحي أوسع من التعريف اللغوي؛ إذ العادة أن اللغة أوسع من الاصطلاح. **فمنه:**

- التطير بالمرئي: كإنسان خرج يريد سفراً، فقابل إنساناً أعورَ أو أعرجَ، فوقع في قلبه أن هذه سفرة مشؤومة، فترك السفر.

- التطير بالمسموع: كمن خرج يريد سفراً، فسمع نعيق بوم، أو صياح غراب، أو قائلاً يقول لآخر: يا خائب، أو: يا خاسر، فعدل عن السفر.

- التطير بالمعلوم: كمن خرج يريد سفراً، فبلغه خبرٌ سيئ، فتشاءم به، فرجع عن قصده.

= باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة برقم (٣٥٣٨) وصححه الألباني.

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٧٠٤٥) وقال محققو المسند: «حديث حسن».

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٨٢٣) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف».

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٥١٥).

⁂ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كانت الطيرة تعلُّقٌ بسبب لم ينصبه الله سبباً؛ لا حسّاً، ولا شرعاً، كانت من الشرك المنافي للتوحيد، فعقد المصنف هذا الباب للتحذير منها بجميع صورها.

فلا يجوز أن يعلق الإنسان أفعاله بأمور موهومة، لا صلة لها مُتعقَّلة بما هو بصدده؛ فإن هذا كله من التطير. وقد جاءت الشريعة لتربي المؤمنين على أن يقيموا تصرفاتهم، وأعمالهم، على البينة، وألا تتلاعب بهم الظنون والأوهام، فتتعطل مصالحهم.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ المقصود آل فرعون؛ لأنهم تطيروا بموسى، كما قال الله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١] فرد الله عليهم بقوله: ﴿أَلَآ﴾ أداة تنبيه ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿طَٰٓئِرُهُمْ﴾؛ أي: ما قضي عليهم من خير أو شر ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: من عند الله ﷻ، ولا شأن لموسى وبني إسرائيل به. قوله: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ القائلون هم الرسل الذين بعثوا أهل قرية، فقال لهم أهلها: ﴿تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨] فأجابوهم بأن حظكم، وما ينوبكم من خير أو شر، معكم؛ أي: مكتوب في كتابكم، ولا شأن لنا به، وسببه ما يصدر منكم من أفعال سيئة، وتتمتها: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾؛ أي: ألِكوننا وعظناكم، ودعوناكم، جعلتم هذا مدعاة للتطير؟! ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: حقيقة الحال أنكم مسرفون. والسرف: مجاوزة الحد في كل شيء.

والآيتان تدلان على أنّ التطير موجود في الأمم السابقة، في آل فرعون، وفي النصارى؛ لأن أصحاب هذه القرية كانوا بعد عيسى عليه السلام.

⁂ مناسبة الآيتين للباب:

مطابقتان للترجمة؛ لأن فيهما ذم التطير، وأنه من عمل الكفار.

فوائد الآيتين:

١ ـ أنّ التطير من أعمال الجاهلية.

٢ ـ وجوب الإيمان بالقدر السابق.

٣ ـ أن المعاصي هي السبب الكوني والشرعي للمصائب والشؤم؛ لقول الرسل: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾؛ أي: بسبب أعمالكم وقع ما تكرهون، وقولهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾؛ أي: أنّ إسرافكم بالمعاصي والذنوب، أوقعكم في هذه المحاذير.

٤ ـ ذم الجهل؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾ فالجهل من أعظم الأسباب التي توقع الناس في الشرك والبدع.

٥ ـ الأذى القولي والمعنوي الذي يلقاه الدعاة إلى الله ﷻ من مخالفيهم، فآل فرعون يتهمون موسى ومن معه بما ليس فيهم، وما ليس من شأنهم، وأهل القرية يتهمون رسلهم بأنهم شؤم عليهم! فهذا من أساليب المخالفين للتحريض على الدعاة والمصلحين. فلا غرابة أن يتكرر مثله لأهل العلم، والحسبة، فيصمهم مخالفوهم بألقاب السوء، وهذا مسلك قديم.

قوله: (وعن أبي هريرة ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر»، أخرجاه. زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول»). هذه ستة أمور موهومة، نفاها النبي ﷺ، لكن نفيه لها ليس نفي وجود؛ بل نفي تأثير.

قوله: (لا عدوى) العدوى: اسم من الإعداء، وهو مجاوزة العلة من شيء إلى شيء؛ أي: انتقال العلة والمرض من بدن إلى بدن؛ من آدمي إلى آدمي، أو من حيوان إلى حيوان، أو من حيوان إلى إنسان. والعدوى التي نفاها النبي ﷺ هي العدوى التي كان يعتقدها أهل الجاهلية، وهي أنها تُؤثر بطبعها. ولهذا لما استشكل من سمع قوله: **(لا عدوى)**، قال: يا رسول الله، البعير الأجرب يكون في الإبل، فتجرب الإبل كلها، فقال رسول الله ﷺ: **«فمن أجرب الأول؟»**[(١)]، فدل ذلك على أن العدوى التي نفاها النبي ﷺ هو اعتقاد أنّ العدوى مؤثرة بطبعها، دون تقدير الله، وأما ما كان على سبيل السببية، فهذا لا يُنكر؛ ولذا قال النبي ﷺ: **«لا يورد ممرض على مصح»**[(٢)]، وهذا إشارة منه ﷺ للحجر الصحي، للحد من العدوى، وتفشي الوباء.

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر في أبواب القدر، باب ما جاء لا عدوى ولا هامة ولا صفر برقم (٢١٤٣) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة... برقم (٢٢٢١).

والجمع بين قول النبي ﷺ: **(لا عدوى)** وبين قوله ﷺ: «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**»[(١)]؛ أن قوله: **(لا عدوى)** أراد به نفي اعتقاد أهل الجاهلية أن العدوى مؤثرة بذاتها دون الله ﷻ، وقوله: «**وفر من المجذوم فرارك من الأسد**» دليل على إثبات الأسباب، ووجوب التوقي من العدوى.

قوله: (ولا طيرة) تقدم بيانها، ويلتحق بذلك التشاؤم بالأشخاص، والبقاع، وكل شيء من الأشياء التي ليس لها صلة بالأمر المعين. وهذا محل الشاهد من الحديث.

قوله: (ولا هامة) الهامة: بتخفيف الميم، قيل: إنها البوم خاصة؛ إذ كانوا يتشاءمون من البوم، ويرون أنه نذير شؤم، فمن وقعت البوم عنده، أو على طرف جداره، قالوا: دنا أجله! ولا علاقة لهذا الطائر بالآجال، إنما هو طائر طار، فوقع على أصل جدار، فكيف يكون هذا شهادة وفاة في حق فلان أو علان؟! هذا من السفه.

وكان من خرافات أهل الجاهلية: أن القتيل يتخلق من عظامه طير يطير في السماء، فيصيح، حتى يُؤخذ بثأره! ولا يمكن أن ينشأ من عظام الميت طير يطير.

قوله: (ولا صفر) اختلف في المراد به: فقيل: داء يصيب البطن، وقيل: هو الشهر المعروف؛ إذ كان أهل الجاهلية يتشاءمون به، وقيل: أراد به النبي ﷺ النسيئة، التي نهى الله تعالى عنها في كتابه، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: ٣٧] فكان أهل الجاهلية يستطيلون توالي الأشهر الحرم المتوالية، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، فلا يغزو بعضهم بعضاً، ولا ينهب بعضهم بعضاً، فتضيق بهم الحال، فكان يقوم منهم قائم في موسم الحج، ويقول: أنسأنا المحرم إلى كذا وكذا، فينقلونه إلى صفر؛ لكي يكون لهم فسحة بين الأشهر الحرم المتوالية. ولا شك أن النسيء محرم، وكفر، كما وصف الله، لكن هذا القول لا يناسب السياق؛ إذ أنّ النبي ﷺ ذكر أموراً منافية

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٣٧٧٢)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٩٧٢٢) وقال محققو المسند: «حديث صحيح».

للتوحيد، فقال: (**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**) فالمناسب أن يكون المراد التشاؤم بشهر صفر.

وبعض الناس يداوي العلة بعلة، ويقابل البدعة ببدعة، فإذا ذكر صفر قال: صفر الخير، ولا يصح أن نقول: صفر الخير، ولا صفر الشر! فإن صفر ظرف زمان، وشهر من أشهر الله ﷻ، لا يضاف إلى خير ولا إلى شر، إلا بدليل، بخلاف شهر رمضان، فنقول: المبارك؛ لأن بركته ظاهرة بشرعية الصيام، وإنزال القرآن، فلا نعلق بشهر وصفاً لم يعلقه الله تعالى به.

قوله في زيادة مسلم: (**ولا نوء**) سيأتي باب ما جاء في التنجيم، وباب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء، والمراد هنا نفي اعتقاد تأثير الأنواء بنفسها.

قوله: (**ولا غُول**) الغول: بالضم، واحد الغيلان، وهو نوع من الجن والشياطين، تتراءى للمسافرين، وتغولهم؛ أي: عن الطريق؛ ولهذا نهى النبي ﷺ أن يسافر الرجل وحده، فقال: «**الراكب شيطان، والراكبان شيطانان، والثلاثة رَكْب**»[1]، فإنه قد يعرض له شيء من هذه الأمور المخوفة، وهذا أمر تواتر الناس على حكايته من خلال أسفارهم؛ أنه يظهر لهم. فالذي نفاه النبي ﷺ اعتقاد كونها تُؤثر بنفسها، فلا يمكن أن تُستقل بالتأثير على أحد، أو تهلكه دون الله ﷻ. فكل هذا النفي من النبي ﷺ تقويةٌ وتعزيزٌ لنفوس المؤمنين، فلا تتلاعب بهم الأوهام، ولا تصرفهم عن مصالحهم.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من التصريح بنفي الطيرة، المتضمن للنهي عن التطير.

فوائد الحديث:

١ ـ أن هذه الأمور الستة، المنفية، وما في حكمها، لا تُؤثر استقلالاً.

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر في أبواب الجهاد، باب ما جاء في كراهية أن يسافر الرجل وحده برقم (١٦٧٤)، وأبو داود في كتاب الجهاد، باب في الرجل يسافر وحده برقم (٢٦٠٧)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب السير النهي عن سير الراكب وحده برقم (٨٧٩٨) وحسنه الألباني.

٢ ـ اطراح الأوهام والخرافات، واعتماد الدلائل والبينات.

٣ ـ وجوب التوكل على الله ﷻ في الأمور كلها.

قوله: (ولهما: عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة») قد تقدم بيانه.

قوله: (ويعجبني الفأل) الفأل مهموز، وهو: ما يَسُر ويُفْرِح، بخلاف الطيرة؛ فإنها ما يسوء ويحزن؛ فالفأل يكون في الأمور المحببة، والطيرة في الأمور المستكرهة.

قوله: (قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة») فسّر النبيُّ ﷺ الفأل بنوع من أنواعه، فالكلام الحسن الطيب يبعث على السرور، فمن يسمع كلمة: فلاح، أو نجاح، أو خير، أو سعة، أو طمأنينة، أو سكينة مثلاً، يستبشر بها؛ ويستروح لها؛ لأنها ألفاظ حسنة، كما أن سماع أضدادها؛ كالخيبة، والخسار، والشر، والضيق، والكرب، والقلق، يبعث على الانقباض بالفطرة.

❋ مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيه من ذم الطيرة، ومدح الفأل.

فوائد الحديث:

١ ـ نفي استقلال العدوى والطيرة بالتأثير.

٢ ـ أن الفأل الحسن ليس من الطيرة المنهي عنها.

٣ ـ أن من أنواع الفأل «**الكلمة الطيبة**».

٤ ـ الاستبشار بالكلمات الطيبة، والأحوال الحسنة، وأنه من حسن الظن بالله ﷻ.

٥ ـ طيب نفس النبي ﷺ، وإعجابه بالفأل.

قوله: (ولأبي داود، بسند صحيح، عن عروة بن عامر) وفي بعض النسخ: «عقبة بن عامر» وهو تصحيف، والصواب: عروة بن عامر، مختلف في صحبته. ذكره ابن حبان في ثقات التابعين. فقول المصنف: إنه بسند صحيح، غير مسلَّم؛ لأن عروة ليست له صحبة، فيكون الحديث مرسلاً.

قوله: (ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ)؛ أي: جرى السؤال عنها، أو الكلام فيها.

قوله: (أحسنها الفأل) هذا دليل على أن الفأل نوع من الطيرة، لكنه من الطيرة الصالحة، وكأن الطيرة قد تستعمل في كل أمر متوقع، فيكون الفأل مشمولاً بالمعنى العام، فأخرجها النبي ﷺ واستثناها من الطيرة المذمومة.

قوله: (ولا ترد مسلماً)؛ أي: لا تحول بينه وبين مراده، ومسعاه.

قوله: (فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت) هذه الجمل وإن لم تثبت إسناداً، فهي جمل صحيحة المعنى، وقد دل عليها الكتاب والسُّنَّة؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ لأبي موسى: «**ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة**» فقال: بلى، يا رسول الله، قال: «**قل: لا حول ولا قوة إلا بالله**»[(١)]، فلا حرج أن يدعو الإنسان بهذه الكلمات، لا على سبيل الدوام، وإنما يدعو بها أحياناً؛ ليخرج ما قد يقع في نفسه من إلقاء الشيطان، وكقول النبي ﷺ في مناجاته لربه: «**لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك**»[(٢)]، فلا يأتي بالحسنات إلا الله، لا يكون من الله إلا خير، إما لذاته، وإما لمآله؛ ولهذا قال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ [الجن: ١٠] فحين ذكروا الشر أتوا بالفعل الذي لم يسم فاعله، فقالوا: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ﴾، تأدباً مع الله، ولما ذكروا الرشد، أتوا بالاسم الظاهر قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾. فالشر لا يُنسب إلى الله تعالى، وإنما يكون الشر في المقضي، لا في القضاء، فالقضاء من الله كله خير، لكن المقضي يتنوع إلى خير وشر، أما باعتبار صدوره من الله تعالى فإنه خير قطعاً؛ وذلك باعتبار مآلاته، كما لا يملك منع وقوع السيئات إلا الله، كما لا يملك رفعها بعد وقوعها إلا هو سبحانه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر برقم (٤٢٠٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر برقم (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٧١).

قوله: (ولا حول ولا قوة إلا بك)؛ أي: لا تحوُّل لنا من حال إلى حال، ولا قوة على ذلك إلا بالله وحده، فالباء ها هنا للاستعانة.

⌘ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لاستثناء الفأل من عموم الطيرة، وبقائها على أصل الذم، والنهي عن العمل بها، ومدافعتها بالدعاء المناسب.

فوائد الحديث:

١ ـ إبطال الطيرة، وبيان ما تُستدفع به من الذكر.

٢ ـ أن ما يقع في القلب من الطيرة لا يضر صاحبه إلا أن يتبعه.

٣ ـ أن الفأل نوع من الطيرة، لكنه حسن.

٤ ـ وجوب التوكل على الله تعالى، وتعلق القلب به، وهذا من أعظم أسباب السعادة: أن يأوي القلب إلى الله ﷻ، ولا تتقاذفه أمواج الظنون والأوهام؛ فمن الناس من يتدفق قلبه ليل نهار، فكلما سمع إشاعة، أو حكاية، وقع في هم وغم. أما المؤمن الذي يعلم أنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذن الله، وأن كُلَّ ﴿شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: ٨] فقلبه مطمئن، يعلم أن هذا الكون يسير وفق نظام بديع، ليس خبط عشواء، ولا ضربة لازب؛ بل وفق حكمة مقدرة من عند الله ﷻ، فيأوي إلى ركن شديد.

قوله: (وعن ابن مسعود مرفوعاً)؛ أي: لأبي داود، إلى النبي ﷺ لأن مقامه رفيع. قوله: (**«الطيرة شرك، الطيرة شرك»**) كررها النبي ﷺ مرتين، وهذا من أساليب التعليم. قوله: (**«وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود، والترمذي، وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود**) وهذا أقرب، ويُسمى هذا في مصطلح الحديث: (مُدرج)، وهو أن يحدث المحدث بحديث ثم يدخل شيئاً من كلامه فيه، على سبيل البيان والتوضيح. وقد يقع الإدراج في السند، وقد يقع في المتن، وقد يقع في أوله، وقد يقع في آخره، وقد يقع في وسطه، وبسط ذلك في علم مصطلح الحديث.

فقوله: (وما منا إلا) قطع، على تقدير محذوف، وهو: وما منا إلا تطير. فمراده أن التطير خاطر بشري، يقع لعامة بني آدم، فتتأثر قلوبهم بسماع شيء، أو

رؤيته، لكنه آثر رضي الله عنه ألا يصرح بالتعبير المستكره، وهو (التطير)، فاكتفى بالقطع، اعتماداً على دلالة السياق فقال: **(وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل)**؛ أي: يهجم الخاطر الشيطاني على القلب، فما هو إلا أن يتذكر الإنسان إيمانه بالله، وتوكله عليه، فيطرده من قلبه، ويذهبه بالتوكل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وينبغي للمؤمن دوماً أن يستدعي إيمانه للتخلص من الخطرات، والشبهات، والشهوات الشيطانية، كما جرى ليوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فبرهان ربه الذي رآه هو ما قام في قلبه من تعظيم الله وخشيته، فحال بينه وبين الوقوع في الفحشاء؛ ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤] لا كما قال بعض المفسرين: إنه رأى صورة يعقوب في الجدار، عاضّاً على أصبعه! فهذا خيال لا دليل عليه، وروايات إسرائيلية لا خطام لها ولا زمام.

فإذا هجم على المرء خاطر شيطاني من الشبهات، أو الشهوات، أو الظنون، أو الأوهام، فليستدع مخزونه الإيماني، ليخرج هذا الخاطر، ويعود قلبه مثل السراج يزهر، لا يعلق به شيء من هذه الأوضار، فهذه ثمرة الإيمان وفائدته.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما في الحديث من التنصيص على أن الطيرة شرك.

فوائد الحديث:

١ ـ أنّ الطيرة شرك؛ لكنها شرك أصغر، إلا أن يعتقد أن الذي تطير به مُؤثر بطبعه، فيكون شركاً أكبر في الربوبية، أما مجرد ما يقع في النفس من انقباض، أو نحوه، فلا يبلغ الشرك الأكبر.

٢ ـ التعليم بالتكرار: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**». وقد كان النبي ﷺ يفعل ذلك أحياناً، فيكرر الكلام ثلاثاً، كما في قوله: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**»[(١)]،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور برقم (٢٦٥٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها برقم (٨٧).

قالها ثلاثاً، فينبغي للمعلم أحياناً أن يكرر الجملة؛ ليتمكن السامع من وعيها. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه»[(١)]؛ وقال معاوية بن الحكم رضي الله عنه: «ما رأيتُ معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه»[(٢)].

٣ ـ فضيلة التوكل، وأنه سبب لذهاب الطيرة. ويتحقق التوكل: بإطالة النظر والتدبر، فكلما تدبر الإنسان في قدرة الله عز وجل، وتصريفه للكون زاد يقينه وثقته في الله. وحقيقة التوكل: اعتماد القلب على الله في جلب المنافع، ودفع المضار.

قوله: (ولأحمدَ من حديث ابن عمرو) هذا الحديث ضعيف؛ لأن فيه ابن لهيعة، وابن لهيعة عبد الله بن لهيعة، أحد قضاة المسلمين، وكان رجلاً خيّراً، عالماً، صالحاً، إلا أن كتبه احترقت في آخر عمره، فصار يحدث من حفظه، فاختلط رحمه الله؛ ولهذا قيل: إن رواية العبادلة عنه مقبولة؛ لأنهم رووا عنه قبل الاختلاط، وهم عبد الله بن يزيد المقرئ، وعبد الله بن وهب، وعبد الله بن المبارك، وأضاف بعضهم عبد الله بن مسلمة، وليس بصحيح؛ لأنه صغير، والمرجح عند كثير من أهل العلم تضعيفه مطلقاً. ومنهم من يفرق بين حاله قبل احتراق كتبه وحاله بعدها.

قوله: («من ردته الطيرة عن حاجته، فقد أشرك») الطيرة قد تحمل صاحبها على ترك مصالحه بناءً على مخاوف موهومة، وهذا ضرب من الشرك.

قوله: (وما كفارة ذلك؟)؛ أي: كيف يخرج الإنسان منها، ويدفعها؟ لا أنها كفارة ككفارة اليمين.

قوله: (أن يقول: اللَّهُمَّ لا خير إلا خيرك) وهذه الجمل معناها صحيح، فالخير حقاً هو الخير الذي قضاه الله خيراً، فقد يظن بعض الناس شيئاً من الأشياء خيراً، وهو في الواقع شر.

قوله: (ولا طير إلا طيرك)؛ أي: لا قَدَر إلا قدرك؛ لأن المقصود بالطير هنا ما قضاه الله وقدره. ولم يقل: ولا شر؛ لأن الشر لا يضاف إلى الله. وقد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم برقم (٣٥٦٧)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم برقم (٢٤٩٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة، ونسخ ما كان من إباحته برقم (٥٣٧).

يظن بعض الناس شيئاً من الأشياء شرّاً، وهو في عاقبته خير، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

قوله: (**ولا إلٰه غيرك**)؛ أي: لا معبود سواك، فلا يتعلق القلب رغبة، ورهبة، وخوفاً، وطمعاً، ومحبة، وتوكلاً، واستعانة، بغيرك، ومقتضى ذلك: تحقيق العبودية لله رب العالمين.

قوله: (**وله: من حديث الفضل بن عباس** رضي الله عنه) ابن عم رسول الله ﷺ، استشهد في خلافة عمر.

قوله: (**«إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»**) هذا حديث ضعيف أيضاً، لكن وإن ضعُف إسناده إلا إن معناه صحيح، فإن الطيرة المذمومة، التي يلام فاعلها، هي ما حملت صاحبها على الترك، بسبب أمر موهوم. أما ما وقع في القلب، فلم يعمل به، معتمداً على الله عز وجل، فهو التوكل المحمود. ولا شك أنه ما من أحد إلا ويقع في نفسه شيء من هذا، فقد يخيل إليه أن هذا العمل مآله إلى سوء وفشل، فعليه أن يطرد ذلك، وأن يقدم على العمل متوكلاً على الله عز وجل، فإنه إن فعل ذلك أثمر له ثمرات عظيمة، وعاد بخير الدنيا والآخرة، وهو أمر مجرب. فليعوّد المسلم نفسه: ألا يجعل تصرفاته مبنية على الأوهام والظنون؛ بل يجعلها مبنية على الحقائق والبينات.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما تضمنه من بيان الطيرة الشركية، وبيان طريق التخلص منها.

فوائد الحديث:

١ ـ أنّ الطيرة شرك؛ لقوله: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**».

٢ ـ بيان حقيقة الطيرة الشركية؛ وهي «**ما أمضاك أو ردك**» أما مجرد الخطرات فلا تضر؛ لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا، أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ**»[1].

(١) أخرجه مسلم في باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب، برقم (١٢٧)

٣ ـ بيان الذكر الذي يستدفع به هذا الخاطر، وهو قوله: «**اللَّهُمَّ لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**» ومع ضعف هذا الحديث كما تقدم، إلا إن استعمال الإنسان لمثل هذه الأدعية الحسنة لا على سبيل الالتزام، واعتقاد الثبوت عن رسول الله ﷺ لا بأس به، فإنه لا يلزم في الأدعية أن تكون توقيفية، فللإنسان أن يدعو بكل دعاء صالح، ولكن الدعاء المأثور أفضل من غيره، شرط أن يكون المعنى صحيحاً.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **التنبيه على قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.**

لا تعارض بينهما، فالمقصود بالأولى: أنّ الله سبحانه هو الذي يقضي ويقدّر، وفي الثانية: أنّ ما يقع عليهم من أمور مستكرهة إنما هو من عند أنفسهم، وبكسبهم، فلما كذّبوا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذّبوا الرسل الذين بعثوا إلى قريتهم؛ كان ذلك سبباً في حصول البلاء عليهم، فلا تعارض، فهذه الأمور المشؤومة التي يتشاءمون منها لها أسباب، ومن أعظم أسبابها: الكفر والفسوق؛ ولهذا رد عليهم أنبياؤهم، فقالوا: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾.

الثانية **نفي العدوى.**

أي: نفي استقلالها بالتأثير، لقوله: «**لا عدوى**».

الثالثة **نفي الطيرة.**

فالطيرة غير مُؤثرة، ولا يجوز استعمالها، لقوله: «**ولا طيرة**».

الرابعة **نفي الهامة.**

إنما هي خلق من خلق الله، لا يتعلق بها ضر ولا نفع، لقوله: «**ولا هامة**».

الخامسة **نفي الصفر.**

لأن الأزمنة لا تأثير لها في السعد والنحس، لقوله: «**ولا صفر**».

السادسة **أن الفأل ليس من ذلك؛ بل مستحب.**

الفأل ليس من الطيرة المذمومة، لقوله: «**وأحسنها الفأل**» فهو مستثنىً، وكان يعجبه الفأل.

السابعة **تفسير الفأل.**

بأنه «**الكلمة الطيبة**». وهذا التفسير على سبيل المثال، لا على سبيل الحصر؛ لأن الفأل كل ما ينشِّط الإنسان على شيء محمود؛ من قول، أو فعل، مرئي، أو مسموع.

الثامنة **أنّ الواقع في القلوب من ذلك ـ مع كراهته ـ لا يضر؛ بل يُذهبه الله بالتوكل.**

لقول ابن مسعود رضي الله عنه: «وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل» فلا يضر.

التاسعة **ذكر ما يقول من وجده.**

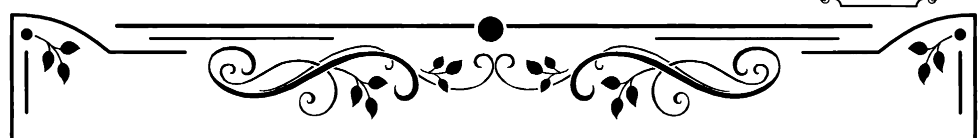
وقد ذكر أثرين، لكنهما ضعيفان: الأول أن يقول: «**اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**» والثاني: أن يقول: «**اللَّهُمَّ لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**»، لكن يصح الدعاء بهما، دون اعتقاد ثبوتهما.

العاشرة **التصريح بأن الطيرة شرك.**

لقوله في الحديث: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**».

الحادية عشرة **تفسير الطيرة المذمومة.**

وهي: «**ما أمضاك أو ردك**»، فخرج ما لم يترتب عليه أثر عملي.



باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في «صحيحه»: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن تأوّل فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلّف ما لا علم له به»(١). انتهى.

وكره قتادة: تعلُّم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما(٢)، ورخص في تعلم المنازل أحمد، وإسحاق(٣).

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مُدمن خمر، ومصدِّق بالسحر، وقاطع الرحم»(٤)، رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه.

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

عقد المصنف رحمه الله هذا الباب؛ لتعلق مسألة التنجيم بالتوحيد من **جهتين**:

الأولى: لما في التنجيم من ادعاء علم الغيب؛ وذلك مما اختص الله تعالى به، فإن المنجمين يزعمون استشراف واستطلاع ما في المستقبل، ولا يعلم الغيب إلا الله.

الثاني: لما يترتّب على ذلك من تعلُّق القلب بغير الله تعالى، فيتعلَّق

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب في النجوم برقم (٤/١٠٧).

(٢) مجموع رسائل ابن رجب (٣/١٢).

(٣) مجموع رسائل ابن رجب (٣/١١).

(٤) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٩٥٦٩) وقال محققو المسند: «حسن لغيره»، وابن حبان في كتاب الكهانة والسحر، ذكر الإخبار عن نفي دخول الجنة للمؤمن بالسحر برقم (٦١٣٧) وحسنه الألباني.

القلب بمطالع النجوم ومغاربها، ويعتقد: أن ذلك يُؤثر في مجريات الأمور والأقدار.

قوله: (باب: ما جاء في التنجيم) لم يقطع بحكم ذلك، فإن هذه الترجمة لا تفيد حكماً، وإنما تفيد الإخبار بأن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ سيسوق ما ورد من نصوص في حكم التنجيم، وذلك أنّ علم النجوم ينقسم إلى قسمين:

- علم تسيير.
- وعلم تأثير.

أما علم التسيير فهو: علم مباح، وإن كان قد وقع فيه الخلاف. والمقصود به: معرفة مطالع النجوم ومغاربها، وارتباط ذلك بالفصول الأربعة، صيفاً وشتاءً، وخريفاً، وربيعاً، وما يتعلق بذلك من زراعة المحاصيل، ومعرفة منازل القمر، والأهلة، وما يتعلق بها من العبادات، والعِدَد، وحلول آجال العقود والمعاملات. ويُسمى بعلم الفلك، فهذا العلم مباح؛ لأنه يدرك بالنظر والقياس، واستعمال الآلات والأدوات، ولم يزل الناس يشتغلون به من قديم الدهر، إلى يومنا هذا، حتى بات علماً واسعاً، لا سيما في العصور الأخيرة، لتطور الأدوات والوسائل.

أما النوع الثاني: وهو علم التأثير - زعموا -، وهو الاستدلال بحركة الأفلاك، والأجرام السماوية، على الحوادث الأرضية، فيزعم المنجمون أنه إذا طلع نجم كذا يحصل كذا، وإذا اقترن نجم كذا بكذا يحصل كذا، كما يفعل بعض السفهاء بما يسمونه «الأبراج»، فهذا النوع محرم لما فيه من ادعاء علم الغيب، ونسبة التدبير إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

قوله: (قال البخاري في «صحيحه»: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها) هذه الثلاث:

- **الأولى: (زينة للسماء)** وهذا الأمر يدركه كل أحد، فإذا تأمل الإنسان في هذه اللآلئ المنتشرة في قبة السماء، وهي تزهر وتضيء، وتأمل توزيعها وانتظامها، يجدها في غاية الجمال والزينة؛ كأنها العقد الذي يرصع الجيد، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

الثانية: (رجوماً للشياطين) ينفصل من النجوم الملتهبة شهب، أو نيازك، وهي كتل ضخمة، تشق أجواز الفضاء، فيرجم الله تعالى بها مسترقي السمع، قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠]. وقد صان الله تعالى السماء زمن تنزُّل الوحي، كما قال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٨، ٩] فهذه الشهب كانت زمن النبوة، وتنزُّل الوحي، صوناً للسماء عن استراق الشياطين للسمع. وأما ما نراه من الشهب الساقطة بعد موت النبي ﷺ وانقطاع خبر السماء، فقد تكون شهباً لرجم الشياطين، وقد تكون اشتعلت بقدرة الله ﷻ، بسبب احتكاكها بالغلاف الجوي.

• **الثالثة: (علامات يُهتدى بها)** والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فكما أن الناس في سيرهم على وجه الأرض يستدلون بالمراسم التي ينصبونها، أو الجبال الرواسي، أو غير ذلك من العلامات الثابتة، فكذلك السماء قد جعل الله تعالى هذه النجوم علامات مستديمة في أوقات معينة، أدركها الناس مع طول الملاحظة والمراقبة، وقيدوا ذلك وكتبوه، وتوارثوه، فيركب الناس البحر الخضم، أو يدخلون المفاوز والقفار المهلكة ويستدلون بالنجم القطبي، مثلاً، الذي يشير إلى الشمال، فيجعلونه عن يمينهم، أو عن شمالهم، أو أمامهم، أو خلفهم، فيستدلون به على وجهتهم.

قوله: (فمن تأوّل فيها غير ذلك) التأويل يراد به على لسان الشارع، وفي اللغة، **أحد معنيين:**

١ ـ **الحقيقة التي يؤول إليها الشيء:** لأنه مشتق من الأوْل، والأوْل هو الرجوع، وشاهد هذا المعنى قول الله ﷻ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٣]؛ أي: تحقق وقوعه في الخارج.

٢ ـ **التفسير:** ومنه قول النبي ﷺ في دعائه لابن عباس: «**اللَّهُمَّ فقهه في**

الدين، وعلمه التأويل»[(١)]. أما ما أحدثه المتكلمون بعد ذلك من تعريف التأويل من أنه: نقل الكلام عن ظاهره إلى معنى يخالف الظاهر، فهذا اصطلاح حادث، ولا مشاحة في الاصطلاح، ولكن ليست هذه لغة الكتاب والسُّنَّة، فيجب أن نفهم كلام الله وكلام نبيِّه، وكلام السلف المتقدمين على وضع اللغة.

فمراد قتادة بقوله: «فمن تأوّل فيها غير ذلك» أي: فسرها بغير ذلك، أو ادعى أنها ترجع لكذا وكذا، من دعاوى المنجمين.

قوله: (فقد أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به)؛ أي: جانب الصواب، وضيع حظه في الآخرة فيما لا طائل من ورائه في الدنيا؛ لأنه رجم بالغيب، وتخبط بلا دليل. والتكلف مذموم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝٨٦﴾ [ص: ٨٦].

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، لتضمُّنه بيان الحكمة من خلق النجوم؛ وضلال من زعم خلاف ذلك.

فوائد الأثر:

١ ـ بيان الحكمة من خلق النجوم، كما دلّ عليها صريح الكتاب.

٢ ـ الرد على المنجمين الذين يدعون فيها دعاوى باطلة.

٣ ـ الرجوع إلى كتاب الله عز وجل في استنباط العلل والحِكَم.

٤ ـ أن من اهتدى بغير هدي الله: «فقد أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

وهذا هو حال المنجمين، منذ قديم الزمان يدعون الدعاوى العريضة، ويزعمون أنهم يستدلون بحركة الأفلاك السماوية على الحوادث الأرضية، حتى إن

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٣٩٧) وقال محققو المسند: «إسناده قوي على شرط مسلم». والجملة الأولى متفق عليها: أخرجها البخاري في كتاب الوضوء، باب وضع الماء عند الخلاء برقم (١٤٣)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب فضائل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما برقم (٢٤٧٧).

بعضهم ألف كتاباً سمَّاه (السر المكتوم في مخاطبة النجوم)(١).

قوله: (وكره قتادة: تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه) في هذا إشارة إلى أن بعض السلف المتقدمين كرهوا تعلم علم التسيير؛ لأن منازل القمر يتعلق بعلم التسيير، لا بعلم التأثير؛ وذلك أن القمر ينزل في الشهر ثمانية وعشرين منزلاً عند الفلكيين، فكأن قتادة، وابن عيينة ـ رحمهما الله ـ كرها ذلك لئلا يكون ذريعة للاعتقادات الفاسدة.

قوله: (ذكره حرب عنهما) هو: حرب الكرماني، من أجلة أصحاب الإمام أحمد بن حنبل.

قوله: (ورخص في تعلم المنازل: أحمد، وإسحاق) أحمد هو: إمام أهل السُّنَّة: أحمد بن حنبل، وإسحاق هو صاحبه: إسحاق بن راهويه ـ رحمهما الله، فدلّ ذلك على أن من السلف من رخص في علم التسيير، وهذا هو الذي ينبغي؛ إذ أنه علم مفيد، نافع للناس في زراعتهم، وسفرهم، وغير ذلك، فلا حرج في تعلمه، ومن منعه من المتقدمين فإنما منعه من باب سد الذرائع، حتى لا يفضي إلى المحذور منه.

قوله: (وعن أبي موسى) هو: أبو موسى الأشعري، عبد الله بن قيس، صحابي، من فقهاء الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، ولي الكوفة، وكانت وفاته سنة (٥٠هـ).

قوله: (ثلاثة لا يدخلون الجنة) محمول على ما لم يبلغ مبلغ الكفر، فإنهم لا يدخلون الجنة مع أول الداخلين؛ بل يتعرضون للعذاب في النار بقدر كبيرتهم. فإن صدر منهم ذلك على وجه الكفر؛ كالتصديق بالسحر، أو استحلال الخمر، والقطيعة، فإنهم لا يدخلون الجنة مطلقاً، فيكون النفي على سبيل الإطلاق. وهم ثلاثة بالوصف، وليس بالعين.

قوله: (مدمن الخمر) الخمر أم الخبائث، ومدمنها هو من يعتاد شربها، ولا ينزجر عنها؛ وشارب الخمر يجلد إما حدّاً، أو تعزيراً على خلاف، وقد ورد في

---

(١) نسبه ابن تيمية في الرد على البكري (٢/٥٧٦)، للرازي باسم: (السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم).

حديث: أنّ مدمن الخمر يقتل في الرابعة[١].

قوله: (مصدق بالسحر) وقد تقدم: أنّ «**من أتى كاهناً أو عرافاً فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**»[٢]، رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه. وذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الحديث، وليس فيه ذكر للتنجيم؛ لكون التنجيم من السحر، لقوله ﷺ: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»[٣].

قوله: (قاطع الرحم) الرحم المراد بها القربى والصلة، وقطعها يكون بفعل ما ينافي وصلها، وفي «الصحيح»: «**خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرحمٰن، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ**» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ [محمد: ٢٢]»[٤].

فالرحم شجنة من الرحمٰن، مشتق من نفس المادة (رحم). فأمر الرحم عظيم، وصلة الأرحام من مقاصد الدين. وقاطع الرحم هو الذي يسيء إلى قرابته، ولا يصلهم. وقد اختلف العلماء في الرحم التي يجب صلتها، فقال بعضهم: إلى الأب الرابع؛ لأن النبي ﷺ، لم يجاوز بني هاشم بسهم ذوي القربى. فهؤلاء، ومن تناسل منهم، هم رحم الإنسان.

مناسبة الحديث للباب:

غير ظاهرة، وذلك أنّ فيه الوعيد على المصدق بالسحر، والتنجيم نوع من أنواع السحر.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ۝٢٢﴾ برقم (٤٨٣٠)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطعها برقم (٢٥٥٤).

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم شرب الخمر؛ والوعيد على مدمنها.

٢ ـ تحريم قطيعة الرحم؛ ووجوب صلتها.

٣ ـ تحريم السحر، وتصديق السحرة، ويدخل فيه تحريم التنجيم، وتصديق المنجمين؛ لأنه شعبة من السحر.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثلاث التي عدها قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

لقول قتادة: «فمن تأول فيها غير ذلك فقد أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

وهو ما نقله من كراهية قتادة وسفيان لتعلم المنازل، وترخيص أحمد وإسحاق في تعلمها.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

لقوله في الحديث: «**ومصدِّق بالسحر**»، فجعله أحد الثلاثة الذين لا يدخلون الجنة.





باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب»[1]، رواه مسلم.

ولهما: عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلّى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب»»[2].

ولهما: من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: قال بعضهم: «لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢]»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة برقم (٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم برقم (٨٤٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء برقم (٧١).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار برقم (٣٨٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء برقم (٧٣) واللفظ لمسلم.

الشرح

📖 **قال المصنف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(**باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء**)؛ أي: من الوعيد والزجر، والاستسقاء: طلب السقيا، والأنواء: جمع نوء، وهي منازل القمر؛ وذلك أن للقمر منازل، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] فله في الشهر ثمان وعشرون منزلاً، ينزل في كل ليلة منزلاً، وأهل المعرفة بالنجوم يقولون: إذا مكث النجم ثلاثة عشر ليلة غاب، وطلع رقيبه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

نسبة نزول المطر إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ من الشرك الأكبر، المنافي للتوحيد؛ لأنه شرك في الربوبية، وسؤاله من غير الله، شرك في الألوهية.

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: تجعلون حظكم ونصيبكم التكذيب، كأنه لم يكن لكم حظ ولا نصيب إلا كفر تكذيب النعمة، فكان أهل الجاهلية، أنه إذا غاب نجم وظهر رقيبه، قالوا: نمطر بنوء كذا وكذا، وإذا وافق ذلك مطراً قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا. وكان ينبغي لهم أن يشكروا نعمة المنعم على إنزال المطر، ولكنهم عكسوا القضية، ونسبوا النعمة إلى الكواكب، فما أضلهم، وأخسر صفقتهم!

فوائد الآية:

١ ـ بطلان نسبة نزول المطر إلى الأنواء.

٢ ـ أن نسبة نزول المطر إلى النوء منافٍ لشكر نعمة الله.

٣ ـ أنه كذب من وجهين؛ لأنه إخبار بخلاف الواقع، ولأنه تكذيب بالنعمة، وجحد للمنعم.

٤ ـ وجوب شكر نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ فالشكر عبادة عزيزة، فكثير من الناس يحسن عبادة الصبر، وقليل منهم يحسن عبادة الشكر؛ ولهذا قال ربنا عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]. فحين تحل البلايا والرزايا يفزع العبد إلى ربه ويدعوه، ولا شك أن هذا عبادة، ثم إذا أنعم عليه،

وفرَّج عنه: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: ٨] ولا يتفطن للنعمة إلا أصحاب القلوب الواعية، كما أثنى الله تعالى على نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣] وكما كان نبيِّنا ﷺ يقوم الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: «أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟» قال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»(١). فعلى المؤمن أن يتفطن لشكر المنعم، وهو في مسيره، وتقلبه بين أهله، فيشكر الله بلسانه، وقلبه، وفعاله، كما قيل:

أَفَادَتْكُمْ النَّعْمَاء مِني ثَلَاثَة ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِير المُحَجَّبا(٢)

فشكر القلب: بأن يغتبط بنعمة الله، ويشعر بالامتنان له ﷻ، وكثير من الناس لو فتشت بين أضلاعه، ونبشت عن قلبه لوجدته مسكوناً بالنقمة، والتبرم، والضيق، لا يشعر بشكر نعمة الله؛ فالذي ينبغي أن يحل المرء في سويداء القلب الشعور بنعمة الله ﷻ، وأعظمها الشعور بنعمة الإسلام.

وشكر اللسان: باللهج بشكر الله ﷻ ونسبة النعم إليه، وهذا أمر تلمسه عند بعض الموفَّقين، فكلما جلس مجلساً يثني على الله بما هو أهله، ويشكره على نعمائه، ومن الناس من يعقل لسانه عن ذلك، ولا يتحدث بنعم الله عليه، وربما ترك ذلك خوفاً من العين، فإذا سئل عن حاله، أجاب بما يشعر بالبؤس، مع أن الله قد أغدق عليه النعم، ولا شك أن هذا نوع من الكفران، المنافي للإيمان، وكان ينبغي أن يقول: نحن في خير، ونعمة، وسعة، وفضل من الله، ويذكر ما ينبغي؛ لأن الله يحب أن يُشْكَر. نعم لا حاجة أن يتباهى الإنسان ويتفاخر على الناس بما خوَّله من نعم، لكن إذا كان المقام مناسباً، أو سُئل، فعليه أن يثني بالنعمة على مسديها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى: ١١].

وشكر الجوارح: أن يسخِّر جوارحه في شكر نعمة الله؛ فإذا أنعم الله عليك بالصحة، فانقل خطاك إلى المساجد، وصلِّ مع الجماعة، واسعَ على الأرملة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ٢] برقم (٤٨٣٧)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، برقم (٢٨٢٠).

(٢) البيت بلا نسبة في نهاية الأرب في فنون الأدب، ت: قمحية (٣/ ٢٣٣)، والمستطرف في كل فن مستظرف (ص٢٤٤)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٦/ ٢٧٤).

والمسكين، وحج، واعتمر، واستعمل هذه الجوارح فيما يقرب به إلى الله ﷻ، حتى إماطة الأذى عن الطريق.

قوله: (وعن أبي مالك الأشعري) الحارث بن الحارث، الأشعري، الشامي رضي الله عنه.

قوله: («أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن) هذا عَلَمٌ من أعلام النبوة؛ يخبر النبي ﷺ بأربع خصال مذمومة، مما كان عليه أهل الجاهلية، تظل سارية في عموم الأمة، لا في جميع أفرادها، والواقع شاهد على ذلك. والجاهلية: الفترة التي سبقت الإسلام، كما سماها الله تعالى في كتابه: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] وهي منسوبة إلى الجهل؛ وهو عدم العلم، فإن العلم إنما أتى الله به مع نبيِّه ﷺ بوحي السماء، كما قال الله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

وكونهن من خصال الجاهلية، لا يقتضي كفر من وقع فيها، فقد يتلبس الإنسان بخصلة من خصال الجاهلية ولا يكون بذلك كافراً؛ كما قال النبي ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه عندما قال لبلال: يا ابن السوداء: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»(١)؛ أي: فيك خصلة من خصال الجاهلية، فقد يعلق بالمسلم شيء من أمور الجاهلية، فلا يتخلص منه إلا بالمجاهدة، كما في هذه الخصال المذكورة:

الأولى: (الفخر بالأحساب) وهو التعاظم على الناس بالآباء، والمآثر؛ كأن يقال: نحن قبيلة كذا، وفينا كذا، وفعلنا كذا. ولم يزل هذا موجوداً في الناس إلى يومنا هذا، «**ومن بطَّأ به عمله، لم يُسرع به نسبه**»(٢).

الثانية: (الطعن في الأنساب) وهو: تنقص الناس بالعيب؛ كأن يقال: هذا لا أصل له، وهذا مشكوك في نسبه، وهذا وضيع، ونحو ذلك من أمر الجاهلية، وليس من أخلاق الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك برقم (٣٠)، ومسلم في كتاب الإيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل برقم (١٦٦١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم (٢٦٩٩).

الثالثة: (الاستسقاء بالنجوم) وهو: نسبة السقيا والمطر إلى حركة النجوم والأنواء، وهذا موضع الشاهد من الحديث للباب، ولم يزل في الناس من ينسب نزول المطر إلى النجم الفلاني، وينسى أن هذه مجرد موافقة تزامنية، لا أقل ولا أكثر. ولو تأمل الإنسان في كلام الناس، وكلام الفلكيين، لوجده شاهداً لقول النبي ﷺ، وإعلامه بهذا الأمر الساري في الأمة.

الرابعة: (النياحة) وهي: رفع الصوت بالبكاء، والندب على الميت، وهذا يقع غالباً، من النساء؛ لجزعهن، وغلبة عاطفتهن. ولا شك أنّ الموت مصيبة، لكن هذه المصيبة يجب أن تواجه بالصبر والاحتساب، لا بالصراخ والعويل، وشق الجيوب، ولطم الخدود، فإن ذلك لا يرد ميتاً، ولا يغني عن صاحبه.

قوله: (النائحة إذا لم تتب قبل موتها) عبر بالنائحة، مع أنه يدخل في ذلك النائح، لوقوعه في النساء أكثر من الرجال، وقوله: «**إذا لم تتب قبل موتها**» يدل على عظم أمر التوبة، وأن التوبة تجبُّ كل معصية.

قوله: (تقام يوم القيامة)؛ أي: تبعث يوم القيامة.

قوله: (وعليها سربال من قطران)؛ أي: ثوب ملطخ بالقطران، وقيل: هو النحاس المذاب.

قوله: (ودرع من جرب) الدرع للمرأة بمعنى القميص. والجرب: مرض جلدي معروف، يصيب الإنسان والحيوان، ينشأ عنه حكة عظيمة، وأما القطران ففيه حرارة متناهية عظيمة، والإنسان إذا وقع على بشرته شيء حار، أو أصابته حكة بليغة، فإنه يتألم تألماً عظيماً، فلما كانت النائحة تصيح بأعلى صوتها في الدنيا، وقد تفعل ذلك أيضاً تكلفاً؛ كالنائحة المستأجرة، كانت عقوبتها يوم القيامة من جنس عملها، فتقوم وهي تصيح وتولول، بسبب هذا السربال من القطران، والدرع من الجرب، كما قال الله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦].

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة، لما تضمَّنه من حسبان النبي ﷺ: «**الاستسقاء بالنجوم**» من خصال الجاهلية؛ لما فيه من نسبة التدبير، والنعمة إلى غير الله ﷻ.

فوائد الحديث:

١ ـ علامة من أعلام النبوة، لما فيه من الإخبار بأمور مستقبلة.

٢ ـ تحريم الفخر بالأحساب، وعُبِّية الجاهلية.

٣ ـ تحريم الطعن في الأنساب، وازدراء الناس.

٤ ـ تحريم الاستسقاء بالنجوم والأنواء؛ ونسبة التدبير والنعمة لغير الله.

٥ ـ أن المذكورات من خصال الجاهلية.

٦ ـ وجوب مخالفة أهل الجاهلية، وتحريم التشبه بهم.

٧ ـ أنّ التوبة تجُبُّ ما قبلها؛ لقوله: «**النائحة إذا لم تتب**».

٨ ـ التنبيه على شرط من شروط التوبة، وهو أن تقع في الزمن المحدد شرعاً، وهما زمنان: زمن عام، وزمن خاص. فالزمن الخاص: ما لم تبلغ الروح الحلقوم، والزمن العام ما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت الشمس من مغربها ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

قوله: (ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه) زيد بن خالد الجهني المدني؛ صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، أو ثمان وسبعين، بالمدينة، وقيل: بالكوفة، رضي الله عنه.

(قال: صلّى لنا رسول الله ﷺ)؛ أي: صلى بنا؛ كأنه لما أَمَّهم ﷺ صنع لهم، ولا شك أن من حصل له صلاة خلف النبي ﷺ فقد حصل له نعمة عظيمة، فضُمِّن هذا المعنى.

قوله: (صلاة الصبح بالحديبية) الحديبية: قرية معروفة تبعد عن مكة قدر مرحلة، في طريق جُدة، وهي المسمَّاة الآن (الشميسي)، جزء منها في الحل، وجزء منها في الحرم. ولهذا كان النبي ﷺ عام الحديبية نازلاً في الحل منها، فإذا أراد أن يصلي تقدم إلى الشق الذي في الحرم، فصلى به، لمزيد فضل الصلاة في أرض الحرم.

قوله: (على إثر سماء) إثر الشيء: ما يعقبه، والمراد بالسماء هنا: المطر، وسمي المطر سماءً باعتبار جهته؛ لأنه ينزل منها.

قوله: (كانت من الليل)؛ أي: أنهم مُطروا ليلاً.

قوله: (فلما انصرف، أقبل على الناس)؛ أي: لما فرغ من صلاته، أقبل عليهم بوجهه وخطابه.

قوله: (هل تدرون) أسلوب استفهام، والغرض منه تنبيه الأذهان.

قوله: (ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم) هذه الجملة تقال في زمن النبي ﷺ بإطلاق؛ في الأمور الشرعية والكونية، أما بعد زمن النبي ﷺ فلا يقال: الله ورسوله أعلم إلا في الأمور الشرعية. فلو قيل لك: هل قدم فلان من السفر؟ فلا تقل: الله ورسوله أعلم، وإنما: الله أعلم، ولو قيل لك: ما حكم كذا، في أمر لا تعلمه؟ فيصلح أن تقول: الله ورسوله أعلم.

قوله: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) هذا الكفر ليس كفراً مخرجاً عن الملة؛ لأن العبودية المذكورة هنا عبودية الإيمان، كما أنه صادر عن جهل.

«فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمن بي، كافر بالكوكب» هذه الجملة قالها المؤمنون، فاكتسبت صفة الذكر المشروع، بإقرار الله تعالى، وإقرار النبي ﷺ لها، فجمعت بين الفضل والرحمة، كما في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

قوله: (وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب) ووجه كفره: أنه وقع منه لفظ ينافي التوحيد الواجب، حيث نسب المطر إلى النجم، فيكون شركاً أصغر، ولو صدر من معتقد أن النوء هو المؤثر لكان شركاً أكبر، مخرجاً عن الملة، لكن هذا لا يتصور من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ، فعلَّمهم النبي ﷺ ما ينبغي لهم أن يقولوه.

قوله: (ولهما: من حديث ابن عباس)؛ أي: غير حديث زيد بن خالد؛ أي: فيه زيادة.

قوله: (قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾) لا يزال الناس، إلى يومنا هذا، حين يقع مطر في موسم معين، يقولون: صدق نوء كذا وكذا! وهذا من شرك الألفاظ، وهو من أنواع الشرك الأصغر، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ الآيات.

وللمفسرين في مواقع النجوم قولان:

الأول: منهم من يقول؛ كابن عباس(١): المراد بها نجوم القرآن؛ لأن القرآن نزل منجماً حسب الوقائع والحوادث، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان: ٣٢].

الثاني: المراد: مطالع الكواكب والأجرام السماوية، وهو القول الذي أراده المصنف، وهي مطالع عظيمة؛ ولأنه قسم عظيم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾. فهذه النجوم التي تبدو لنا قريبة، لا تقاس في القياسات الحديثة، إلا بالسنين الضوئية، والسنة الضوئية: ما يقطعه الضوء في سنة كاملة، وسرعة الضوء أعلى أنواع السرعة، حيث يسير الضوء ثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية الواحدة! ولهذا يحتاج ضوء الشمس ليصل إلينا ثماني دقائق. وأقرب نجم بعد الشمس، نجم يقال له: قنطورس، يحتاج ضوؤه ليصل إلينا أربع سنين! فهذا يدل على عظم مواقع النجوم، وسعة خلق الله، فهو خلق فسيح، وما نحن في هذا الكون إلا هباءة صغيرة.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة، لما فيه من ذم نسبة نزول المطر إلى الأنواء، وتسميته كفراً، وتكذيباً.

فوائد الحديث:

١ ـ مشروعية صلاة الجماعة في السفر والحضر، والصحو والمطر.

٢ ـ مشروعية تعليم الإمام الناس ما يحتاجون إليه، وتخولهم بالموعظة، في المقام المناسب.

٣ ـ التعليم عن طريق السؤال والجواب؛ لقوله: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**».

٤ ـ أنه يشرع لمن سُئل، عن أمر شرعي، وجهل، أن يقول: الله ورسوله أعلم.

٥ ـ تحريم نسبة نزول المطر إلى النوء.

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٢٤/ ٥٣٢).

٦ ـ أن ذلك يُسمى كفراً، وتكذيباً، في الكتاب والسُّنَّة.

٧ ـ وجوب شكر نعمة الله ﷻ، وعدم إضافتها إلى غيره.

٨ ـ وصف الله تعالى بالفضل والرحمة؛ لقوله: «**مطرنا بفضل الله ورحمته**».

٩ ـ مشروعية هذا الذكر بعد نزول المطر؛ وأما أثناء نزوله فيقال: «**اللَّهُمَّ صيِّباً نافعاً**»[1].

١٠ ـ أنّ من الكفر ما لا يخرج عن الملة، وهو الأصغر.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

وفيه مسائل:

الأولى تفسير آية الواقعة.

وهي قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾؛ أي: تجعلون نصيبكم من هذه النعمة التكذيب، بنسبتها إلى غير مسديها، بدلاً من الصدق والشكر.

الثانية ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

وهي «**الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**».

الثالثة ذكر الكفر في بعضها.

وينطبق على الاستسقاء بالأنواء؛ لقوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» لمن قال: «**مطرنا بنوء كذا وكذا**» وكذلك الطعن في النسب، والنياحة على الميت؛ لحديث: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في أبواب الاستسقاء، باب ما يقال إذا مطرت برقم (١٠٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة على الميت برقم (٦٧).

الرابعة **أنّ من الكفر ما لا يُخرج من الملة.**

لأن قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»، لم ينقل قائليها عن الملة.

الخامسة **قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر»؛ بسبب نزول النعمة.**

أي: أنّ الله يبتلي عباده بالنعم، وقد تكون سبباً لحصول الكفر إذا لم تشكر.

السادسة **التفطن للإيمان في هذا الموضع.**

أن مقتضى الإيمان هو شكر المنعم، كلما تجددت نعمة.

السابعة **التفطن للكفر في هذا الموضع.**

وهو إسناد النعم إلى غير المنعم المتفضل، سبحانه، فقد تكون مدعاة للكفر، وهو كفر النعمة.

الثامنة **التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا».**

ما يجري على ألسنتهم، ولو بغير قصد لمعناها. فيجب تركه، والتحذير منه.

التاسعة **إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها؛ لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».**

أي: استنباطها، بطريقة السؤال والجواب؛ لأنها تشحذ الذهن.

العاشرة **وعيد النائحة.**

أنها تبعث يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب، وهذا الجزاء من جنس العمل.





باب قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يُؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين»(١)، أخرجاه.

الشرح

هذا باب شريف؛ لتعلقه بعبادة هي أصل الدين، وهي: محبة الرب ﷻ، فإن أصل التعبد والتأله لله: هو انجذاب القلب له، فإن معنى قولنا: لا إله إلا الله؛ أي: لا مألوه إلا الله، والمألوه هو الذي تألهه؛ أي: تنجذب إليه القلوب محبة وتعظيماً. فالمحبة هي أصل العبادات القلبية، ولكن المحبة التي تنبغي لله محبة مقرونة بخوف ورجاء، لا المحبة الصرفة التي يدعيها زنادقة الصوفية، حتى إنهم يحيلونها إلى نوع من العشق، يسمونه «العشق الإلٰهي»، ويغلون فيها، ويزعمون أنها تُنسيهم الخوف والرجاء. فتلك المحبة محبة بدعية، وليست المحبة التي أمر الله تعالى بها ورسوله. والمحبة من حيث هي **نوعان:**

الأول: محبة طبيعية: وهي عبارة عن ميل النفس لبعض المحبوبات؛ ولها **صور متنوعة:**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد برقم (٤٤).

منها: محبة إجلال؛ كمحبة الابن لأبيه.

ومنها: محبة إشفاق؛ كمحبة الأب لابنه.

ومنها: محبة شهوة؛ كمحبة الزوج لزوجه، وكمحبة الطعام والشراب، ونحو ذلك. فهذا النوع من المحاب الطبيعية لا يُلام عليه الإنسان، ولا يتعلق به مقصود لذاته؛ لأنه أمر جِبِلِّي طبيعي، وقد يلام عليه إذا خرج عن حده، وتجاوز المألوف؛ كأن يستغرق في محبوبات الدنيا إلى الحد الذي يمنعه من طاعة الرب ﷻ، ومثل أن يستغرق في مجالسة أهله، ويدع صلاة الجماعة، وكأن يتعلق بأهله، وأبنائه، ويدع الجهاد المتعين، أو يدع الحج المفترض عليه، ونحوه.

الثاني: محبة السر: وهي محبة العبادة، وهي التي لا تنبغي إلا لله ﷻ، فهي محبة من نوع فريد، لا يجوز صرفها لغير الله؛ إذ هي محبة عبادة مقرونة بكمال التعظيم والخضوع، وكمال الرجاء، فقد جمعت محبةً وخوفاً، ورجاءً. وهي أعظم ما يكون في القلب من العبادات القلبية؛ إذ الخوف ينقطع، والرجاء ينقطع، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨] فإذا بلغ الإنسان المنزل ـ أي: الجنة ـ زال عنه الخوف، وسكن الرجاء، واطمأن القلب بحصول المقصود. أما المحبة فلا تزال تتعاظم في قلب المؤمن، كلما ازداد علماً وإيماناً، فإذا بلغ جنة ربه ازدادت محبته له، لما يرى من كرامته، وعظيم فضله. فهذه المحبة الإيمانية تنعش القلب، وتضمد الجراح، وتضخ فيه النشاط والقوة على العمل الصالح، وتحجزه عن محبوبات النفس المنافية لمحبوبات الله.

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

جلية ظاهرة، لتعلقه بعبادة من أجلِّ العبادات القلبية، وهي عبادة المحبة.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (من) تبعيضية؛ أي: بعض الناس، والمراد بهم المشركون.

قوله: ﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ (أَنْدَاداً): جمع ند، وهو الشبيه والنظير.

قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ هذه صفة التنديد المذكور.

وقد اختلف المفسرون في معناها على **قولين**:

الأول: أي: أنهم يحبون الأصنام كما يحب المؤمنون الله.

الثاني: أي: يحبون أندادهم كما يحبون الله، فهم يحبون الله لكنهم يحبون الأنداد كمحبتهم لله، فوقعوا في شرك المحبة، وهذا القول الثاني هو الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية[1]، وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ[2].

قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾؛ أي: أنّ المؤمنين محبتهم لله تعالى خالصة، لا تدانيها محبة أخرى، ولا يقع لهم شرك في المحبة، فهم أشد حباً لله، من حب أصحاب الأنداد لله.

قوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ دلت على أنهم يوم القيامة يفجؤون حين يرون العذاب، ويدركون أن القوة لله جميعاً، فمن كانت له القوة جميعاً، استحق أن يكون له الحب جميعاً، وأن يكون التعظيم له جميعاً.

فوائد الآية:

١ ـ التحذير من شرك المحبة.

٢ ـ أن من المشركين من يحب الله تعالى؛ ولهذا يحلفون به، ويحجون بيته، ويتقربون إليه، لكنهم لا يفردونه بالمحبة، فلم يغن عنهم شيئاً.

٣ ـ أن الأنداد متخَذة، مصطنعة، كما قال تعالى عن الخليل عليه السلام، لقومه: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وأمته من بعده. فهذه ثمانية أصناف تجمع أمهات المحبوبات الدنيوية:

﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيحب الإنسان أباه محبة إجلال. ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ يحب ابنه محبة شفقة ورحمة. ﴿وَإِخْوَٰنُكُمْ﴾ يحبهم محبة مودة ونصرة. ﴿وَأَزْوَٰجُكُمْ﴾ محبة غريزة

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٦/١٧٤).

(٢) مدارج السالكين (٣/٢١).

وشهوة. ﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ محبة انتماء وعشرة. وهم جماعة الرجل وقبيلته. ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ محبة شهوة وقنية، ومعنى: ﴿ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾؛ أي: اكتسبتموها، فالاقتراف بمعنى الاكتساب. ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾؛ أي: محبة تعلق واستبقاء. ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ محبة مأوى ومباهاة.

قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ نصب (أحب) لأنها خبر (كان) وإن تأخر، و(آباؤكم) اسمها. والمعنى: إن كان محبة هذه الأشياء المحبوبة حباً فطرياً طبيعياً ـ مقدمة عندكم على محبة الله ورسوله ـ ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ عبارة تهديد ووعيد؛ أي: انتظروا ما يحل بكم من عقاب، إذا آثرتموها على محبوبات الله ﷻ.

مثال ذلك: أن يُؤمر العبد بالهجرة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، فيؤثر البقاء في الأهل والعشيرة على طاعة الله تعالى بالهجرة إلى دار الإسلام؛ ولهذا توعد الله من وقع منه ذلك، فقال سبحانه وبحمده: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧ ـ ٩٩].

ولما هاجر صهيب الرومي رضي الله عنه من مكة إلى المدينة، وكان قد قدم مكة مولى، ثم عتق، واتجر وصار ذا مال، فلما أراد الهجرة لحقته قريش حتى أدركوه في بعض الطريق، فقالوا له: جئتنا فقيراً، والآن تأخذ المال وتذهب! فقال لهم: هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب وتخلون سبيلي؟ فقال لهم: احفروا تحت أسكفة الباب، فإن تحتها الأواق، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحلتين، وخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ قبل أن يتحول منها ـ أي: قباء ـ، فلما رآه ﷺ قال: «**يا أبا يحيى، ربح البيع**» ثلاثاً[1]؛ لأنه استعاض عن الدنيا بالآخرة.

وكثير من الناس يقدم الدرهم والدينار، وإذا تعارض مع شيء من محاب الله ﷻ آثر الدنيا على الآخرة؛ فإذا أراد حج الفريضة مثلاً، استعظم النفقة، وترك الحج.

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (٥٧٠٦).

وقد يكون الحب المقدم على محبة الله ورسوله، نقصاً في الإيمان الواجب، وقد يكون نقصاً في أصل الإيمان، فإن عارض أصل الإيمان فهو حب شركي، وإن عارض واجباً من الواجبات، فهو منافٍ للإيمان الواجب، يكون صاحبه تحت المشيئة والإرادة، إن شاء الله عذبه بقدر ذنبه، ومآله إلى الجنة، وإن شاء عفا عنه، كما هي القاعدة في أهل الكبائر.

قوله: ﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ هم الخارجون عن طاعة الله؛ لأن الفسق في اللغة معناه: الخروج، تقول العرب: فسقت التمرة، إذا خرجت من قشرها. فالفسق من موانع الهدى.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لما تضمَّنته من وعيد مَن قدَّم محبوبات نفسه على محبة الله، ورسوله، وشرعه.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب محبة الله، وأنها من التوحيد.

٢ ـ وجوب محبة النبي ﷺ؛ وأنها من الإيمان الواجب برسالته.

٣ ـ وجوب محبة ما شرعه الله ورسوله؛ كالجهاد في سبيل الله، وأنه من الإيمان الواجب.

٤ ـ الوعيد على من قدم هذه الثمانية على محبوبات الله ورسوله؛ لقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾.

٥ ـ أن الفسق من موانع الهدى، وأسباب الزيغ والضلال، كما في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]. فلا يهلك على الله إلا هالك.

قوله: (عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، أخرجاه)؛ الإيمان المنفي هنا هو الإيمان الواجب؛ أي: لا يكون الإنسان مؤمناً الإيمان الواجب عليه حتى تفوق محبة

نبيّه ﷺ محبتة لولده، ووالده، والناس أجمعين. ومن تأمل نعمة الله تعالى ببعثة النبي ﷺ أدرك أن حاجته إلى نبيِّه ﷺ أعظم من حاجته إلى أبيه، وأمه، وطعامه، وشرابه، ونفسه، فهذه مقومات دنيوية، أما ما جاء بها محمد ﷺ من الهدى والعلم، فلا صلاح للدين والدنيا إلا به، فلا بد من تقديم محبة النبي ﷺ على محبة الولد والوالد، بحيث يجد المرء ذلك في صميم قلبه. ولهذا لما سمع عمر هذا الحديث قال: «يا رسول الله؛ لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي»، فقال النبي ﷺ: **«لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك»**، فقال عمر: «فإنه الآن، والله؛ لأنت أحب إلي من نفسي» فقال النبي ﷺ: **«الآن يا عمر»**(١).

وهذه المراجعة من عمر رضي الله عنه صدق وحق؛ لأن هذه المحبة التي أحدثها عمر، نتجت عن نظر، فهي محبة مكتسبة، فحين أخبره النبي ﷺ بأنه لا يتم إيمانه الواجب إلا بتقديم محبته على محبة نفسه، تأمل، ونظر، وأدرك أن هذه المحبة يجب أن تفوق محبة النفس، فقال: «الآن، والله؛ لأنت أحب إلي من نفسي» قالها متحققاً رضي الله عنه وشهد له من لا ينطق عن الهوى، فقال: **«الآن يا عمر»** وأثبت له ﷺ هذه المحبة. وهذا جواب سديد على المتطاولين على الصحابة؛ كالرافضة، الذين يلمزون عمر رضي الله عنه بالتظاهر بهذا، فيقال لهم: إن لمزكم إياه لمز للنبي ﷺ، فهل كان النبي ﷺ يقره على هذه الدعوى ويشهد له بذلك، والأمر خلاف ذلك؟ لا، والله! فلا شك أن عمر كان صادقاً فيما أخبر، وأنه قد اكتسب هذه المحبة بالنظر، لما علّمه نبيّه ﷺ بأن هذا من ضرورات الإيمان به.

وبناء عليه: فعلينا أن نتعاهد قلوبنا حقاً، وأن نصدق في محبتنا لنبيِّنا ﷺ، وما من مؤمن إلا وهو محب لنبيِّه قطعاً، لكن هل هذه المحبة كما شرط النبي ﷺ؟ لقد رأينا ـ بحمد الله حين تطاول بعض الكفرة على نبيِّنا ﷺ بالرسوم المسيئة، كيف ضج المسلمون في مختلف البلاد الإسلامية، وأعربوا عن سخطهم وبغضهم لهؤلاء الشانئين المستهزئين، بأنواع الهتافات، والنداءات، والمظاهرات، والمقاطعات، ولا شك أنّ هذا دليل على صدق المحبة للنبي ﷺ، لكن يجب أن يبيّن لجمهور

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ برقم (٦٦٣٢).

المسلمين بأن المحبة الحقيقية للنبي ﷺ هي في اتباع أمره، وسُنَّته، والاقتداء به، فإن هذا هو عنوان المحبة الصادقة لنبيِّنا ﷺ. **ومن أمثلة ذلك:**

ولما وضع خبيب بن عدي رضي الله عنه بين السيف والنطع، وجمهور المشركين قد تحلقوا حوله، قال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك بالله يا خبيب، أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: «والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي»[(١)].

وجاء في حديث يوم الحديبية «إن ـ عروة بن مسعود ـ جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه، فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيتُ ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحِدُّون إليه النظر تعظيماً له»[(٢)].

كان أصحاب النبي ﷺ يقولون: فداك أبي وأمي! وهم صادقون، يفدونه بأنفسهم وأموالهم، أولئك أهل الحب الصادق. ثم نشأ أقوام يدعون محبة النبي ﷺ وليس حظهم من محبته إلا أن يعقدوا الحضرات، ويقيموا الموالد، ويدبجوا القصائد، ويهمهمون، ويرقصون، ويزعمون أنهم يحبون النبي ﷺ، وإذا دعوا إلى سُنَّة من سننه، كانت أثقل عليهم من الجبل! أولئك أصحاب الحب الكاذب. وإنما زين لهم الشيطان أعمالهم.

سر محبتنا لرسول الله ﷺ: كونه رسول الله، لا لمجرد شخصه، فالمحبة التي نبذلها للنبي ﷺ محبة من نوع خاص، محبة الرسالة؛ لأن الله أرسله، واصطفاه أحببناه، فمحبة النبي ﷺ فرع عن محبة الله عز وجل، والإنسان كل ما كان صادقاً في محبته للشيء كان متبعاً موافقاً لمحبوبات حبيبه. فأنى لقوم يدعون محبة النبي ﷺ وهم يخالفون هديه في الأصول والفروع؟! ونضرب مثالاً بسيطاً:

---

(١) البداية والنهاية، ط. إحياء التراث (٤/ ٧٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط برقم (٢٧٣١).

إعفاء اللحية، كيف تطيب نفس مؤمن يعلم أن هذا هدي محمد ﷺ، وأنه كان له لحية عظيمة تملأ ما بين منكبيه، ثم يزهد في هدي النبي ﷺ، ويحلق لحيته، أو يأخذ منها، أو يقصرها، ويتشبه بالكفار؟!

إن الحب الصادق للنبي ﷺ يستلزم امتثال سُنَّته، واقتفاء أثره، حتى حمل بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على محاكاة النبي ﷺ فيما ليس من أمر التشريع؛ يقول أنس رضي الله عنه: «دعا رسول الله ﷺ رجلٌ، فانطلقت معه، فجيء بمرقة فيها دبَّاء، فجعل رسول الله ﷺ يأكل من ذلك الدباء، ويعجبه، قال: فلما رأيتُ ذلك جعلت ألقيه إليه، ولا أَطعمه، ثم قال أنس: فما زلت بعد يعجبني الدباء»[(١)]، هذا حب ناتج عن محبة المحبوب، ولا نقول: من السُّنَّة محبة القرع؛ لأن النبي ﷺ كان يحبه محبة طبيعية. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يتحرى الأماكن التي نزل فيها النبي ﷺ في سفراته، فينزل فيها؛ بل والمواضع التي قضى فيها حاجته، فيقضي فيها حاجته، فقد جاء عن أنس بن سيرين قال: كنتُ مع ابن عمر بعرفات، فلما كان حين راح، رحت معه حتى أتى الإمام، فصلى معه الأولى، والعصر، ثم وقف معه، وأنا وأصحاب لي، حتى أفاض الإمام، فأفضنا معه، حتى انتهينا إلى المضيق دون المأزمين، فأناخ وأنخنا، ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي، فقال غلامه الذي يمسك راحلته: إنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته، فهو يحب أن يقضي حاجته[(٢)].

فهذا ناتج عن المحبة، وهو أمر مألوف في بني آدم، فإن الإنسان إذا أحب شخصاً صار يحاكيه في طريقته في الكلام، وفي خطه، ومشيته، وملبسه، وغير ذلك. فعلينا أن نملأ قلوبنا بمحبة النبي ﷺ، وهذا يحصل بإدمان قراءة سيرته، وشمائله الطاهرة، فإن من قرأ في سيرته ﷺ وتأملها، امتلأ قلبه محبة لهذا النبي الكريم. وقد كان من آثار هذه الأحداث المصاحبة للرسوم المسيئة لنبيِّنا ﷺ أن

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأشربة، باب جواز أكل المرق، واستحباب أكل اليقطين، وإيثار أهل المائدة بعضهم بعضاً وإن كانوا ضيفاناً إذا لم يكره ذلك صاحب الطعام برقم (٢٠٤١).

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٦١٥١) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

التفت بعض الغربيين إلى سيرته، فصاروا يقرؤون عن هذه الشخصية التي ثار بسببها هذا الاحتجاج المدوي، مما أدى إلى اعتناق كثير منهم للإسلام.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأن محبة النبي ﷺ فرع عن محبة الله، وكمال محبة الله باتباع نبيّه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فوائد الحديث:

١ ـ أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، خلافاً للمرجئة؛ لأن المحبة عمل قلبي، وشرطٌ في الإيمان الواجب، فهذا دليل على أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل.

٢ ـ أن نفي الإيمان، لا يستلزم نفي أصله؛ بل نفي كماله الواجب أو المستحب.

٣ ـ أن نفي الكمال الواجب لا يوجب الخروج من الملة، فلو قدر أن أحداً لم يبلغ هذه المنزلة، ولم يقدم محبة النبي ﷺ على محبة ولده، ووالده، والناس أجمعين، فلا يقال إنه كافر، خلافاً للوعيدية؛ بل يقال: مؤمن ناقص الإيمان.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

ولهما: عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار»[١]. وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...»[٢]، إلى آخره.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان برقم (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان برقم (٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الحب في الله برقم (٦٠٤١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»[1]، رواه ابن جرير.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: المودة[2].

الشرح

قوله: (ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه»)؛ أي عن أنس بن مالك رضي الله عنه. **«ثلاث»** دون إضافة؛ أي: ثلاث خصال. **«من كن فيه»**؛ أي: من وجدنَّ فيه.

قوله: (وجد بهن حلاوة الإيمان)؛ أي: حصل له نعيم وسرور في القلب، وهي حلاوة حقيقة، ولا يلزم أن تكون كحلاوة السكر؛ لأن لكل شيء حلاوة تليق به، فللمشروب حلاوة تليق به، وللإيمان حلاوة تليق به، فحلاوة الإيمان المراد بها: ما يقوم بالقلب من فرحة، وبهجة، وبشاشة يجدها، ويشعر بها المؤمن. وهذه الخصال:

• **الأولى: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)**: تقديم محبة الله ورسوله على سائر المحبوبات. فليعرض المرء نفسه على هذا المعيار، هل الله ورسوله أحب إليه مما تشتهيه نفسه من شهوات المأكولات، والمشروبات، والملبوسات، والمنكوحات عند التعارض؟

• **الثانية: (أن يحب المرء لا يحبه إلا لله)**: الحب في الله، بأن يحب الشخص محبة باعثها محبة الله سبحانه وبحمده، لا لأجل جاهه، ولا ماله، ولا منصبه، ولا وسامته، ولا طرافته؛ بل لدينه، وإيمانه، وحسن اعتقاده،

---

(١) لم نقف عليه من قول ابن عباس في تفسير ابن جرير، وذكره ابن رجب، وقال في التفسير المنسوب إليه (١/ ٥٠٤): «خرَّجه ابنُ جريرٍ الطبريُّ».

(٢) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (٢٤٢٣).

وصلاحه، واستقامته، وحسن عمله، ونحو ذلك من المعاني.

• **الثالثة: (وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار)** هذه علامة حسية، ووجد حقيقي، يدل على أن هذا الإنسان يحب الله ﷻ ونبيّه محبة حقيقية. وقوله: «**بعد إذ أنقذه الله منه**» يدل على أنه قد كان كافراً، فانتقل من الكفر إلى الإيمان. والمقصود: أن يكره أن يقع في الكفر بعد أن كتبه الله تعالى مؤمناً، سواءٌ جرى منه سابق كفر أم لا، كما يكره أن يلقى في النار.

وقد جرى لبعض أصحاب النبي ﷺ وهو حبيب بن زيد، الذي بعثه النبي ﷺ إلى مسيلمة، فجعل يقطعه إرباً إرباً، ويقول له: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ فيقول: نعم، فيقول له: أتشهد أني رسول الله؟ فيقول: لا أسمع[(١)]، فما زال يقطعه حتى وقع نصفه على الأرض، حتى مات رضي الله عنه، صابراً، محتسباً.

وجرى لبعض التابعين أيضاً، وهو أبو مسلم، عبد الله بن ثُوَب الخولاني؛ أدخله الأسود العنسي في النار، لكن الله نجاه من النار، كما نجّى إبراهيم[(٢)].

فلا يزال يُوجد من عباد الله ﷻ من تكون (حلاوة الإيمان) في قلبه توجب له أن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار. وبعض مَن مروا بأحوال غواية وضلال، ثم منَّ الله عليهم بالهداية يجدون في قلوبهم من اللذة ما يقول أحدهم: أفضِّل أن أهلك، ولا أعود إلى حالي السابقة، يقع هذا كثيراً على ألسنة المهتدين.

قوله: (وفي رواية: لا يجد أحد حلاوة الإيمان)، هذه الرواية عند البخاري، تفيد الشرطية والحصر.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمَّنه من تقديم محبة الله ورسوله على محبة ما سواهما.

فوائد الحديث:

١ ـ أن للإيمان حلاوة حقيقية، يتذوقها من استكمل الخصال المذكورة.

---

(١) البداية والنهاية، ط. هجر (٤/٤١٨).

(٢) البداية والنهاية، ط. هجر (١١/٤٦٦).

٢ ـ فضيلة محبة الله ورسوله، وتقديمها على محبة ما سواهما.

٣ ـ فضل الحب في الله. وهذا أمر ينبغي التفطن له؛ لأن بعض الناس يرى في نفسه أنه يحب فلاناً في الله ولله، وقد تكون هذه الدعوى غير صحيحة! وإنما يميل إليه لداعٍ آخر؛ كأن يحبه لماله، أو لجاهه، أو لوسامته، أو لدعابته، أو غير ذلك، فليفتش الإنسان في قلبه، ويفحص نواياه، ويحذر أن يصور له الشيطان أن انجذابه لفلان، أو علان، حب في الله، وليس كذلك.

عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقٍ بالشَّامِ، فَإِذَا أَنَا بِفَتًى بَرَّاقِ الثَّنَايَا، وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ، إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، هَجَّرْتُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْهَجِيرِ، وَقَالَ إِسْحَاقُ: بِالتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى إِذَا قَضَى صَلَاتَهُ، جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ لِلَّهِ. فَقَالَ: آللهِ؟ فَقُلْتُ: آللهِ. فَقَالَ: آللهِ؟ فَقُلْتُ: أَللهِ. فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَبْشِرْ! فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**قَالَ اللهُ ﷻ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**»[1].

فقول الإنسان لصاحبه: إني أحبك في الله، دعوى سهلة، تحتاج لتحقيق، كما فعل معاذ رضي الله عنه مع أبي إدريس الخولاني رحمه الله، فمن وجد ذلك في نفسه حقّاً، وصدقاً، فليخبر أخاه، كما ورد في الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلاً كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَعْلَمْتَهُ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**أَعْلِمْهُ**» قَالَ: فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللهِ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ[2]. فينبغي ألا تبتذل هذه الكلمة، وتقال جزافاً.

أما الميل، فقد يكون في بعض الأحيان مباحاً، وقد يكون محرماً، فقد

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٢٠٣٠) وقال محققو المسند: «حديث صحيح».

(٢) أخرجه أبو داود في باب إخبار الرجل بمحبته إياه، برقم (٥١٢٥)، والنسائي في باب ما يقول لأخيه إذا قال: إني لأحبك، في السنن الكبرى، برقم (٩٩٤٠)، وأحمد برقم (١٢٤٣٠)، (١٢٤٥٣). وإسناده صحيح.

يميل الإنسان إلى آخر لتجانسهما في الطباع؛ ولهذا جاء في الحديث: أن امرأة كانت تُضحك الناس في مكة، هاجرت إلى المدينة، فنزلت على امرأة تضحك الناس في المدينة، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك، قال: «**الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**»(١)، فربما وقع بين بعض الناس نوع انجذاب وتواؤم، بسبب تجانس الطباع، فلا يُثرب على أحد في هذا؛ لأن هذا في دائرة المباح، وهو غالب حال الناس. والمحذور أن يقع تعلق محرم، وهو العشق والغرام، فينجذب إليه لسبب من الأسباب الشهوانية، وقد يتمادى به الحال ـ عياذاً بالله ـ فيصبح محبة شركية؛ فإن العاشق مع معشوقه يقع منه أحياناً نوع شرك، حتى إنه يفضل محبته على محبة الله ﷻ، وقد حكى ابن القيم رحمه الله في كتابه: (الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي) الذي يُسمى أيضاً: (الداء والدواء) أمثلة لهذا الانحراف.

فعلى الإنسان أن يحرس بوابات قلبه، لا سيما في سن الشباب، أن يتسلل، أو يدب إليه شيء من هذه النزغات الشيطانية، ففي صفوف الشباب والشابات ما يعرف الآن باسم «الانجذاب» أو «التعلق»، أو غير ذلك، فإن هذه من مصايد الشيطان، فينبغي أن يحذر منها غاية الحذر.

٤ ـ محبة خصال الإيمان والمؤمنين.

٥ ـ بغض خصال الكفر والكافرين.

* * *

ثم قال رحمه الله:

(وعن ابن عباس رضي الله عنهما **قال: من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله)** أربع جمل شرطية متعاطفة.

قوله: (فإنما تنال ولاية الله بذلك) جواب الشرط، على هيئة جملة، والتقدير: نال ولاية الله.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة برقم (٣٣٣٦) من حديث عائشة. ومسلم في كتاب البر والصلة، باب الأرواح جنود مجندة (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.

الوَلاية، بفتح اللام؛ تعني: المودة، والنصرة، وبكسرها، تعني الإمارة. والمراد الأول. فالمؤمنون بعضهم أولياء بعض، كما وصف الله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وولاية الله ﷻ تكون من الله للعبد، ومن العبد للرب، فولاية العبد للرب تكون بما تقدم: بأن يحب في الله، ويبغض في الله، ويوالي في الله، ويعادي في الله. وولاية الرب للعبد تكون بمحبته إياه، ولطفه به، وإدخاله جنته، وغير ذلك مما يصنعه الله لعبده المؤمن.

والمعاداة لها **صورتان**:

الأولى: البغض القلبي، كما قال تعالى عن إبراهيم والذين معه: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

الثانية: المنابذة العملية: وتكون باللسان، وبالفعال؛ كالجهاد في سبيل الله ﷻ.

قوله: (ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك) دلّ ذلك على أن الإيمان يتفاضل، وأن من الناس من تكثر صلاته وصومه، لكن لا يتذوق طعم الإيمان، وسر ذلك: أنه قد يُؤدي بعض الأعمال على سبيل العادة والتكرار، فهذه الأعمال القلبية من: الحب، والبغض، والموالاة، والمعاداة هي التي تذكي جذوة الإيمان، وبها يجد المرء طعمه.

قوله: (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا) من تمام كلام ابن عباس رضي الله عنهما؛ أي: أكثر تآخي الناس وصِلاتِهم. يقول ابن عباس هذا في زمانه، مع بقايا الصحابة وخيار التابعين، فكيف بمن بعدهم؟!

وقد كان الرعيل الأول يتآخون في الله؛ ومن شواهد ذلك: أنه لما وقعت غزوة بدر، أسر المسلمون عدداً من المشركين، فكان ممن أُسر حبيب بن عمير، أخو مصعب بن عمير، أسره رجل من الأنصار، فمر مصعب رضي الله عنه وكان صاحب الراية، فلما رآه أخوه حبيب فرح، ظناً أنه سيفكه من الأسر، فلما حاذاه وهو يرمقه، قال مصعب بن عمير للأنصاري: «شد يديك به، فإن أمه ذات متاع،

لعلها تفديه منك»[1]، فظن حبيب أن مصعباً لم يعرفه، فقال: يا مصعب أنا أخوك، قال: هو أخي قبلك. فأخوة الإيمان مقدمة على إخوة النسب؛ ولهذا يروى أن من المسلمين من قتل أخاه، وابن عمه، في الغزوات، نصرة لدين الله.

قوله: (وذلك لا يجدي على أهله شيئاً)؛ أي: لا ينفعهم؛ بل يضرهم، كما قال الله ﷻ: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾ [الزخرف: ٦٧] فكل خلة في الدنيا تنقلب عداوة يوم القيامة، إلا خلة التقوى، فإنها ثابتة باقية.

قوله: (وقال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝١٦٦﴾)؛ يعني: **(المودة)** فالأسباب: جمع سبب، وهي حبال المودة.

❋ مناسبة الأثر للباب:

من **ناحيتين**:

الأولى: تحقيق محبة الله ﷻ، وما يتعلق بها من محبة أوليائه، وبغض أعدائه، بالقلب.

والثانية: مناصرة أولياء الله، ومعاداة أعدائه، بالعمل، فلا تتحقق ولاية الله إلا بهذين الشرطين.

فوائد الأثر:

١ ـ ذكر الأسباب التي تنال بها ولاية الله، وتنال بها محبته.

٢ ـ إثبات المحبة من الجانبين، فالرب سبحانه يُحَب، ويُحِب، يحبه أولياؤه، ويحب أولياءه، لكن له سبحانه محبة ليست كمحبة المخلوق، فمحبة المخلوق فيها نوع انعطاف، ورقة، ولين، والله تعالى ليس كذلك ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فله سبحانه محبة تليق به نثبت حقيقتها، ولا ندرك كنهها، وندرك آثارها.

٣ ـ فضل الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله. فينبغي للإنسان أن يحقق هذه الخصال الشريفة. جاء في «الأثر»: «أن

(١) البداية والنهاية، ط. هجر (٥/ ١٩١).

ملكاً أمر أن يخسف بقرية، فقيل: يا رب إن فيها فلاناً العابد، فأوحى الله: أن به فابدأ، فإنه لم يتمعر وجهه فيّ ساعة قط»[١]، فمن مقاييس محبة الله ﷻ أن ينظر المسلم كيف يكون قلبه حين تنتهك حرمات الله، وكيف يكون قلبه حين يستنصر لدين الله، وهل يبتهج قلبه حين يرى أولياء الله، وهل ينقبض قلبه لرؤية أعداء الله؟ بهذا تظهر أثر الولاية الحقيقية لله ﷻ.

٤ ـ ذم التآخي والتلاقي على أمر الدنيا، وأن يقيم العبد ذلك على أساس الحب في الله.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية البقرة.

وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ المتضمنة الشرك في المحبة.

الثانية تفسير آية براءة.

وهي آية المحبوبات الثمانية، ووعيد من قدمها على محبة الله، ورسوله، وجهاد في سبيله.

الثالثة **وجوب تقديم محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.**

كما قال ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»**.

الرابعة **نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.**

أي: في قوله: **«لا يؤمن أحدكم»**؛ بل هو نقص في الإيمان الواجب.

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، الداء والدواء (ص٤٦).

الخامسة **أن للإيمان حلاوة، قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.**

كما في حديث: «**ثلاث من كن فيه**» فقد توجد في بعض المؤمنين، وقد لا توجد؛ ولهذا قال ابن عباس ﷺ: «وإن كثرت صلاته وصيامه» مع أن هذا المصلي الصائم من جملة المؤمنين.

السادسة **أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.**

وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، فلا يجد أحد طعم الإيمان إلا بهذه الأربع، كما قال ابن عباس ﷺ.

السابعة **فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.**

أي: أنّ ابن عباس ﷺ كان ملمّاً بحال الناس، وأنه فشا فيهم التآخي، وإقامة الصلات على أمور الدنيا. فينبغي لطالب العلم أن يعي حال مجتمعه.

الثامنة **تفسير: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.**

فقد فسّرها ابن عباس ﷺ بالمودة، كما قال الله ﷻ: ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].

التاسعة **أنّ من المشركين من يحب الله حباً شديداً.**

يُؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ يحبون أندادهم كما يحبون الله ﷻ لكنه حب لا ينفعهم؛ لأنهم أشركوا معه غيره.

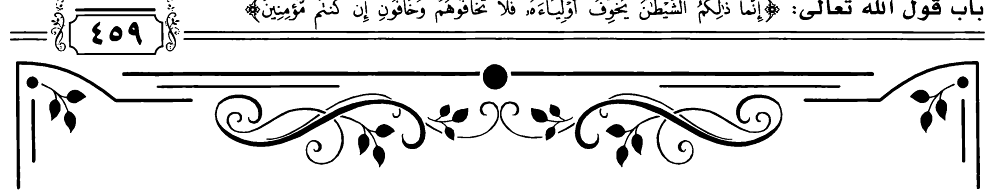
العاشرة **الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه.**

الثمانية هي: الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن؛ والوعيد قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

الحادية عشرة أنّ من اتخذ ندّاً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

أي: أن من سوى غير الله، بالله في المحبة، فقد أشرك شركاً أكبر؛ لأن المحبة عبادة.





باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران: ١٧٥]

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إنّ من ضعف اليقين: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يُؤتك الله، إنّ رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس»(٢) رواه ابن حبان في صحيحه.

الشرح

شرع المصنف رحمه الله بذكر جملة من الأبواب المتعلقة بعبادات القلوب،

---

(١) أخرجه مرفوعاً البيهقي في شعب الإيمان برقم (٢٠٣)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ١٠٦)، والطبراني في المعجم الكبير برقم (١٠٥١٤) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٢٠٠٩).

(٢) أخرجه ابن حبان في كتاب البر والإحسان، باب الصدق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ذكر رضاء الله ﷻ عمن التمس رضاه بسخط الناس برقم (٢٧٦) وصححه الألباني.

فابتدأها ـ كما سبق ـ بما يتعلق بالحب، وهذا الباب يتعلق بالخوف، ويليه باب يتعلق بالتوكل، وهكذا؛ وذلك لأن العبادات القلبية أصل التوحيد.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

الخوف عبادة من العبادات، لا يجوز صرفها لغير الله ﷻ، فمن خاف غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله فقد وقع في الشرك الأكبر المخرج من الملة.

قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المشار إليه الشيطان.

قوله: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ عَلَمٌ على جنسه، وهو إبليس الذي لعنه الله، مأخوذ من الشطْن: وهو البُعد؛ لأنه بعُد عن طاعة الله، فأبعده الله عن رحمته.

قوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي: يخوفكم بأوليائه، وهذه طريقة شيطانية معروفة، معهودة، وهي أنّ الشيطان يلقي في قلوب المؤمنين الخوف من أوليائه من المشركين، فيصور لهم عدوهم بأنه ذو عدد، وعدة، وبأس شديد، ليرعبهم بهم. ولكن الإيمان الحق يكتسح ذلك؛ فلهذا قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥] وإنما يُؤثر ذلك في ضعاف الإيمان فيخافون، وينخذلون.

وقد ذكر الله ﷻ في سورة الأحزاب تنوع الناس أمام هذه المخاوف، فحينما أحيطت المدينة بعشرة آلاف مقاتل، من المشركين واليهود، قال المنافقون، والذين في قلوبهم مرض: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾﴾ [الأحزاب: ١٣]. وأما المؤمنون الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فقالوا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان.

قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ نهي، ثم أمر، ثم شرط. فدلّ على أن الخوف عبادة، وأنه شرط في الإيمان الواجب.

أنواع الخوف:

الأول: خوف العبادة: وهو خوف السر، الذي لا يجوز صرفه لغير الله ﷻ، وهو أن يخاف غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ كأن يخاف جنّاً، أو إنساً، في أمور غير مقدورة له، ولم تجر العادة بتصرفه فيها؛ كأن يعتقد أن هذا المخوف يمرضه، أو يدني أجله، أو يقطع رزقه، أو ما شابه هذا، من الأمور المتعلقة بالربوبية، فمثل هذا الخوف خوف عبادة، لا يجوز صرفه لغير الله، فمن صرفه لغير الله فقد أشرك الشرك المخرج عن الملة.

الثاني: الخوف الطبيعي: وهو الذي جبل الله عليه بني آدم، وجعله سبباً لبقاء نوعهم؛ إذ لولا الخوف لهلك الإنسان؛ لأن الخوف مدعاة إلى الاحتراز من الشرور المحدقة؛ فلولا الخوف من النار لاحترق الإنسان، ولولا الخوف من العطش لدخل الناس البراري والمفاوز، ولم يحملوا ماءً، وهلكوا، ولولا الخوف من العدو لما استعدوا له بالسلاح والحراسة لدفع الصائل.

فهذا الخوف الطبيعي قد جبل الله تعالى عليه بني آدم، وركبه في خلقتهم، حتى أن الله تعالى جعل البدن، إذا شعر بالخوف، يفرز مادة (الأدرنالين) لتزيد في ضربات القلب؛ ليزداد ضخ الدم إلى الأعضاء والعضلات، فيهرب، أو يدافع، أو غير ذلك، وهذا من حكمة الله.

وقد وقع هذا الخوف لأنبياء الله، فإن موسى ﷺ لما أمره الله بإلقاء العصا، فانقلبت ثعباناً ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وقال له ربه: ﴿لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: ١٠] فلا يلام الإنسان أن يخاف على نفسه من السبع أن يفترسه، أو العدو أن يقتله، أو النار أن تحرقه، أو الماء أن يغرقه، فكل هذا مما جرت به العادة. إلا أنه قد يتحول إلى خوف مذموم إذا خرج عن حده، فيوقعه في الجبن، أو الرهاب، أما أصله فإنه خُلُقٌ طبيعي، ولا ينافي الإيمان. لكن المحذور أن يخاف غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، وهو الخوف الشركي.

فوائد الآية:

١ ـ أنّ الخوف عبادة؛ لقوله: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ فجعله شرطاً في الإيمان.

٢ ـ أنّ الخوف من غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، شرك مُخرج عن الملة.

٣ ـ وجوب الحذر من مكائد الشيطان، وتخويفه، وإجلابه بخيله ورَجِله.

ثم ثنّى المصنف بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وتمام هذه الآية: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾.

فقوله: ﴿إِنَّمَا﴾ أداة حصر. فهذه هي صفات المؤمنين الخُلَّص.

قوله: ﴿يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ عمارة المساجد على ضربين:

ـ عمارة حسية: ببنائها بما جرت العادة من البناء؛ إما من اللبن والطين، أو من الإسمنت والحديد، بحسب اختلاف الأحوال، وقد جاء في الحديث المتواتر: «**من بنى مسجداً لله كمفحص قطاة**[(١)]، **أو أصغر، بنى الله له بيتاً في الجنة**»[(٢)]، فلا شك أن العمارة الحسية لبيوت الله من أعظم الفضائل.

ـ عمارة معنوية: وهي عمارتها بذكر الله، وإقام الصلاة، فإن المساجد إنما بُنيت لذلك. قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٨].

قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هؤلاء هم العُمَّار الحقيقيون، وليست العمارة بمجرد تشييد المباني؛ بل العمارة الحقيقية تكون بـ:

ـ الإيمان بالله وحده؛ بربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

---

(١) **كمفحص قطاة:** هو موضعها الذي تجثم فيه وتبيض؛ لأنها تفحص عنه التراب، وهذا مذكور لإفادة المبالغة، وإلا فأقل المسجد أن يكون موضعاً لصلاة واحد. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٤١٥) بتصرف.

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب المساجد والجماعات، باب من بنى لله مسجداً برقم (٧٣٨) وصححه الألباني.

ـ الإيمان باليوم الآخر؛ بالبعث والنشور، وأحوال القيامة، والحساب، والجنة والنار.

ـ إقام الصلاة؛ بأدائها على وجه الاستقامة، في شروطها، وأركانها، وواجباتها، ومستحباتها.

ـ إيتاء الزكاة؛ بإخراجها من الأموال الزكوية، وبذلها لمستحقيها.

ـ إفراده تعالى، بالخشية، كما قال: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ وهذا هو موضع الشاهد من الآية. والخوف والخشية، متقاربان، وقد يُعبر بإحدى اللفظتين عن الأخرى، وقيل: بينهما فرق؛ فالخشية مبنية على علم بالمخشي منه؛ والخوف: مطلق، فقد يخاف الإنسان من شيء مجهول. ولهذا قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]. فالعلماء خشيتهم لله أكمل من خشية غيرهم؛ لأن حصل لهم من العلم بأسمائه، وصفاته، ونعوت جلاله وكماله، ما جعلهم يخشون الله ﷻ خشية أحق من خشية عامة الناس، فهذه الخشية أكمل من مطلق الخوف.

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ (عسى) من الله واجِبة؛ أي: متحققة.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: المتصفون بهذه الصفات من الذين هداهم الله سبحانه إلى محابه.

مناسبة الآية للباب:

لما فيها من حصر عمارة المساجد، بمن اتصف بصفات منها: إفراده تعالى بالخشية.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب إفراد الله بالخشية.

٢ ـ أن عمَّار المساجد حقاً هم جمعوا الأوصاف المذكورة: الإيمان بالله، واليوم الآخر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وتوحيد الخشية.

٣ ـ الحث على عمارة المساجد.

* * *

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾).

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (من) تبعيضية؛ أي: بعض الناس.

قوله: ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؛ أي: يدعي بلسانه الإيمان بالله، في حال الرخاء والإقبال واليسر.

قوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾؛ أي: افتتن وابتلي في دينه.

قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾؛ أي: عذاب الناس، وأذيتهم له في نفسه، وماله، ومنصبه، وأهله.

قوله: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: كعذاب الله في الآخرة، والمعنى: أنه جزع من أذى الناس، ولم يصبر عليه، فأطاع الناس كما يطيع الله من يخاف عذابه، ووقع في شرك الخوف.

قوله: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾؛ أي: إن جاءت الأمور موافقة لما يشتهي، وحصل مغنم، نافس عليه، وادعى النصرة، وقال: أشركونا معكم في المغنم.

قوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استفهام تقريري، وجوابه: بلى، فالله تعالى أعلم بما في صدور العالمين؛ من الإيمان والنفاق، والصدق والكذب.

وقد كان هذا جارياً أول الإسلام بعد الهجرة؛ فكان بعض الناس يهاجرون إلى النبي ﷺ، فإن رأوا ما يعجبهم بقوا على الدين، وإن رأوا شدة وكرباً، ارتدوا على أدبارهم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١] قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونُتجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تُنتج خيله، قال: هذا دين سوء»[(١)]، فمثل هذا يعبد الله على حرف، بخلاف المؤمنين الراسخين، الذين لا تزيدهم الشدة والبلاء إلا رسوخاً وثباتاً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ برقم (٤٧٤٢).

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لكون الخوف من الناس أن يصيبوه، وينالوا منه بسبب دينه، خوف من غير الله.

فوائد الآية:

١ ـ أنّ الخوف من أذى الناس، بسبب الدين، يكذب دعوى الإيمان. ومن نتيجة هذا: ما قد يقع من بعض الناس حينما يرى المنكر فيحجم عن إنكاره، مع قدرته؛ لأنه يخشى أن يُؤنب، أو يضرب، أو نحو ذلك، فهذا له حظ من هذه الآية: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ وجوب الصبر على الأذى في ذات الله؛ وقد جاء أصحاب النبي ﷺ إليه مرة يشكون ما يجدون من المشركين، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقال لهم مسلياً معزياً: «**قد كان من قبلكم يُؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**»[1]. فالله تعالى يبتلي عباده بأنواع البلاء؛ ليعلم سبحانه من يثبت على دينه، ممن ينقلب على عقبيه، كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١، ٢]. فليس الإيمان مجرد دعوى باللسان، فما أسهل هذا! فلا بد يتعرض للبلاء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣].

وعلى المؤمن أن يسأل الله العافية، فإذا ابتلي فعليه أن يصبر. وقد كان النبي ﷺ مع أصحابه في موطن من المواطن، يريدون منازلة المشركين، فغابت الشمس قبل أن يقع بينهم وبين عدوهم قتال، فقال أصحابه: وددنا لو أنا لقينا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإكراه، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر برقم (٦٩٤٣).

عدونا، فقال ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم، فاصبروا**»[(١)]، فكم من إنسان آنس في قلبه، في لحظة نشوة إيمانية، شيئاً من القوة، والحماس، والاندفاع، فظن أنه مستعد أن يحتمل أي بلاء في ذات الله، فما هو إلا أن يناله طرف يسير من الابتلاء، حتى يضعف ويخور.

٣ ـ دناءة المنافقين، وقلة مروءتهم، فهم لا يستحون؛ إذا جاء نصر من الله ﷻ أقبلوا مسرعين يطالبون بنصيبهم ـ كما زعموا ـ من الغنائم، وإذا جاءت شدة انخنسوا، وفرُّوا.

٤ ـ إثبات علم الله ﷻ؛ المحيط بخفايا النفوس. فهذا يجعل المؤمن يشعر برقابة الله ﷻ له في جميع أحواله، وتقلباته، ويثمر ذلك ثمرات مسلكية من الحرص على طاعة الله، والانكفاف عن معصيته.

قوله: (وعن أبي سعيد ﵁ مرفوعاً: إن من ضُعف اليقين) (ضعف) يجوز فيها الفتح والضم، والضعف: ضد القوة، والصحة، واليقين: ضد الشك، وهو أعلى مراتب التصديق.

قوله: (أن ترضي الناس بسخط الله)؛ أي: تتقرب إليهم بما يرضيهم من مسخوطات الله ﷻ، وهذا يقع من بعض الناس: تجده يحاول إدخال السرور على محدثه بأمر يسخط الله، كان يأتي بالمزاح الكاذب، أو بالغيبة، أو يرخص له في أمرٍ محرم ليكسب رضاه.

قوله: (وأن تحمدهم على رزق الله)؛ أي: تشكرهم على رزق الله، والمنعم الحق هو الله ﷻ، فيثني على المخلوق، وينسى الخالق الرازق. وهذا لا ينافي أن يشكر الناس، فإنه قد جاء في الحديث: «**لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[(٢)]، وقال الله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال النبي ﷺ: «**من صنع إليكم**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخَّر القتال حتى تزول الشمس برقم (٢٩٦٦)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء برقم (١٧٤٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في شكر المعروف برقم (٤٨١١)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك برقم (١٩٥٤) وصححه الألباني.

معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[١]؛ فالواجب على الإنسان أن يعتقد بقلبه: أنّ المنعم والمتفضل هو الله ﷻ، وأنّه أجرى نعمته على يدي هذا الآدمي، وجعله سبباً لحصولها، فيشكر الله تعالى، ويشكر الذي صنع إليه معروفاً، ويدعو له. وحينئذٍ لا تتعارض الأدلة، وإنما تتعارض حينما يكيل المديح والثناء للمخلوق الذي لا يعدو أن يكون سبباً، وينسى الخالق، المنعم، المتفضل. وهذا الحمد المذموم يكثر على السنة الشعراء، والمداحين، المتزلفين لذوي السلطان. فعلى الإنسان أن يضبط عباراته، ويتعاهد قلبه في مثل هذه المواقف.

قوله: (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) هذه الخصلة تقع من كثير من الناس؛ تجده يتغيظ، ويتبرم، حين يفوته شيء من الدنيا، ويقول: هذا بسبب فلان؛ قطع رزقي، وأفسد عيشي، ويصب جام غضبه، وعتبه على من حوله. والواقع أن هذا ناتج عن ضعف اليقين؛ لأن من علم بأن كل شيء بيد الله، وأنه هو المعطي والمانع، والقابض والباسط: علم أنّ هؤلاء لا يملكون من أمر الله شيئاً، وأن الأمر لا يستوجب أن يذمهم ذمّاً مطلقاً على شيء منعه الله تعالى إياه، فهذا لا يرد مفقوداً؛ بل يورثه مزيداً من الحزن.

ومن تأمل في سيرة النبي ﷺ، وشمائله الطاهرة، وجد أنه بريء من هذا الخُلق، وهو العتب، يقول أنس بن مالك ﷺ: «خدمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، والله ما قال لي: أفاً قط، ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا؟»[٢]، من يطيق أن يكون أحد تحت ولايته، ويمر عليه عشر سنين ولا يعاتبه مرة واحدة؟! وفوق ذلك، يقول أنس ﷺ: «فإن لامني أحد من أهل بيته، إلا قال: **«دعوه، فلو قُدِّر»** أو قال: **«لو قُضي أن يكون كان»**»[٣]. فلو أخذ الإنسان نفسه بهذا الخلق الرفيع، لحقق سعادة لا توصف؛ إذ أنّ معظم شقاء الناس،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله برقم (١٦٧٢) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً برقم (٢٣٠٩).

(٣) أخرجه أحمد، ط. الرسالة في (١٣٤١٨) وقال محققو المسند: «حديث صحيح».

ومشاكلهم، وشجارهم، إنما يأتي من باب العتب والتلوم، فإذا علم الإنسان أنه لا وجه أن يذم غيره على أمر لم يؤته الله إياه، طابت نفسه، وقرت عينه، وسلم الناس من لومه، فهذه أخلاق رفيعة عالية ينبغي للمسلم أن يتخلق بها.

قوله: (إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره) هاتان جملتان محكمتان تدلان على الإيمان بالقدر، ولا تُلغيان فعل الأسباب؛ لكنهما تقمعان النفس عن التعلق بالأسباب الظاهرة، ونسيان مسبب الأسباب. فقوله: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص» ليس فيه إلغاء السعي، وطلب الرزق، وإنما إعلام بأن الرزق لا يأتي بالتلهف والإشفاق؛ بل هو محض فضل الله ﷻ، يجريه على من شاء من عباده. ولهذا فاضل الله تعالى بين عباده، فقال: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١] فقد تجد الإنسان الذكي، الألمعي، الحاذق، صفر اليدين، وتجد الإنسان الغبي، الخامل، الأخرق، تحت يده المال الكثير، ليعلم الناس أن الأمر بيد الله ﷻ. فالذي قال: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ**» هو الذي قال بعدها: «**وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»[١]؛ فليحرص الإنسان على ما ينفعه في دينه ودنياه، مستعيناً بالله، ولا يعتقد أن حرصه مستقل بتحصيل الرزق.

قوله: (ولا يرده كراهية كاره) فرزق الله ﷻ المقسوم للعبد سيأتيه، فما قسمه الله تعالى له فهو حاصل، يقول النبي ﷺ: «**أيها الناس، اتقوا الله، وأجملوا في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، خذوا ما حل، ودعوا ما حرم**»[٢]. فما أحوج طلاب الدنيا إلى هذه الجملة! «**اتقوا الله وأجملوا في الطلب**» إنها درس لصاحب النفس المتشوفة إلى متاع الحياة الدنيا، لم يقل: لا تطلب رزقك؛ بل قال اتق الله،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله برقم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب التجارات، باب الاقتصاد في طلب المعيشة برقم (٢١٤٤) وصححه الألباني.

وأجمل في الطلب، فرزقك مقسوم منذ الأزل، ولا بد أن تستوفيه، كما تستوفي أجلك. وكم من أناس أصيبوا بالنكسات النفسية، والعلل الباطنية؛ بسبب فوات أمر دنيوي، كما حصل قبل سنين قريبة؛ لما انهار سوق الأسهم، انهارت نفوس، وجرى لكثير من المتضررين أمراض، وجلطات، واكتئاب. ولو أيقن العبد: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره» وأن الواجب عليه أن يتقي الله، ويجمل في الطلب، لكانت النفس مستعدة لتلقي ما يقع عليها، فنسأل الله عز وجل أن يرزقنا اليقين.

مناسبة الحديث للباب:

ما تضمنه من ذم الخوف من غير الله، واسترضاء الخلق بسخط الله، لطلب جاه أو رزق.

فوائد الحديث:

١ ـ أنّ الإيمان يتفاضل، ويزيد وينقص، ويقوى ويضعف، كما أن أهله يتفاضلون فيه.

٢ ـ وجوب التوكل على الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ ذم من طلب رضا الناس بسخط الله، وشؤم عاقبته، وذم من شكر الناس على رزق الله.

٤ ـ ذم من لام الناس على قدر الله.

٥ ـ وجوب الإيمان بالقدر، مع فعل الأسباب.

* * *

ثم قال رحمه الله:

(وعن عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس»، رواه ابن حبان في صحيحه).

لهذا الحديث قصة، وهو أن معاوية رضي الله عنه لما ولي، كتب إلى أم المؤمنين عائشة: أن اكتبي إليّ، وأوصيني، ولا تكثري، فكتبت إليه رضي الله عنها بهذه الكلمات،

وهي كلمات نورانية، يحتاج إليها من ولي ولاية أكثر من غيره.

قوله: (من التمس رضا الله بسخط الناس)؛ أي: من طلب وحرص على تحقيق رضا الله ﷻ، ولم يلتفت لسخط الناس.

قوله: (رضي الله عنه، وأرضى عنه الناس) حصل له مراده الذي قصده، وهو رضا الله، وحصل له رضا الناس في العاقبة والمآل والعاقبة.

قوله: (ومن التمس رضا الناس بسخط الله)؛ أي: تقرب إليهم بما يعجبهم، ويُسخط الله. **قوله: (سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس)** فإن الله يسخط عليه، ويُسخط عليه الناس، وعومل بنقيض قصده. وهذا أمر مجرب مشهود، فكم من إنسان قام لله قومة صادقة، ولامه من حوله، وزجروه، فلم يعبأ بهم، ولم يلتفت إلى ذمهم، وتقريعهم، وما زال أمَّاراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر، داعياً إلى الله ﷻ، فما هي إلا سُنَيَّات، أو دون ذلك، حتى صرف الله إليه قلوب الناس؛ لأنهم علموا صدقه، وأنه لا يبتغي من وراء ذلك حظ نفس، فانقلب سخطهم رضاً، وذمهم مدحاً. والعكس؛ فكم من إنسان بذل دينه، ومروءته، ليرضي الناس، فربما سمع منهم ثناءً بادئ الأمر، وأعجبهم حاله، لكن ما هي إلا أيام حتى تكشَّف لهم أمره، وعادوا ذامين له، ساخطين عليه. فاجعل الله تعالى نصب عينيك في كل ما تأتي وما تذر. ولقد سُئل إسحاق بن راهويه عن مسألة، فأجاب، فقيل له: إن أخاك أحمد بن حنبل يقول فيها بمثل ذلك، فقال: ما ظننتُ أن أحداً يوافقني عليها[1]، فلم يلتفت لأحد، ولم يستوحش من قلة السالك، ولم يقل: هل معي أحد على هذا القول؟ وإنما نظر فيما يجب عليه شرعاً، ويبرؤه عند الله ﷻ، فهذه هي الحسابات الصحيحة، في الدنيا والآخرة، لكن تحتاج إلى يقين، وثبات، وصبر، واعتصام بالكتاب والسُّنَّة، وفي سير السلف الصالح أسوة حسنة.

⁂ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من حمد من قدَّم خشية الله، وذم من قدَّم خشية الناس.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ط. المعرفة (١/ ٦٩).

فوائد الحديث:

١ ـ أنّ الجزاء من جنس العمل، وأن العاقبة للتقوى.

٢ ـ أنّ قلوب العباد بيد الله؛ فهو الذي يُرضي ويُسخط، ويصرف القلوب، فليثق العبد بربه.

* * *

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية آل عمران.

وهي قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ وقد تقدم. فينبغي لنا إذا وقع في نفوسنا شيء من هذا التخويف، أن نقول كما قال المؤمنون: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

الثانية تفسير آية براءة.

وهي قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ والشاهد منها: قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، فأثنى على من أفرده بالخشية.

الثالثة تفسير آية العنكبوت.

وهي قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، ففيها ذم لمن ترك حق الخالق، خوفاً من فتنة المخلوق.

الرابعة أنّ اليقين يضعف ويقوى.

لقوله ﷺ: «**إنّ من ضعف اليقين**» وهذا أمر يجده المؤمن في نفسه، فيمر به حال يشعر بقوة اليقين، بسبب الذكرى، ويأتي عليه حال يصيبه الوهن، إما بسبب المعاصي، أو الغفلة.

الخامسة **علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.**

وهي: «أن يرضي الناس بسخط الله، وأن يحمدهم على رزق الله، وأن يذمهم على ما لم يؤته الله».

السادسة **أنّ إخلاص الخوف لله من الفرائض.**

لقوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ فجعله شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه؛ لأن المشروط ينتفي عند انتفاء شرطه.

السابعة **ذكر ثواب من فعله.**

وهو رضاه عنه، وإرضاء الناس عليه.

الثامنة **ذكر عقاب من تركه.**

وهو سخطه عليه، وإسخاط الناس عليه.





باب قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣﴾[1] [آل عمران: ١٧٣]، رواه البخاري، والنسائي.

الشرح

ترجم المصنف رحمه الله للباب بهذه الآية العظيمة: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝٢٣﴾. وهذه الآية وردت في مقالة موسى عليه السلام لقومه، حينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، فتلكؤوا، وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ [المائدة: ٢٢] فأمرهم بالتوكل على الله عز وجل، وبيَّن لهم أنه شرط في الإيمان.

وحقيقة التوكل: اعتماد القلب على الله عز وجل في جلب المصالح ودفع

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ الآية برقم (٤٥٦٣)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب عمل اليوم والليلة، ما يقول إذا خاف قوماً برقم (١٠٣٦٤).

المفاسد، مع فعل الأسباب الشرعية، أو الحسية، الموصلة إلى ذلك.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

التوكل عبادة قلبية، فصرفها لغير الله شرك، فناسب إيراد هذا الباب، بعد ذكر المحبة، والخوف؛ لأن مقام التوكل من أعظم مقامات السالكين.

قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: لا على غيره، فقدم الجار والمجرور للحصر ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾؛ أي: اعتمدوا وفوضوا أموركم جميعها إليه ﷻ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فدل ذلك على أن توحيد الله بالتوكل من شرط الإيمان.

وليعلم: أن اعتماد الإنسان على غيره ينقسم إلى **قسمين**:

الأول: أن يعتمد على غيره فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ كأن يقول: اعتمدتُ عليك في شفاء ابني، فهذا شرك أكبر، لا يجوز صرف هذا إلا لله تعالى. فهذا هو «التوكل».

الثاني: أن يعتمد على غيره فيما يقدر عليه، فهذا جائز مباح؛ وقد جرت به العادة وصح شرعاً؛ لأنه استنابة؛ كأن يستنيبه في بيع، أو شراء، أو إجارة، أو ولاية نكاح، ونحو ذلك. وهذا «وكالة» أو «توكيل».

وأما التوكل فإنه لا ينقسم؛ لأنه عبادة، كما أن السجود لا يمكن أن ينقسم إلى سجود عبادة، وسجود غير عبادة، بخلاف الأمور الأخرى، مثل الخوف، والحب. فالتوكل كله عبادة لا يجوز صرفه لغير الله تعالى. وأما التوكيل والوكالة فهذا لم يزل في الناس جارٍ، حتى قيل:

والنّاسُ بالنّاسِ من حَضْرٍ وبادِيَةٍ ... بعضٌ لبعضٍ ـ وإن لم يَشعُروا ـ خدَم[1].

فلم يزل الناس يقضي بعضهم مصالح بعض، ولم يزل الناس يتخذون الوكلاء نيابة عنهم، ولم يزل الفقهاء ـ رحمهم الله ـ يعقدون في كتب الفقه: باب الوكالة، فالتوكيل والوكالة مشروعان؛ لأنهما استنابة في مقدور عليه.

وقد سئل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قول بعض العامة: توكلتُ عليك يا فلان في كذا، ويذكر أمراً من الأمور المقدور عليها،

---

(١) ديوان أبي العلاء المعري (ص١٢٠٣).

فأجاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن هذا شرك، أما التوكيل فيجوز؛ لأنه استنابة[١]، فَفَرَقَ بين التوكل والتوكيل. وسُئل أيضاً عن قول بعض العامة: متوكل على الله ثم عليك؛ فأجاب: هذا شرك، وإنما يقول: موكلك، ولا يقول: موكل الله ثم موكلك، فإن هذه عامية، وليست في محلها[٢]. وعلّق ابن قاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلميذ الشيخ على هذه المسألة، فقال: والفرق بين هذا وبين أعوذ بالله ثم بك: أنه يجوز الاستعاذة بالمخلوق مفرداً فيما يقدر عليه، بخلاف التوكل، فإنه كله عبادة، كما لا يجوز: أسجد لله، ثم لك، أو أعبد الله، ثم أعبدك يا فلان، كذلك لا يجوز أن يقول: أتوكل على الله، ثم عليك[٣].

وبهذا يتبيّن أن التوكل عبادة خالصة، لا تنقسم، أما مطلق الاعتماد، **ففيه التفصيل**:

ـ فما كان فيما لا يقدر عليه إلا الله فهو التوكل الذي لا يجوز صرفه إلا لله، وكذا لو نادى غائباً، وقال: أنت وكيلي في كذا وكذا، فهذا يلتحق بالشرك؛ لأنه يدعو غائباً، ويعتمد عليه.

ـ وما كان في مقدور العباد، فهو توكيل سائغ، إذا كانوا أهلاً لذلك، كما لو قال لشخص حاضر قادر: وكلتك أن تبني لي هذا الحائط، أو: وكلتك أن تستخرج لي صكّاً شرعيّاً بملكية هذه الأرض، فهذا لا بأس به.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب التوكل على الله ﷻ؛ وأنه عبادة لا يجوز صرفها لغيره، فمن صرفها لغيره، فقد وقع في الشرك الأكبر.

٢ ـ أن التوكل من أعظم أسباب القوة والنصر؛ لأن هذا قيل لهم بين يدي فتح وجهاد.

٣ ـ أن التوكل شرط في صحة الإيمان.

* * *

---

(١) فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ١٥٠).

(٢) فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ١٥٠).

(٣) في تعليقه على فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١/ ١٥٠).

ثم ثنى المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقول الله:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (إنما) أداة حصر.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ أي: خافت، والوجل من أعمال القلوب.

قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ أي: إذا تلي عليهم القرآن ازداد إيمانهم.

قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ قدم الجار والمجرور ليفيد الاختصاص. وهذا هو موضع الشاهد، فقلوبهم تفزع إلى الله في المضائق والأزمات، وعند الحاجات والملمات، وتركن إلى جنابه. أما من كان قلبه يلتفت يَمنة ويَسرة، ويطلب الخلاص عند الأشخاص، فليس بمتوكل ولا مؤمن حقاً.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنفال: ٣] يؤدونها على وجه الاستقامة؛ في شروطها، وأركانها، وواجباتها.

قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٣]؛ أي: يبذلون النفقة الواجبة؛ من زكاة، أو نفقة على ولد، أو زوجة، أو بهيمة، والنفقة المستحبة، من صدقة، وبر، وصلة.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤]؛ أي: من جمع هذه الخصال الخمس فقد حقق الإيمان الكامل. وبه يتبيّن أن الإيمان درجات، **ومراتب:**

الأولى: أصل الإيمان: وهو الحد الأدنى الفاصل بين الإيمان والكفر؛ وهو الاستعلان بالشهادتين معتقداً لمعناهما، مقرّاً بمقتضاهما.

الثانية: الإيمان الواجب: أن ينضم إلى ما سبق فعل الواجبات، وترك المحرمات، فمن أتى بذلك دخل الجنة، فقد سأل رجل النبي ﷺ: «أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال، وحرمت الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً، أأدخل الجنة؟ قال: «**نعم**» قال: والله لا أزيد على ذلك شيئاً»[(١)].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة، وأن من تمسك بما أمر به دخل الجنة برقم (١٥).

الثالثة: الإيمان الكامل؛ وذلك أن يضيف إلى ما تقدم، فعل المستحبات، وترك المكروهات، وهو الإيمان المطلق. وفرقٌ بين الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان، فالإيمان المطلق هو الإيمان الكامل، ومطلق الإيمان هو الحد الأدنى منه، الذي ليس بعده إلا الكفر.

والمؤمنون يتفاوتون في هذه المراتب، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢].

ـ فالظالم لنفسه: الذي أتى بأصل الإيمان، ووقع في بعض المحرمات، أو ترك بعض الواجبات. والمقتصد: هو الذي أتى بأصل الإيمان، وصدقه بفعل الواجبات، وترك المحرمات، وحسب. والسابق بالخيرات: هو الذي فعل الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات.

مناسبة الآيات للباب:

ظاهرة، لما تضمنته أوصاف المؤمنين حقّاً، من إفراد الله بالتوكل.

فوائد الآيات:

١ ـ أن الإيمان يزيد وينقص؛ لقوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾؛ وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، بخلاف المرجئة، والوعيدية، الذين يعتقدون أن الإيمان شيء واحد، إما أن يوجد كله، وإما أن يعدم كله، لكن المرجئة تساهلوا في تحقيقه؛ وقصروه على التصديق، ولم يدخلوا العمل في مسمَّى الإيمان. والوعيدية شددوا في شرطه، فجعلوا ترك الواجبات، وفعل الكبائر، مزيل لاسم الإيمان، لكن الإيمان عند الفريقين، لا يزيد ولا ينقص.

واستدل أهل السُّنَّة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص، بناطق الكتاب، في ستة مواضع صريحة، منها الموضع السابق.

٢ ـ أن أهل الإيمان يتفاضلون فيه، فمنهم المؤمنون حقّاً، ومنهم دون ذلك، ففي قول الله ﷻ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] شرط الله تعالى في الرقبة أن تكون مؤمنة، فلو لم يجد الإنسان إلا عبداً زانياً، أو سارقاً، أو مغتاباً،

أو نماماً، أو ظالماً، أو جانياً، فأعتقه برأت ذمته باتفاق العلماء؛ وصدق عليه أنه رقبة مؤمنة، ومع ذلك فليس إيمانه كإيمان من وصفهم الله ها هنا، ولا كمن وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

٣ ـ أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان؛ لقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال: ٣]، وقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾. فالتوكل عبادة عملية قلبية، وإقام الصلاة عبادة عملية بدنية، خلافاً للمرجئة، بجميع طبقاتها، التي تخرج الأعمال عن مسمى الإيمان.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾).

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ (يا) أداة نداء، وأتى بـ(أي) ليتوصل بها إلى نداء المعرف بـ(أل)؛ لأنه لا يجوز لغةً أن تدخل ياء النداء على المعرف بـ(أل). والعامة يقولون: يا الرجل، يا الواقف، يا القاعد، وهذا غير صحيح لغةً. والهاء للتنبيه.

قوله: ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ بالهمز وبدونه، يقال: النبيء والنبي، وهو إما (فعيل) بمعنى (فاعل) أي: مُنَبِّىءٌ عن الله برسالته، وإما بمعنى (مفعول)؛ أي: أنه مُنَبَّأٌ من الله بأوامره ونواهيه، ويُجمع على الأنبياء، والنبيين، والنُبآء، كما قال الشاعر:

يَـا خَـاتَـمَ الـنُّـبَـآءِ إِنَّـكَ مُـرسَـلٌ بِـالـحَـقِّ خَـيْـرُ هُـدَى الْإِلَـهِ هُـدَاكَـا[١]

واختلفوا من أي مادة اشتُق اسم (النبيّ) على **ثلاثة أقوال:**

أحدها: أنه مأخوذ من النبأ، وهو الخبر؛ لأنه يُنْبِئُ عن الله؛ أي: يُخْبِرُ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النجم: ٣٦].

---

(١) البيت، للعباس بن مرداس يمدح النبي ﷺ في ديوانه (ص٩٥)، والكتاب (٣/ ٤٦٠)، ولسان العرب (١/ ١٦٢) (نبأ).

الثاني: أن أصل النبيِّ هو الطريق، وسمي النبي نبياً لاهتداء الخلق به كالطريق، قال القطامي:

لَـمَّـا وَرَدْنَـا نـبِـيّـاً وَاسْـتَـتَـبَّ لَـنَـا   مُسْتَحْفَرٌ بِخُطُوطِ النَّسْجِ مُنْسَجِلُ[1]

الثالث: أنه مأخوذ من نبا ينبو إذا ظهر؛ فالنبي من النَّبْوة، وهو الارتفاع؛ لأن منزلة الأنبياء رفيعة ظاهرة. والمراد بالنبي هنا هو محمد ﷺ.

قوله: ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: كافيك، فالحسب الكفاية.

قوله: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾ المراد: الله يكفيك ويكفي من اتبعك من المؤمنين، ولا يمكن أن يكون المراد: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين؛ لأن الحسب والكفاية لا تكون إلا لله ﷻ، فلا يمكن أن يُحال النبي ﷺ على المؤمنين في الكفاية.

⁂ مناسبة الآية للباب:

ظاهرة؛ لأن الحسب هو الكفاية التي تستلزم التوكل.

فوائد الآية:

١ ـ كفاية الله لنبيِّه والمؤمنين، واستغناؤهم عمن سواه.

٢ ـ أن الإيمان بكفاية الله يستلزم إفراده بالتوكل.

٣ ـ بطلان دعوى من جعل الحسب لغير الله، كمن يدعو ميتاً، أو غائباً: (أنا في حسبك)!

٤ ـ وجوب اتباع النبي ﷺ من سائر المؤمنين.

قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أي: عليه، لا على غيره، في جلب النفع، ودفع الضر.

قوله: ﴿فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾؛ أي: كافيه، وقد جاءت هذه الجملة ضمن جمل نورانية محكمة، لها وقع عظيم في القلب، وهي قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) تفسير الماوردي، النكت والعيون (١/ ١٣١).

بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فما من مؤمن يعتريه شيء من القلق، أو الخوف، أو الهم، أو الخوف، من فوات مطلوب، أو طلب مقصود، فيقرأ هذه الآيات حتى يطمئن فؤاده، ويعلم أن كل شيء بيد الله. فهي دواء ناجع للهمِّ والحزن.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة؛ كسابقتها، لما فيها من ذكر كفاية الله لمن حقق التوكل.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب التوكل على الله عز وجل.

٢ ـ فضيلة التوكل، وأنه يحصل به المقصود.

٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل، فمن اعتمد قلبه على الله كفاه، فالتوكل مقام عظيم، خلافاً لما ادعاه بعض الصوفية من أنه من أضعف مقامات السالكين؛ بل التوكل من أعظم منازل السالكين، ومقامات العبودية الشريفة. وسيد المتوكلين ﷺ فعل كل سبب، مع توكله على الله عز وجل، فقد ظاهر بين درعين، ولبس المغفر على رأسه، وفي هجرته كمن نهاراً، وسار ليلاً، واتخذ دليلاً، وغير ذلك.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

(وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ قالها: إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]» رواه البخاري، والنسائي).

هذا النص يدل على فقه ابن عباس رضي الله عنهما ودقة ملاحظته، فإنه قد جمع بين ما قال إمام الموحدين في الأولين، وما قال إمام الموحدين في الآخرين، بين قول إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار: حسبنا الله ونعم الوكيل. وقد روي أن جبريل عليه السلام عرض له، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أمَّا إليك فلا، وأما

إلى الله فبلى[1]، وقول نبيِّنا ﷺ والمؤمنين حين أجلب عليهم بعض الناس، وقالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ كنوع من الحرب النفسية، والإرهاب، لكن النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين قابلوهم بالتوكل على ربهم، فكانت النتيجة: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤]، وصدق عليه قول ربه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من الاستشهاد على تفويض الأمور إلى الله، وصدق التوكل عليه.

فوائد الأثر:

١ - فضيلة هذه الكلمة ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾، وبعض الناس اليوم، يستعملها في غير موضع التوكل؛ بل في موضع الاسترجاع، أو الحوقلة، أو التشكي، كما يقول العامة عندنا: فلان يتحسب على فلان؛ أي: يدعو عليه. وهي في الأصل كلمة توحيد تدل على التوكل، والاعتماد على الله ﷻ، فيما ينوب المرء. لكن إن استعملها الإنسان في مقام معين، ربما دلت على الدعاء بالقرائن المحيطة.

٢ - مشروعية قولها في الكروب والمضائق؛ لأن إبراهيم عليه السلام قالها في كرب وضيق، وقالها نبيِّنا ﷺ والمؤمنون كذلك.

٣ - إثبات زيادة الإيمان ونقصانه.

٤ - أن الله ﷻ قد يجعل فيما يكرهه الإنسان خيراً كثيراً، فالذين قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، حصل لهم منه الخير والنعمة ما لم يكن لهم بالحسبان، كما قال: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ وهذا من ثمرات التوكل على الله.

---

(١) انظر: تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٤٦٧/١٨).

📖 **ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:**

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

لقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾ فهذا أمر، والأصل في الأمر الوجوب.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

لقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٣﴾ فلا يصدق وصف الإيمان، ولا يكون من جملة المؤمنين، إلا من حقق التوكل على الله تعالى.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

المتضمنة لصفات المؤمنين حقاً، ومنها التوكل، وهي قوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

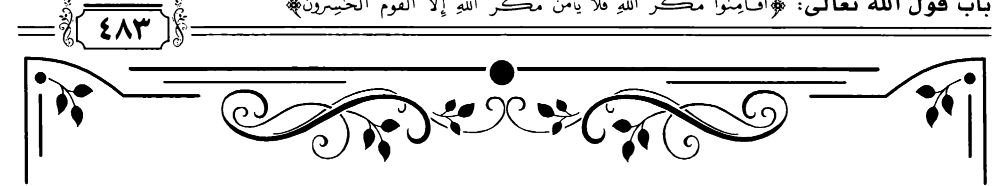
أي: في آخر سورة الأنفال، وهي قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ أي: الله كافيك، وكافي من اتبعك.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

وهي قوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾؛ أي: كافيه.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة؛ أنها قول إبراهيم، ونبيّنا محمد ﷺ في الشدائد.

ولنا فيهما أسوة حسنة، فينبغي للإنسان أن يحتفي بهذه الكلمة، وأن يعتصم بها في دعائه لربه عَزَّوَجَلَّ حتى يكشف الله كربه. ومن شواهد ذلك، قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾ [التوبة: ١٢٩].



باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]

وقوله: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر: ٥٦].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ سُئل عن الكبائر، فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»[2] رواه عبد الرزاق.

الشرح

هذه الترجمة مكونة من آيتين؛ تضمنت الأولى الأمن من مكر الله، والثانية القنوط من رحمة الله. فهذان معنيان متقابلان، وآفتان عظيمتان، لمنافاتهما لتوحيد الله عز وجل.

قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ﴾ استفهام إنكاري يتضمن التوبيخ والنكير. والضمير يعود على مكذبي الرسل.

قوله: ﴿مَكۡرَ ٱللَّهِۚ﴾ المكر: إيصال العقوبة، أو الضرر بطريق خفي، من حيث لا يُتوقع. وينقسم إلى **قسمين**:

١ ـ مكر محمود: وهو إيصال الضرر إلى مستحقه، من حيث لا يشعر.

٢ ـ ومكر مذموم: وهو إيصال الضرر إلى غير مستحقه، من حيث لا يشعر.

مثال ذلك: لو أنّ إنساناً تحايل على الناس، واستدرجهم، وأغراهم وأكل

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم برقم (٥٢٠١)، وكشف الأستار عن زوائد البزار برقم (١٠٦)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: (٥/ ٥٠): «وهذا إسناد حسن».

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٨٧٨٣)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم (١٠١٩)، ومصنف عبد الرزاق برقم (١٩٧٠١).

أموالهم بالباطل، فذلك مكر مذموم؛ لأنه وقع على بريء. ولو انتدب له شرطي من الشرطة الجنائية، فاستدرجه، وأغراه بأنه سيعطيه أموالاً ليقع في قبضته، فذلك مكر محمود؛ لأنه وقع على ظالم.

فالمكر المضاف إلى الله سبحانه، لا ريب أنه مكر محمود؛ لأن الله تعالى إنما يمكر بالماكرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝٥٠﴾ [النمل: ٥٠]. ولهذا كان هذا الوصف، وأمثاله مما ينقسم إلى محمود ومذموم، لا يجوز أن يساق إلا على سبيل المقابلة، ولا يسمى الله بالماكر، ولا يوصف بالمكر، أو يخبر به عنه بإطلاق؛ بل لا بد من التقييد؛ فيقال: ماكر بالماكرين، ويمكرون ويمكر الله، ونحوه، حتى لا يتبادر إلى الذهن المعنى المذموم. وكذلك الحال في: الكيد، والخداع، والاستهزاء، مما تنقسم مدلولاتها إلى محمود ومذموم.

ومكر الله، في الآية، استدراجه للمكذبين أعداء الرسل، وأخذهم على حين غرة.

قوله: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾؛ أي: الهالكون. وذلك لجهلهم بالله.

قوله: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ القنوط: هو شدة اليأس، واستبعاد الفرج، وهي حالة نفسية تعتري بعض النفوس، ويعبرون عنها أحياناً بالإحباط، وهو من الكبائر العظيمة، لما فيها من سوء الظن بالله.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ الضال: هو التائه المخطئ لدرب الصواب.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله من أعظم الذنوب المنافية للتوحيد، وقد تُنافي التوحيد من أصله، وقد تنافي كماله الواجب، بحسب الدرجة التي بلغها صاحبها.

فوائد الآيتين:

١ ـ التحذير من مكر الله، وأخذ الأهبة والاستعداد.

٢ ـ التحذير من القنوط من رحمة الله، ووجوب رجائه، وحسن الظن به.

٣ ـ وجوب الجمع بين الخوف والرجاء في القلب، فالعبد يحتاج من خوف الله إلى ما يحجزه عن معصية الله، ولا حاجة له فيما زاد عن ذلك، ويحتاج من رجاء الله ما يحفزه على طاعة الله. فهذه معادلة قلبية متيسرة لمن يسرها الله تعالى له، فحينئذٍ تستقيم النفس، وتصبح نفساً سويةً، سليمة، خلية من الأمراض النفسية. وتذهب عنها الوساوس، والأفكار السلبية، وتكتسب تقوى تعصمها عن اتباع الشهوات، والشبهات.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(**وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ: سئل عن الكبائر**) وتقدم تعريف الكبائر (**فقال: «الشرك بالله، واليأس من رَوح الله، والأمن من مكر الله»**) هذه ثلاث خصال عظيمة:

• **الأولى**: (**الشرك بالله**) وهو تسوية غير الله بالله، فيما هو من خصائص الله. وهو أعظم الذنوب. فما عُصي الله بذنب أعظم من الشرك، وما تقرِّب إليه بطاعة أعظم من التوحيد.

• **الثانية**: (**اليأس من رَوح الله**) وهي قطع الرجاء بالله، واستبعاد فرجه. قال يعقوب لبنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

• **الثالثة**: (**الأمن من مكر الله**)؛ أي: الغفلة، وعدم الاكتراث من استدراج الله تعالى للعبد بالمال، والصحة، والجاه، وغير ذلك.

وهذا الحديث لم يذكر المصنف من أخرجه، وقد رواه البزار[١]؛ والطبراني[٢]، وابن أبي حاتم[٣]، واختلف العلماء في ثبوته: فحسّنه جمع من

---

(١) مختصر زوائد مسند البزار برقم (٥٥).

(٢) المعجم الكبير، للطبراني برقم (٨٦٩٧) لكنه عن ابن مسعود، لا عن ابن عباس.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم برقم (٥٢٠١) وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٥٠): «وهذا إسناد حسن».

العلماء، منهم: العراقي[١]، والسيوطي[٢]، والألباني، إلا أن ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «وفي إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً»[٣]. ولا ريب أن معناه صحيح، وأن هذه الخصال من الخصال الموجبة، التي جاء الشارع بالتحذير منها، والنكير على من وقع فيها.

قوله: (وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله») هذا الأثر كسابقه، إلا أنه ذكر القنوط واليأس، وهما متقاربان.

قوله: (رواه عبد الرزاق) الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد جزم ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بصحته موقوفاً، فقال: هو صحيح إليه بلا شك[٤]؛ أي: إلى ابن مسعود، وقد رواه أيضاً ابن جرير[٥]، والطبراني[٦].

※ مناسبة الأثرين للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيهما من ذم الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله؛ لمنافاتهما للتوحيد.

فوائد الأثرين:

١ ـ تحريم الأمن من مكر الله، واليأس من روح الله.

٢ ـ أن الشرك بالله أعظم الذنوب على الإطلاق.

٣ ـ أن العبد ينبغي أن يجمع بين الخوف والرجاء.

٤ ـ وجوب تعظيم الله، وحسن الظن به، معاً.

* * *

---

(١) قال المناوي في فيض القدير (٥/ ٦١): «رمز المصنف لحسنه قال الزين العراقي في شرح الترمذي: إسناده حسن».
(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٤/ ٣٦٧).
(٣) تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٢/ ٢٧٩).
(٤) تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٢/ ٢٧٩).
(٥) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (٩١٩٢).
(٦) المعجم الكبير، الطبراني برقم (٨٦٩٥).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية الأعراف.

تفسير آية الأعراف، وهي قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ في شأن المكذبين لرسله.

الثانية تفسير آية الحجر.

وهي قوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ في سياق الآيات عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ

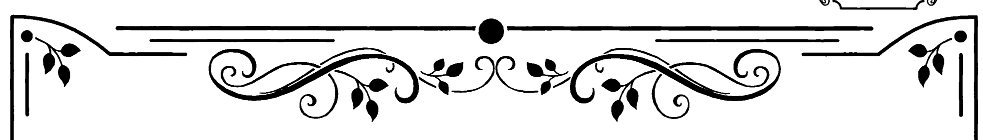
الثالثة شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

لقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)﴾.

الرابعة شدة الوعيد في القنوط.

لقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)﴾ وكذلك ما رواه ابن عباس، وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.





باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم»(١).

وفي «صحيح مسلم»: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»(٢).

ولهما: عن ابن مسعود مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»(٣).

وعن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير، عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة»(٤).

وقال النبي ﷺ: «إنّ عِظَمَ الجزاء من عِظَم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط»(٥) حسَّنة الترمذي.

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٢٣/ ٤٢١).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة على الميت برقم (٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب برقم (١٢٩٤)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب. . . برقم (١٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء برقم (٢٣٩٦) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٥) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء برقم =

الشرح

قوله: (من الإيمان): أي من خصال الإيمان.

و**(الصبر)** لغة: الحبس، والكف، والمنع. واصطلاحاً: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعوى الجاهلية.

و**(أقدار الله)** ما قضاه الله في الأزل من الأمور المؤلمة المكروهة.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لكون الصبر شعبة من شعب الإيمان الواجب.

منزلة الصبر وفضله:

كثر ذكر الصبر في كتاب الله ﷻ، وثناء الله تعالى على الصابرين، في نحو من خمس وخمسين موضعاً، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]، وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠] فمقام الصبر واجب، وفضله عظيم.

وفي سُنَّة رسول الله ﷺ: **«ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة؛ في نفسه، وولده، وماله، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة»**(١). ويروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: (ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس باد الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له)(٢). والأحاديث والآثار في الصبر كثيرة.

= (٢٣٩٦)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء برقم (٤٠٣١)، وقال الألباني: «حسن».

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء برقم (٢٣٩٩) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) انظر: الصبر والثواب عليه، لابن أبي الدنيا (ص٢٤).

وكم من الناس من يبلغ المراتب العلى، لا بصلاته، ولا بصيامه، ولا بقيامه، ولا بصدقته، لكن يقيض الله تعالى عليه مصيبة دنيوية في بدنه، أو نفسه، أو أهله، أو ماله، فيرفعه الله به أعلى الدرجات. والذي ينبغي للإنسان أن يسأل الله العافية، لكن إذا ابتلي فليصبر؛ ولهذا وجَّه النبي ﷺ أصحابه لما حالت الشمس بينهم وبين أن يقاتلوا عدوهم، فقالوا: يا رسول الله وددنا أنا لو لقينا عدونا، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم، فاصبروا**»(١). فالإنسان لا يدري ما حاله إذا وقعت عليه المصيبة، فربما آل حاله إلى الجزع والسخط، فإن الإنسان محل القصور والتقصير، فعليه أن يسأل الله العافية، فإذا أجرى الله عليه شيئاً من قدره، فليستمسك بما قاله النبي ﷺ: «**عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيراً له**»(٢).

وما يقع على العبد من مصائب دنيوية، تارة تكون تكفيراً للسيئات، وتارة تكون رفعةً للدرجات، وتارة تكون ابتلاء؛ يستخرج الله تعالى بها أنواع العبوديات من خبيئة قلبه، فلا يظننّ ظان بالله إلا خيراً. قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر: ١٥] يظن بعض الناس إذا رأى أنّ الله ﷻ أنعم عليه بالصحة، والمال، والغنى، أنه كريم على الله! ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٦] ويظن بعض من الناس أن تضييق الرزق، واعتلال الصحة ونحو ذلك علامة شؤم، وهوان على الله! فعقّب الله في الحالتين بقوله: ﴿كَلَّا﴾ [الفجر: ١٧]؛ أي: ليس الأمر كما تظنون، فليس عطاؤنا دليل كرامة، وليس منعنا دليل هوان، وإنما دليل الكرامة والمهانة ما يكون من العبد؛ فإن هو قابل الضراء بالصبر، وقابل السراء بالشكر، فهو الكريم على الله، وإن هو قابل الضراء بالجزع، وقابل السراء بالأشر والبطر، فهو الهيِّن على الله. هذا هو المعيار الحقيقي؛ ولهذا تنبّه له نبي الله سليمان لما رأى عرش

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس برقم (٢٩٦٦)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء برقم (١٧٤٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير برقم (٢٩٩٩).

ملكة سبأ مستقرّاً عنده، فقال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، خلافاً لقارون الذي أوتي من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولي القوة، فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ الإيمان لغة، عند كثير من المتأخرين: التصديق، كما قال الله ﷻ عن إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧]، إلا أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرى أنه تصديق خاص[(١)]، تصديق مصحوب بالأمن، ففيه معنى الائتمان؛ ولذلك يتضمن معنى الإقرار، والقبول، والرضا، والانقياد.

وأما تعريف الإيمان اصطلاحاً: فهو اعتقاد بالجَنان، وقول باللسان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

وهذه جملة شرطية، ومعنى ﴿يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ أي: يعتقد بأن هذه المصيبة التي نزلت به، إنما هي بقدر الله، فيصبر. وجواب الشرط: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أي: يهدي قلب هذا الصابر على هذه المصيبة، وهذه آية عظيمة، وجملة منيرة لكل مؤمن، بأن الصبر النابع من الإيمان، سبب لهداية القلب. فالإيمان هنا هو الإيمان بالقدر، المستلزم للصبر على أقدار الله المؤلمة، فمن علم أن هذا الذي جرى عليه إنما وقع بعلم الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقه، فرضي بالله ربّاً ومدبِّراً؛ أورثه ذلك هداية يجدها في قلبه؛ ولهذا قال الله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

«قال علقمة» هو: علقمة بن قيس بن عبد الله، من أفاضل أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولد في حياة النبي ﷺ، لكنه لم يلقه، ويعد من كبار التابعين، وعلمائهم وفقهائهم، كانت وفاته بعد الستين، رحمه الله.

قوله: **(هو الرجل)** ليس المقصود أنه رجل دون امرأة، وإنما خرج مخرج التغليب.

قوله: **(تصيبه المصيبة)**؛ أي: يقع عليه من قدر الله تعالى ما يؤلمه؛ من موت قريب، أو فوات مال، أو حصول آفة ومرض، أو غير ذلك، مما يجريه الله تعالى على عباده.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨٩).

قوله: (فيعلم أنها من عند الله)؛ أي: يستيقن أنها جرت بتقدير الله السابق، وحكمته البالغة.

قوله: (فيرضى ويسلم) ولا يعترض وينقم، فيورثه ذلك هداية في قلبه.

❋ مناسبة الآية للباب:

مطابقة للترجمة، لما تضمنته من الرضا بالله ربّاً، ومدبِّراً، والصبر على أقداره.

فوائد الآية:

١ ـ فضيلة الصبر.

٢ ـ أنّ الأعمال داخلة في مسمَّى الإيمان؛ لأن الصبر عمل قلبي؛ لما يحصل في القلب من المجاهدات، والإرادات الإيمانية، فهو ليس تصديقاً فقط، ولكنه عمل.

٣ ـ بيان ثمرة الصبر، وهي هداية القلب، فالصبر النابع من الإيمان لا يورث مرارة، ولكنه يورث هداية، ولهذا قال النبي ﷺ: **«وما أُعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»**(١)؛ فالصبر يُورث في القلب إيماناً، ورضاً، وتسليماً، وقوة. وقد قيل:

والصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

قوله: (وفي «صحيح مسلم»: عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر»)؛ أي: أن هاتين الخصلتين كفر قائم بالناس، وليس الكفر الأكبر المخرج عن الملة، وإنما أراد الكفر الأصغر؛ لأن هاتين الخصلتين من خصال الجاهلية:

• **الأولى: (الطعن في النسب)**؛ أي: عيبه وتنقُّصه، وهذا يقع كثيراً في الناس، فيلمز بعضهم بعضاً، وينبز بعضهم بعضاً بأنسابهم وأصولهم، مع أن الأحساب والأنساب لا تغني عنهم عند الله شيئاً، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسألة برقم (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة، باب فضل التعفف والصبر برقم (١٠٥٣).

﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال النبي ﷺ: **«من بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه»**(١).

• **الثانية: (النياحة على الميت)** المراد بالنياحة: رفع الصوت بالندب على الميت، وذكر محاسنه، وما يصاحب ذلك، مما يدل على التسخط على القدر، وأما مجرد البكاء، ودمع العين، فهذا انفعال طبيعي، ليس مذموماً، يقع من بني آدم؛ ولهذا حصل للنبي ﷺ مثله، حينما مات ابنه إبراهيم.

ولا تزال النياحة في الناس، بسبب المصائب التي يجريها الله على عباده، وهي من كبائر الإثم، وقد تقدم في الحديث: **«النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»**(٢). والناس تُجاه المصائب، **على مراتب:**

١ ـ **السخط:** وهذه أدنى المراتب، فيسخط قلبه، وتجزع نفسه، ويسيء الظن بربه، ويدعو بالويل والثبور، ، ويشق جيبه، ويلطم خده، وهذا لا شك محرم، وربما بلغ مبلغ الكفر، كما لو أنه أساء الظن بالله ﷻ، واتهمه في قضائه.

٢ ـ **مرتبة الصبر:** وذلك بحبس النفس عن الجزع، وسوء الظن بالله، وحبس اللسان عن التشكي والسخط؛ كأن يقول: يا ويلاه! يا ثبوراه! ونحو ذلك، وحبس الجوارح عن الضرب، واللطم، والشق، ونحو ذلك من أفعال الجاهلية، فإذا سلم من هذه الأشياء، وكظم ما يجد، فقد أدى الواجب، ونال ثواب الصابرين.

٣ ـ **مرتبة الرضا:** وذلك أن يبلغ العبد المبتلى درجة يستوي عنده الأمران؛ لقوة يقينه بالله، وتسليمه بقضائه، فهذه مرتبة قد قال بعض أهل العلم: إنها واجبة، وممن قال بذلك أبو الوفاء ابن عقيل رحمه الله(٣)، ولكن القول الصحيح

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر برقم (٢٦٩٩).
(٢) أخرجه مسلم في باب التشديد في النياحة، يرقم (٩٣٤).
(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/١).

الذي رجّحه شيخ الإسلام ابن تيمية[١]، وتلميذه ابن القيم[٢]: أن الرضا مستحب، وليس بواجب، وإنما الواجب هو الصبر.

٤ ـ **مرتبة الشكر**: وهذا مقام رفيع يقع لبعض المؤمنين، فتسمو نفوسهم أحياناً مع المصائب، وتشعر بالغبطة لما وقع عليها! كأنهم رأوا أنّ الله ﷻ أراد بهم خيراً من تكفير السيئات، ورفعة الدرجات، فنظروا إلى المصيبة بعين القدر، فأحدث لهم ذلك سروراً وبهجة، وهذا عجيب فعلاً، ولا يصل إليه إلا الكُمَّل من الصالحين.

وهذه المراتب ـ باستثناء مرتبة السخط ـ ربما تنتاب المؤمن في المصيبة الواحدة، فأحياناً يعصف بقلبه ما يفزع فيه إلى الصبر والتجلد، وقد يستروح فيجد حالاً من الرضا، واستواء الأمرين، ثم يتسامى فتهب عليه نسائم الشكر والاغتباط بما أجرى الله تعالى عليه. فربما أطاف بالقلب جميع هذه الأحوال الثلاثة، وهو لأيها غلب. والمهم ألا ينزل عن درجة الصبر.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من تحريم النياحة، المنافية للصبر، ووصفها بأنها من خصال الكفر.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم الطعن في النسب، فالناس مؤتمنون على أنسابهم.

٢ ـ تحريم النياحة على الميت.

٣ ـ وجوب الصبر على أقدار الله المؤلمة.

٤ ـ أن الكفر كفران: كفر أكبر، ناقل عن الملة، وكفر أصغر، لا ينقل عن الملة.

قوله: (ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً): للشيخين؛ البخاري ومسلم. وعبر بالرفع لعلو منزلته.

---

(١) الزهد والورع والعبادة (ص١١٥).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ١٦٩).

قوله: (ليس منا) هذا التبرؤ من أساليب الوعيد، ويدل على أن الفعل كبيرة.

قوله: (من ضرب الخدود، وشق الجيوب) جمع جيب: هو مدخل الرأس من القميص.

قوله: (ودعا بدعوى الجاهلية) وهي الندب، والنياحة؛ كقولهم: واثبوراه، واعمراه، واجبلاه، يا ويلاه، ونحوها، أو ما يقابلها من ألفاظ عند الناس في مختلف المجتمعات، على اختلاف اللغات. على سبيل السخط والجزع، وهذه أفعال أهل الجاهلية، ولا شك أن هذا سفه؛ لأن هذا لا يرفع عنه مصيبة؛ بل يزيده ألماً، فلهذا برأ النبي ﷺ أهل الإسلام منها.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من البراءة من السخط على أقدار الله المؤلمة، بالقول والفعل، لمنافاتها للصبر.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم السخط بالقول أو الفعل، وأنه من الكبائر؛ لقوله: «**ليس منا**».

٢ ـ وجوب الصبر.

٣ ـ تحريم مشابهة أهل الجاهلية. وهذا ملحظ مهم، فإن الشارع الحكيم لم يزل يميز بين أهل الإسلام، وأهل الشرك، فيجب على أهل الإسلام أن يشعروا أن الله ﷻ ميزهم بميزة لا يدانيهم فيها أمة ولا ملة. فمن السفه أن نجد بعض المسلمين يجري خلف العادات الغربية، والشرقية، ويحاكي اليهود والنصارى والذين لا يعلمون؛ في عقائدهم، وأخلاقهم وعاداتهم، وأعيادهم، ومناسباتهم، وملابسهم، وأشكالهم! هذا نقص في الدين، ونقص في العقل وضعف في الشخصية. أما نقصه في الدين فظاهر، حيث أنّ الله ﷻ قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] فوصفنا بالخيرية، ووضعنا في موضع الريادة، والسيادة، والقيادة، فكيف ننزل عن هذه الرتبة، ونخالف أمر الله، وأمر نبيّه ﷺ. وأما نقصه في العقل: فلأنه لا يليق بالإنسان الكامل، أن يكون

ذيلاً وتبعاً للناقص. فصار التشبه مخالفاً للنص، كما في قول النبي ﷺ: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[١]، ومخالفاً للعقل، لما في ذلك من انحطاط عن الرتبة العليا إلى رتبة دنيا. فلنتنبه لهذه الممارسات التي فشت في مجتمعاتنا من أنواع الملابس، والكلمات، والعادات التي يصعب حصرها، لكنها تسللت إلينا من الشرق والغرب، فلا يليق بنا أن نكون رجع الصدى، ولا أن يكون أحدنا إمَّعة إذا قال الناس شيئاً قاله، وإنما عليه أن يفرز، ويفحص، ويميز بين الواردات.

* * *

📖 ثم قال المصنف رحمه الله:

(عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه، حتى يوافي به يوم القيامة») هذا الحديث: رواه الترمذي[٢]، وابن عدي[٣]، والبيهقي[٤]، وهو صحيح لغيره، والحديث الصحيح لغيره عند أهل المصطلح هو الحديث الحسن إذا تعددت طرقه.

قوله: (إذا أراد الله بعبده الخير) قد يريد الله بعبده الخير، وقد يريد به الشر، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ويقول النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[٥].

قوله: (عجّل له العقوبة في الدنيا) هذه إحدى علامات إرادة الخير بالعبد، ومعنى ذلك: أنه ينزل به من المصائب بسبب ما صدر منه من ذنوب، لتطهره، وتكفر عنه، فإن المصيبة تكفر الذنب، وتحتُّه حَتّاً.

---

(١) أخرجه أبي داود في كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة برقم (٤٠٣١) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث، لابن عدي (٤/ ٣٩٣).

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم (٩٨١٧).

(٥) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين برقم (٧١)، ومسلم في الزكاة، باب النهي عن المسألة برقم (١٠٣٧).

قوله: (وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه)؛ أي: أخّر عنه العقوبة، لا رحمة له، أو لطفاً به، ولكن استدراجاً، وإمهالاً، كما قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣].

قوله: (حتى يوافي به يوم القيامة)؛ أي: يحمل وزره يوم القيامة، فيعذبه الله تعالى به في الآخرة. ولا شك أنّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، كما قال النبي ﷺ للملاعنة حيث وعظها: «**عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة**»[1].

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمَّنه من الحث على الصبر على المصائب.

فوائد الحديث:

١ ـ بيان علامة من علامات إرادة الله بعبده الخير، أو الشر.

٢ ـ الخوف من الاستدراج بالصحة والغنى.

٣ ـ إحسان الظن بالله ﷻ، فإذا وقع على العبد مصيبة فليقل في نفسه: أراد الله بي خيراً، أراد أن يطهرني في الدنيا قبل الآخرة، حتى لا أوافى بذنبي يوم القيامة.

٤ ـ وجوب الصبر على المصائب.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

(وقال النبي ﷺ: «إنّ عِظَم الجزاء من عظم البلاء») هذا حديث صحيح، رواه الترمذي، وحسنه، وابن ماجه كما تقدم.

قوله: (عِظَم) بكسر العين، وفتح الظاء، مصدر. والمراد: أنّ من كان بلاؤه أعظم، فجزاؤه أعظم، فإن الجزاء من جنس العمل وبقدره، وقد سُئل نبينا ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى العبد**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطلاق، باب انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل برقم (١٤٩٣).

على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقةً ابتلي على حسب دينه»[١]. فليس البلاء دليل هوان؛ بل كونه دليل كرامة أقرب، لكن بشرط أن يقابله الإنسان بالصبر والاحتساب، فإن صبر فليبشر بما أعد الله له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

قوله: (وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم) هذه علامة على حب الله لبعض عباده.

قوله: (فمن رضي فله الرضا)؛ أي: من رضي بقضاء الله تعالى وقدره بهذا البلاء، ولم يتسخط، فله الرضا من الله ﷻ، جزاء له على رضاه على مقدوره.

قوله: (ومن سخط)؛ أي: امتعض، وتبرم، ونفر، وأنكر هذا البلاء الذي قدره الله تعالى عليه.

قوله: (فله السخط)؛ أي: من الله ﷻ، فيسخط الله عليه مقابل سخطه على قدره. والسخط صفة من صفات الله ﷻ، قال تعالى: ﴿سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٨٠]، كما أن الرضا صفة من صفاته، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ١٨]. فيجب على العبد أن يعتصم بربه ﷻ، وأن يهيئ نفسه، ويعدها لتلقي أقدار الله، بالصبر، واليقين، والرضا، مع سؤاله العافية في جميع الأمور. وألا يغفل عن الله ﷻ، فإنه من عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدة، كما في الحديث: **«تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة»**[٢]، وقال ﷺ: **«احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»**[٣].

⁂ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأن فيه من وجوب الرضا بقدر الله، المتضمن للصبر على البلاء.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء برقم (٤٠٢٣)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء برقم (٢٣٩٨) وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٨٠٣) وقال محققو المسند: «حديث صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع برقم (٢٥١٦) وصححه الألباني.

فوائد الحديث:

١ ـ بيان علامة محبة الله لعباده، وهي الابتلاء.

٢ ـ إثبات جملة من الصفات لله تعالى: المحبة لقوله: «**أن الله إذا أحب**»، والرضا؛ لقوله: «**فله الرضا**»، والسخط لقوله: «**فله السخط**». وكلها صفات فعلية، تثبت لله ﷻ على ما يليق بجلاله، وليس في إثباتها أدنى مماثلة لصفات المخلوقين، فإن الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

٣ ـ بيان حكمة الله تعالى، فالله تعالى حكيم فيما يقدر، فلا يقدر الأمور لمحض المشيئة، كما يقول الأشاعرة؛ بل لمشيئته وحكمته معاً، سبحانه.

٤ ـ أن الجزاء من جنس العمل.

٥ ـ فيه معنى قول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٦ ـ وجوب الصبر على قضاء الله وقدره.

٧ ـ وجوب إحسان الظن بالله تعالى.

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

وهي قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ وتفسيرها: أن من أصابته مصيبة فعلم أنها من عند الله، فرضي وسلم، هدى الله قلبه.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

لقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ فسمى الصبر إيماناً.

الثالثة: الطعن في النسب.

مراد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ التحذير من الطعن في النسب، لوصفه بالكفر.

الرابعة **شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية.**

لقوله: «ليس منا» فهذا التعبير يدل على البراءة من فاعله، وأنها من جملة الكبائر.

الخامسة **علامة إرادة الله بعبده الخير.**

وهي تعجيل العقوبة له في الدنيا.

السادسة **إرادة الله به الشر.**

وهي الإمساك عنه بذنبه، حتى يوافى به يوم القيامة.

السابعة **علامة حب الله للعبد.**

وهي الابتلاء؛ لقوله: «**إذا أحب الله قوماً ابتلاهم**».

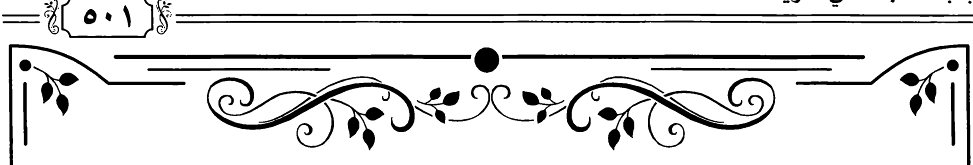
الثامنة **تحريم السخط.**

لقوله: «**ومن سخط فله السخط**».

التاسعة **ثواب الرضا بالبلاء.**

لقوله: «**إنّ عظم الجزاء مع عظم البلاء**»، ولقوله: «**فمن رضي فله الرضا**».





باب ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[(١)]. رواه مسلم.

وعن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته؛ لما يرى من نظر رجل»[(٢)]، رواه أحمد.

الشرح

الرياء: مصدر راءى، يرائي، مراءاة، أو رياءً، وذلك أن يُري الناس خلاف ما هو عليه في الباطن، هذا إذا كان متعلقاً بفعل، وأما إذا كان متعلقاً بقول، فيقال: تسميع؛ ولهذا جاء في الحديث: **«من سمَّع، سمَّع الله به، ومن راءى، راءى الله به»**[(٣)]. وإذا ذكر الرياء منفرداً، شمل النوعين، وإذا ذكر مقروناً بالتسميع اختص بالأفعال.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

ظاهرة؛ لأن الرياء ينافي التوحيد والإخلاص، فقليله شرك أصغر، وكثيره شرك أكبر.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله برقم (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة برقم (٤٢٠٤)، وأحمد ط. الرسالة برقم (١١٢٥٢) وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة برقم (٦٤٩٩)، ومسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله (تحريم الرياء) برقم (٢٩٨٦).

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ و﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حصر؛ أي: إنني بشر يلحقني ما يلحقكم من الصحة والمرض، والسرور والحزن، والغنى والفقر، والحياة والموت، وسائر الأعراض البشرية.

قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الوحي هو الميزة العظيمة التي ميزه الله تعالى، وإخوانه من الأنبياء، عن سائر البشر. والوحي لغةً: الإعلام على وجه السرعة والخفاء. ويستعمل بمعنى الإلهام، والإشارة، والوسوسة. واصطلاحاً: كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه. فهو مصدر يراد به اسم المفعول؛ أي: الموحى. وهو أحد ثلاث طرق لتكليم الله لأنبيائه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]

قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ أي: أن معبودكم المستحق للعبادة واحد، لا شريك له، لا يجوز التأله لسواه. والشاهد من الآية للباب تمامها:

قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ فيها قولان: يخاف، قاله ابن قتيبة، ويأمل، قاله الزجاج[١].

قوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾؛ أي: يجمع بين وصفين:

الأول: العمل الصالح؛ لقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ وهو ما كان موفقاً للسُّنَّة.

الثاني: الإخلاص لله؛ لقوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾.

سُئل الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ما أحسن عملاً؟ قال: «أخلصه وأصوبه»[٢]، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً كان بدعة، وإذا كان موافقاً للسُّنَّة، ولم يكن خالصاً كان رياءً أو شركاً، فلا يحسن العمل، ولا يكون مقبولاً عند الله، إلا بالجمع بين هذين الشرطين: الإخلاص لله ﷻ، والمتابعة للنبي ﷺ. والشاهد قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾؛ أي: لا يرائي بعمله كائناً من كان؛ لأن (أحداً) نكرة في سياق النهي، فتفيد العموم.

---

(١) انظر: زاد المسير: (٥/ ٢٠٣).
(٢) تفسير البغوي، طيبة (٨/ ١٧٦).

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لما تضمَّنته من الأمر بإخلاص العمل لله ﷻ، والنهي عن الشرك.

فوائد الآية:

١ ـ أنّ أصل الدين هو الإخلاص لله ﷻ.

٢ ـ أن الرياء نوع من الشرك؛ فيسيره من الشرك الأصغر، وكثيره من الشرك الأكبر.

٣ ـ أن شرطَي قبول العبادة هما: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة للنبي ﷺ.

قوله: (عن أبي هريرة مرفوعاً: قال الله تعالى) هذا الحديث قدسي، إلٰهي؛ لأن النبي ﷺ حدّث به عن ربه، بغير القرآن. وفرّقوا بين الحديث القدسي والقرآن بعدة فروق، **منها**:

١ ـ أنّ القرآن لفظه ومعناه من الله تعالى، بينما الحديث القدسي قد اختلف العلماء في لفظه، هل هو كلام الله، أو أن الله تعالى أوحى إلى رسوله ﷺ معناه، واللفظ لفظ الرسول ﷺ؟ على **قولين**:

الأول: أن الحديث القدسي من عند الله لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله تعالى، ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، لا سيما أن النبي ﷺ أقوى الناس أمانة، وأوثقهم رواية.

الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله، ولفظه لفظ النبي ﷺ؛ وذلك **لوجهين**:

الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله لفظاً ومعنىً لكان أعلى سنداً من القرآن؛ لأنه ﷺ يرويه عن ربه بدون واسطة؛ وأما القرآن فبواسطة جبريل عليه السلام.

الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفقا في الأصل.

٢ ـ أنّ القرآن معجز، تحدى الله ﷻ الناس أن يأتوا بمثله، أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

٣ ـ أنّ القرآن محفوظ من التغيير والتبديل، بخلاف الحديث القدسي، ففيه الصحيح والضعيف والموضوع.

٤ ـ أنّ القرآن يحرم مسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الحديث القدسي.

٥ ـ أنّ القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

٦ ـ أنّ القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى، وأما الأحاديث القدسية فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى، والأكثرون على جوازه.

٧ ـ أنّ القرآن تسمى الجملة منه: آية وسورة، بخلاف الحديث القدسي.

٨ ـ أنّ القرآن متعبد بتلاوته، والحديث القدسي لا يُتعبد بتلاوته.

٩ ـ أنّ القرآن يُعطى قارؤه بكل حرف عشر حسنات، بخلاف الحديث القدسي.

١٠ ـ أنّ الصلاة لا تكون إلا بالقرآن، ولا تصح بالحديث القدسي.

١١ ـ أنّ القرآن لا بد فيه من كون جبريل عليه السلام واسطة بين النبي ﷺ وبين الله تعالى، بخلاف الحديث القدسي.

١٢ ـ أنّ القرآن ثابت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفاً أجمع القراء عليه لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئاً منها مدعياً أنه لم يثبت لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافراً؛ لتكذيبه النبي ﷺ.

قوله: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك) لأن الشركاء عادة يقع بينهم تنافس، وأثرة، بدافع الشح، وحب الاستئثار، فيتنزه الله عز وجل عن ذلك، لكمال غناه.

قوله: (من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري)؛ أي: لم يكن خالصاً له وحده سبحانه، فإن الله تعالى يطَّرح عمله، ولا يتقبله، فلا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً صواباً.

❋ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأن الرياء فيه شرك بالله عز وجل، فيكون سبب في حبوط العمل.

فوائد الحديث:

١ ـ التحذير من الشرك بجميع صوره.

٢ ـ وجوب إخلاص العمل لله وتجريده.

٣ ـ وصف الله تعالى بصفة الغنى.

٤ ـ وصف الله بصفة الكلام؛ لأن القول كلام.

قوله: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي) (ألا) أداة تنبيه، و**(أخوف)** أفعل تفضيل؛ أي: أشد خوفاً.

قوله: (من المسيح الدجال؟) المسيح الدجال خلق عظيم، جاء في الحديث: **«ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»**(١)؛ وذلك أن الله تعالى يجري على يد هذا المخلوق من الخوارق العجيبة ما ينبهر له الناس، فعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ، قَالَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ، فَخَفَّضَ فِيهِ وَرَفَّعَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَلَمَّا رُحْنَا إِلَيْهِ عَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: **«مَا شَأْنُكُمْ؟»** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ ذَكَرْتَ الدَّجَّالَ غَدَاةً، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ، حَتَّى ظَنَنَّاهُ فِي طَائِفَةِ النَّخْلِ، فَقَالَ: **«غَيْرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفُنِي عَلَيْكُمْ، إِنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فَأَنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وَإِنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، إِنَّهُ شَابٌّ قَطَطٌ، عَيْنُهُ طَافِئَةٌ؛ كَأَنِّي أُشَبِّهُهُ بِعَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قَطَنٍ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ، إِنَّهُ خَارِجٌ خَلَّةً بَيْنَ الشَّأْمِ وَالْعِرَاقِ، فَعَاثَ يَمِيناً وَعَاثَ شِمَالاً، يَا عِبَادَ اللهِ فَاثْبُتُوا»** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا لَبْثُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: **«أَرْبَعُونَ يَوْماً، يَوْمٌ كَسَنَةٍ، وَيَوْمٌ كَشَهْرٍ، وَيَوْمٌ كَجُمُعَةٍ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ»** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ فَذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَسَنَةٍ، أَتَكْفِينَا فِيهِ صَلَاةُ يَوْمٍ؟ قَالَ: **«لَا، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ»** قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا إِسْرَاعُهُ فِي الْأَرْضِ؟ قَالَ: **«كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ، فَيَأْتِي عَلَى الْقَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالْأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُراً، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعاً، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في بقية من أحاديث الدجال برقم (٢٩٤٦).

الْقَوْمَ، فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ، فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ النَّحْلِ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلاً مُمْتَلِئاً شَبَاباً، فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيْفِ فَيَقْطَعُهُ جَزْلَتَيْنِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ، ثُمَّ يَدْعُوهُ فَيُقْبِلُ وَيَتَهَلَّلُ وَجْهُهُ، يَضْحَكُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَعَثَ اللهُ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ، فَيَنْزِلُ عِنْدَ الْمَنَارَةِ الْبَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ، وَاضِعاً كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ، إِذَا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ، فَلَا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِهِ إِلَّا مَاتَ، وَنَفَسُهُ يَنْتَهِي حَيْثُ يَنْتَهِي طَرْفُهُ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدْرِكَهُ بِبَابِ لُدٍّ، فَيَقْتُلُهُ»[١].

وجاء من خبره مع الرجل المؤمن أنه **«يؤمر به فيؤشر بالمئشار[٢] من مفرقه حتى يفرق بين رجليه، قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين، ثم يقول له: قم، فيستوي قائماً، قال: ثم يقول له: أتؤمن بي؟ فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة»**[٣]، فيفتتن الناس به فتنة عظيمة، حتى أن النبي ﷺ قال: **«من سمع بالدجال فلينأ عنه، فوالله إن الرجل ليأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فيتبعه، مما يبعث به من الشبهات»**، أو **«لما يبعث به من الشبهات»**[٤]. ومع شدة فتنته تخوَّف النبي ﷺ على أمته بما هو أخوف منه.

قوله: (قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «الشرك الخفي؛ يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته؛ لما يرى من نظر رجل» رواه أحمد) هذا هو الرياء، وهو أن يزين الإنسان عبادته ليحمده الناس. والرياء إذا خالط العمل فلا يخلو من **حالين:**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه برقم (٢٩٣٧).

(٢) (فيؤشر بالمئشار) هكذا الرواية بالهمزة فيهما وهو الأفصح، ويجوز تخفيف الهمزة فيهما فتجعل في الأول واواً، وفي الثاني ياء، ويجوز المنشار بالنون يقال: نشرت الخشبة، وعلى الأول يقال: أشرتها. ينظر: شرح النووي على مسلم (١٨/ ٧٣، ٧٤).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في صفة الدجال، وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه برقم (٢٩٣٨).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب خروج الدجال برقم (٤٣١٩) وصححه الألباني.

الأولى: أن يدافعه ويجاهده فيذهب، فحينئذٍ لا يضره، وعمله صحيح ومقبول.

الثانية: أن يسترسل معه، وحينئذٍ يُنظر:

١ ـ إن كان هذا الرياء في أصل العمل؛ أي: منذ مبدئه ومنشئه، فالعمل حابط من أصله؛ لأنه لم ينعقد، لفقد شرط الإخلاص.

٢ ـ وإن كان في أصله خالصاً، ثم طرأ الرياء عليه أثناءه، فله **حالان أيضاً**:

ـ إن كانت العبادة واحدة، ينبني بعضها على بعض؛ كالصلاة، حبطت جميعها.

ـ وإن كانت ذات أجزاء مفرقة، يستقل كل جزء بنفسه؛ كالصدقات، فلا يحبط إلا ما قارنه.

ونضرب لذلك مثالاً: رجل قام يصلي مخلصاً لله عز وجل، ثم شعر بأن فلان يرمقه، فأخذ يزين صلاته، ويمد ركوعه وسجوده، فتبطل الصلاة كلها؛ لأن الصلاة عبادة ينبني بعضها على بعض، ولا يمكن أن يصح بعض أجزائها ويبطل بعض. ولو أن إنساناً أراد أن يتصدق بمائة ريال، وقسمها خمسين، خمسين، وتصدق بالخمسين الأولى مخلصاً لله، ثم دخله الرياء في إخراج الخمسين الثانية، حبطت الثانية دون الأولى؛ لأنه قارنها الرياء، ولا تلازم بينهما.

❊ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من التخويف من الرياء، وتفسيره.

فوائد الحديث:

١ ـ شدة شفقة النبي ﷺ وخوفه على أمته؛ كما وصفه ربه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

٢ ـ أن أخوف ما يُخاف على الصالحين: الرياء، لما يقع لهم من محبة التزين بالدين، عكس الفساق، فإن ذلك لا يعنيهم.

٣ ـ ذم الشرك مطلقاً.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيه مسائل:

الأولى **تفسير آية الكهف.**

وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾؛ أي: أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً لله، ليس له فيه شرك لأحد، والرياء ينافي الإخلاص.

الثانية **الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.**

وهو الشرك؛ لقوله: «**تركته وشركه**» وعُدّ عظيماً؛ لأنه ضاع على العامل فصار هباءً منثوراً، والتعبير بالترك يدل على غضب الله من صاحب هذا العمل.

الثالثة **ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى.**

لقوله: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك**».

الرابعة **أن من الأسباب: أنه تعالى خير الشركاء.**

فلا ينازِع من جعل شريكاً له فيه، بخلاف سواه من الشركاء والخلطاء الذين يتشاحون، ويبغي بعضهم على بعض، طلباً للاستئثار.

الخامسة **خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.**

فكيف بمن دونهم من أطباق الأمة؟!

السادسة **أنه فسّر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه.**

وهذه حقيقة الرياء، وكيفيته. وهذا من تفسير الشيء ببعض أنواعه وأمثلته.





باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

في «الصحيح»: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة: إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبَّرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، وإن استأذن لم يُؤذن له، وإن شفع لم يشفَّع»[(١)].

الشرح

قول المصنف رحمه الله:

(**باب: من الشرك**) (من) هنا للتبعيض؛ أي: بعض صور الشرك.

قوله: (**إرادة الإنسان بعمله الدنيا**)؛ أي: بالعمل الصالح المشروع، أغراضاً دنيوية؛ من مال، أو منصب، أو جاه، وليس التعبد لله.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لكون العمل لأجل الدنيا شرك في القصد، ينافي التوحيد الواجب، وربما ينافي أصله.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله برقم (٢٨٨٧).

والفرق بين هذا الباب والباب الذي قبله، وهو ما يتعلق بالرياء: أن الرياء يختص بالثناء؛ لأن المرائي يعمل لأجل المدح. وأما هنا فيعمل ليصيب دنيا؛ أي: ليحصِّل من وراء ذلك متاعاً، أو مالاً، ونحو ذلك، فكأن الباب السابق يتعلق بالأمور الاعتبارية، وهذا الباب يتعلق بالأمور الدنيوية المادية.

قوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ أي: من كان يريد بعمله ثواب الدنيا، كما قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى: ٢٠]، وكما أخبر النبي ﷺ في حديث: «**إنما الأعمال بالنيات**» قال: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(١).

قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: نوفر لهم ما طلبوه وقصدوه من متاعها، كاملاً.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: لا يُنقصون. إلا أن هذه الآية قد قُيدت بآية أخرى، وهي قول الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] فدلت على أنه يُكتب لهم ما قدره الله لهم؛ لقوله: ﴿مَا نَشَآءُ﴾ فقيد ذلك بالمشيئة.

قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ﴾ لأنهم استوفوا مرادهم في الدنيا، ولم يعملوا للآخرة، ولم يبق لهم سوى جزاء الشرك، وهو النار.

قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾؛ أي: أنه بطل عملهم في الدنيا، واضمحل في الآخرة؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

قوله: ﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ لأنه لم يرد به وجه الله ﷻ. وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ رجلاً شريفاً من أهل مكة، قلت: يا رسول الله، ابن

---

(١) أخرجه البخاري في باب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ برقم (١)، ومسلم في كتاب الإمارة بقوله، قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**» برقم (١٩٠٧) لكن بلفظ: «القطيفة» بدل الخميلة.

جُدعان، كان في الجاهلية، يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»(١).

مسألة: حكم الوظائف الشرعية، والولايات الدينية:

هل عمل الإنسان في الأذان، أو الإمامة، أو الخطابة، أو القضاء، أو التدريس، التي يتقاضى عليها جعلاً، أو مرتباً، مناف للإخلاص، ومعرض صاحبه للوعيد الشديد المذكور في الآية؟

الجواب: أن ذلك بحسب ما قام في قلبه، فإذا كانت نيته الأصلية هي الإخلاص لله تعالى، ونفع عباده المؤمنين، فهذه نية صالحة، ولا يضره ما حصل له من نفع دنيوي، وأما إذا كانت نيته الأولى إرادة الدنيا فهو داخل في حكم هذه الآية.

والله ﷻ قد أمر عباده المؤمنين بعبادة عظيمة، وشعيرة شريفة، وهي الجهاد في سبيل الله، ثم قال لهم: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]، فهذه المغانم من الدنيا، ومن المتاع، فلم يكن إغراؤهم بهذا منافياً لأصل النية، فأصل نيتهم صحيح، وهو إعلاء كلمة الله ﷿، وانضاف إليها مقاصد أخرى، يرتفقون بها، ويستعينون بها على دنياهم.

ومن أدلة ذلك: قول النبي ﷺ: «**من قتل قتيلاً له عليه بينة، فله سَلَبه**»(٢)، فهذا إغراء من النبي ﷺ، وحث للمقاتلين في سبيل الله: أن يثخنوا في العدو، حتى يحصلوا على السَّلَب، وهو ما يكون على المقاتل من الثياب والسلاح، وغير ذلك، فدل ذلك على أن هذا لا ينافي النية الأصلية.

وعلى هذا نقيس سائر الأمور، فمَن تقدم للإمامة يريد بذلك سد حاجة المسلمين، فيصلي لهم، وحمل نفسه على الالتزام بالصلاة، وضبط حفظه

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل برقم (٢١٤).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب فرض الخُمس، باب من لم يخمِّس الأسلاب... برقم (٣١٤٢)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل برقم (١٧٥١).

للقرآن، مع ما يحصل له من الارتفاق في دنياه من مال يعينه على مقاصده، أو سكن، أو نحو ذلك، فهذا لا بأس به، ولا يقدح في نيته. وكذلك من يستنيبه العاجز ليحج له، ويأخذ على ذلك عوضاً، فهذا إذا قصد نفع أخيه، وشهود المنافع التي وعد الله تعالى بها في الحج، فهذه نية صالحة، ولا حرج عليه فيما أخذ، أو فيما أعطي.

وهكذا بقية الوظائف الدينية؛ كالقضاء، والتعليم، والخطابة، والإفتاء، والأذان، والإمامة، وغير ذلك. وإنما المحظور: أن يسعى ليكون إماماً، لأجل أن يجد بيتاً يسكن فيه، ولولاه ما أَمَّ المسلمين. فهذا اتخذ الإمامة وسيلة للسكنى. أو كمن يدخل الكليات الشرعية بغرض التعيين على وظيفة تدر عليه دخلاً شهريّاً، ولم يلحظ إلا الدنيا فقط، فهذه نية فاسدة تدخله في هذا الوعيد. بخلاف لو نوى بدراسته الشرعية التزود بالعلم، بطرق منظمة، ومنهجية، والحصول على شهادة تمكنه من نفع العباد، والبلاد، وكفاية نفسه ومن يعول، فهذه نية صالحة، ولا غبار عليها. وما زال المسلمون من عهد النبوة، والخلافة الراشدة على ذلك. ولا تستقيم المصالح الشرعية إلا بها.

لكن ينبغي للإنسان أن يتعاهد قلبه، وأن يصحح نيته، فقد يشوب النية في البدايات شائبة سوء، لكن يصلحها الله ﷻ، حتى قال بعض أهل العلم: «طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يردنا إلا إلى الله»[1]؛ أي: أنهم في مستهل طلبهم، وقلة علمهم، وضعف فقههم، وورعهم، ربما كان في نفوسهم شائبة من إرادة الدنيا، فلما أشرفوا على العلم، ونظروا فيه، أصلح الله به قلوبهم، فزالت عنهم هذه الشوائب.

وقد يبتدئ الإنسان بنية صالحة، ثم يطرأ عليه انحراف في النية، فيزين له الشيطان حب التصدر، والتزين أمام الناس، والمنافسة على حطام الدنيا، فيهلك. فعلى المؤمن أن يداوي نفسه بذكر هذه الآيات، والتمعن فيها، والعلم بأن الله تعالى «**أغنى الشركاء عن الشرك**» كما سبق، وأنه لا يبقى له إلا ما أريد به وجه الله؛ ولهذا لما قيل للإمام مالك بن أنس رحمه الله: «إن فلاناً قد ألّف موطئاً

---

(١) من قول (يزيد بن هارون) كما في الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٣٧).

مثلك» فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما كان لله بقي»[(١)]، وفعلاً أبقى الله موطأ مالك، وربما نُسي موطأ غيره، وذلك لصلاح نيته.

فالركن الركين، والأساس المتين، أن يحرص الإنسان على إصلاح قلبه، وتنقيته من الشوائب، ويحذر من أحابيل الشيطان، فإن الشيطان يتدسس بصور شتى، حتى قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عالجتُ شيئاً أشد عليّ من نيتي؛ لأنها تنقلب عليّ»[(٢)]، فعلى الإنسان أن يتعاهد قلبه، وأن يحصن ضميره، وهذا يحصل بدوام الذكر، فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

مناسبة الآيتين للباب:

مطابقة، لما تضمَّنتاه من وعيد من أراد بعمله الدنيا من الحبوط، والبطلان، والنار.

فوائد الآيتين:

١ ـ أن الله حَكَمٌ عدل مُقسِط، يجازي من عمل عملاً حسناً، وإن لم يرد به الله والدار الآخرة، في الدنيا، كيف شاء، فهذا من كمال عدله سبحانه.

مثال ذلك: ما يقوم به بعض الكفار في البلاد الغربية، من الأعمال الإنسانية الإغاثية؛ فيقيمون الملاجئ، وينفقون على الفقراء، والأيتام، والمشردين، حتى أنه لا يكاد يُوجد في بلادهم جائع، أو عارٍ، أو مريض لا يجد دواء، ويعتنون بهذه الأمور الاجتماعية غاية العناية؛ بل ويمدون ذلك إلى البلدان المنكوبة بالكوارث والحروب، فتنطلق من بلادهم جمعيات المساعدات الإنسانية، والإغاثية، وربما كان بعضها لأهداف سياسية، أو تنصيرية، لكن جزءاً كبيراً منها ـ كما يقولون ـ: لدوافع أخلاقية إنسانية. فلأجل ذا يكافئون في الحياة الدنيا ـ كما هو مشاهد ـ بالتيسير المادي، والتفوق المدني والصناعي، وحصول الرفاهية والتمكين التي لا تحصل لغيرهم. فهذا من كمال عدل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يجدوا نتيجة أعمالهم الحسنة في الدنيا، لكنها لا تنفعهم في الآخرة.

---

(١) الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُّنَّة المصنفة، للكتاني (ص٧).

(٢) جامع العلوم والحكم، ت: الأرنؤوط (١/ ٧٠).

٢ ـ أن الشرك مُحبِط للأعمال.

٣ ـ أن من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا.

٤ ـ الوعيد الشديد لمن أراد بعمله الدنيا.

٥ ـ أهمية الإخلاص، وأنه منجاة.

* * *

ثم قال رَحِمَهُ اللهُ:

قوله: (في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**)** المراد صحيح البخاري.

(قال: قال رسول الله ﷺ**: «تعس») (تعس)** جملة دعائية، المراد بها: سقط وهوى.

قوله: (تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة) ذكر أربع معبودات؛ فالدينار والدرهم معروفان، الدينار: قطعة من الذهب، والدرهم: من الفضة، و**(الخميصة)**: ثوب، أو كساء، يكون من خز أو من صوف، ويكون معلماً؛ أي: مخططاً، وكان الناس يلبسونها إلى عهد ليس بالبعيد. و**(الخميلة)**: القطيفة، وهو دثار مخمل، والدثار ما يلبس فوق الشعار، والشعار: ما باشر الجسد من الثياب.

وهذا دعاء من النبي ﷺ على هؤلاء العُبَّاد الأربعة، وليس المقصود بذلك الحصر، وإنما التمثيل؛ وذلك أن من الناس من يتعلق بالذهب، ومنهم يتعلق بالفضة، ومنهم من يتعلق بالملابس الفاخرة؛ من خميصة أو خميلة. ومنهم من يتعلق بغير ذلك.

قوله: (إن أعطي رضي، وإن لم يُعط سخط) كما وصف الله تعالى المنافقين، سواء بسواء، في قوله: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة: ٥٨].

قوله: (تعس) كرر الدعاء عليه بالتعاسة، تشديداً عليه.

قوله: (وانتكس)؛ أي: عاوده الداء والمرض، فالانتكاس يكون بعد الضر. وقيل: معنى انتكس من النكوس، أو النكوص، وهو الانقلاب على الوجه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

قوله: (وإذا شيك)؛ أي: إذا أصابته شوكة.

قوله: (فلا انتقش)؛ أي: فلا يتمكن من إخراج الشوكة، بمعنى: أنه يعجز عن أبسط الأشياء وأهونها، ولا يمكنه الخلاص منها، حتى إنه لو أصابته شوكة لم يتمكن من إخراجها بالمنقاش. وكل هذه دعوات له بالخيبة، وسوء الحال والمآل.

وبعد أن صوَّر النبي ﷺ صورة المُتاجر بدينه، المريد الدنيا بعمله، الطالب للعطايا والهبات على حساب دينه، الساخط عند المنع، ودعا عليه بما يستحق من فساد أمره وفوات طلبه، عقّب على ذلك بصورة مقابلة:

قوله: (طوبى لعبد) طوبى قيل: اسم للجنة، وقيل: اسم شجرة في الجنة، مأخوذ من التطويب، أو من الدعاء له بالطيب، فإن مادتها واحدة. والمراد بالعبد الجنس.

قوله: (آخذ بعنان فرسه) العنان: سير اللجام للدابة.

قوله: (في سبيل الله)؛ أي: مجاهداً في سبيل الله؛ لأن من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. وهذا دليل الإخلاص.

قوله: (أشعث رأسه)؛ أي: غير مُرجَّل ومدَّهَن؛ بل فيه الشعث والغبرة؛ لانهماكه في الجهاد، فهو ليس من أهل التنعم والترفه بحيث يمشط شعره، ويدهنه؛ لأنه مشغول بما هو أعلى وأولى.

قوله: (مغبرة قدماه) لتنقُّله على قدميه في المغازي، والثغور، ومضامير الجهاد في سبيل الله.

قوله: (إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة)؛ أي: أنه لا يأبه بموقعه في المعركة، فإذا وجَّهه قائد الجيش، أو أمير السرية إلى موضع، قال: سمعاً وطاعةً؛ لأنه لا يبحث عن الصدارة، أو السلامة، وإنما يسعى لإعزاز الدين، فطوراً يكون في الحراسة؛ فيمكث في الليل شاخصاً يحمي بيضة المسلمين، وتارة يكون في الساقة، في أخريات القوم، يعين ساقطهم، ويلتقط ساقطتهم.

قوله: (إن استأذن لم يُؤذن له، وإن شفع لم يشفع)؛ أي: أنه ليس من أهل الوجاهة والظهور، حتى إنه يُرَدّ في الأبواب، ولا يُعتد بشفاعته، كما قال

النبي ﷺ: «**كم من أشعث أغبر ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرَّه**»، وفي رواية: «**مدفوع بالأبواب**»[١]؛ أي: إذا همّ أن يدخل قيل له: ارجع وراءك، لكنه لو أقسم على الله لأبره! أي: لما بينه وبين ربه من ولاية. قال النبي ﷺ: «**منهم البراء بن مالك**»[٢]، فيا لها من شهادة عظيمة للبراء؛ ولهذا كان المسلمون إذا قاتلوا عدوهم، وحمى الوطيس، نادوا: يا براء، أقسم على ربك أن يمنحنا أكتافهم، فما هو إلا أن يقسم حتى يُهزم القوم، ويولون الدبر.

فهؤلاء أهل الله وخاصته، كما وصفهم النبي ﷺ، لا يريدون الدنيا. ومما يُروى أن محمد بن واسع رَحِمَهُ اللهُ شهد موقعة، وأظفر الله المسلمين بغنائم، فكان من نصيبه تاج مرصع بجواهر، فوضعه في كمه ومضى، فتبعه رجل من أصحاب الأمير لينظر ما يصنع به؟! فمر بسائل يسأل صدقة، فأخرج التاج من كمه ودفعه إليه، ومضى لا يبالي، يقول الرجل: فأرضيت هذا السائل بشيء، وأخذته[٣]، فشتان بين الناس.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمَّنه من ذم العمل لأجل الدنيا؛ ووصفه بالعبودية لها، ومدح العمل لأجل الآخرة.

فوائد الحديث:

١ ـ ذم العمل لأجل الدنيا وإرادتها.

٢ ـ مدح العمل لأجل الآخرة، والإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ.

٣ ـ أن إرادة الإنسان بعمله الدنيا وزينتها نوع من العبودية لغير الله.

٤ ـ فضل التواضع والإخبات.

٥ ـ فضل الجهاد في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء برقم (٢٨٥٤).

(٢) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ برقم (٣٨٥٤) وصححه الألباني.

(٣) البداية والنهاية (٩/ ١٩٩)، وتاريخ الطبري (٦/ ٥٣٩).

٦ ـ ذم الترفه والتنعم ومنافاته لخصال الرجولة والمروءة.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.**

بأن يعمل الإنسان أعمالاً صالحة يريد بها الدنيا، فهذا من الشرك؛ لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لثواب الدنيا، وسُلماً لنيل لعاعتها. وقد تكون إرادته الدنيا بعمله الصالح: منافية لأصل الإيمان والتوحيد، أو لكماله الواجب، أو لكماله المستحب بحسب الأحوال.

الثانية **تفسير آية هود.**

بل آيتي هود، وقد تقدم. وهما من أخوف ما في القرآن في هذا الباب.

الثالثة **تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة.**

أي: أن النبي ﷺ لم يرد بهذا أنه كافر، وإنما أراد ذمه لإرادته بعمله الدنيا، فسماه (عبد) والعبودية لا شك أنها درجات، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] فمتبع الهوى كمتخذ الإلٰه من دون الله، لكن قد يكون مخرجاً من الملة، وقد يكون دون ذلك.

الرابعة **تفسير ذلك بأنه: «إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط».**

بأن يكون رضاه وسخطه تابعاً لحصول مبتغاه من الدنيا، وكان الواجب عليه أن يرضى بما قسم له، ولا يتبع نفسه هواها.

الخامسة **قوله: «تعس وانتكس».**

الدعاء عليه بالتعاسة، وبمعاودة الداء مرة أخرى، وهذا أشد ما يكون في المعاناة أن يتماثل للبرء ثم ينتكس، ويعاوده المرض.

السادسة قوله: «وإذا شيك فلا انتقش».

الدعاء عليه بالفشل والخذلان، فلا يتمكن من دفع أهون الأمور وأسهلها.

السابعة والأخيرة الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

وهي: أشعث رأسه، مغبَّرة قدماه، آخذ عنان فرسه في سبيل الله، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع، فهذا يدل على كمال إخلاصه في عمله، وعدم إرادة الدنيا، بخلاف عبَّاد الدرهم، والدينار، والخميصة، والخميلة ونحوها.





باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر(١).

وقال الإمام أحمد: عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأى سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك(٢).

عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، فقلتُ له: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه»، فقلتُ: بلى، قال: «فتلك عبادتهم»(٣)، رواه أحمد، والترمذي، وحسنه.

---

(١) لم نجده بهذا اللفظ إلا في مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢١٥)، وزاد المعاد (٢/ ١٧٨). وأخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٣١٢١)، عن ابن عباس قال: «تمتع النبي ﷺ، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة. فقال ابن عباس: ما يقول عرية؟ قال: يقول: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون أقول: قال النبي ﷺ، ويقول: نهى أبو بكر وعمر!».

(٢) لم نجد هذا الأثر بتمامه في مصدر واحد. وهو بمجموعه في: الإبانة الكبرى، لابن بطة (١/ ٢٦٠)، والفروع وتصحيح الفروع (١١/ ١٠٧)، والصارم المسلول على شاتم الرسول (٣/ ٥٥).

(٣) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة برقم =

الشرح

العلماء والأمراء: طائفتان يصلح الناس بصلاحهم، ويفسدون بفسادهم؛ لما لهما من النفوذ والتأثير. ومنزلة العلماء في الشريعة منزلة عالية رفيعة، فإن هم وفوا بالميثاق الذي أخذه الله عليهم، نفع الله تعالى بهم نفعاً عظيماً، يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

كما أن الأمراء أيضاً لهم منزلة عالية في ضبط الأمور، وانتظام أحوال البلاد والعباد، ودفع الفساد، فإذا صلحوا أصلح الله تعالى بهم أمر العامة، حتى قال بعض الصحابة: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»(١)، وقال الإمام أحمد رحمه الله: «لو كان لنا دعوة مستجابة لدعونا بها لإمام عادل؛ لأن في صلاحه صلاحاً للمسلمين»(٢).

وقد أمر الله تعالى بطاعة ولاة الأمر، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩] فجعل طاعة أولي الأمر ـ وهذا يشمل الأمراء والعلماء ـ تابعة لطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وطاعة الله وطاعة رسوله، أصلان عظيمان، وطاعة الرسول من طاعة الله؛ لقوله: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**»(٣). **فأحق من يُدعى له بالتسديد والتوفيق مَن ولي ولاية عامة، وهم العلماء الذين يُصدَر عنهم في الأحكام، والأمراء الذين بسط الله تعالى لهم في السلطان، فتجري أحكامهم وأوامرهم على الكافة. فمن أطاع العلماء**

= (٣٠٩٥) وحسنه الألباني. ولم نجده عند أحمد، ولم يحسنه الترمذي، كما قال المصنف.

(١) هذا الأثر في تفسير ابن كثير، ت: سلامة (٥/ ١١١) ذكره مرفوعاً، وهو في تاريخ بغداد، ت: بشار (٥/ ١٧٢) عن عمر بن الخطاب، يَقول: لما يزع الله بالسلطان أعظم مما يزع بالقرآن، وفي التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١/ ١١٨): عن عثمان بن عفان كان يقول: «ما يزع الإمام أكثر مما يزع القرآن».

(٢) الفروع وتصحيح الفروع (٣/ ١٧٨)، والمبدع في شرح المقنع (٢/ ١٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ برقم (٧١٣٧)، ومسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية... برقم (١٨٣٥).

والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أرباباً.

⁂ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كانت الطاعة «عبادة»، لم يجز صرفها لغير الله، ووجب توحيد الله بها، ومن أعظم حق الله في الطاعة: طاعته في التحليل والتحريم؛ إذ أنّ هذا خالص حقه، قال الله ﷻ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. وليس للأمراء، ولا للعلماء، أن يشرّعوا دون الله، فكما أن له الخلق، فله الأمر، كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالله ﷻ هو الذي يأمر وينهى، ويحل ويحرم، ووظيفة العلماء أن يُبيّنوا ذلك للناس، ووظيفة الأمراء أن يحملوهم عليه، هكذا جرت السنن، وسارت الأمة من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، فمن عكس الطريقة، وسوغ لنفسه أن يحل ما حرم الله، وأن يحرم ما أحل الله، فقد نازع الله في حقه، ومن أطاعه في ذلك فقد اتخذه ربّاً؛ لما سيأتي من الآيات.

قوله: (وقال ابن عباس: يوشك)؛ أي: يقرب ويدنو.

قوله: (أن تنزل عليكم حجارة من السماء)؛ أي: أن تحصبوا بالحجارة، وهو نوع من العذاب.

قوله: (أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر)؛ أي: أنّ ابن عباس رضي الله عنهما أنكر إنكاراً بليغاً على من يسمع كلام النبي ﷺ، ويقابله بكلام أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، فكيف بمن قابله بكلام من دونهما من العلماء والأمراء؟!

وهذا الأثر قد رواه بألفاظ متقاربة: الإمام أحمد، كما تقدم، والخطيب البغدادي[(١)]، وابن عبد البر[(٢)]، وابن حزم[(٣)]، وذكره بهذا اللفظ ابن القيم في إعلام الموقعين كما تقدم.

ولهذا الأثر قصة: وهو أنّ عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال لابن عباس: «ألا

---

(١) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي (١/ ٣٧٧).
(٢) الاستذكار (٤/ ٦١)، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٨/ ٢٠٨).
(٣) المحلى بالآثار (١٢/ ٣٥١).

تتقي الله ترخص في المتعة؟» ومن المعلوم أنّ النبي ﷺ لما حج حجة الوداع أمر أصحابه بالتمتع، وأن يفسخوا حجهم إلى عمرة، ثم يحرموا بالحج في اليوم الثامن، وقال ﷺ متأسفاً على فوات الخير: «**لو استقبلتُ من أمري ما استدبرتُ ما أهديتُ، ولولا أن معي الهدي لأحللتُ**»[(١)]، فالذي منع النبي ﷺ من جعلها متعة أنه ساق الهدي، ومن ساق الهدي لا يمكنه أن يحل حتى يبلغ الهدي محله، يوم النحر، فلم يكن في وسع النبي ﷺ أن يتمتع؛ ولذلك حج رسول الله ﷺ قارناً، ولكنه عزم على أصحابه المفردين، الذين لم يسوقوا الهدي، أن يفسخوا الحج إلى عمرة، ويحلوا الحل كله، فإذا كان يوم الثامن أحرموا بالحج، وأراد بذلك أن يبطل عادة أهل الجاهلية، فقد كانوا يرون أن الإحرام بالعمرة في أشهر الحج من أفجر الفجور، فاجتهد النبي ﷺ أن يجتث هذا الاعتقاد الجاهلي، وقام بنفسه ﷺ بالاعتمار في الأشهر الحرم، فوقعت جميع عمراته في شهر ذي القعدة، وأراد أن يفعل أصحابه ما فعل، فألح عليهم بذلك.

وفي خلافة أبي بكر وعمر اجتهدا اجتهاداً فصارا ينهيان الناس عن المتعة، والسبب أنهما خافا أن يُهجَر البيت؛ لأن من أتى البيت بعمرة وحجة، ربما قال في نفسه: لا حاجة أن آتي بعمرة في أشهر العام، فيهجر البيت، ولا تحصل العمرة في أشهر السنة، فكان من اجتهادهما رضي الله عنهما أن أمرا الناس أن يحجوا مفردين. ورأى ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا اجتهاد في مقابل النص، وأن المتعة أفضل؛ بل واجبة، فلما قال له عروة بن الزبير: «ألا تتقي الله! ترخص في المتعة؟» قال له ابن عباس: «سل أمك يا عرية»! تصغير عروة، تحقيراً له، بسبب هذه المراجعة، فقال: «أما أبو بكر وعمر فلم يفعلاه» أي: كأنك خالفت سُنَّتهما، فقال: «والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، أحدثكم عن رسول الله ﷺ، وتحدثون عن أبي بكر وعمر، وفي لفظ آخر عنه أنه قال: «أُراهم سيهلكون، أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي ﷺ، ويقولون: نهى أبو بكر

(١) أخرجه البخاري في أبواب العمرة، باب عمرة التنعيم برقم (١٧٨٥)، ومسلم في الحج، باب بيان وجوه الإحرام، برقم (١٢١٦).

وعمر» هذا لفظ الإمام أحمد، وقد حسنه ابن مفلح[١].

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، إذ أنّ ابن عباس رضي الله عنهما رأى أن في اتباع ما ذهب إليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، اجتهاداً، وهما من العلماء الأمراء، بخلاف ما أمر به النبي ﷺ من الطاعة المحرمة، التي تستوجب العقوبة. فكيف بمن دونهما، ممن ليس أهلاً للاجتهاد.

فوائد الأثر:

١ ـ وجوب تقديم قول رسول الله ﷺ على قول كل أحد.

٢ ـ أن مخالفة هدي النبي ﷺ في أقواله وأفعاله من أسباب العقوبة.

٣ ـ ذم التقليد لمن بلغه الدليل، فابن عباس لم ينكر على عروة إلا حين أخبره أن هذا هدي النبي ﷺ، فاحتج بكلام أبي بكر وعمر، فعظُم ذلك عليه، وأغلظ عليه في النكير.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

(وقال الإمام أحمد: عجبتُ لقوم) والتعجب نوعان:

الأول: أن يكون عن استحسان.

الثاني: أن يكون عن استنكار. وهذا من الاستنكار.

قوله: (عرفوا الإسناد وصحته)؛ أي: وقفوا على سند الحديث إلى رسول الله ﷺ وثبت عندهم أنه صحيح.

قوله: (ويذهبون إلى رأي سفيان) هو: سفيان بن سعيد الثوري، أبو عبد الله، الكوفي، ثقة، حافظ، فقيه، حجة. مات سنة إحدى وستين ومائة رحمه الله، والرأي في مقابل النص فاسد الاعتبار. فتعجب الإمام أحمد رحمه الله ممن بلغه الدليل بالسند الصحيح، المتصل إلى رسول الله ﷺ، ثم يأخذ برأي سفيان، أو غيره من العلماء.

---

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/٦٦).

قوله: (والله تعالى يقول) استدل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالقرآن لبيان وجه العجب.

قوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ لم يقل: «يخالفون أمره» مع أن (خالف) يتعدى بنفسه؛ لأنه ضمَّنه معنى: (أعرض) المتعدي بعن، والتضمين من صنوف البلاغة.

قوله: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة هنا: المحنة والعذاب والعقوبة. وقد بيّنها الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «يطبع على قلبه، فلا يأمن أن يظهر الكفر بلسانه، فتُضرب عنقه»[1]؛ أي: أنه لا يأمن إذا رد قول الشارع أن يتمادى به الأمر، فيقع في كفر يظهر على فلتات لسانه، فيقتل به ردة. وقد فسرها الإمام أحمد، بعد ذكر الآية.

قوله: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ في الآخرة.

قوله: (أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) هذا الأثر عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينطبق على جزء الترجمة؛ لأن الترجمة: «باب: من أطاع العلماء والأمراء» فيصدق في حق أبي بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وصف (الأمراء) ويصدق في حق سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ وصف (العلماء). وليس معنى ذلك: أن من صدر منه هذا الأمر المخالف للدليل أنه تعمد المخالفة، فإن أبا بكر وعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا من الخلفاء الراشدين المهديين، لكنهما ليسا معصومين، وقد اجتهدا اجتهاداً ربما كان الأرجح خلافه، وربما صدر منهما من باب السياسة الشرعية، بحكم الإمارة والولاية. وسفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام مشهور، فهو إذا رأى رأياً مخالفاً، صادراً عن اجتهاد، فإنما يكون بسبب أنه لم يبلغه الدليل الصحيح، وله أجر واحد. لكن هذا لا يسوغ لمن بلغه الدليل الصحيح أن يأخذ بقوله. فهذان الأثران: أثر ابن عباس، وأثر الإمام أحمد، ليس فيهما تنقصاً للمذكورين، فإن ذلك صدر منهم عن اجتهاد، ونية صالحة.

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، لما تضمَّنه من النكير على من قلَّد العلماء، وأعرض عن الدليل الصحيح.

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (١٩/ ٢٣١).

فوائد الأثر:

١ ـ تحريم التقليد على من بلغه الدليل.

٢ ـ جواز التقليد لمن لا يعرف الدليل؛ لأن الإمام أحمد إنما عجب من حال من عرف الإسناد وصحته، فدل ذلك على أن من لم يعرف الإسناد وصحته؛ كالعامي، وأخذ برأي إمام معتبر، فلا تثريب عليه.

٣ ـ الرد على من قال: لا إنكار في مسائل الخلاف، والصواب أن يقال: لا إنكار على المجتهد، فالإنسان إذا اجتهد بأدوات الاجتهاد المعروفة، وأداه اجتهاده إلى نتيجة معينة، فلا ينكر عليه؛ لأنه قصد إصابة الحق، وطاعة الخالق سبحانه، فنحمده على اجتهاده، ولو كان مخالفاً للحق.

أما دعوى عدم الإنكار في مسائل الخلاف فليس صواباً؛ لأنه ما من مسألة فرعية إلا وفيها خلاف، فكأنه بذلك يوصد باب الترجيح، وطلب الحق بدليله، وتسويغ تتبع الرخص. وما زال الأئمة الكبار المتبوعون يعظمون شأن الاتباع، وعدم التعصب، **ومن أقوالهم في ذلك:**

١ ـ **قال الإمام أبو حنيفة** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا كان عن الصحابة اخترنا من قولهم، وإذا كان عن التابعين زاحمناهم»[(١)]؛ لأن الصحابة ـ رضوان الله عنهم ـ شهدوا التنزيل، وعلموا التأويل بفضل صحبتهم النبي ﷺ.

٢ ـ **وقال الإمام مالك** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلٌّ مأخوذ من قوله ومتروك، إلَّا صاحب هذا القبر»[(٢)]؛ أي: قبر النبي ﷺ؛ لأنه كان يقول ذلك في مسجد رسول الله ﷺ، ويشير إلى قبره.

٣ ـ **وقال الإمام الشافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع الناس على أن من استبانت له سُنَّة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»[(٣)]. وقال أيضاً:

---

(١) الجامع الصغير، عبد الحي اللكنوي (ص٤٢).

(٢) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (٥/٣٥٩).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/٢٨٢) وهذا المعنى قرره في الرسالة بأكثر من لفظ، في مواضع متعددة.

«إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط»(١).

فهذه الأقوال لهؤلاء الأئمة ـ رحمهم الله ـ دليل صدقهم وإخلاصهم، وأنهم ما كانوا يريدون الاستكثار من الأتباع؛ بل همهم إصابة الحق. فمحبتهم والنصح لهم، ألا نتبعهم إلا على ما وافق هدي النبي ﷺ. وهذا المعنى ينبغي أن يرسخ في القلب والنفس، وأن نعلم مقتضى شهادة أن محمد رسول الله: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع. وهذا لا يقتضي الزهد في أقوال العلماء والفقهاء، كما يقع من بعض السفهاء، فإنه لشدة حملته على التعصب والجمود، ينتقل إلى الطرف المقابل، فيقع في النيل من أئمة المذاهب، وازدراء كتب المذاهب، والطعن في الفقهاء، وهذا مسلك باطل. فالعلماء ـ رحمهم الله ـ اجتهدوا في تقريب العلم، ووضعوا متوناً مختصرة، مما رأوا أنه موافق للدليل، وهم في ذلك مجتهدون. ولهذا كان الأئمة المحققون؛ كشيخ الإسلام ابن تيمية، والإمام محمد بن عبد الوهاب ـ رحمهما الله ـ وغيرهما، ينسبون إلى مذهب الإمام أحمد، لكنهم يخالفون المذهب في مسائل كثيرة.

وبناء عليه؛ فلا ينافي الاتباع للنبي ﷺ أن يتفقه الإنسان على مذهب معتبر؛ بل ينبغي لطالب العلم أن يتفقه على أصول المذهب السائد في محلته ومنطقته؛ فإذا كان مثلاً في البلاد النجدية، تفقه على مذهب الإمام أحمد؛ لأنه السائد المعمول به، وإذا كان في بلاد المغرب، تفقه على مذهب مالك؛ لأنه السائد المعمول به في تلك الجهات، وإذا كان في بلاد الشام، أو الهند، تفقه على مذهب أبي حنيفة؛ لأنه السائد المعمول به، وإذا كان في بلاد مصر أو بعض بلاد المشرق؛ كماليزيا، وإندونيسيا، وأواسط آسيا، تفقه على مذهب الشافعي؛ لأنه السائد المعمول به. وليس من مقتضى التفقه على مذهب معين أن يصم الإنسان أذنيه، ويغمض عينيه، ولا ينطق إلا بما جرى به المذهب؛ بل عليه أن يتجرد للحق، فإذا تبيّن له الحق في خلاف مذهبه تبعه، وإلا وقع في التعصب المذموم؛ إذ لا يليق بطالب العلم أن يبلغه الدليل، ثم تأخذه حمية التعصب المذهبي فينتصر للمذهب، مع بدو الدليل على خلافه.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ٢٨٢).

فعلى المسلم أن ينعتق من أسر التعصب، وربقة التقليد، فإنه يضل صاحبه عن الحق، ولا يقول ـ كما قال أحدهم ـ: كل قول يخالف ما قاله الأصحاب فهو إما منسوخ أو مؤول! فصارت مرجعيته الأصحاب، لا الكتاب والسُّنَّة. وهذا ينقض شهادة: أن محمد رسول الله؛ فقد جعل كلام الأصحاب حاكماً على كلام محمد ﷺ. فعلى المؤمن أن يوحد النبي ﷺ باتباع، كما يوحد الله بالعبادة، سواء بسواء.

وقد وقع في الأمة الإسلامية، من جراء التعصب المذهبي، ما يندى له الجبين، فبلغ الأمر بالمتعصبة أن يقول قائلهم: يجوز للحنفي أن يتزوج يهودية أو نصرانية ولا يجوز له أن يتزوج شافعية! ويقال: إن اثنين تنازعا في مسألة تحريك الإصبع في الصلاة، وكان أحدهما يرى التحريك، والآخر لا يرى ذلك، فلما قاما إلى الصلاة جعل أحدهما يحرك إصبعه بشدة، ليغيظ صاحبه، فلما سلم عمد إلى إصبعه فكسره!

وعلى طالب العلم أن يجتهد في بيان الحق في مسائل الخلاف، فإن قُبل منه فذاك، وإن لم يُقبل منه فليحسن الظن بمخالفه، ويعتقد أنه هذا ما أدى إليه اجتهاده، إذا كان المخالف عنده أثارة من علم. أما إذا كان ﴿يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٨﴾ [الحج: ٨]، وإذا قيل له: قال الله ورسوله، كذا وكذا، أشاح بوجهه، وقال: ولو! فهذا يُعرض عنه، ولا يمارى، فإنه مفتون، كما قال الإمام أحمد: «لعله إذا رد بعض قوله يقع في قلبه شيء من الزيغ، فيهلك». وقد كان السلف ينكرون أشد النكير على هؤلاء، فعن ابن عباس رضي الله عنهما «قال: قال رجل: كم يكفيني من الوضوء؟ قال: مد، قال: كم يكفيني للغسل؟ قال: صاع، فقال الرجل: لا يكفيني، قال: لا أمَّ لك، قد كفى من هو خير منك، رسول الله ﷺ»[1]. ومنهم من هجر من رد شيئاً من كلام النبي ﷺ، كما جاء عن سعيد بن جبير، أن قريباً لعبد الله بن مغفل خذف، قال: فنهاه، وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عن الخذف، وقال: «**إنها لا تصيد صيداً، ولا تنكأ عدواً، ولكنها تكسر السن، وتفقأ العين**» قال: فعاد، فقال: أحدثك أن رسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٦٢٨) وقال محققو المسند: «صحيح لغيره».

نهى عنه، ثم تخذف، لا أكلمك أبداً»[١]، وفي هذه الأزمنة بتنا نرى من يملأ أعمدة الصحف، والوسائط الإلكترونية، في الطعن في كلام النبي ﷺ، ويرد ذلك، فإلى الله المشتكى. وقد أخبر النبي ﷺ عن هذا، فقال: **«سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدَّق فيها الكاذب، ويكذَّب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة»** قيل: وما الرويبضة؟ قال: **«الرجل التافه في أمر العامة»**[٢]، فصرنا نرى الرجل التافه، الذي لا علم عنده، يتكلم في الأمور العامة، ذات الأثر الخطير، مما لا ينبغي الكلام فيها إلا لمرجعية علمية معتبرة.

* * *

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ) عدي هو: أحد أصحاب النبي ﷺ، وأبوه حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الكرم، وكان عدي قد اعتنق النصرانية، وصار ركوسياً، ثم فر من النبي ﷺ، وكانت له أخت عاقلة، فما زالت تراسله حتى أقنعته بأن يرجع إلى النبي ﷺ، ويعتنق الإسلام، فرجع إلى النبي ﷺ فدخل على النبي ﷺ، وكان عليه صليبٌ من ذهب، ففرح بمقدمه، وكان جالساً على وسادة، فنزع الوسادة وألقاها له، فسمعه يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١﴾.

قوله: (فقلت له: إنا لسنا نعبدهم) ظن أن اتخاذهم أرباباً، أن يخر راكعاً أو ساجداً، للأحبار والرهبان، فنفى عبادتهم إياهم.

قوله: («أليس يحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرم الله فتحلُّونه؟» فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم») لأنهم أطاعوهم في تحليل ما حرم الله،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب إباحة ما يستعان به على الاصطياد والعدو، وكراهة الخذف برقم (١٩٥٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء برقم (٤٠٣٦) وصححه الألباني.

وتحريم ما أحل الله. وهذا الحديث رواه ابن جرير[١]، والبيهقي[٢]، والطبراني[٣]، وابن سعد[٤]، وابن مردويه[٥]، وحسنه شيخ الإسلام في كتاب الإيمان[٦]، وبعضهم نقل تحسين الترمذي، لكن الصحيح أن عبارة الترمذي: «هذا حديث غريب لا نعرفه، إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وعطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث»[٧]. ولعل التحسين المنسوب إلى الترمذي وقع في بعض النسخ، وعموماً فإن هذا الحديث له طرق يقوي بعضها بعضاً، وحسبك بتحسين شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ له.

واليهود والنصارى يعبثون بالشريعة، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل الله:

ـ **أما اليهود:** فوقائعهم في هذا كثيرة، لكن أسلوبهم أسلوب الحيل، فإذا أرادوا أن يحللوا أو يحرموا، تحايلوا على شرع الله، ولم يغيروا اللفظ نصّاً، لكن يتحايلون عليه بأنواع الحيل، ومن ذلك: ما أخبر عنه النبي ﷺ: «**قاتل الله اليهود إن الله لما حرم شحومها** ـ أي: الميتة ـ **جملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه**»[٨]، كما حرَّفوا حكم الرجم، وجعلوا مكانه التحميم ـ أي: التسويد ـ والجلد[٩]. وقصة أصحاب السبت، في التحايل على صيد الحيتان، معلومة مشهورة. ولم يزل هذا المسلك الدنيء مصاحباً لهم حتى يومنا هذا.

ـ **وأما النصارى:** فإنهم اتخذوا دينهم هزواً ولعباً، فكان أن أبطلوا

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (١٦٦٣٢).
(٢) سنن البيهقي الكبرى برقم (٢٠١٣٧).
(٣) المعجم الكبير، الطبراني برقم (١٣٦٧٣).
(٤) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٦/ ٢١٧).
(٥) كذا قال في الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٧/ ٣٢٤) ولعله أخرجه ابن مردويه في تفسيره.
(٦) ضمن مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧).
(٧) سنن الترمذي، ت: شاكر (٥/ ٢٧٨) (٣٠٩٥).
(٨) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب بيع الميتة والأصنام برقم (٢٢٣٦)، ومسلم في المساقاة، باب تحريم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام برقم (١٥٨١).
(٩) أخرجه مسلم في كتاب الحدود، باب رجم اليهود أهل الذمة في الزنى برقم (١٧٠٠).

«الناموس» وهو شريعة موسى، حينما دخل في دينهم رجل يقال له: بولس، يسمونه القديس (بولس) فزعم أن من آمن بالمسيح إلٰهاً مخلصاً، فإنه يتبرر؛ أي: يصبح باراً، ويسقط عنه الناموس، ولا تلزمه شريعة. فكلما أرادوا أن يغيروا في دينهم، وشرعهم، عقدوا ما يسمونه بالمجمع المسكوني، وهو مجمع يتنادون له، ويجمعون فيه جميع أساقفة الأرض المسكونة، ويزعمون أن روح القدس يهديهم، ويرشدهم، ويصوب ما يصدر عن ذلك المجمع من قرارات، فتكتسب صفة العصمة. فهذا معنى قول النبي ﷺ: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فتلك عبادتهم**».

قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ﴾؛ أي: جعلوا، والضمير يرجع إلى اليهود والنصارى معاً.

قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾ الأحبار: علماء اليهود، والرهبان: عبَّاد النصارى.

قوله: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ووجه اتخاذهم إياهم أرباباً، كونهم أعطوهم حق الحكم والتشريع، والحكم من خصائص الله، كما قال الله: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وكذلك التشريع، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]. فهم صرفوا ذلك لغير الله، فنازعوا الله تعالى في الربوبية، فهذا شرك في الربوبية، ثم إن طاعتهم إياهم في ذلك شرك في الألوهية، فأخلوا بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية معاً.

مناسبة الحديث للباب:

مطابق للترجمة، لما تضمنه من إنكار النبي ﷺ طاعة العلماء في تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله.

فوائد الحديث:

١ ـ أنّ طاعة العلماء والأمراء في التحليل والتحريم، بخلاف ما شرع الله، بمنزلة عبادتهم.

٣ ـ أن من أنواع الشرك: شرك الطاعة.

٤ ـ الرفق في تعليم الجاهل؛ فإن عدي ﷺ لما استدرك، وقال: «إنا لسنا نعبدهم» لم يعنف عليه النبي ﷺ؛ بل علم أن عنده شبهة فكشفها، وراعى حداثة عهده بالإسلام، وأجابه جواباً حكيماً، مقنعاً، رفيقاً، ليناً.

٥ ـ أن العبادة معناها واسع، وأنها لا تختص بالشعائر: من صلاة وصيام وزكاة وحج، وإنها تشمل الطاعة عموماً؛ لقوله ﷺ: **«فتلك عبادتهم»**.

٦ ـ ذم التقليد الأعمى، والتعصب.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى **تفسير آية النور.**

وقد تقدم معناها، والشاهد منها: الوعيد على من ترك قوله ﷺ وخالف أمره.

الثانية **تفسير آية براءة.**

والشاهد منها: أن طاعة الأحبار والرهبان في التحليل والتحريم فيما يخالف الشرع، عبادة لهم.

الثالثة **التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.**

وهي عبادة الطاعة، فلم يكن يعلم أنّ الطاعة في التحليل والتحريم عبادة، فأخبره النبي ﷺ أنها تدخل في ذلك.

الرابعة **تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.**

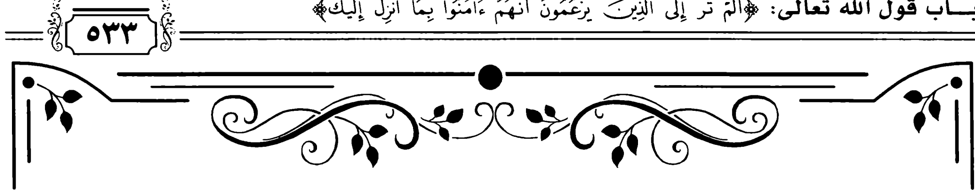
فتمثيل ابن عباس ينطبق على الأمراء، وتمثيل أحمد بسفيان ينطبق على العلماء.

الخامسة **تغير الأحوال إلى هذه الغاية، حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتُسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.**

هذا من عميق فقه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وإدراكه للواقع في زمانه: وأن هذا الأمر تمادى بالناس حتى صار كثير من عامة المسلمين يعظم الخرافيين من أرباب الطرق الصوفية ويسيِّدونهم، ويسمونها (ولاية)، وصار طائفة من المسلمين يقعون في التعصب المذهبي، فيقدمون أقوال الرجال، على قول الله، وقول رسوله ﷺ، ويسمُّونه (تمذهب). فمثل هذه الشائبة قد وقعت في هذه الأمة، وهو مصداق قول النبي ﷺ: «**لتتبعنَّ سنن من كان قبلكم**»[(١)].



(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول النبي ﷺ: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**» برقم (٧٣٢٠)، ومسلم في كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى برقم (٢٦٦٩).



بـــاب

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء: ٦٠ ـ ٦٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يُؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»(١)، قال النووي: حديث صحيح، روِّيناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح(٢).

وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة،

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السُّنَّة برقم (١٥)، وابن بطة في الإبانة الكبرى برقم (٢٧٩)، والبغوي في شرح السُّنَّة (١/ ٩٨) وقال الألباني في مشكاة المصابيح (١/ ٣٦): «سنده ضعيف».

(٢) الأربعون النووية (ص١١٣).

وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا على أن يأتيا كاهن في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠][(١)].

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: «أكذلك؟» قال: نعم، فضربه بالسيف، فقتله[(٢)].

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

عقد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب؛ لبيان أن من لوازم الإيمان التحاكم إلى الله ورسوله، وأن من ترك التحاكم إلى الله ورسوله، واستغنى عنهما بسواهما فقد ناقض أصل التوحيد، لمناقضته مقتضى شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، وهو استفهام للتعجب والإنكار؛ لأن حال هؤلاء المذكورين يقتضي العجب منهم، والنكير عليهم.

قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾؛ أي: يدعون، وغالباً ما يستخدم الزعم في الدعاوى المكذوبة، أو فيما يكون موضع مسائلة وتهمة، وربما عُبِّر بالزعم عن الخبر المجرد.

قوله: ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ هو القرآن العظيم.

قوله: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ أي: التوراة والإنجيل.

قوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ هذه إحدى صفاتهم: وهي

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (٩٨٩١)، وتفسير البغوي، إحياء التراث (١/ ٦٥٤)، وتفسير القرطبي (٥/ ٢٦٣)، وأسباب النزول، للواحدي (ص١٠٧).

(٢) تفسير البغوي، طيبة (٢/ ٢٤٢)، وأسباب النزول، للواحدي، ت: الحميدان (ص١٦٢).

التحاكم إلى الطاغوت، والطاغوت ـ كما تقدم ـ مشتق من الطغيان الذي هو التجاوز. واصطلاحاً: كل ما تجاوز به العبد حده؛ من معبود، أو متبوع، أو مطاع. والطاغوت هنا هو كعب بن الأشرف، كما سيأتي في سبب النزول، لكن الآية أعم، والقاعدة عند المفسرين: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فقد تنزل آية من الآيات في واقعة معينة، ولا يقتضي هذا اختصاص الحكم بتلك القضية المعينة؛ بل ما دل عليه اللفظ بعمومه ينسحب على جميع أفراده.

قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ الكفر بالطاغوت واجب؛ بل هو قسيم الإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾؛ أي: يستهويهم الشيطان بهذا المسلك، ويغويهم؛ فالضلال بمعنى: التيه والضياع عن طريق الحق.

وتتمة هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ هذا هو الوصف الثاني: أنهم إذا دعوا إلى التحاكم إلى ما أنزل الله، وإلى الرسول، صدوا، وأعرضوا، وأشاحوا بوجوههم. ثم قال الله: ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾، هذا هو الوصف الثالث: وهو أنهم إذا وقعت عليهم بلية ومصيبة، وانكشف أمرهم، وافتضحوا، جاؤوا معتذرين: أنهم إنما أرادوا الإحسان، والتوفيق بين المصالح، ونحو ذلك من الدعاوى والمعاذير التي ظاهرها البراءة والنصح، وباطنها الخبث والغش.

وهذه الآيات العظيمة، عند التأمل، تنطبق على فئات متعددة: فقد طبقها شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ على المتكلمين من الجهمية والمعتزلة ومن شابههم، الذين اشتغلوا بعلم الكلام، وتركوا علوم الكتاب والسُّنَّة؛ فإن المتكلمين أعجبوا بعلوم اليونان ومنطقهم، وقدموا الأدلة العقلية على الأدلة النقلية، ووقعوا فيما وقع فيه المنافقون، وشابهوهم من **عدة وجوه**:

الأول: أن المنافقين ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، والمتكلمون يقولون: نحن من جملة المسلمين، ونحن من أهل القبلة. فالزعم حاصل من الطرفين.

الثاني: أن المنافقين ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾، والمتكلمون يتحاكمون إلى منطق أرسطو، وفلسفة اليونان، ثم يستدعون نصوص الكتاب والسُّنَّة، فإن هي وافقت ما دلتهم عليه عقولهم ومقدماتهم قبلوها، واعتبروها أدلة مساندة، بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب، وإن هي عارضت ما توصلوا إليه استعملوا معها **أحد طريقين**:

١ ـ الرد: إن كان حديث آحاد، ويزعمون أنه لا يُؤخذ بأحاديث الآحاد في مسائل الاعتقاد.

٢ ـ التأويل: إن كان آية محكمة، أو حديثاً متواتراً، فيلوون أعناق النصوص؛ لتوافق ما أملته عليهم عقولهم.

الثالث: أن المنافقين ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾، والمتكلمون زين لهم الشيطان علوم اليونان، وزخرفها لهم، وأنها سبيل الحصول على العلم القطعي اليقيني، ومع هذا لم يحصِّلوا العلم القطعي اليقيني بمسلكهم ذلك؛ بل ضلوا ضلالاً بعيداً.

الرابع: أن المنافقين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ والمتكلمون، إذا دعوا إلى علوم الكتاب والسُّنَّة، والتحاكم إلى الآثار، أشاحوا بوجوههم، ونبزوا أهل السُّنَّة بألقاب السوء، وقالوا: أنتم حشْوية، أو نوابت، وسخروا منهم.

الخامس: أن المنافقين ﴿إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَـٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ والمتكلمون إذا صيح بهم، وخشوا افتضاح طريقتهم، اعتذروا بأنهم سلكوا هذا المسلك للتوفيق بين الأدلة النقلية والعقلية.

ويشبه هؤلاء، وهؤلاء، فئة ثالثة، وهم منافقو هذا الزمان، الذين يطلق

عليهم اسم «العلمانيين»(١) أو «الليبراليين»(٢)، فإنهم يحملون أسماء أهل الإسلام: كعبد الله، وعبد الرحمٰن، ولكن وجوههم لا تولي شطر المسجد الحرام؛ بل تستقبل الغرب! فهم مفتونون بالغرب في ثقافاتهم، وآدابهم، واقتصادهم، واجتماعهم. وهم يشاركون سلفهم **بهذه الأوصاف**:

- ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ويقولون: نحن من جملة المؤمنين. ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ فهم معجبون بفلاسفة الغرب، ومنظريهم، وقادتهم، ومفكريهم، فألسنتهم تلهج بذكر هؤلاء، وقلَّ أن يذكروا آية أو حديثاً، أو يستشهدوا بقول عالم من علماء الملة؛ بل هم في الواقع، يريدون استبعاد الشريعة، وتطبيق القوانين الوضعية، وتغيير حال المرأة في المجتمع، وأن يكون الاقتصاد ربوياً، وأن يشاكلوا الغرب والشرق في جميع أحوالهم، وينزعوا صبغة الله التي صبغ بها عباده المؤمنين.

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ إذا صاح بهم أهل العلم والإيمان، وقالوا لهم: اتقوا الله، وردوا الأمر إلى الله ورسوله، صدُّوا، وأعرضوا، وسخروا بأهل العلم، ورجال الحسبة، ويصمونهم بألقاب السوء.

---

(١) **العَلمانية والعَلمنة**: مأخوذة من العالَم، وليس من العِلم، وإنما النسبة إلى العالَم؛ أي: الدنيا؛ إذ أن أصل هذه اللفظة في اللغة الإنجليزية «Secularism» معناها: الدنيوية، بمقابل الدينية؛ وذلك أن النصارى الغربيين يقسمون المجتمع إلى «رجال دين»، وهم رجال الكهنوت، أو (الإكليروس) الذين ينضوون في رتب تحت مظلة الكنيسة، و«رجال دنيا»، ويسمونهم عَلمانيين، ولا يعدون ذلك سُبة، وحقيق أن تُسمى الدنيوية، بدلاً من العلمانية، حتى لا تلتبس النسبة بالعلم. والمراد بالعَلمانية: إقصاء الدين عن أمور الحياة، بحيث يظل في أحسن الأحوال سلوكاً شخصياً، لا شأن له بأمور الدنيا، من الثقافة، والسياسة، والاقتصاد، والاجتماع، وغير ذلك من مناحي الحياة.

(٢) **الليبرالية**: مأخوذة من كلمة «Liberalism»، معناها: الحرية، وهو مذهب فكري يدعو إلى التحرر من كل شيء، وألا يكون الإنسان متقيداً، ولا منضبطاً بدين ولا شرع، بل يفعل ما يمليه عليه عقله ورأيه، فلا يلزم الإنسان، في نظرهم، اتباع الأنبياء. وكلمة «الحرية» محببة للنفوس، لكنها حرية منفلتة، فينبغي أن تُعرّف الليبرالية: بالانفلات المطلق، كما فسرها منظروها أنفسهم. ولا شك أن هذا مناقض لأصول الديانات؛ إذ أن الدين هو المنهج والشريعة التي يسلكها العبد في سبيل إرضاء ربه.

- ﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ إذا وقعت لهم فتنة، أو خافوا سخطة، قالوا: نحن نريد أن تحسين العلاقات، وتصحيح صورة الإسلام، وهم في الواقع يثلمون الدين، ويهدمون أركانه، فمهما زوّقوا العبارات فإنهم في الحقيقة، سلكوا كمسلك أولئك المنافقين، كما وصف الله تعالى: فينبغي أن نعتبر بهذه الآيات العظيمات، ونعلم أن الله تعالى ما أبقى ذكرها إلا لدوام الحاجة إليها.

فوائد الآيات:

١ ـ لا يجوز تقديم كلام أحد، كائناً من كان، على كلام الله ورسوله.

٢ ـ وجوب التحاكم إلى كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، مع الرضا والتسليم، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

٣ ـ أن من تحاكم إلى غير شرع الله، وارتضاه فليس بمؤمن، ولو ادعى الإصلاح، أو التطوير، أو العصرنة، أو غير ذلك من الدعاوى المزوقة.

٤ ـ أن من غيّر ما أنزل الله فهو طاغوت، ومن تحاكم إليه فقد تحاكم إلى الطاغوت، وإن سمَّاه مثلاً: حقوق الإنسان، أو الحرية الدينية، أو المساواة بين الجنسين، أو غيرها من الأسماء المزوقة.

٥ ـ وجوب الكفر بالطاغوت.

٦ ـ وجوب الحذر من مكائد الشيطان؛ فالشيطان لا يقول لأتباعه: هلموا إلى الضلال، وإنما يقول: هذا الأفضل والأحسن، ويزين ذلك بشتى الأساليب.

٧ ـ أن من دُعي إلى شرع الله فأعرض عنه، فهو منافق معلوم النفاق.

٨ ـ مشابهة المتكلمين للمنافقين في هذا المسلك.

٩ ـ مشابهة العلمانيين والليبراليين للمنافقين في هذا المسلك.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ هؤلاء هم المنافقون أيضاً. والإفساد نوعان: إفساد حسي مادي، وإفساد معنوي، والثاني أشدهما خطراً؛ لأن الأول يتعلق بالممتلكات، وما يمكن استصلاحه،

وأما الإفساد المعنوي فإنه يتعلق بالعقائد، والقيم، والأخلاق، وهذا شيء قد يموت عليه الشخص، فيخسر الدنيا والآخرة معاً. فنهاهم المؤمنون عن الإفساد في الأرض بصنوف الكفر، والمعاصي، والوشاية، والسعاية، للإضرار بالمؤمنين.

قوله: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: ما نحن فيه إصلاح، وليس بفساد، هكذا زعموا!.

مناسبة الآية للباب:

خفيَّة، وذلك أن المنافقين، يتذرعون بالمزاعم الباطلة، ودعاوى الإصلاح، ومع ذلك يتحاكمون إلى غير ما أنزل الله، ويتركون شريعة الله التي يحصل بها الصلاح والإصلاح.

فوائد الآية:

١ ـ التحذير من التحاكم إلى الأنظمة الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية.

٢ ـ أن الضالين يعتقدون أنهم مصلحون؛ فلا عجب إذا رُئي ينافح عن فكرته، ويظهر عليه أثر الغيرة والحمية؛ لأنه ربما رأى في رأيه الفاسد، أنه مصلح، والأمر ليس كذلك.

٣ ـ التحذير من الإعجاب بالرأي، فلا يُجزم إلا بنص معصوم، أما مجرد الرأي فيعرض على النص، فإن وافقه فالحمد لله، وإلا فالمعول على الدليل متى استبان وظهر. ومن الناس من يعجب برأيه؛ ولهذا جعل النبي ﷺ ذلك من مسوغات العزلة، فقال: «**وإعجاب كل ذي رأي برأيه**»[١]. فينبغي للإنسان أن يوطن نفسه على اتهام رأيه، وأنه قابل للخطأ، فيما لا نص فيه قاطع، فإذا وجد النص، فالعصمة في كتاب الله وسُنَّة نبيّه ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة برقم (٣٠٥٨)، وأبو داود في كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي برقم (٤٣٤١)، وابن ماجه في كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] برقم (٤٠١٤) وقال الألباني: «ضعيف، لكن بعضه صحيح».

٤ ـ أن كل معصية في الأرض فهي فساد، وليُتأمل قول إخوة يوسف: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ۝٧٣﴾ [يوسف: ٧٣] لأن السرقة فساد.

٥ ـ عدم الاغترار بأقوال أهل البدع والأهواء، وإن زخرفوها بدعوى الإصلاح.

قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الإفساد يكون بالشرك، والمعاصي، والعدوان.

قوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا﴾ الأرض صلحت بما جاء به الأنبياء من الإيمان الصحيح، والشرائع العادلة، والأخلاق القويمة؛ ولهذا نهاهم نبيُّهم عن الإفساد.

مناسبة الآية للباب:

كسابقتها، وذلك أن من تحاكم إلى غير شرع الله فقد أفسد؛ لأن الصلاح يحصل باتباع الشرع.

فوائد الآية:

١ ـ أن المعاصي سبب فساد الأرض، ويقابل ذلك أن الطاعة سبب صلاحها.

٢ ـ أن الحكم بغير ما أنزل الله إفساد في الأرض.

فهؤلاء الذين يدعون مجتمعاتهم الإسلامية إلى محاكاة الغرب والشرق، والسير على خطاهم، فيما يتعلق بالأفكار، والأخلاق، والقيم، والمبادئ هم يدعون إلى الإفساد.

فإذا انبرى هؤلاء المفسدون، ونفّروا أهل الإسلام من تطبيق الحدود، مثلاً، وقالوا: لم تزهق نفس القاتل؟! ولم تقطع يد السارق؟! ولم يرجم الزاني المحصن؟! هذه قسوة ووحشية، كما يزعمون، فلنعلم أنهم هم المفسدون حقاً، وأن الإصلاح باتباع ما شرع الله الذي هو أعلم بمن خلق، فلا نلتفت لهذه الدعاوى؛ بل نعلم فسادها. قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وفي الحديث: «**حدٌّ يقام في الأرض خير من أن تمطروا أربعين**

صباحاً»(١).

والصلاح يحصل بالتزام شرع الله ﷻ، قال أبو بكر بن عياش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله بعث محمداً إلى أهل الأرض، وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمدٍ ﷺ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض»(٢)، فأحسن التنظير رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «بدائع الفوائد»: «ومن تدبر أحوال العالم، وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله، وعبادته، وطاعة رسوله، وكل شر في العالم، وفتنة، وبلاء، وتسليط عدو، وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله»(٣).

قوله: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ﴾ استفهام إنكاري للتوبيخ. والجاهلية: كل ما خالف الإسلام، لكنها تطلق اصطلاحاً تاريخياً على الفترة التي سبقت بعثة النبي محمد ﷺ؛ وذلك لعموم الجهل فيها، كما قال الله ﷻ لنساء النبي: ﴿وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فتلك هي الجاهلية الأولى، وقد تقع جاهليات لاحقة؛ لأن مرد ذلك إلى الجهل، فأينما وجد الجهل وُجدت الجاهلية. وقد تظهر في الأفراد، كما قال النبي ﷺ لأبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ لما قال لبلال: يا ابن السوداء: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»(٤)، وقد تظهر في المجتمعات؛ كقول النبي ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن**»(٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مِنْ حِينِ يَبْلُغُ؛ خُصُوصاً فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ أَزْمِنَةِ الْفَتَرَاتِ الَّتِي تُشْبِهُ الْجَاهِلِيَّةَ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يَنْشَأُ بَيْنَ أَهْلِ عِلْمٍ وَدِينٍ قَدْ يَتَلَطَّخُ مِنْ أُمُورِ الْجَاهِلِيَّةِ بِعِدَّةِ أَشْيَاءَ

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٨٧٣٨) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف لضعف جرير بن يزيد». وابن حبان في كتاب الحدود، ذكر الأمر بإقامة الحدود في البلاد، برقم (٤٣٩٨) وقال الألباني: «حسن لغيره».

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٦/ ٤٢٩).

(٣) بدائع الفوائد، ت: العمران (٣/ ٨٥٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك برقم (٣٠)، ومسلم في الإيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل برقم (١٦٦١).

(٥) سبق تخريجه.

فَكَيْفَ بِغَيْرِ هَذَا، وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» عَنْ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**» هَذَا خَبَرٌ تَصْدِيقُهُ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]؛ وَلِهَذَا شَوَاهِدُ فِي الصِّحَاحِ وَالْحِسَانِ.

وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ يَسْرِي فِي الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الدِّينِ مِنْ الْخَاصَّةِ؛ كَمَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ مِنْهُمْ ابْنُ عُيَيْنَة؛ فَإِنَّ كَثِيراً مِنْ أَحْوَالِ الْيَهُودِ قَدْ ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْعِلْم وَكَثِيراً مِنْ أَحْوَالِ النَّصَارَى قَدْ ابْتُلِيَ بِهِ بَعْضُ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى الدِّينِ كَمَا يُبْصِرُ ذَلِكَ مَنْ فَهِمَ دِينَ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّداً ﷺ ثُمَّ نَزَّلَهُ عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ)[1].

فدلّ ذلك على أن الجاهلية لا تختص بفترة زمنية، ومعنى: ﴿يَبْغُونَ﴾؛ أي: يريدون، ويطلبون ويشتهون وتتمة الآية: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾ الجواب: لا أحد أحسن، وإذا كان الجواب: بلا، فالاستفهام للنهي. و﴿أَحْسَنُ﴾ أفعل تفضيل، لا يدل على أن في الطرف الثاني حسن؛ لأن أفعل التفضيل لا يقتضي وجود فضل في الطرف المقابل؛ كقول الله عز وجل: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤] فأصحاب النار ليس عندهم حُسْن ألبتة؛ بل الحسن كله في ما أنزل الله، والسوء كله فيما ناقض ما أنزل الله.

قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾؛ أي: لقوم يعلمون علم اليقين أن حكم الله عز وجل هو الخير والهدى، وأنه صالح لكل زمان، ومكان، وأمة، وأنه مصلح للأفراد والمجتمعات.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لما فيها من النكير على من طلب التحاكم إلى غير الله عز وجل والثناء المطلق على حكمه، الذي يدرك حسنه أهل اليقين.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٥٦، ٦٥٧).

فوائد الآية:

١ ـ وجوب تحكيم شرع الله.

٢ ـ أن كل ما خالف شرع الله فهو من حكم الجاهلية.

٣ ـ فضل الشريعة، وكمالها، وصلاحها، بشهادة رب العالمين.

٤ ـ أن تحكيم القوانين الوضعية كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فمن نبذ شريعة الله، واستعاض عنها بالقوانين الوضعية فقد كفر بالله عَزَّوَجَلَّ.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **أن رسول الله** ﷺ **قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، قال النووي: حديث صحيح روِّيناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح)** النووي هو: الإمام المعروف، محيي الدين، أبو زكريا، يحيى بن شرف النووي، نسبة إلى نوى، قرية من قرى الشام، عالم، ورع، محدِّث، فقيه، مصنف، مشهور، مشارك في جميع العلوم، وعلومه وكتبه نافعة سيارة، ومن أشهرها: «رياض الصالحين»، و«المجموع شرح المهذب». وفاته سنة (٦٧٦هـ). والكتاب الذي أحال إليه النووي هو كتاب «الحجة على تارك المحجة»، لأبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي (ت:٥٠٧هـ) وهو كتاب في العقيدة، يردّ فيه على المبتدعة، وأصحاب المقالات الباطلة، مطبوع محقق. وهو غير كتاب «الحجة في بيان المحجة» لإسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السُّنَّة (ت:٥٣٥هـ).

وقوله: (روِّيناه) هذا المعنى في القرآن يصح فيه ضبطان:

الأول: «رَوَينَاه» بفتح الراء وبناء ضمير الرفع على الفاعلية.

الثاني: «رُوِّينَاهُ» بضم الراء وتشديد الواو وكسرها، لبناء الفعل على ما لم يُسم فاعله.

وهذا الحديث: في ثبوته نزاع. فقد أخرجه ابن أبي عاصم، والبغوي كما

تقدم، والخطيب[١]، والحكيم الترمذي[٢]، وأبو القاسم الأصبهاني[٣]، والبيهقي[٤]، وأخرجه في الكنز، وعزاه إلى: (الحكيم، وأبو نصر السجزي في الإبانة، وقال: حسن غريب، والخطيب عن ابن عمرو)[٥]. وقال ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه للأربعين النووية: «قلتُ: تصحيح هذا الحديث بعيد جداً من وجوه، منها: أنه حديث يتفرد به نعيم بن حماد المروزي، ونعيم هذا وإن كان وثقه جماعة من الأئمة، وخرَّج له البخاري، فإن أئمة الحديث كانوا يحسنون به الظن، لصلابته في السُّنَّة، وتشدده في الرد على أهل الأهواء، وكانوا ينسبونه إلى أنه يَهِم، ويُشبَّه عليه في بعض الأحاديث، فلما كثر عثورهم على مناكيره، حكموا عليه بالضعف... ومنها: أن في إسناده عقبة بن أوس السدوسي البصري، ويقال فيه: يعقوب بن أوس أيضاً، وقد خرج له أبو داود، والنسائي، وابن ماجه حديثاً عن عبد الله بن عمرو، ويقال: عبد الله بن عمر، وقد اضطرب في إسناده»[٦]. فالحديث محل نزاع في تصحيحه وتضعيفه، إلا أن معناه صحيح.

قوله: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) نفى النبي ﷺ الإيمان الواجب عمن لم يكن هواه تبعاً لما جاء به ﷺ، وهذا معنى صحيح؛ ولهذا قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، صاحب تيسير العزيز الحميد رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه صحيح قطعاً، وإن لم يصح إسناده، وأصله في القرآن كثير»[٧]؛ أي: هذا المعنى في القرآن كثير.

ومثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. ومعنى الآية هو معنى الحديث؛ لأنه قال فيها: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي

---

(١) تاريخ بغداد، ت: بشار (٦/ ٢٠) (١٦٠٩).
(٢) نوادر الأصول في أحاديث الرسول (٤/ ١٦٤).
(٣) الحجة في بيان المحجة برقم (١٠٣).
(٤) المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي برقم (٢٠٩).
(٥) كنز العمال (١/ ٢١٧).
(٦) جامع العلوم والحكم، ت: الأرنؤوط (٢/ ٣٩٤، ٣٩٥).
(٧) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد (ص٤٩٢).

أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فصار هواهم تبعاً لما جاء به. ومما يؤيده أيضاً قول الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠]؛ فدلّ ذلك على منافاة اتباع الهوى للإيمان. والمقصود بالهوى: ما تميل إليه النفس وتحبه مما يخالف الشرع.

وقوله: **(تبعاً لما جئت به)** أن يحب ما أمر الله به رسوله، ويكره ما نهى الله عنه ورسوله، فيمتثل الأوامر حتى لو وَجد في نفسه ثُقْلاً، ويترك المناهي ولو وجد في نفسه رغبة إليها، فهذا دليل على تقديمه محاب الله ومحاب رسوله على هوى نفسه، فالعبرة بالعمل. ووجود الغريزة الطبعية لا يقدح في إيمانه؛ بل تركها لله يدل على صحة الإيمان؛ لكونه طرح هوى نفسه، وامتثل أمره، واجتنب نهيه.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لدلالته على نفي الإيمان عمن لم يمتثل أمر الله، ولم يطمئن إلى شرعه.

فوائد الحديث:

١ ـ وجوب محبة ما جاء به الرسول ﷺ؛ وهذا يحصل بالمجاهدة والدربة، وربما كان الإنسان في وقت من الأوقات يكره بعض ما جاءت به السُّنَّة، لكن بالمجاهدة يريه الله الحق حقاً، والباطل باطلاً، والحسن حسناً، والقبيح قبيحاً. ولنضرب لذلك مثلاً: بعض الناس يرى في حلق اللحية جمالاً، ونضارةً، ونظافةً، وفي إعفائها عكس ذلك، ويجد في نفسه غضاضة، وكرهاً، لكنه إذا جاهد نفسه، وتذكر أن هذا هدي محمد ﷺ طابت نفسه فيما بعد، وأحب محبوبات الله، ومحبوبات نبيِّه ﷺ. وبعض الناس يكون من البداية قريباً من الفطرة، سليماً من التكلف، فلا يحتاج إلى عناء شديد ليجعل هواه تبعاً لما جاء به النبي ﷺ.

٢ ـ وجوب بُغض ما خالف ما جاء به النبي ﷺ.

٣ ـ انتفاء الإيمان الواجب عمن كان هواه غير تابع لما جاء به رسول الله.

٤ ـ أن الإيمان يتفاضل، ويزيد وينقص؛ للتفاوت في مجاهدة الهوى، واتباع الهدى.

٥ ـ أن الإيمان التام يستلزم الموافقة التامة، ظاهراً وباطناً، وهذا أصل من أصول أهل السُّنَّة والجماعة: أن العمل لازم الإيمان، لا ينفك عنه، ولا يُتصَور بدونه، فلأجل ذا قال أهل السُّنَّة: الإيمان قول وعمل. وقالت المرجئة: الإيمان اعتقاد بالقلب، وأرجأوا العمل عن مُسمى الإيمان.

٦ ـ انتفاء الإيمان الواجب عن أهل البدع، والأهواء، والفساق؛ لأنهم لم يجعلوا هواهم تبعاً لما جاء به ﷺ، ومالوا إلى مناهج ومسالك منحرفة.

٧ ـ أن محبة الأشخاص، والأعمال، والأمكنة، والأزمنة، متعلقة بكمال الإيمان، ونقص ذلك نقص في الإيمان؛ فمزاج المؤمن يتكيف تكيفاً إيمانياً، فيحب محبوبات الله، فيحب من الأزمنة: شهر رمضان، ومن الأمكنة: مكة، والمدينة، وبيت المقدس، ويحب من الأشخاص والذوات: المتقين، والمحسنين، والصابرين، ويحب من الهيئات: الركوع، والسجود، ويحب من الأقوال: الدعاء، وسائر الكلم الطيب، والعمل الصالح، ويكره أضدادها.

قوله: (وقال الشعبي) الشعبي هو: عامر بن شراحيل الشعبي، الكوفي. إمام مشهور، تابعي ثقة، فقيه، فاضل. مات بعد المائة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة) الذي حمل اليهودي على الترافع إلى النبي ﷺ علمه أنه لا يأخذ الرشوة، وهي: ما يعطاه الحاكم من أحد المتخاصمين ليحابيه في القضية، وكأن هذا اليهودي علم أن الحق إلى جانبه، وأنه سيحكم له، وإلا فليس هذا تعظيماً منه للنبي ﷺ.

قوله: (وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة) لعلمه أنهم أكالون للسحت، فأراد أن يرشيهم ليحصل له مراده.

قوله: (فاتفقا على أن يأتيا كاهن في جهينة فيتحاكما إليه)؛ أي: لما اختلفا، هداهما الشيطان إلى أن يتحاكما إلى كاهن من جهينة، والكهان ـ كما سبق ـ موجودون في كل حي من أحياء العرب، ويكون لأحدهم رَئِي من الجن يستعين به.

قوله: فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآيات) التي صدّر بها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الباب. وقد تقدم تخريجها.

مناسبة القصة للباب:

مطابقة؛ لأن فيها بيان سبب نزول الآية التي ترجم بها المصنف للباب.

فوائد القصة:

١ ـ وجوب التحاكم إلى شريعة الله.

٢ ـ أن التحاكم إلى غير شرع الله ينافي الإيمان.

٣ ـ أن المنافقين أخبث من اليهود.

٤ ـ دناءة اليهود؛ لأخذهم الرشوة، وخداع المنافقين؛ لبذلهم الرشوة.

٥ ـ تحريم الرشوة أخذاً وإعطاء وسعاية؛ وقد جاء في الحديث: «لعن رسول الله ﷺ الراشي، والمرتشي، والرائش؛ يعني: الذي يمشي بينهما»[1]، فالراشي باذل الرشوة، والمرتشي من يقبلها، والرائش هو الوسيط بينهما، وكلهم داخلون في اللعنة.

٦ ـ شدة كراهة المنافقين وأشباههم لحكم الله ورسوله؛ وتفضيلهم التحاكم إلى الكهان على حكم الله ورسوله.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف) كعب بن الأشرف: من زعماء اليهود، وقيل: إنه من قبيلة طيِّء، لكن أمه من بني النضير، فكان في عداد اليهود، وكان شديد العداوة للنبي ﷺ بفعله، وقوله، وشعره؛ ولهذا قال النبي ﷺ كما في «الصحيحين»: **«من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»**[2]، فانتدب له

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٢٣٩٩) وقال محققو المسند: «صحيح لغيره دون قوله: «والرائش»».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب قتل كعب بن الأشرف برقم (٤٠٣٧)، ومسلم =

ثلة من الصحابة الخيار الأبطال، حتى قتلوه. فهذان الرجلان ـ ولعلهما المذكورين سابقاً، وقد يكونان غيرهما، لاختلاف الحال ـ اقترح أحدهما الترافع إلى النبي ﷺ، واقترح الآخر الترافع إلى كعب بن الأشرف.

قوله: (ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: «أكذلك؟» قال: نعم، فضربه بالسيف، فقتله)؛ أي: فعل ذلك غضباً للنبي ﷺ، وعقوبةً على كفر من لم يرض به حكماً.

هذا الأثر، قد أخرجه البغوي معلقاً عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، كما تقدم، ومن المعلوم أن الكلبي متهم بالكذب، فالحديث بهذا الإسناد يكون ضعيفاً، ولكن قد أخرجه الطبراني، والواحدي، كما تقدم، بإسناد جوده ابن حجر[(١)]. ويبقى في الحديث إشكال، وهو: كيف عمد عمر رضي الله عنه إلى قتل الرجل من تلقاء نفسه، مع أن الحدود لا بد أن ترفع إلى السلطان؟ فهذا مُشكِل. وقد أجيب عنه بأجوبة غير مقنعة، **منها**:

١ ـ عدم ثبوت هذه القصة.

٢ ـ إن عمر رضي الله عنه كان قد اطلع على الحال، واستأذن النبي ﷺ؛ لأن المعروف من حال عمر رضي الله عنه في وقائع كثيرة أنه كان يقول للنبي ﷺ: «يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق»[(٢)]، فكان النبي ﷺ يمنعه في مناسبات عدة، **منها**:

ـ في قصة حاطب بن أبي بلتعة[(٣)].

ـ وفي قصة الرجل الذي قال له: اعدل يا محمد[(٤)].

= في كتاب الجهاد والسير، باب قتل كعب بن الأشرف طاغوت اليهود برقم (١٨٠١).

(١) فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٣٨).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس برقم (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم برقم (٢٤٩٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس برقم (٣٠٠٧)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم برقم (٢٤٩٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٦١٠)، =

ـ وفي قصة عبد الله بن أُبي بن سلول[١]. فكان النبي ﷺ يمنعه ويذكر له أسباباً تحول دون قتلهم. فإذا كان هذا هو المعروف من شأن عمر، وهو أنه مع شدة غيرته لله ولرسوله، وحميته لدين الله، لا يقدم على شيء إلا بعد استئذان النبي ﷺ؛ فينبغي أن يكون قد علم بما جرى من الرجلين سلفاً، واستأذن النبي ﷺ في ذلك.

مناسبة القصة للباب:

ظاهرة؛ لأن فيها أنّ من احتكم إلى غير شرع الله فإنه مستحق للقتل إن اعتقد ذلك واستحله؛ لأن التحاكم إلى غير شرع الله، رغبةً عنه، ردة في الدين، ففي هذه القصة ما يدل على تفضيله لحكم غير الله على حكم الله ورسوله ﷺ ـ؛ حيث أنه عرض عليه صاحبه الترافع إلى النبي ﷺ فأبى، فهذا يدل على الرغبة عن حكم الله ورسوله.

فوائد القصة:

١ ـ أن تحكيم غير شرع الله في الخصومات والمنازعات ردة عن الإسلام.

٢ ـ أن المرتد حده القتل.

٣ ـ مشروعية الغضب لله ورسوله، كما وقع من عمر.

٤ ـ مشروعية تغيير المنكر باليد، فيما يسوغ تغيره باليد؛ لأن مراتب التغيير كما أخبر النبي ﷺ: اليد، ثم اللسان، ثم القلب، فإذا وسع الإنسان شرعاً أن يُغير بيده لزمه ذلك، وإن كان التغيير باليد إلى غيره؛ كالسلطان فلا يتجاوز حده.

٥ ـ أن معرفة الحق لا تغني عن العمل به، والانقياد له؛ فلا يكفي مجرد العلم أن دين الله أحسن من غيره؛ بل لا بد من الامتثال، فإنه لازم ذلك.

* * *

= ومسلم في الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم برقم (١٠٦٤).

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوة الجاهلية برقم (٣٢٥٧)، ومسلم في البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً برقم (٢٥٨٤).

📖 ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولـــى **تفسير آية النساء، وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.**

فمن نصَّب نفسه، أو رضي أن يكون مرجعاً للتحاكم بغير شرع الله، فهو طاغوت.

الثـانيـة **تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.**

فالتحاكم إلى غير شرع الله من الإفساد في الأرض.

الثـالثـة **تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.**

فصلاح الأرض بسيادة الشرع، وفسادها بتغيير الشرع.

الرابعـة **تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.**

تفسير ذلك: أن من تحاكم إلى غير شرع الله، فقد فضّل حكم الجاهلية على حكم الله.

الخامسـة **ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.**

أن الخصومة جرت بين منافق ويهودي، فاليهودي اختار التحاكم إلى النبي ﷺ؛ لعلمه أنه لا يأخذ الرشوة، والمنافق اختار التحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة.

السـادسـة **تفسير الإيمان الصادق والكاذب.**

الإيمان الصادق هو الذي يقتضي التحاكم إلى الله ورسوله، والإيمان الكاذب يرفض ذلك ويأباه.

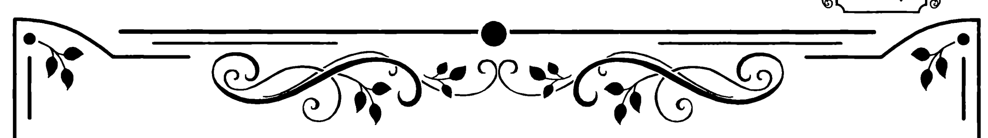
السـابعـة **قصة عمر مع المنافق.**

وقد آل به الحال إلى قتله، إن صحت القصة.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

كما جاء في الحديث: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به**» وهو حديث صحيح المعنى قطعاً، وإن كان في إسناده مقال، فلا يثبت الإيمان الواجب إلا بذلك.





باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد: ٣٠].

وفي «صحيح البخاري» قال علي: «حدِّثُوا الناسَ بما يَعْرِفُون، أتُرِيدُون أن يُكَذَّبَ اللهُ ورسولُه؟!»[١].

وروى عبد الرزاق عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك، فقال: «ما فرق هؤلاء؟! يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه» انتهى[٢].

ولما سمعتْ قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمٰن أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٣].

الشرح

📖 قال المصنف رحمه الله:

(باب: من جحد شيئاً من الأسماء والصفات) الجحد: الإنكار والنفي، والجحد: تارة يكون بالرد الصريح، وتارة يكون بالتحريف. فمراد المصنف رحمه الله في هذا أن يُبيِّن حكم من جحد شيئاً من الأسماء والصفات.

ولله أسماء حسنى: وقد ذكر ذلك في أربعة مواضع من كتابه فقال: ﴿وَلِلَّهِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً دون قوم، كراهية أن لا يفهموا برقم (١٢٧).

(٢) مصنف عبد الرزاق برقم (٢٠٨٩٥)، والسُّنَّة، لابن أبي عاصم برقم (٤٨٥).

(٣) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (٢٠٣٩٨).

﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [طه: ٨]، وكذا قال في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر: ٢٤].

فالله ﷻ سمى نفسه بأسماء بلغت في الحسن غايته، وذلك معنى قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧] فهو السميع، وله من السمع أعلاه، وهو البصير، وله من البصر أعلاه، وهو القوي، وله من القوة أعلاها، وهكذا بقية الأسماء. وهذه الأسماء منها ما نعلمه، ومنها ما لا نعلمه؛ لقوله ﷺ في دعاء الكرب: **«أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»**(١)، فدل ذلك على أن لله تعالى أسماءً لا نعلمها، قد استأثر بها سبحانه، أو اختص بها بعض خلقه، ولكن الله تعالى أعلمنا منها ما شاء؛ ولهذا قال النبي ﷺ: **«إنّ لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»**(٢)، وهذه الأسماء الحسنى مبثوثة في الكتاب والسُّنَّة، وقد انتدب العلماء قديماً، وحديثاً، إلى استنباطها من نصوص الوحيين.

ولله تعالى صفات عليا: فإن كل اسم يتضمن صفة، ولا يكون للاسم فائدة ما لم يتضمن صفة، فالسميع يدل على السمع، والبصير يدل على البصر، والقوي يدل على القوة، والعزيز يدل على العزة، والدليل على هذا أن الله تعالى أضاف الصفة إلى نفسه، فقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال: ﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ١٦٥] فما من اسم من أسماء الله إلا وهو متضمن لصفة كمال.

لكن الصفات لا يلزم أن تتضمن أسماء: لأن باب الصفات أوسع من باب الأسماء، فكل اسم يدل على صفة، وليس كل صفة تدل على اسم، فمن صفاته تعالى: الإرادة، وليس من أسمائه المريد، ومن صفاته: المجيء، وليس من

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٣٧١٢) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار... برقم (٢٧٣٦)، ومسلم في الذكر كتاب والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها برقم (٢٦٧٧).

أسمائه الجائي، ومن صفاته: المشيئة، وليس من أسمائه الشائي، وهكذا. والواجب على المؤمنين أن يثبتوا ما أثبت الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، وأن لا يتعرضوا لها بأي نوع من أنواع التحريف، والتعطيل، والتكييف، والتمثيل؛ بل يثبتون ما أثبته الله تعالى لنفسه، وأثبته له نبيِّه ﷺ وينفون ما نفاه الله عن نفسه، ونفاه عنه نبيّه ﷺ، إثباتاً بلا تمثيل، وينزهون تنزيهاً بلا تعطيل.

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

ظاهرة، وذلك إن التوحيد، كما قدمنا أول الكتاب، **ثلاثة أنواع**:

١ ـ توحيد الربوبية.

٢ ـ وتوحيد الألوهية.

٣ ـ وتوحيد الأسماء والصفات.

فهذا الباب متعلق بالنوع الثالث، على أن حصته في هذا الكتاب قليلة؛ إذ عامة ما فيه يتعلق بتوحيد العبادة (توحيد الألوهية).

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: كفار قريش، وما شاكلهم من مشركي العرب.

قوله: ﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: يجحدون هذا الاسم، لا أنهم ينكرون وجود الله؛ لأنهم يقرون بوجود الله، ويثبتون له أيضاً بعض الأسماء؛ كالعزيز، والعليم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٩]، لكنهم أنكروا بعضها ومما أنكروه هذا الاسم (الرحمٰن) كما سيأتي في الأثر. وهو اسم من أسماء الله الحسنى، دالٌّ على اتصافه بصفة الرحمة، والفرق بينه وبين (الرحيم):

ـ أن (الرحمٰن) يدل على اتصاف الله بصفة الرحمة اتصافاً ذاتياً. والرحيم يدل على اتصافه بصفة الرحمة اتصافاً فعلياً، فهو يدل على الرحمة الواصلة.

ـ أن (الرحمٰن) يدل على الرحمة العامة، كما قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]؛ فهو يدل على الرحمة الواسعة، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة، كما قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فهو

يدل على الرحمة الواصلة. ويقرن الله تعالى بينهما كثيراً، كما في البسملة التي تفتتح بها السور. وتتمة هذه الآية:

قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي﴾؛ أي: الرحمٰن الذي أنكرتموه.

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ أي: لا معبود بحق إلا هو.

قوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ قدم الجار والمجرور ليدل على الاختصاص؛ أي: لا على غيره. والتوكل: اعتماد القلب على الله في جلب المنافع، ودفع المضار، مع فعل الأسباب الموصلة إلى ذلك.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: إلى الرحمٰن مرجعي وتوبتي.

مسألة الاسم والمسمَّى:

مسألة أحدثها المتكلمون من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة، وهي: هل الاسم عين المسمَّى أو غيره؟ فكان لا بد من البيان. فلا يقال: الاسم هو المسمَّى، ولا غير المسمَّى؛ بل نستفصل:

قال شارح الطحاوية: (وَطَالَمَا غَلِطَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي ذَلِكَ، وَجَهِلُوا الصَّوَابَ فِيهِ؛ فَالِاسْمُ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى تارة، ويراد بِهِ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَيْهِ أُخْرَى، فَإِذَا قُلْتَ: قَالَ اللهُ كَذَا، أَوْ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى نَفْسُهُ، وَإِذَا قُلْتَ: اللهُ اسْمٌ عَرَبِيٌّ، وَالرحمٰن اسم عربي، والرحيم مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَالِاسْمُ ها هنا هو المراد، لا المسمى، وَلَا يُقَالُ غَيْرُهُ، لِمَا فِي لَفْظِ الْغَيْرِ مِنَ الْإِجْمَالِ. فَإِنْ أُرِيدَ بِالْمُغَايَرَةِ أَنَّ اللَّفْظَ غَيْرُ الْمَعْنَى فَحَقٌّ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ كَانَ وَلَا اسْمَ لَهُ، حَتَّى خَلَقَ لِنَفْسِهِ أَسْمَاءً، أَوْ حَتَّى سَمَّاهُ خَلْقُهُ بِأَسْمَاءٍ مِنْ صُنْعِهِمْ، فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الضَّلَالِ وَالْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاء اللهِ تَعَالَى)(١).

فالمعتزلة تقول: الاسم غير المسمى، لاعتقادهم أن الصفات المضافة إلى الله مخلوقة، بناءً على أصلهم الفاسد بعدم قيام صفة ثبوتية في الله، وأن

---

(١) شرح الطحاوية، ط. دار السلام (ص١٢٧).

أسماء الله تعالى أعلام محضة لا تدل على وصف ثبوتي لله. والأشاعرة تقول: الاسم هو المسمى لاقتصارهم على إثبات الصفات الذاتية المعنوية لله، وإنكارهم الصفات الفعلية. فلا نُسلِّم لهؤلاء، ولا هؤلاء بذلك؛ بل نقول: الاسم للمسمى، ولا نقول: الاسم هو المسمى، ولا الاسم غير المسمى. فإذا قصدنا الذات فالاسم الدال عليه هو المسمى، وإذا قصدنا اللفظ نفسه، فالاسم غير المسمى، كما لو قلت: الرحمٰن: اسم من أسماء الله، تريد بذلك اللفظ، فهو غير ذات الله ﷻ. والحاصل: أنه لا بد من التفصيل في هذه المسائل المحدثة؛ ولهذا قال الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله: «ثم حدث في دهرنا هذا حماقات، خاض فيها أهل الجهل والغباء، ونوكى الأمة والرعاع، يتعب إحصاؤها، ويمل تعدادها، فيها القول في اسم الشيء أهو هو أم هو غيره؟»[١].

❋ مناسبة الآية للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيها من الإنكار على من جحد اسم الرحمٰن، وكذلك بقية الأسماء والصفات.

فوائد الآية:

١ ـ أن من جحد شيئاً من الأسماء والصفات، بعد البينة، وإقامة الدليل، فإنه يكفر.

٢ ـ وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته.

٣ ـ وجوب توحيده سبحانه.

٤ ـ وجوب التوكل عليه.

٥ ـ وجوب التوبة إليه سبحانه.

٦ ـ أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف: أعلام باعتبار دلالتها على ذاته سبحانه، وأوصاف باعتبار أن كل اسم يدل على صفة مستقلة، تميزه عن غيره، فالسميع، غير البصير، والبصير غير العليم، والعليم غير القدير، من حيث تميز كل اسم منها بمعنى مستقل. فإذا قيل: هل أسماء الله الحسنى مترادفة أو متغايرة؟

---

(١) صريح السُّنَّة، للطبري (ص١٧).

فيقال: هي مترادفة باعتبار دلالتها على الذات، ومغايرة باعتبار استقلال كل اسم منها بمعنى يخصه. فجميع الأسماء الحسنى دالة على ذات الله؛ فالله هو السميع، وهو البصير، وهو العليم، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ [الحشر: ٢٢] إلى آخر السورة، فكل هذه الأسماء الحسنى ترجع إلى اسم «الله»، فبهذا الاعتبار دلالتها على الذات مترادفة. أما باعتبار اختصاص كل اسم بمعنى يميزه عن غيره فهي متغايرة ومتباينة؛ فالسميع يدل على السمع، والبصير يدل على البصر، والعليم يدل على العلم، والقدير يدل على القدرة، وهكذا، خلافاً للمعتزلة القائلين: أسماء الله أعلام محضة، تدل على ذات الله، ولا تدل على صفات. ومذهبهم ظاهر البطلان.

٧ ـ اختصاص الله عَجَلَّ بهذا الاسم الشريف (الرحمٰن)، فلا يجوز إطلاقه على غيره، لما يدل عليه من طلاقة الرحمة وغايتها. ومن أسماء الله الحسنى ـ بل أكثرها ـ ما يجوز إطلاقه على المخلوق، باعتبار أن ما لله يليق به، وما للمخلوق يليق به، فمثلاً قول الله عَجَلَّ: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١] فسمى خلقاً من خلقه العزيز، مع أنّ العزيز من أسماء الله الحسنى، وقال سبحانه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٣] فوصف خلقاً من خلقه بالعظم، مع أنه سبحانه هو العظيم، وسمى بعض عباده بالملك، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ [يوسف: ٤٣] مع أن الله تعالى هو الملك، فدل ذلك على جواز تسمية المخلوق باسمٍ يُسمى به الله، لكن على اعتبار أن ما لله يليق به، هو المثل الأعلى، وما للمخلوق يليق به، وهو المثل الأدنى.

ومن الأسماء الحسنى ما لا يجوز إطلاقه على غير الله، مثل اسم (الله)؛ ولهذا أبطل الله ألوهية كل آلهة مدعاة، فقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الأنبياء: ٢٤]. ومما يختص الله تعالى به أيضاً اسمه (الرحمٰن) لأنه يدل على طلاقة الرحمة وسعتها وشمولها، فلا يجوز أن يتسمى إنسان بالرحمٰن، ويجوز أن يتسمى إنسان بالرحيم، كما قال الله عن نبيِّه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. ولا يجوز أن يُسمى غيره بالمتكبر؛ لأن المتكبر هو الله، ولا يصدق على سواه.

٨ ـ كفر الجهمية الذين أنكروا أسماء الله وصفاته؛ فإذا كان المشركون قد كفروا بإنكار اسم واحد هو (الرحمٰن) فكيف بالجهمية الذين أنكروا جميع

أسماء الله الحسنى، وزعموا أن الأسماء الحسنى اصطنعها الناس، وأطلقوها على الله ﷻ تعالى الله عما يقولون. وقد أجمع السلف على تكفير الجهمية - وإن كانوا قد اختلفوا في تكفير المعتزلة - لشناعة مقالتهم، وأنه ليس لهم تأويل سائغ، كما قال ابن القيم رحمه الله:

فَهُمُ بِذَا جَهْمِيَّةٌ أَهْلُ اعتِزَالٍ ثَوْبُهُمْ أَضْحَى لَهُ عَلَمَانِ
وَلَقَدْ تَقَلَّدَ كُفْرُهُم خَمْسُونَ فِي عَشْرٍ مِن الْعلَمَاء فِي الْبلْدَانِ[1]

📖 **ثم قال المصنف** رحمه الله:

(وفي «صحيح البخاري»: قال علي) هو: علي بن أبي طالب رضي الله عنه. هذا الحديث رواه الإمام البخاري في كتاب العلم، في باب من خص بالعلم قوماً دون قوم كراهية أن لا يفهموا[2]. و(كتاب العلم) في «صحيح البخاري» كتاب حافل، ينبغي لكل طالب علم أن يقرأه، ويستشرحه، لتضمنه مسائل متعلقة بالعلم، وآدابه، وطرقه.

قوله: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!)؛ أي: بما يفهمون، فعلي رضي الله عنه كأنما خاطب بهذا قوماً من القصاص أو الوعاظ الذين يحدثون الناس بأمور مشتبهة، فنهاهم عن مبادأة الناس بأمور مشكلة، ولكن يحدثونهم بما أنزل الله في كتابه، وما قاله رسوله، فكل ما أنزله الله، وقاله رسوله فهو بيّن واضح؛ لأن الله وصف كتابه بأنه ﴿مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥] و﴿تِبْيَٰنًا﴾ [النحل: ٨٩] و﴿بَيَانٌ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، فهو - بحمد الله - واضح، فلا يُترك الواضح، ويُؤتى المشتبه؛ من الإسرائيليات، والمسائل المشكلة، وإنما يوعظون، ويقص عليهم بناطق الكتاب، والآثار الصحيحة، وعلل ذلك بتعليل مقنع؛ وهو أن تحديثهم بما ينكرون، مدعاة إلى تكذيب الله ورسوله. وهذه مفسدة عظيمة.

❋ مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة؛ لأن التحديث أو الإخبار بالغرائب والمتشابهات، سبب للتكذيب بأسماء الله وصفاته.

---

(١) متن القصيدة النونية (٢/ ٣٩).
(٢) صحيح البخاري (١/ ٣٧).

فوائد الأثر:

١ ـ تجنب ذكر بعض أبواب العلم إذا خشي حصول مفسدة، وله أسباب متعددة، منها قصور الفهم، كما في هذا الأثر. ومنها توقع ضرر من جرائها؛ ولهذا كره بعض السلف أن يُحدَّث الحَجَّاجُ بحديث العُرنيين؛ لأن فيه تعزيراً بليغاً، لما استاقوا الإبل ونهبوها، وقتلوا الراعي، فسمل النبي ﷺ أعينهم، وألقاهم في الرمضاء؛ يستقون فلا يسقون[1]، فأغلظ عليهم في العقوبة، فلا يُحدث الظالم الغشوم بمثل هذا الحديث؛ لأنه يحمله على مزيد من الظلم، لظنه أن هذا يؤيد طريقته، فلا بد للواعظ الحكيم أن يراعي الأحوال.

٢ ـ أن ظهور القُصّاص والوعاظ قديم في الأمة؛ وهؤلاء يحصل بوعظهم ترقيق القلوب، ولكن ينبغي أن يُرشَدوا ويُوجهوا إلى العظة بموعظة الكتاب والسُّنَّة، وتجنب ذكر الأحاديث الضعيفة، والقصص المشكلة، فإذا وقع أحدهم في شيء من هذا بُيِّن له الحق، ولم يمنع من الموعظة الحسنة.

٣ ـ التحذير من البدع وما تفضي إليه.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وروى عبد الرزاق) عبد الرزاق بن همام الحميري، مولاهم، أبو بكر الصنعاني، ثقة حافظ، مات سنة إحدى عشرة ومائتين رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (عن معمر) هو: معمر بن راشد الأزدي، مولاهم، أبو عروة البصري، ثقة، ثبت، فاضل. سكن اليمن، ومات سنة أربع وخمسين ومائة رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (عن ابن طاوس) هو: عبد الله بن طاوس اليماني، أبو محمد، ثقة، فاضل، عابد. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة رَحِمَهُ اللَّهُ.

(عن أبيه) طاوس بن كيسان اليماني، أبو عبد الرحمٰن الحميري، مولاهم، ثقة، فقيه، فاضل. مات سنة ست ومائة رَحِمَهُ اللَّهُ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب لم يحسم النبي ﷺ المحاربين من أهل الردة حتى هلكوا برقم (٦٨٠٣)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب حكم المحاربين والمرتدين برقم (١٦٧١).

قوله: (عن ابن عباس: أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات استنكاراً لذلك)؛ أي: حدّث ابن عباس رضي الله عنهما بحديث من أحاديث الصفات الخبرية؛ كذكر الوجه، أو اليدين، أو العينين، أو القدم، أو الساق، فانتفض هذا الرجل لما سمع هذا الحديث استنكاراً لذلك؛ لأنه تبادر إلى ذهنه التمثيل. فالعلة ليست في النص، وإنما في عقله، حيث ظن أن النص يدل على التشبيه، فانتفض استنكاراً لذلك. **قوله: (ما فرق هؤلاء؟!)** الفرق هو الخوف؛ أي: ما سبب هذه الرعدة والانتفاضة؟ وهذا استفهام استنكاري لحال هذا الرجل.

قوله: (يجدون رقة عند محكمه)؛ أي: ليناً، وقبولاً، عند الأمور المحكمة الواضحة.

قوله: (ويهلكون عند متشابهه)؛ أي: ما يشتبه عليهم منه؛ كمن وصفهم الله في قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]. فهذا الرجل الذي انتفض، اتبع المتشابه، حيث ظن أن ذكر الصفات يقتضي التمثيل والتشبيه، والأمر ليس كذلك. وكان الواجب عليه إذا اشتبه عليه شيء، أن يرد المتشابه إلى المحكم، ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]. فهذا نص محكم، فكل ما أخبر الله تعالى به عن نفسه، أو أخبر به نبيّه ﷺ، فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون على وجه التمثيل. فالواجب أن نثبت إثباتاً بلا تمثيل، وننزه الله تنزيهاً بلا تعطيل، ولا نبالغ في الإثبات فنقع في التمثيل. كما ننزه الله تعالى عن النقائص، والعيوب، ومماثلة المخلوقين، ولا نبالغ في التنزيه فنقع في التعطيل؛ بل نتوسط، ونقبل هذه النصوص الثابتة الصحيحة، ونؤمن بما دلت عليه من المعاني اللائقة بالله، وننفي التمثيل والتعطيل؛ لأن الممثل يعبد صنماً، والمعطل يعبد عدماً، والمؤمن الحنيف يعبد الله الحي الذي لا يموت، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة؛ لإنكار ابن عباس رضي الله عنهما على من أنكر ما يجب لله من الأسماء

والصفات. وبيّن بأنه يجب على الإنسان أنه يؤمن بالمحكم والمتشابه، كما قال الله تعالى عن الراسخين في العلم: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧] فما دام كل من عند ربنا، فلا يمكن أن يتعارض ولا أن يتناقض ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾.

وبناء عليه: فمن مر به نص من نصوص الصفات، ولم يحط به علماً، وأشكل عليه فهمه، فليعتصم بالمحكم، وليقل: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ فالنص المشتبه لا يمكن أن يكون معارضاً للمحكم، وليذكر قول الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١] وإذا اشتبه عليه نص من نصوص القدر، وتبادر إلى ذهنه معنى سوء من إلقاء الشيطان، بأنه يقتضي ظلماً، فليعتصم بالمحكم؛ كقوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾ [النساء: ٤٠]، وهكذا في نصوص المعاد، ونصوص الوعيد.

فهذه طريقة الراسخين في العلم، ثم بعد ذلك يطلب رفع الاشتباه بسؤال أهل الذكر، فإن ما جهله قد علمه غيره. ولذلك لا يوجد متشابه مطلق في الشريعة؛ فالتشابه نسبي؛ يشتبه على بعض الناس دون بعض، ويشتبه على إنسان في وقت دون وقت، فقد يشتبه عليه بعض المسائل في مقتبل طلبه للعلم، فكلما ازداد علماً زالت عنه الإشكالات، وتبيّن له الحق. فلا يوجد في دين الله شيء مشتبه اشتباهاً مطلقاً لا سبيل للعلم به؛ لأن الله وصف كتابه كله بالإحكام، فقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]؛ فالقرآن كله محكم بهذا الاعتبار، فلا يتبع المتشابه؛ بل يعتصم بالمحكم إلى أن يفتح الله عليه.

وقد وصف الله تعالى كتابه بالإحكام العام، وبالإحكام الخاص، وبالتشابه العام، والتشابه الخاص، **وبيان ذلك كما يلي**:

- **الإحكام العام**: وهو الإتقان في أخباره وأحكامه، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، وقال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾ [النساء: ٨٢].

- **التشابه العام**: وهو تماثله وتناسبه، وتصديق بعضه بعضاً، فلا يتناقض ولا يتعارض، فما ذُكر في موضع يُوافق ما ذُكر في موضع آخر، ولا يمكن أن

يعارضه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: ٢٣].

ـ **التشابه الخاص**: وهو مشابهة الشيء لغيره من وجه، ومخالفته له من وجه آخر. وهذا تشابه نسبي إضافي، لكونه يشتبه على بعض الناس دون بعض، ويشتبه على الشخص في وقت دون وقت، ويشتبه في نص دون نص.

ـ الإحكام الخاص: وهو الفصل بين الشيئين المشتبهين من وجه المختلفين من وجه آخر.

وقد نبَّه الله على هذين النوعين في قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] أي: آيات واضحات الدلالة، لا تحتمل إلا معنى واحداً، فعامة المُنزل من هذا القسم، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ﴾ أي: تحتمل أكثر من معنى. وقد جعل الله ذلك من باب الابتلاء والامتحان، وهذه الآيات معدودة قليلة. ثم بيَّن الله طريقة الزائغين، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾ أي: لا يعلم حقيقة ما أخبر الله تعالى به وكيفيته إلا الله ﷻ، وبيَّن طريقة الراسخين، فقال: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

فوائد الأثر:

١ ـ مشروعية ذكر آيات الصفات وأحاديثها بحضرة العوام، ولا دليل لمن قال: لا يحدث بأحاديث الصفات عند العوام! فالنبي ﷺ حدث بها الذكي، والبليد، والأعرابي، والحضري، والمتعلم، والجاهل، فنحن نحدّث بما حدّث به النبي ﷺ، وإذا اشتبه شيء جرى بيانه، ولا يُوجد شيء من العلم مما أخبر به النبي ﷺ يختص به أحد دون أحد.

٢ ـ أن من ردَّ شيئاً من خبر الله وخبر رسوله فهو من الهالكين؛ لقول ابن عباس رضي الله عنهما: «يهلكون عند متشابهه»، ولقول الإمام أحمد فيما سبق: «لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

٣ ـ الإنكار على من أنكر شيئاً من أسماء الله وصفاته؛ كالجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، وغيرهم.

٤ ـ أن التشابه في النصوص أمر نسبي إضافي.

٥ ـ أن اتباع المتشابه يفضي إلى الهلاك.

٦ ـ وجوب رد المتشابه إلى المحكم.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

مراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ أن الإيمان بأسماء الله وصفاته شرط في الإيمان.

الثانية: تفسير آية الرعد.

فقد دلت على أن المشركين يكفرون بهذا الاسم (الرحمٰن) ورد عليهم بقوله: ﴿هُوَ رَبِّي﴾ أي: الرحمٰن الذي أنكرتم اسمه هو ربي.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

يُؤخذ من أثر علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «حدِّثوا الناس بما يعرفون»، وهذا أمر يرجع إلى حكمة المتحدث، فلا يبادئ الناس بشيء يشق عليهم فهمه؛ بل يحدثهم بقدر عقولهم، ولا يدخلهم في عويص المسائل التي لا يدركونها، كما يفعل المتكلمون بل يربيهم بصغار العلم قبل كباره.

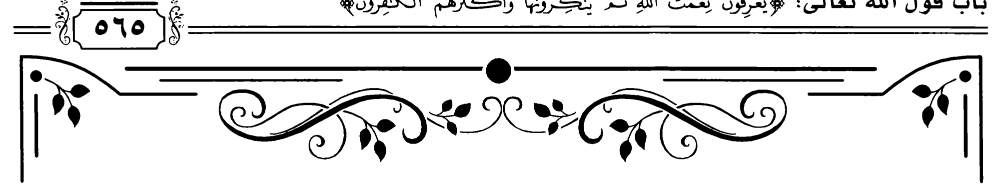
الرابعة: ذكر العلة: أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

لقول علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله؟»، ولا شك أن لا أحد من الوعاظ، والمتحدثين، يريد ذلك، لكن قد يقع منه من غير قصد، فعليه أن يتبصر بما يقول.

الخامسة **كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه أهلكه.**

أي: أنّ عباس رضي الله عنهما بيّن السبب الذي أهلك هذا الرجل الذي سمع شيئاً من أحاديث الصفات فانتفض استنكاراً، وهو اتباع المتشابه. وكان الواجب على مثل هؤلاء أن يردوا المتشابه إلى المحكم.





باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ۝٨٣﴾ [النحل: ٨٣]

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي(١).

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا(٢).

وقال قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا(٣).

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: إن الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...»(٤) الحديث، وقد تقدم، وهذا كثير في الكتاب والسُّنَّة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به، قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً(٥)، ونحو ذلك، ممن هو جارٍ على ألسنة كثير.

الشرح

قولـــه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ۝٨٣﴾؛ أي: المشركون يعرفون ما أنعم الله تعالى به عليهم من الصحة، والمال، والمسكن، والأنعام، والسرابيل، وغيرها، مما عدده الله في سورة النحل، التي تسمى سورة النِّعم، ثم يقابلون ذلك بكفرها، ونسبتها إلى غير المنعم بها سبحانه. وقيل: إن

---

(١) بنحوه في تفسير ابن أبي حاتم برقم (١٢٦٢١)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١٦١)، وزاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٧٧).

(٢) بنحوه في تفسير ابن أبي حاتم برقم (١٢٦٢٢)، وتفسير القرطبي (١٠/ ١٦١).

(٣) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ٥٧٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم برقم (٨٤٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال: مطرنا بالنوء برقم (٧١).

(٥) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣).

المراد بالنعمة: محمد ﷺ، فقد أنعم الله عليهم ببعثته، وعرفوا صدقه، وأمانته ثم أنكروه، وكفروا به. روى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ؛ أَنَّ أَعْرَابِيّاً أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَسَأَلَهُ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ. قَالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ [النحل: ٨٠] قَالَ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ. ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِ، كُلَّ ذَلِكَ يَقُولُ الْأَعْرَابِيُّ: نَعَمْ، حَتَّى بَلَغَ: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١] فَوَلَّى الْأَعْرَابِيُّ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

⁜ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

من صور الشرك المنافي للتوحيد الواجب إسناد النعم لغير الله.

قوله: (قال مجاهد) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المخزومي، مولاهم المكي، ثقة، إمام في التفسير، مات بعيد المائة رحمه الله.

قوله: (ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي) هذا من تفسير الشيء بمثاله، فعدّ مجاهد رحمه الله قول الإنسان: «هذا مالي ورثته عن آبائي» من نكران نعمة الله، حيث لم يسند النعمة إلى مسديها، وهو الله عز وجل، وإنما جعل هذا مالاً متسلسلاً إليه، ولم يرعَ فيه نعمة الله تعالى، بإضافة النعمة إليه سبحانه، والثناء بها عليه..

قوله: (وقال عون بن عبد الله) عون بن عبد الله الهذلي، أبو عبد الله الكوفي، ثقة، عابد، مات قبل عشرين ومائة رحمه الله.

قوله: (يقولون: لولا فلان لم يكن كذا) (لولا) حرف امتناع، فعلّق عدم الحصول بفلان. فهو عنده السبب في حصول المطلوب، أو دفع المرهوب، وفي هذا إسناد الفضل إلى غير مسديه، وهو الله تعالى.

(وقال ابن قتيبة) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، حافظ، أديب، يوصف بأنه خطيب أهل السُّنَّة، كما كان الجاحظ خطيب المعتزلة، وله مؤلفات نافعة، مات سنة ست وسبعين ومائتين رحمه الله.

---

(١) انظر: الدر المنثور، للسيوطي (٥/ ١٥٥).

قوله: (يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا)؛ أي: ما يحصل لهم من النعم المذكورة في سورة النحل يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا. فهذه التفاسير التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مجاهد، وعون بن عبد الله، وابن قتيبة، كلها تدل على المراد بقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أن إنكارها يكون بنسبتها إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ.

فوائد الآية:

١ ـ أن المشركين مقرُّون بتوحيد الربوبية؛ لأن الله تعالى أثبت لهم المعرفة فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ ولكنهم يشركون بتوحيد العبادة؛ ولذلك لم يقع في قلوبهم شكر المنعم ونسبة الفضل إليه.

٢ ـ وجوب نسبة النعم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وإضافتها إليه، لا إلى السبب الظاهر.

٣ ـ التحذير من نسبة النعم إلى غير الله عَزَّ وَجَلَّ، وأن ذلك شرك منافٍ للتوحيد.

٤ ـ التأدب مع الله عَزَّ وَجَلَّ بالألفاظ.

٥ ـ الرد على القائلين بالصدفة من الملاحدة (الصدفيون)، الذين ينسبون الحوادث إلى الصدفة، إلا أن يقصد القائل: أن ذلك وقع اتفاقاً على غير تخطيط مسبق منه، لكن لو اعتقد: أن الصدفة مؤثرة بطبعها، أو أن الأمور تقع خبط عشواء، فإن هذا شرك في الربوبية.

٦ ـ الرد على القائلين بالطبيعة من الملاحدة (الطبائعيون)، الذين ينسبون الحوادث إلى الطبيعة، ويقول: غضبت الطبيعة، أو أبدعت الطبيعة كذا وكذا، فهذا شرك في الربوبية.

قوله: (وقال أبو العباس) شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذه مجرد كنية، وليس له ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (بعد حديث زيد بن خالد، الذي فيه: إن الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر») الحديث قد تقدم في باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء.

قوله: (وهذا كثير في الكتاب والسُّنَّة؛ يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به)؛ أي: شواهد ذلك كثيرة؛ كقول قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨]، وقول عاد: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: ١٥]، وقول المترفين: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [سبأ: ٣٥].

قوله: (قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً) الملاح هو: ربان السفينة. نسبوا السلامة إلى طيب الريح، وحذق الربان، ونسوا مجري الرياح، ومعلم الإنسان.

قوله: (ونحو ذلك، مما هو جارٍ على ألسنة كثير). أراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُبيّن أن أمثال هذه التعبيرات فاشية في كلام الناس، وسارية على ألسنتهم، لا يفطنون لها. وينبغي للمؤمن اليقظ الذي يتحسس قلبه بحس الإيمان فلا يطلق هذه الكلمات على عواهنها؛ بل يقيدها بالقيود الإيمانية، المقرة بالفضل لله رب العالمين.

فوائد الآيات:

١ ـ وجوب إسناد النعم إلى الله تعالى.

٢ ـ الحذر من التساهل في الألفاظ.

٣ ـ إن مثل هذه الكلمات تعد إنكاراً للنعمة.

وتفسير بعض السلف كعون بن عبد الله، وغيره، يدل على أنه لا يجوز أن يقول الإنسان: لولا فلان، والصواب أنّ هذه المسألة لها **حالات**:

الأولى: إن كان الحامل له على هذا مجرد الخبر فلا بأس به، ويدل على ذلك أن العباس سأل النبي ﷺ فقال: «إن عمك أبا طالب كان يحوطك فهل نفعته بشيء» فقال: «**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»[(١)]، فقال: «**لولا أنا**» وهذا خرج مخرج الخبر المجرد فلا بأس به.

الثانية: أن يقصد بها السببية لا مجرد الخبر، فلها حينئذٍ **ثلاث حالات**:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب برقم (٣٨٨٣)، ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ؛ لأبي طالب برقم (٢٠٩).

الأولى: أن يكون سبباً خفياً غير متعقل ولا مدرك، ولا تأثير له إطلاقاً، فهذا شرك أكبر؛ كأن يقول مثلاً: لولا الولي الفلاني لم نمطر، ولولا وجود مقام فلان أو قبر فلان لأتانا العدو، أو نحو ذلك، فهذا شرك أكبر؛ لأنه نسبه إلى سبب غير ظاهر ولا متعقل، ولا مدرك، ولا يصلح أن يكون سبباً إطلاقاً.

الثانية: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سبباً؛ لا حساً، ولا شرعاً، مثل قول من قال: «مطرنا بنوء كذا»(١)، فأضافه إلى النوء، ومثل من يعلق القلائد على رقاب البهائم أو الصبيان، دفعاً للعين، فقد أضافه إلى سبب ظاهر، لكن هذا السبب منزوع السببية، لم يجعله الله سبباً لا بالشرع ولا بالحس، فهذا شرك أصغر.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب حقيقي؛ إما شرعي، وإما حسي، فهذا جائز، بشرطين:

الأول: أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بذاته وطبعه.

الثاني: أن لا يتناسى المنعم وهو الله سبحانه وتعالى، ونضرب لذلك مثلاً: رجل استعمل العسل للتداوي من مرض، فشفاه الله تعالى، وقد علم أن الله تعالى ذكر العسل من أسباب الشفاء، فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩]. وكذا قال النبي ﷺ: «**الشفاء في ثلاثة: في شرطة محجم، أو شربة عسل**...»(٢)، فقال: لولا العسل وإلا ما شفيت من هذا المرض، فقد أحال إلى سبب ظاهر، جعله الله سبباً حسياً، فهذا لا بأس به، لكن بشرط: أن لا يعتقد أن هذا الدواء ـ أي: العسل ـ مؤثر بنفسه، وأن لا يتناسى المنعم الذي أودع فيه هذه الخاصية.

* * *

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب الشفاء في ثلاث برقم (٥٦٨١) عن ابن عباس واللفظ له. ومسلم في كتاب السلام، باب لكل داء دواء واستحباب التداوي برقم (٢٢٠٥) عن جابر.

📖 ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

معرفة النعمة بالإقرار بالقلب بها، وإنكارها يكون بجحدها باللسان، وعدم إضافتها إلى المنعم سبحانه.

الثانية معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثير.

كما في الأمثلة المذكورة: «هذا مالي ورثته عن آبائي» و«لولا فلان» و«كانت الريح طيبة والملاح حاذقاً» وغيرها مما يجري على ألسنة الناس كثيراً، حينما يفسرون بعض الظاهرات.

الثالثة تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

لقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

الرابعة اجتماع الضدين في القلب.

اجتماع الضدين في القلب؛ لقوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ فجمع بين المعرفة والإنكار، فقد يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان، وخصلة كفر، وخصلة فسوق، وخصلة طاعة، وهذا قد وقع من المشركين، فهم يعرفون النعمة، ولكنهم ينكرونها.





باب قول الله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

قال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء، في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً، هذا كله به شرك(١)، رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»(٢)، رواه الترمذي، وحسنه، وصححه الحاكم.

وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً(٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثم شاء فلان»(٤)، رواه أبو داود بسند صحيح.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم برقم (٢٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله برقم (١٥٣٥)، وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور، باب في كراهية الحلف بالآباء برقم (٣٢٥١)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (١٩٦١٤)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (٤٥) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٨٨١٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم (١٢٢٨١)، وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه برقم (١٥٩٢٩)، وابن عبد البر في الاستذكار (٥/ ١٨٢).

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب لا يقال خبثت نفسي برقم (٤٩٨٠)، والنسائي =

وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويجوِّز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: ولولا الله وفلان(١).

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

هذا الباب، والذي قبله، والذي بعده، تتعلق بالألفاظ المنافية للتوحيد؛ الداخلة في الشرك الأصغر لما تتضمنه من إسناد المشيئة، والفعل إلى غير الله ﷻ.

قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ الأنداد: جمع ند، وهم العدلاء والنظراء.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: وأنتم تعلمون أن الله واحد، لا مثيل له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

قوله: (قال ابن عباس في الآية: «الأنداد هو الشرك»)؛ أي: اتخاذ الأنداد، المنهي عنه في الآية، هو الشرك الخفي، الآتي وصفه في كلامه بالأمثلة.

قوله: (أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل)؛ أي: أنه شرك خفي، غير ظاهر، لا يُتنبه له، ولا يُؤبه له مثّل لخفائه، بخفاء دبيب نملة على صفاة سوداء. فاجتمع خفاء الصوت، وخفاء الصورة؛ فخفاء الصوت لكونه دبيب نملة، والصفاة ملساء، فدبيبها يكون بالغ الخفاء. وخفاء الصورة لكون النملة سوداء، والصفاة سوداء، فالشرك أخفى منه.

قوله: (وهو أن تقول) أراد التمثيل ببعض الألفاظ، لا الحصر، **وهي:**

- **(والله وحياتك يا فلان)** المحذور في هذا أنه حلف بحياته، وعطفه على الحلف بالله ﷻ بالواو التي تقتضي التسوية، فجمع بين ممنوعين.

= في السنن الكبرى برقم (١٠٧٥٥)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (٥٦٠١)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٢٣٢٦٥) وصححه الألباني.

(١) شرح السُّنَّة، للبغوي (١٢/ ٣٦١)، ومصنف عبد الرزاق برقم (١٩٨١١)، والفتاوى الحديثية، لابن حجر الهيتمي (ص٢٩٠).

ـ **(وحياتي)** هذا حلف بغير الله، والحلف يتضمن تعظيم المحلوف به، فلا يجوز أن يكون بحياة الإنسان ولا بحياة غيره.

ـ **(وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص)** كليبة تصغير كلبة، وذلك أنها لما دخل اللصوص نبحت، ففر اللصوص، فعلق المنع على كليبة فلان.

ـ **(ولولا البط في الدار لأتى اللصوص)** لأن البط إذا دخل الدار داخل، صدر منه ضجيج، وصياح، فينتبه أهل الدار، فيفر اللصوص، فقد أحال المنع إلى البط.

ـ **(وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت)** المحذور في هذه الصورة أنه سوى في المشيئة، فجعل مشيئة صاحبه كمشيئة الله ﷻ، بأن عطف عليها بالواو، التي تقتضي التسوية، ولم يقل: ما شاء الله، ثم شئت؛ لأن «ثم» تفيد الترتيب.

ـ **(وقول الرجل: لولا الله وفلان)** فسوى بين فلان وبين الله ﷻ بالواو، التي تقتضي التسوية، ولم يقل: لولا الله ثم فلان؛ لأن «ثم» تفيد الترتيب. وتقدم التفصيل في الباب السابق.

قوله: (لا تجعل فيها فلاناً)؛ أي: قل: لولا الله وحسب، ولا تُقحم ذِكر مخلوق.

قوله: (هذا كله به شرك)؛ أي: جميع الصور الست السابقة، شرك خفي بالله ﷻ. وليس الشرك الخفي قسيماً للشرك الأكبر والأصغر، وإنما الشرك نوعان: أكبر، وأصغر، وبعضه يكون خفياً لا ينتبه له، ويجري على اللسان دون قصد، فلذلك سُمي الشرك الخفي، وهو غالباً ما يكون متعلقاً بالألفاظ، فيكون من الشرك الأصغر.

※ مناسبة الأثر للباب:

تفسير للترجمة، لما فيه من صور التنديد الجارية على اللسان.

فوائد الآية والأثر:

١ ـ التحذير من الشرك في العبادة.

٢ ـ أن المشركين مقرُّون بربوبية الله.

٣ ـ أن من الشرك ما يكون شديد الخفاء، ويكثر في الألفاظ.

٤ ـ وجوب التوقي من الألفاظ المشعرة بالشرك بالله تعالى، وإن لم يقصدها صاحبها.

* * *

📖 **ثم قال** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أن رسول الله** ﷺ **قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذي، وحسنه، وصححه الحاكم)** وممن رواه أيضاً أبو داود، والبيهقي، وإسناده صحيح.

قوله: (من حلف) الحلف هو اليمين، وهو توكيد الحكم أو الخبر بذكر معظم على وجه مخصوص، بأن يكون مقروناً بأحد حروف القسم الثلاث: الواو، أو الباء، أو التاء، بأن يقول: والله، أو بالله، أو تالله. فلا يجوز الحلف بغير الله أياً كان؛ سواء كان شيئاً حسياً، كما لو حلف بالسماء، أو بالأرض، أو بأبيه، أو اعتباريّاً معنويّاً، كما لو حلف بالأمانة، أو بالشرف، فبعض الناس يقول: بشرفي، أو بأمانتي، فلا يجوز ذلك وأمثاله.

قوله: (فقد كفر أو أشرك) هذا شك وقع من الراوي، ولا يمكن أن يكون على سبيل التنويع؛ أي: يكون قد كفر من وجه، أو أشرك من وجه آخر. والشرك نوع من الكفر. والمراد بالكفر أو الشرك هنا الكفر الأصغر، أو الشرك الأصغر، وأقرب اللفظين «فقد أشرك» لأنه الحلف بغير الله شرك مع الله في التعظيم، والمعنى متقارب.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأن الحلف بغير الله، تعظيم وتنديد، فهو مطابق للترجمة، وهي قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم الحلف بغير الله، وأنه شرك، أو كفر بالله، وهو، غالباً، شرك

أصغر، أو كفر أصغر، لكن لو حلف معتقداً أن هذا المحلوف به مستحق للعظمة المطلقة، فهو شرك أكبر بلا ريب، ولو حلف مثلاً بالسمٰوات، والأرض، أو بأبيه، أو جده، معظماً إياها التعظيم الذي لا ينبغي إلا لله ﷻ، فلا شك أنه شرك أكبر. لكن الغالب فيما يقع من الناس أنهم لا يبلغون به هذا المبلغ.

٢ ـ أن التعظيم المطلق مستحق لله ﷻ.

٣ ـ أن من حلف بغير الله لا تلزمه الكفارة؛ لأن النبي ﷺ لم يذكر هنا كفارة.

إشكال وجوابه:

ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال للرجل الذي قال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص: «**أفلح وأبيه إن صدق**»[(١)]. فحلف بأبيه، فكيف الجمع بينه وبين حديث الباب؟

أجاب العلماء عن هذا الإشكال بأجوبة، **منها:**

١ ـ أنّ هذه الرواية غير محفوظة، وهذا جواب ضعيف؛ لأنها ثابتة عند مسلم، فلا وجه لوصفها بالشذوذ.

٢ ـ أنه قد وقع تصحيف؛ والتصحيف: هو الخطأ في الرسم، والصواب: أفلح والله؛ لأنهم ما كانوا ينقطون الحروف، فرسم (وأبيه) بلا نقط، مقارب لرسم (والله)، لا سيما مع الخط القديم. ولكن يجاب عن هذا الاعتراض: بأنهم كانوا يروون الحديث مشافهة، ولم يقع التدوين إلا لاحقاً، فإذا قدّرنا أنه وقع تصحيف في الكتابة، فإن ذلك لا يرد على الرواية الشفهية.

٣ ـ أنّ هذا ممن يجري على اللسان دون قصد، ولكن هذا لا يحل الإشكال؛ لأن النبي ﷺ قال: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» أي: وإن لم يقصد، فهذا محذور لفظي، كما تقدم في الأمثلة السابقة في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما للآية.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام برقم (١١).

٤ ـ إن هذا من خصائص النبي ﷺ، فله أن يحلف بذلك، وهذا بعيد؛ لأن معلِّم الناس الخير أولى بالتزامه، ولا يمكن أن يكون من خصائص النبي ﷺ ما يُشعر بتعظيم غير الله.

٥ ـ أنها على تقدير محذوف؛ أي: أفلح ورب أبيه، لكن الأصل عدم الحذف.

واختار شيخنا ابن عثيمين رحمه الله أن قول النبي ﷺ: «**أفلح وأبيه**» منسوخ، فقال: (أن هذا منسوخ، وأن النهي هو الناقل من الأصل، وهذا أقرب الوجوه)[1].

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

(**وقال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً**) اللام لام الابتداء، فَتُأَول (أن) وما دخلت عليه بمصدر، والتقدير: (حلفُهُ بالله كاذباً). فابن مسعود رضي الله عنه يفاضل بين صورتين: أن يحلف بالله كاذباً، أو يحلف بغيره صادقاً، ويفضل الأولى. وهذا الأثر قد رواه: عبد الرزاق، والطبراني، لكن في سنده انقطاع، والهيتمي رحمه الله يقول: «ورجاله رجال الصحيح»[2]، لكن الانقطاع ضَعْف في الإسناد ولا ريب.

ومن تأمل في هذا الحديث رأى أنّ فيه حكمة، وهو أن الحلف بالله كاذباً قد جمع بين حسنة التوحيد، وسيئة الكذب، والحلف بغيره صادقاً قد جمع بين حسنة الصدق، وسيئة الشرك، فالأرجح ما تضمن حسنة التوحيد، فلذلك فضّل ابن مسعود رضي الله عنه ذلك، مع أنه لا يصدر منه، وحاشاه رضي الله عنه، لكنه أراد التعليم، على فرض صحة هذا الأثر.

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، لما فيه من التنفير من الحلف بغير الله، وأن ذلك من اتخاذ الأنداد.

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٢١٥).

(٢) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد برقم (٦٨٩٩).

فوائد الأثر:

١ ـ تحريم الحلف بغير الله.

٢ ـ تأييد قول من قال: إن الشرك الأصغر أعظم من كبائر الذنوب، لعموم قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] وهذا يشمل الأكبر والأصغر، وليس معنى قولنا: لا يُغفر أن الشرك الأصغر يوجب التخليد في النار، وإنما المقصود: أنه لا يدخل تحت المشيئة والإرادة؛ كالكبائر، فلو فنيت حسناته، وبقي عليه شرك الأصغر، لم تذهبه الحسنات في الميزان، لم يغفر، ولا بد أن يُعذب به، وهذا مكمن الخطر.

٣ ـ ارتكاب أخف الضررين، أو المفسدتين، في سبيل دفع أشدهما، فالمفسدة الأخف هنا: الكذب، والمفسدة الأشد: الشرك، فارتكب الكذب، دفعاً للشرك.

٤ ـ فقه ابن مسعود رضي الله عنه.

* * *

قال المصنف رحمه الله:

(وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود، بسند صحيح) وممن رواه أيضاً: النسائي، والإمام أحمد، والبيهقي، وصححه النووي رحمه الله[1]، وقال الذهبي: إسناده صالح[2]، فهو مرفوع صحيح. والمحذور في الصيغة الأولى: التسوية بالعطف بالواو التي تقتضي التسوية، وارتفع المحذور في الصيغة الثانية: لما أتى بـ(ثم) التي تدل على الترتيب والتراخي.

قوله: (وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويجوِّز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان) هذان مثالان آخران للمحذور اللفظي من التسوية بالواو، فإذا قال الرجل:

---

(١) رياض الصالحين، ط. الرسالة (ص٤٨٤) (١٧٤٥).

(٢) المهذب في اختصار السنن الكبير (٣/ ١١٤٤).

«أعوذ بالله وبك» فقد وقع في الشرك؛ لأن العوذ التجاء واعتصام بالمستعاذ به، فمعنى ذلك أنه سوَّى بينهما في الاستعاذة، والاستعاذة عبادة لا يجوز صرفها لغير الله ﷻ، فيما يقدر عليه إلا الله، فإذا قال: «**ثم بك**» ارتفع هذا المحذور؛ لأنه جعل استعاذته بالمخلوق في درجة أدنى من استعاذته بالخالق. وكذلك في: «**لولا الله وفلان**» فهذا شرك في اللفظ، ويزول المحذور في: «**لولا الله ثم فلان**».

مناسبة الحديث والأثر للباب:

ظاهرة، لما في ذلك من النهي عن التشريك في المشيئة، والاستعاذة، والتدبير، وإفراد الله بذلك.

فوائد الحديث والأثر:

١ ـ تحريم هذه الألفاظ: «ما شاء الله وشئت»، و«**ولولا الله وفلان**»، و«أعوذ بالله وبك» لأن ذلك من اتخاذ الأنداد.

٢ ـ أن المحذور يزول بالعطف بـ(ثم) لأنها تدل على الترتيب.

٣ ـ إثبات المشيئة لله، واثبات المشيئة للعبد، لكن مشيئة المخلوق تابعة لمشيئة الخالق، كما قال الله ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وفي ذلك رد على الجبرية: بإثبات مشيئة العبد، ورد على القدرية: بإثبات مشيئة الله تعالى، المحيطة بمشيئة العبد.

٤ ـ أن من سد باباً من الحرام فليفتح باباً من الحلال.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية البقرة في الأنداد.

وقد فسرها ابن عباس رضي الله عنهما ببعض صور الشرك الأصغر المتعلق بالألفاظ.

الثانية أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يستدلون بالآيات الدالة على منع الشرك الأكبر على مسائل الشرك الأصغر، فإن آية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ نزلت في قريش، وهم يشركون الشرك الأكبر، فاستدل بها ابن عباس على ما ذكر من الشرك الأصغر، كما استدل النبي ﷺ في قصة ذات أنواط، حينما قالوا: «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» فقال: «**الله أكبر! إنها السَّنن، قلتم كما قال بنو إسرائيل: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة**»[1]، فأولئك أرادوا الشرك الأكبر، والصحابة وقعوا في الشرك الأصغر.

الثالثة أن الحلف بغير الله شرك.

لقوله في حديث عمر: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**».

الرابعة أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس.

اليمين الغموس: أن يحلف بالله ليقتطع بها مال امرئ مسلم، ومع ذلك فالحلف بغير الله، ولو صادقاً، أشد من الحلف به كاذباً ليقتطع مال امرئ مسلم، رغم كونها تغمس صاحبها في النار؛ لأن الحلف بغير الله شرك أصغر، واليمين الغموس كبيرة، والشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الخامسة الفرق بين (الواو) و(ثم) في اللفظ.

(الواو) تقتضي التسوية، و(ثم) تقتضي الترتيب، فما عطف بالواو فلا يجوز؛ لأنها تقتضي التشريك، وما كان بـ(ثم) جاز؛ لانتفاء التسوية والتنديد.



---

(١) سبق تخريجه.

باب ما جاء في من لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرضَ، ومن لم يرضَ فليس من الله»[(١)]، رواه ابن ماجه بسند حسن.

الشرح

تقدم في الباب الذي قبله أن الحلف هو: تأكيد الحكم، أو الخبر بذكر مُعظَّم على هيئة مخصوصة؛ وذلك باستعمال أحد حروف القسم الثلاثة. فإذا أراد الإنسان أن يحلف فالواجب عليه أن يحلف بالله، وأن يصدق في يمينه. وفي هذا الباب بيَّن المصنف الواجب على المحلوف له.

فقال: (باب: ما جاء)؛ أي: من الوعيد **(في من لم يقنع بالحلف بالله)**؛ أي: لم يرض بذلك.

⁜ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن المحلوف له، إذا لم يرضَ بالحلف بالله، فهو دليل على ضعف تعظيمه لله، فيكون ذلك منافياً للتوحيد الواجب.

قال رحمه الله: (عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لا تحلفوا بآبائكم) نهى النبي ﷺ عن الحلف بالآباء؛ وذلك أن العرب كانت تعظم الآباء، ومن تعظيمهم للآباء: أنهم كانوا يحلفون بهم، كما قال الله عز وجل: ﴿كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فلهذا خصّ الحلف بالآباء بالذكر لكثرته بينهم،

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات، باب من حلف له بالله فليرض برقم (٢١٠١) وصححه الألباني.

وإلا فقد تقدم في حديث عمر رضي الله عنه قول النبي ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، وهذا يتناول كل محلوف به سوى الله، فيدخل فيه الآباء، لكنه خص الآباء بالذكر لفشوه بينهم.

قوله: (من حلف بالله فليصدق) هذا هو الواجب على الحالف؛ أن يصدق في يمينه، فإن هو كذب في يمينه، فقد استهان بجناب الله، حيث اتخذ هذا الاسم الشريف سُلماً يرتقي به إلى عَرَضٍ من الدنيا، أو يستدفع به أذى من الدنيا، وذلك لا يليق بمؤمن، لمنافاته للتوحيد الواجب.

قوله: (ومن حلف له بالله فليرضَ) هذا هو الواجب على المحلوف له؛ أن يرضى، وهذا يشمل المنازعات، والخصومات التي تقع بين يدي الحاكم الشرعي، كما في قول النبي ﷺ: «**البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه**»(١)، ويشمل ما يقع في ماجريات الحياة اليومية بين الناس؛ حينما يحلف بعضهم لبعض تأكيداً؛ إثباتاً أو نفياً.

قوله: (ومن لم يرضَ فليس من الله) هذا من نصوص الوعيد؛ لأن فيه براءة «ليس من الله» أي: أن الله بريء منه، وبهذا يكون رد اليمين بالله عز وجل كبيرة من الكبائر، ينطبق عليها حد الكبيرة، فالكبيرة ما ترتب عليها حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو اقترن به لعن، أو غضب، أو براءة، وما أشبه ذلك.

وهذا الحديث رواه ابن ماجه بسند حسن، كما قال المصنف رحمه الله، وقال البوصيري رحمه الله في مصباح الزجاجة: «**هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات**»(٢)، وقد حسَّنه ابن حجر رحمه الله(٣).

❊ مناسبة الحديث للباب:

مطابق للترجمة، لما فيه من الوعيد على من لم يقنع بالحلف بالله، وأن الله بريء منه.

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الأحكام، باب ما جاء في أن البينة على المدعي، واليمين على المدعى عليه برقم (١٣٤١).

(٢) مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (٢/ ١٣٣).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٥٣٦).

فوائد الحديث:

١ ـ وجوب الرضا بالحلف بالله، وتحريم رده.

٢ ـ الوعيد الشديد على من لم يقنع بالحلف بالله، وأن ذلك من الكبائر.

٣ ـ وجوب الصدق في اليمين.

٤ ـ أن الأصل في المسلم السلامة والصدق، فينبغي قَبول يمينه.

مسألة: هل يجب على الإنسان أن يقنع بكل يمين؟ فيه تفصيل، فقد قال شيخنا ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: إن كان الحالف موضع صدق وثقة، فإنك ترضى بيمينه، وإن كان غير ذلك فلا، كما قال حويِّصة ومحيِّصة: «كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود؟ فأقرهم؛ وذلك لما قتل قتيل من المسلمين بين ظهراني اليهود، ووقعت مسألة القسامة المشهورة، قال لهم النبي ﷺ: «**تحلفون، وتستحقون قاتلكم أو صاحبكم**» قالوا: وكيف نحلف ولم نشهد ولم نر؟ قال: «**فتبريكم يهود بخمسين**» فقالوا: كيف نأخذ أيمان قوم كفار؟! فعقله النبي ﷺ من عنده[(١)]، فردوا أيمان اليهود. فأقرهم النبي ﷺ على ذلك، ولم ينكر عليهم[(٢)].

ويمكن أن نقسم أحوال بذل اليمين إلى خمسة حالات:

الأولى: أن يعلم الإنسان يقيناً أن هذا الحالف كاذب في يمينه، فحينئذٍ لا يلزم تصديقه، فترد يمينه ولا حرج؛ ولا محظور يتعلق بجناب الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثانية: أن يترجح كذبه؛ فللمحلوف له أن يرد يمينه، ولا يلزمه تصديقه؛ لأن العمل بغلبة الظن كثير في الشريعة.

الثالثة: أن يتساوى الأمران؛ أي: صدقه وكذبه، فحينئذٍ يجب الرضا والقبول.

الرابعة: وهي من باب أولى: أن يترجح صدقه، فيجب قبول يمينه، والرضا به.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب الموادعة والمصالحة مع المشركين بالمال وغيره، وإثم من لم يف بالعهد برقم (٣١٧٣)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة برقم (١٦٦٩).

(٢) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٢٢٤).

الخامسة: وهي من باب أولى وأحرى أيضاً: أن يعلم صدقه، فيتعيَّن تصديقه، وقَبول خبره.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفيه مسائل:

الأولى **النهي عن الحلف بالآباء.**

لقوله: «**لا تحلفوا بآبائكم**» وكذا بأي معظَّم سوى الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثانية **الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.**

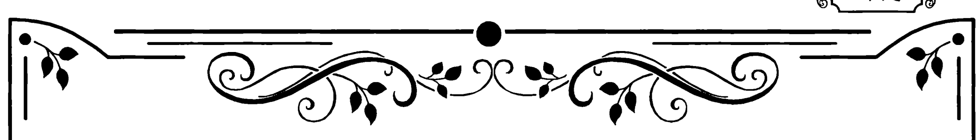
لقوله: «**ومن حلف له بالله فليرضَ**» وهذا من تعظيم جناب الله، فيثاب عليه.

الثالثة **وعيد من لم يرضَ.**

لقوله: «**فمن لم يرضَ فليس من الله**».

ولم يذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ مسألة وجوب الصدق في الحلف؛ لأنه قد تقدم في الباب السابق، في قول ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً.





باب قول: ما شاء الله وشئت

عن قتيلة أن يهودياً أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «وربِّ الكعبة»، وأن يقولوا: «ما شاء الله، ثم شئت»[(١)]، رواه النسائي وصحَّحه.

وله أيضاً: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله نِدّاً؛ بل ما شاء الله وحده»[(٢)].

ولابن ماجه عن الطفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ قال: رأيتُ كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عزيراً ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مررتُ بنفر من النصارى، فقلتُ: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله، قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبرته، فقال: «هل أخبرتَ بها أحداً؟» قلتُ: نعم، قال: فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد: فإن طفيلاً رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها،

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الصغرى كتاب الأيمان والنذور، الحلف بالكعبة برقم (٣٧٧٣)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (٧٨١٥)، والبيهقي في السنن الكبرى برقم (٥٦٠٢)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٢٧٠٩٣)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر الاختلاف على عبد الله بن يسار فيه برقم (١٠٧٥٩) بلفظ عدلاً بدل نِدّاً. وأخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، برقم (٢١١٧)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (١٨٣٩) وقال الألباني: «حسن صحيح».

فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»(١).

الشرح

قال المصنف رحمه الله:

(**باب: قول: ما شاء الله وشئت**) مضمون هذا الباب قد تقدم في باب سبق، وهو باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢] ومناسبته كمناسبة ما قبله.

قوله: (**عن قتيلة**) هي: بنت صيفي الجهنية، ويقال: الأنصارية

قوله: (**إن يهودياً أتى للنبي ﷺ فقال: إنكم تشركون**) مراده بذلك الشرك الأصغر؛ لأن ذلك متعلق بالألفاظ.

قوله: (**تقولون: ما شاء الله وشئت وتقولون: والكعبة**) فسّر اليهودي دعواه بهذين المثالين، وصَدَق! وربما قال ذلك على سبيل العيب والتنقص، وهذا هو الأغلب، وربما قاله على سبيل الإنكار المحض، ذلك أن اليهود أعلم من النصارى بباب التوحيد، ولهذا جاء في سفر الخروج، ذكر الوصايا العشر، وفيها: (لا يكن لك آلهة أخرى تُجاهي. لا تصنع لك منحوتاً، ولا صورة شيءٍ مما في السماء من فوق، ولا مما في الأرض من أسفل، ولا مما في المياه من تحت الأرض. لا تسجد لها ولا تعبدها؛ لأني أنا الرب إلٰهك إلٰه غيور... لا تلفظ اسم الرب إلٰهك باطلاً؛ لأن الرب لا يُبَرِّئُ الذي يلفظ اسمه باطلاً)(٢)

قوله: (**فأمرهم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة» وأن يقولوا: «ما شاء الله، ثم شئت»**) صحح النبي ﷺ لفظ: «**والكعبة**» إلى «**ورب الكعبة**»، فنقله من حلف بمخلوق إلى حلف بالخالق، وصحّح لفظ: «**ما شاء الله وشئت**» من التسوية بالواو إلى «**ما شاء الله، ثم شئت**» فجعلها مُرتّبة.

قوله: (**رواه النسائي وصححه**) وممن رواه أيضاً أحمد، والحاكم،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات، باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت برقم (٢١١٨) وصححه الألباني.

(٢) العهد القديم: سفر الخروج: (٢٠/٣ ـ ٧) ط: دار المشرق. بيروت، ١٩٩٤م

والبيهقي، وقال ابن حجر: «وسنده صحيح»[١].

مناسبة الحديث للباب:

مطابق للترجمة، لما تضمنه من نهي النبي ﷺ عن هذه الكلمة؛ لأنها من الشرك الأصغر.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن هذا اللفظ: «ما شاء الله وشئت» لما فيه من التسوية بين الخالق والمخلوق.

٢ ـ النهي عن الحلف بالكعبة، وكل معظم؛ لإقرار النبي ﷺ اليهودي على دعواه.

٣ ـ معرفة اليهود للشرك الأصغر، وما يقدح في التوحيد الواجب.

٤ ـ أن صاحب الهوى يعرف الحق، فاليهود لا شك أنهم قوم بُهت، وأصحاب هوى، وأكلة سُحت، ولكن إذا كان لهم هوى في الأمر تكلموا بالحق.

٥ ـ قبول الحق ممن جاء به، وإن كان عدوّاً، وإن وقع منه ذلك على سبيل اللوم والانتقاص، فإن المؤمن أسعد الناس بالحق، كما جاء في الأثر: «الحكمة ضالة المؤمن، حيثما وجدها فهو أحق بها»[٢]؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. فالواجب: أن نقبل الحق ممن جاء به، ولا نرده لأنه صدر من فلان؛ بل ننظر في القول، فإذا رأيناه موافقاً للحق قبلناه، وإن رأيناه مخالفاً رددناه، وبالمقابل لو أخطأ من نحب، لم نقبل خطأه لمحبتنا إياه؛ لأن الحق أحب إلينا منه.

٦ ـ أن الشرك الأصغر لا يخرج من الملة؛ لأنه لا يقتضي كفراً.

---

(١) الاصابة في تمييز الصحابة (٨/ ١٦٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب الحكمة برقم (٤١٦٩)، والترمذي، ت: شاكر في أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة برقم (٢٦٨٧) وقال الألباني: «ضعيف جدّاً».

٧ ـ أنه ينبغي لمن سد باباً من الحرام أن يفتح باباً من الحلال، فلما نهاهم النبي ﷺ عن هاتين الصيغتين: «**والكعبة**» و«**ما شاء الله وشئت**»، فتح لهما باباً آخر، وهو البدل بأن يقولوا: «**ورب الكعبة**» و«**وما شاء الله، ثم شئت**». مثال ذلك: لو استفتاك إنسان يريد تمويلاً، هل يجوز أن أقترض بفائدة؟ فلا ريب أنك ستنهاه، وتقول: أكل الربا من السبع الموبقات، لكن افتح له باباً آخر، ومره بالتكسب، أو القرض الحسن، إن تيسر له، فإن لم يجد، فمره بالتورق، بأن يشتري سلعةً من مالكها، بثمن مؤجل، أعلى مما هو عليه نقداً، ثم يقوم ببيعها؛ لا على من اشتراها منه، ولا على وسيطه، ولكن يبيعها على الناس، ويقبض ثمنها، ويرتفق به، ويقضي حاجته، ويقوم بسداد ما عليه إلى أجل. فينبغي للمفتي أن يتفطن لهذا المعنى.

على أن من المنهيات ما لا يكون له بدل، فيتعين اجتنابها، كما قال النبي ﷺ: «**ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم**»(١).

٨ ـ إثبات المشيئة لله، واثبات المشيئة للعبد، وفي هذا رد على طرفي الضلالة في باب أفعال الله، وهما: القدرية الذين ينكرون مشيئة الله ﷻ، والجبرية: الذين ينكرون مشيئة العبد، فكان الوسط: إثبات مشيئة للمخلوق، تابعة لمشيئة الله، كما قال الله ﷻ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

قوله: (وله أيضاً، عن ابن عباس رضي الله عنهما**: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: «أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده»)** هذا الحديث قد رواه النسائي، ورواه أيضاً الإمام أحمد، وابن ماجه، وهو حديث صحيح. وقول النبي ﷺ للرجل: «**أجعلتني لله نداً؟**» استفهام خرج مخرج الإنكار، ومعنى: «**نداً**» أي: عِدلاً وشريكاً، ولا شك أن الرجل لم يرد ذلك، وإن كان قد وقع فيه، وهذا يدل على أنه ربما قال الإنسان كلمة الكفر، ولا يكون بها كافراً، وربما فَعَلَ الكفر ولا يكون بفعله كافراً، وذلك لقيام مانع من الموانع؛ كالجهل وغيره.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ برقم (٧٢٨٨)، ومسلم في كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر. وفي كتاب الفضائل، باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله مما لا ضرورة إليه... برقم (١٣٣٧).

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة؛ لأن فيها النهي عن هذه اللفظة بعينها «**ما شاء الله وشئت**» التي تدل على التسوية.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن قول: «**ما شاء الله وشئت**» وما أشبه ذلك، مما عُطف بالواو.

٢ ـ وجوب إنكار المنكر؛ قولياً كان أو فعلياً، ولا يجوز للعالم أو من علم مسألة أن يقرَّ الخطأ، فقد كان من منهج النبي ﷺ ألا يدع شاذة ولا فاذة، يحتاج الناس إلى بيانها إلا بيَّنها وقت الحاجة، ولا يمر بموقف من المواقف فيه خطأ، إلا ونبَّه عليه. وهكذا ينبغي لأهل العلم: ألا يدعوا الكلمات والتصرفات الخاطئة، تمر مروراً عابراً، دون أن يقوموا بالبيان والتصويب، مع الرفق، والحكمة، والشفقة على الخلق، فيحصل بذلك نشر الخير والصواب.

٣ ـ حرص النبي ﷺ على صيانة التوحيد، وحماية جنابه في الأمور السهلة، والصعبة.

٤ ـ أنه لا يلزم من قول كلمة الكفر أن يكون قائلها كافراً، فإن التكفير حكم عظيم لا يجوز إلا بتوفر الشروط، وانتفاء الموانع.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(**ولابن ماجه، عن الطفيل، أخي عائشة لأمها**) الطفيل بن عبد الله بن الحارث بن سخبرة الأسدي، نسبة إلى الأَزْد؛ قبيلة عربية مشهورة، والسَّخْبر: نَبْت، وهو أخو عائشة وعبد الرحمٰن بن أبي بكر لأمهما أم رومان؛ لأن أبا بكر رضي الله عنه تزوجها بعد عبد الله بن الحارث بن سخبرة، وللطفيل هذا صحبة، روى عن رسول الله ﷺ حديثاً واحداً، رواه عنه ربعي بن خراش، وهو هذا الحديث. ولعل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ نبّه بقوله: «**أخي عائشة لأمها**» لأن الطفيل بن سخبرة اثنان، أحدهما: له صحبة، وهو هذا أخو عائشة لأمها، والثاني ليس بصحابي، يحدث

عن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، روى عنه حماد بن سلمة[1].

قوله: (قال: رأيتُ) أي: في المنام، فهي رؤية منامية.

قوله: (كأني أتيتُ على نفر من اليهود) النفر: الرهط والجماعة.

قوله: (فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: عُزير ابن الله) كأنما يقول: نعم القوم أنتم لولا كذا وكذا. والذي عابهم به هو أمر عظيم، وهم أنهم ينسبون لله الولد، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وهذا كفر صراح. قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠].

قوله: (قالوا: وإنكم)؛ أي: يا معشر المسلمين.

قوله: (لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد) فردوا عليه بجنس ما عابهم به، وإن كان لا سواء بين القضيتين؛ فأين قول: «**عزير ابن الله**» وهو كفر أكبر، من قول: «ما شاء الله، وشاء محمد» وهو نوع من الشرك الأصغر؟

قال: **(ثم مررتُ بنفر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله)** وهذه مقالتهم المشهورة، المستقرة عنهم إلى يومنا هذا، وقد أكفرهم الله بها كما تقدم.

قوله: (قالوا: وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد) كما قال يهود.

قوله: (فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرتُ، ثم أتيتُ النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «هل أخبرتَ بها أحداً؟» قلتُ: نعم، قال: فحَمَدَ الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعدُ») لم يُنكر النبي ﷺ على الطفيل كونه حدّث بها؛ لأن هذا مما جرت به طبائع الناس؛ أن يحدثوا برؤاهم، وإنما سأله ليرى ﷺ هل ذاع الخبر وانتشر،

---

(١) ينظر: تلقيح فهوم أهل الأثر (ص٤٥١) (ص٢٣١)، والوافي بالوفيات (١٤/ ١٠٤)، والتاريخ الكبير، للبخاري بحواشي المطبوع (٤/ ٣٦٣)، والثقات، للعجلي (ص٢٣٤)، ومعجم الصحابة، للبغوي (٣/ ٤٣٠)، والمتفق والمفترق (٢/ ١٢٤٢)، والاشتقاق (ص٥٠٥)، والثقات، لابن حبان (٤/ ٣٩٧).

فيستدعي البيان والتعقيب؛ لأنه المشرّع للأمة، فلما علم أنه قد حدّث بها، صعد المنبر، وحمد الله، وأثنى عليه، وهذا يدل على أن من أراد أن يخطب فليبدأ بحمد الله، والثناء عليه، ثم يقول: (أما بعد)؛ أي: مهما يكن من شيء.

قوله: (فإن طفيلاً رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم) هذا يدل على أن رؤيا الطفيل، رؤيا حق؛ لأن النبي ﷺ اعتمدها وأقرها، وعمل بمقتضاها. والرؤيا لا تستقل بإثبات الأحكام، ولكن لما قصَّها على النبي ﷺ، وأقر مضمونها، دل على أنها رؤيا حق.

والرؤيا ليست كالحلم، فالحلم من الشيطان، والرؤيا من الله، وهي عبارة عن أمثال، ورموز، يضربها الملك للمؤمن في منامه، فتقع في نفسه موقعاً، ويكون لها دلالة؛ ولهذا كان النبي ﷺ يحتفي بالرؤى، وإذا أصبح قال: «**أيكم رأى رؤيا؟**»[(١)]، فيطلب منهم أن يقصوا عليه مما رأوه. وكان هو أيضاً ﷺ يحدثهم بما رأى من مرائي، وبعضها طويل، وكان ﷺ يُعبّر الرؤى أحياناً. فلا بأس أن يخبر الإنسان برؤياه، ولا بأس أن يطلب لها التعبير، إلا أنه قد وقع في الأزمنة الأخيرة توسع بالغ في هذا، من قبل الرائين، والمعبِّرين؛ فبعض الرائين لا يميزون بين الحلم والرؤيا؛ فكلما رأى شيئاً في المنام ظنه رؤيا، مع أن ما يراه الإنسان في المنام ربما كان رؤيا، وربما كان حلماً مزعجاً مؤذياً من الشيطان، وربما كان مما يحدث به نفسه في اليقظة، فيراه في المنام، وهذا كثير؛ بل هو الغالب. وصار كثير من الناس، لا سيما النساء، يكثرن من طلب التعبير للأحلام، ولا ينبغي للإنسان أن يشغل نفسه بذلك، فإن جزءاً منها من الشيطان؛ ولهذا قال ﷺ: «**الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه، فلينفث حين يستيقظ ثلاث مرات، ويتعوذ من شرها، فإنها لا تضره**»[(٢)]. قال أبو سلمة ابن عبد الرحمن رحمه الله، وهو أحد رواة الحديث: «وإن كنتُ لأرى الرؤيا أثقل عليّ من الجبل، فما هو إلا أن سمعتُ هذا الحديث فما أباليها»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في الخلفاء برقم (٤٦٣٥) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب، باب النفث في الرقية برقم (٥٧٤٧)، ومسلم في أول كتاب الرؤيا برقم (٢٢٦١).

(٣) المرجعان السابقان.

ومن توسُّع المعبِّرين، أنهم أنشؤوا مواقع على الإنترنت، وبرامج فضائية، وتفرغوا للتعبير، وتوفروا عليه، وربما صاحب ذلك حظوظ الدنيا، حتى باتت نوعاً من الاسترزاق عن طريق رسائل الجوال الباهظة الثمن، أو حباً للتصدر والذكر. فكل هذا مما حدث في الأزمنة الأخيرة، ولم يكن المعبِّرون فيما مضى ينصبون أنفسهم، ويتعرضون للتعبير. فعلى الإنسان أن يعتدل، فلا يهون من شأن الرؤى، ويردها، ويسخر منها، كما قد يقع من بعض الناس، ولا يغالي فيها، حتى يجعلها شغله الشاغل، ويعيش في دوامة من القلق والظنون، فتوهن عزمه، وتفت عضده، فتكثر عليه المخاوف.

قوله: (وإنكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها)؛ أي: أن النبي ﷺ كان يمنعه الحياء أن يجابههم بالنهي عنها؛ وذلك أن النبي ﷺ كان رجلاً حيياً، أشد حياء من العذراء في خدرها، والحياء ليس نقصاً؛ بل هو من الإيمان، ودليل حياة القلب، وإنما سُمي الحياء حياء لأنه علامة حياة القلب؛ ولذلك يُسمى المطر حياءً؛ لأن الأرض تحيا به. فإذا كان الإنسان حيياً، دل ذلك على صحة قلبه، ولهذا كان النبي ﷺ وجهه مرآة قلبه، فما وقع في قلبه ظهر على محياه لصدقه، فكان إذا فرح تهلل وجهه حتى كأنه مذهبة، وانفرجت أساريره، وإذا حزن، أو رابه شيء، عرف ذلك في وجهه، وهذا دليل الصدق. ومن الناس من لا يظهر عليه أي تعبير، ولا تعرف أراضٍ هو أم ساخط؟ وهذا يوجب الريبة، فلا يطمئن إليه محدثه، ومن يتعامل معه.

والمقصود، أن الحياء منعه أن يجابههم بالنهي. ومن شواهد ذلك: أنه ﷺ رأى على رجل صفرة، فكرهها، وكره أن يجبهه بذلك، فلما ولّى الرجل قال لأصحابه: «**لو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة**»، قال الراوي: «وكان لا يكاد يواجه أحداً في وجهه بشيء يكرهه»[(١)].

وها هنا إشكال! فربما قال قائل: لم أخّر النبي ﷺ البيان؟ هل الحياء يمنع من بيان الحق؟ الجواب أن يقال: لأن هذه المسألة لم يأتِ فيها حكم صريح بعد، وإلا فإنه لو بلغ النبي ﷺ حكم من الله بتحريم ذلك ما تأخر عن البيان،

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٢٣٦٧) وقال محققو المسند: «إسناده حسن».

فلما بلغته هذه الرؤيا رآها قاطعة حاسمة، فأعلن في الناس أن لا يقولوا: «ما شاء الله وشاء محمد» بل يقولوا: «ما شاء الله وحده».

مناسبة الحديث الباب:

مطابقة، لنهي النبي ﷺ عن التشريك في المشيئة، والأمر بالتوحيد فيها.

فوائد الحديث:

١ ـ العناية بالرؤى، وكونها سبباً لتشريع بعض الأحكام في عهد النبوة.

٢ ـ أن قول: «ما شاء الله وشئت» من الشرك الأصغر.

٣ ـ معرفة اليهود بموارد الشرك وأسبابه، مع وقوعهم في الشرك الأكبر.

٤ ـ بيان آداب الخطبة، من حمد الله، والثناء عليه، وقول: **(أما بعدُ)**.

٥ ـ إسناد القول إلى قائله، وعدم الإبهام لغير ما موجب.

٦ ـ أن قول: (ما شاء الله وحده) أفضل من قول: **(ما شاء الله، ثم شئت)** على أن قول: **(ما شاء الله، ثم شئت)** جائز.

٧ ـ أن الأمر إذا شاع وانتشر، فلا بد فيه من بيان عام. ولهذا يجب على أهل العلم، والمراجع العلمية، ودور الفتيا، في بلاد المسلمين إذا فشا بين ظهراني المسلمين ما يستلزم البيان أن يبادروا إلى ذلك، ولا يدعوا الأمر ملتبساً، يتكلم فيه مَن هبَّ ودبَّ بما شاء، فيصبح الناس في حَيْص بَيْص، كما يلاحظ في بعض الفتاوى الشاذة المتداولة.

٨ ـ بيان خُلُق كريم من أخلاق النبي ﷺ، وهو الحياء.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

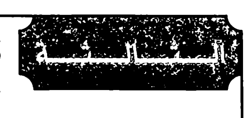
فيه مسائل:

الأولى معرفة اليهود للشرك الأصغر.

لإنكار اليهود على المسلمين قولهم: **«ما شاء الله وشئت»**.

فهم الإنسان إذا كان له هوى.

كما فهمت يهود، وميزوا الصحيح والباطل من الألفاظ؛ لما كان لهم هوى التنقص واللوم.


قوله ﷺ: «أجعلتني لله نِدّاً؟» فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك... والبيتين بعده؟[1].

أي: إذا كان النبي ﷺ أنكر على من قال: «**ما شاء الله وشئت**» وقال: «**أجعلتني لله نداً؟**» فكيف بمن قال: ما هو أعظم من ذلك؟! وألمح المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أبيات البوصيري التي غلا فيها في مدح النبي ﷺ إذ يقول:

يا أكرَمَ الرُّسْلِ ما لي مَنْ أَلُوذُ به ... سِوَاكَ عندَ حلولِ الحادِثِ العَمِمِ
إنْ لَمْ يَكُن في مَعادِي آخِذاً بِيَدِي ... فضلاً وإلا فقلْ: يا زَلَّةَ القدمِ
فإنَّ من جُودِكَ الدنيا وَضَرَّتها ... وَمِن عُلُومِكَ عِلْمَ اللّوحِ وَالقَلَمِ[2]

حيث وحَّده باللياذ، والفضل، وملك الدنيا والآخرة، وعلم اللوح والقلم! فماذا أبقى لله؟

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر؛ لقوله: «منعني كذا وكذا».

إذ لو كان يبلغ مبلغ الشرك الأكبر لم يمنعه الحياء، ولم يتردد في النهي عنه.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

وقد ذكر النبي ذلك ﷺ صريحاً في قوله: «**الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة**»[3]؛ ووجه هذا التقسيم: أن النبي ﷺ بدئ بالرؤيا

---

(١) ديوان البوصيري (ص٢٥١، ٢٥٢).
(٢) ديوان البوصيري (ص٢٥١، ٢٥٢).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب التعبير، باب: الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة برقم (٦٩٨٩) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم في كتاب الرؤيا برقم (٨) عن أبي هريرة.

الصالحة، تأتي كفلق الصبح، ستة أشهر، ثم أوحي إليه بعد ذلك مدة حياته، ثلاثاً وعشرين سنة، فتكون نسبة الرؤيا الصالحة إلى عموم مدة الوحي جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

السادسة **أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.**

كما في هذا الحديث، وكما في رؤيا عبد الله بن زيد، فقد كانت سبباً تشريع الأذان، وقبل ذلك رؤيا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه يذبح ابنه، كانت سبباً في مشروعية الأضحية، لكن هذا إذا كان مؤيداً بالوحي، وقول معصوم، أما بعد ذلك فلا، وقد يستأنس بها في غير الأحكام، إذا لم تدل على ما يخالف الشريعة؛ وإلا فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها.





باب من سَبَّ الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤﴾ [الجاثية: ٢٤].

وفي «الصحيح»: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: يُؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»(١).

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»(٢).

الشرح

قال المصنف رحمه الله:

(باب: من سب الدهر فقد آذى الله) (من) هنا بمعنى (الذي). وحقيقة السب في اللغة: الشتم واللوم. وأما (الدهر) فهو ظرف الزمان الذي جعله الله تعالى محلّاً لقيام الحوادث. والأذى: المقصود به في اللغة: ما خف أثره، وقلّ ضرره، كما قال الله ﷻ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. فالأذى أخف أنواع الضرر، ولا يلزم من الأذى حصول الضرر، ففي الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضروني»(٣)، فلا يستطيع أحد أن يضر الله تعالى، لكن المعنى: أن يصدر من المخلوق ما يسخطه تعالى من قول، أو فعل،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الآية برقم (٤٨٢٦) وفي كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] برقم (٧٤٩١). ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر برقم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر برقم (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم برقم (٢٥٧٧).

وهذا لا ريب موجود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨] وقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥]. ويصدق على الشيء الذي صدر منهم أنه أذى، وأنهم آذوا الله تعالى به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]؛ أي: أنهم لن ينالوا منكم، ولن يسلبوا إيمانكم، أو يزحزحوكم عن دينكم، لكنهم يزعجونكم بأنواع المزعجات من العدوان، أو الكلام، وما أشبه ذلك.

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

من سبَّ الدهر فكأنما أثبت فاعلاً مع الله، وهذا شرك في الربوبية؛ لأنه قام في قلبه أن الدهر فاعل بنفسه، والله ﷻ وهو المدبر المتصرف، فلا مدبر ولا متصرف سواه.

قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ وتتمة هذه الآية: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾. الظن: هنا هو الوهم، فحكى الله ﷻ في هذه الآية مقالة مشركي العرب، ومن على شاكلتهم من الفلاسفة الدهرية؛ وذلك أن بني آدم، حيال المبدأ والمعاد، **ثلاثة أنواع**:

فالنوع الأول: الذين يثبتون المبدأ والمعاد: وهم المؤمنون، أتباع الأنبياء، كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤].

النوع الثاني: الذين ينكرون المبدأ والمعاد: هم الفلاسفة القائلون بقدم العالم، وخلوده، وتسلسله من الجهتين. وهؤلاء ملاحدة كفار؛ فهم ينكرون أن يكون الله ﷻ خلق الخلق؛ بل يزعمون أن هذا العالم قديم، متناهٍ في القدم، ليس له أول، ويدخل في هؤلاء أصحاب نظرية «دارون»، الذي ينكر قصة بدأ

خلق الله تعالى لآدم وحواء، ويزعم أن أصل الأنواع كان من جسم لا يرى بالعين المجردة، تطور في مراحل النمو والارتقاء، حتى وصل إلى مرتبة القردة العليا، ثم مع تقادم الزمن تحول إلى صورة إنسان، إلى غير ذلك من التخرصات والفرضيات. وقد سمّاه الله ظناً وخرصاً، فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾، [يونس: ٦٦]. فهو لا يقوم على أساس من الأدلة والبراهين.

النوع الثالث: الذين أثبتوا المبدأ، وأنكروا المعاد، وهم مشركو العرب، ومن على شاكلتهم. والدليل على إثباتهم المبدأ قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، والدليل على إنكارهم المعاد آيات كثيرة، منها قوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾؛ أي: ليس ثم إلا هذه الدنيا التي نعيشها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾؛ أي: يموت بعضنا، ويولد بعضنا، كما قال قائلهم: «أرحام تدفع، وأرض تبلع»(١)، وقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

فقوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ هو موضع الشاهد، ومرادهم: أننا لا نهلك إلا بمرور الزمان، كما كانوا يقولون في الجاهلية: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، ويا خيبة الدهر، إلى غير ذلك، مما ينسبونه إلى الدهر في جاهليتهم.

قوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: أنّ دعواهم تلك ليست مبنية على علم، ولا على دليل.

قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: ليس عندهم إلا مجرد الخرص، والظن الفاسد. وكل اعتقاد فاسد فمنشأه: الظن الفاسد، والتخرص، والتهوك، وأما العلم اليقيني الثابت فهو ما كان من عند الله ﷻ، أو من معصوم من أنبيائه الكرام.

وليس في مقالات بني آدم، قسم رابع ينكر المبدأ، ويثبت المعاد.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/ ٤٣٢).

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لما فيها من نسبة الإهلاك إلى الدهر، فآذوا الله ﷻ بنسبة التدبير والأمر لغيره، والله يقول: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فوائد الآية:

١ ـ إثبات البعث، والرد على منكريه، وهم الدهرية.

٢ ـ فساد مقالة الدهرية؛ لأن مبناها على مجرد الظن.

٣ ـ كل مقالة لا تستند إلى دليل فهي رد.

فائدة: سب الدهر ينقسم إلى **ثلاثة أقسام:**

الأول: أن يقصد بذلك الخبر المحض: فهذا جائز، ولا بأس به، كقول الإنسان على سبيل الخبر المحض: هذا يوم شديد الحر، أو هذا يوم قائظ، أو هذا يوم بارد. ومما يشهد لصحته قول لوط عليه السلام: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ [هود: ٧٧] فخرج منه مخرج الخبر، لا الاعتراض والتبرم.

الثاني: أن يسب الدهر بوصفه فاعلاً، فهذا شرك أكبر؛ لأنه أثبت خالقاً مع الله ﷻ، وهذا نقض لعقد الربوبية.

الثالث: أن يسب الدهر لا باعتقاد أن الدهر هو الفاعل، لكن لكونه محلّاً لهذا الأمر المكروه، فهذا محرم، لا لأنه من الشرك، لكن لما فيه من الاعتراض على القدر؛ كأن يقول على سبيل التبرم والضيق: هذا يوم نحس، أو هذا شهر شؤم؛ كأنه ينسب النحس، والشؤم إلى هذا الزمن، فهذا محرم لما فيه من الاعتراض على القدر.

قوله: («وفي الصحيح») أي: في «الصحيحين»، فقد رواه البخاري ومسلم؛ بل ورواه بعض أهل السنن؛ كأبي داود[1]، والنسائي[2].

---

(١) أخرجه أبو داود في أبواب النوم، باب في الرجل يسب الدهر برقم (٥٢٧٤) وصححه الألباني.

(٢) سنن النسائي الكبرى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] برقم (١١٤٨٧).

قوله: (عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى) هذا الحديث يقال له: حديث قدسي أو إلٰهي، لفظه من النبي ﷺ، ومعناه من الله ﷻ.

قوله: (يُؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر) جملة تفسيرية لصفة الأذية؛ أي: يذمه، ويلومه، عند حصول المصائب.

قوله: (وأنا الدهر)؛ أي: أنا مالك الدهر ومُصَرِّفه؛ لا أنه ـ سبحانه ـ الدهر. وربما قال قائل: هذا دليل صريح على أن (الدهر) من أسماء الله الحسنى! لكن النبي ﷺ بيّن أنّ الله تعالى لم يرد بذلك التسمية.

قوله: (أقلب الليل والنهار) إذن فثم مُقَلِّب، ومُقَلَّب، ولا يمكن أن يكون المُقَلِّب هو المُقَلَّب. فالمُقَلِّب هو الله تعالى، والمُقَلَّب هو الدهر، الذي هو الليل والنهار. ومما يدل على أن الدهر ليس من الأسماء الحسنى: أن الدهر اسم جامد لا يحمل معنى الحُسن، ونحن نعلم من كتاب الله أن أسماء الله حسنى، قد بلغت في الحسن غايته، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فأسماء الله الحسنى دالة في مبناها على معنىً حسن؛ كالسميع، والعليم، والحكيم، والرحيم، أما الدهر فلا يعطي معنى يدل على الحُسن؛ لأنه اسم جامد.

(وفي رواية: «لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر»)(١)؛ أي: أنّ الله هو الذي يجري فيه ما يريده ﷻ من خير وشر، وعز وذل، وغنى وفقر، وصحة ومرض، وما شاء سبحانه بمقتضى حكمته.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيه من النهي الصريح عن سب الدهر، وأن ذلك أذية لله تعالى.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم سب الدهر، ولا يستثني إلا ما خرج مخرج الخبر المحض،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر برقم (٢٢٤٦).

وأما ما سوى ذلك فهو يتراوح بين أن يكون شركاً أكبر، إذا اعتقد أنه مُؤثر وفاعل بنفسه، وبين أن يكون محرماً، إذا وقع على سبيل الاعتراض على القدر، مع اعتقاد أن الله هو المدبر.

٢ ـ أن الدهر خَلْقٌ مسخَّر مدبَّرٌ لله.

٣ ـ أن الدهر ليس من الأسماء الحسنى.

٤ ـ قَرْن الحكم بعلته، لقوله: «**فإن الله هو الدهر**». وهذه طريقة قرآنية نبوية أن يُقرن الحكم بعلته؛ لأن قرن الحكم بعلته له فوائد متعددة، **منها**:

أولاً: ظهور الحكمة: فإن القلب إذا تبيّنت له العلة، حصلت له الطمأنينة.

ثانياً: بيان سمو الشريعة، وأن مبناها على الحكمة والتعليل.

ثالثاً: إمكان القياس، فيما يمكن القياس فيه؛ لأن القياس: إلحاق فرع بأصل في حكم لاتفاقهما في علة جامعة. فلا نستطيع أن نقيس إلا بمعرفة العلة، فإذا علمنا العلة أمكننا أن نلحق الفرع بالأصل. فكل هذه فوائد ناتجة عن قرن الحكم بعلته، وشواهد هذا بالكتاب والسُّنَّة كثير.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **النهي عن سب الدهر.**

لقوله: «**لا تسبوا الدهر**»، والأصل في النهي التحريم والتأثيم.

الثانية **تسميته أذى لله.**

فلا نستشكل ذلك؛ بل نقول كما قال الله، ولا يلزم من إطلاق هذا القول الذي أطلقه الله منقصة بحال من الأحوال، فكل ما وصف الله تعالى به نفسه أو أضافه إلى نفسه ﷻ، فإنه لا يمكن أن يتضمن نقصاً بوجه من الوجوه، حتى لو تبادر للذهن أو توهم متوهم أو استشنع مستشنع، فإن هذا فساد في التفكير لا في الوضع، فالنص معصوم من أن يدل على معنى فاسد.

الثالثة **التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».**

وناتج هذا التأمل: أن نعلم أن المراد: أنه صاحب الدهر ومالكه، لا أنه نفسه ظرف زمان.

الرابعة **أنه قد يكون سابّاً ولو لم يقصده بقلبه.**

أي: يكون ساباً وإن لم يكن معتقداً حقيقة ما يقول؛ لقوله: «**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر**» فنسب إليه السب، ولم يذكر قصداً، لكن هذا أقل إثماً ممن اعتقد، أو قصد نسبة الفعل إلى الليل والنهار، فإن هذا من الشرك الأكبر، فضلاً عن مسبة ما ليس مستحقاً للسب.

ومن المعلوم أنه لا تلازم بين النية وحصول الأذى، فربما تقول لصاحبك قولاً لا تضبطه، ولا تزنه وزناً دقيقاً، ولا تقصد منه الأذية، لكن قد يتأذى منه، فكذلك يقع في حق الله.



باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في «الصحيح»: عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إنّ أخنع اسم عند الله، رجل تسمّى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله» قال سفيان: مثل: شاهان شاه[(١)].

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»[(٢)].

قوله: «أخنع»؛ يعني: أوضع.

الشرح

عقد المصنف هذا الباب في كتاب التوحيد ليُبيِّن ما ورد من الذم، والنهي عن التسمي بهذا الاسم المطلق المشعر بمشاركة الله تعالى في الربوبية؛ لأن الله تعالى هو الذي يقضي ما يشاء، ويحكم ما يريد، فالقضاء المطلق، والحكم المطلق إنما هو لله ﷻ، فإذا قيل: «قاضي القضاة» دلّ وأشعر بمعنى الإطلاق، بخلاف لو قيد فقيل: قاضي المدينة الفلانية، أو البلد الفلاني، وكذلك لو قيل: قاضي قضاة الديار الفلانية، أو القطر الفلاني، فهذا تقييد سائغ.

قوله: (ونحوه)؛ أي: ما يقاس عليه؛ كأن يقال مثلاً: ملك الأملاك، أو سلطان السلاطين، وكذلك في الاصطلاحات الصوفية: سيد السادات، والقطب الأعظم، ونحو هذه العبارات التعظيمية. ولا شك أن التفاخر بالألفاظ من استزلال الشيطان، والذي ينبغي للمؤمن الاتضاع لله ﷻ، ومجافاة هذه الألقاب

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، وبملك الملوك برقم (٢١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الأملاك، وبملك الملوك برقم (٢١٤٣).

المفخمة. ومن الناس من يفخم نفسه بهذه الألقاب، وهو مخلوق ضعيف، فهذه نزعة منحرفة شاذة، وقد قال النبي ﷺ: «**إنّ الله أوحى إليّ أن تواضعوا**»[١]، وقال: «**وما تواضع عبد لله إلا رفعه**»[٢]، والعكس بالعكس؛ كلما تعالى وانتفش وضعه الله تعالى، وشواهد هذا كثيرة. فالتواضع، والإخبات من صفات أهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الحج: ٣٤]. فينبغي أن يتصف العبد بالإخبات لله ﷻ.

❋ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

التسمي بأسماء، والتلقب بألقاب تشعر بمشاركة الله فيما هو من خصائصه نوع من التنديد، والشرك في الربوبية.

قوله: (في «الصحيح»: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله») وبيّن المصنف رحمه الله معنى (أخنع) **فقال:**

(قوله: «أخنع»؛ يعني: أوضع) فالخنوع: هو الضعة المذمومة التي تدل على الدناءة، والنذالة.

قوله: (رجل تسمّى ملك الأملاك) فهو آدمي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً؛ لو آلمه ضرسه لسهر الليل، لا يصبر عن طعام أو شراب، ولا يمسك الأذى في بطنه، ثم مع ذلك، يتسمّى «ملك الأملاك»!، كما قيل:

أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالهِرِ يَحْكِي انِتفَاخاً صَوْلَةَ الأَسَدِ[٣]

قوله: (لا مالك إلا الله) فالملك المطلق لله ﷻ، وأما الملك المقيد فللبشر؛ لأنه ملك نسبي، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦] وقال الله:

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار برقم (٢٨٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب العفو والتواضع برقم (٢٥٨٨).

(٣) البيت، لابن رشيق القيرواني، في نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: إحسان عباس (١/ ٢١٣) وفي ديوان ابن رشيق (٥٩) وهي في وفيات الأعيان (٤/ ٥٢)، لابن عمار الأندلسي.

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٦٠] واللام للتمليك، وهو ملك محدود، زماناً، ومكاناً، وقدراً، ولذلك يموت ابن آدم ويخلف ما وراءه لوارثه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠] فالملك الذي تنسبه إلى نفسك حين تقول: هذا البيت ملكي، وهذا الكتاب ملكي، وهذه السيارة ملكي، إنما هو ملك نسبي، والمالك حقاً هو الله، لا مالك إلا هو، وفي هذا رد على من تسمى (ملك الأملاك) ونازع الله تعالى في أخص خصائصه.

(قال سفيان) هو: سفيان بن عيينة الهلالي، أبو محمد الكوفي، ثقة، حافظ، فقيه، إمام، حجة. مات سنة ثمان وتسعين ومائة رحمه الله.

قوله: (مثل: شاهان شاه) هذه لفظة أعجمية، ولا زال العجم إلى وقت غير بعيد يستعملونها، يقولون عن زعمائهم: «شاهان شاه» أو: الشاه، ومعناها: (ملك الملوك) وهذه الرواية عند مسلم في «صحيحه».

قوله: (وفي رواية: «أغيظ رجل على الله»)؛ أي: أبغض رجل. والغيظ بمعنى: الغضب، والبغض، والسخط، والأسف، والمقت، وكلها كلمات متقاربة، تضاف إلى الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ [الزخرف: ٥٥] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ [محمد: ٢٨] وقال: ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ [غافر: ٣٥]. وهذه صفات فعلية تليق بالله عز وجل، وليس في إضافتها إلى الله نقص بوجه من الوجوه؛ والله تعالى يحب، ويبغض، كما قال النبي ﷺ: **«إنّ الله يبغض كل جعظري[(١)] جواظ[(٢)] سخاب[(٣)] بالأسواق، جيفة بالليل، حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة»**[(٤)]، ويحب من عباده ﴿ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦]،

---

(١) **الجعظري**: الفظ الغليظ المتكبر، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٢٧٦).

(٢) **الجواظ**: الجموع المنوع. وقيل: الكثير اللحم المختال في مشيته، النهاية في غريب الحديث والأثر (١/٣١٦).

(٣) **السخب والصخب**: بمعنى الصياح، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/٣٤٩).

(٤) أخرجه ابن حبان في كتاب العلم، باب الزجر عن كتبة المرء السنن مخافة أن يتكل عليها دون الحفظ لها، ذكر الزجر عن العلم بأمر الدنيا مع الانهماك فيها، والجهل بأمر الآخرة ومجانبة أسبابها برقم (٧٢).

و﴿ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة: ٤٢]، و﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، و﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف: ٤].

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيه من النهي عن التسمي بـ(قاضي القضاة) و(ملك الملوك) وما أشبه ذلك.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم التسمي بقاضي القضاة، بإطلاق.

٢ ـ وجوب احترام جناب الرب، ومراعاة الألفاظ.

٣ ـ فضل التواضع والإخبات.

٤ ـ إثبات صفة الغيظ لله ﷻ؛ وأنه يتفاضل؛ لأنه على وزن أفعل تفضيل.

٥ ـ قرن الأحكام بعللها؛ لقوله: «**لا مالك إلا الله**» فبعد أن حكم علّل.

مسألة: حكم الألقاب المفخمة مثل: شيخ الإسلام، وحجة الإسلام، أو آية الله، أو الإمام: هذه الألفاظ ليست من جنس قاضي القضاة، وسلطان السلاطين، وسيد السادات؛ لأنها لا تفيد الإطلاق، ومنازعة الأمر والتدبير، والحكم الكوني، وإنما تدل على تبحر في الشريعة.

فشيخ الإسلام يعني: أنه قد بلغ الإمامة في الدين، وبات مرجعاً لأهل الإسلام، وشيخاً لهم، **وحجة الإسلام** يراد: أنه عالم بحجج الإسلام ودلائله، ليس المقصود أنه هو أحد مصادر الاحتجاج؛ لأن الاحتجاج فقط بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، وإنما المراد: أنه عالم بالحجاج وأدلة الإسلام، لا أنه هو بنفسه معصوم.

ويبقى النظر بعد ذلك: هل ينطبق اللقب على من أطلق عليه أم لا؟ فلو أطلق على طالب علم مبتدئ لم تصح الدعوى. لكن حينما يقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، لم تنكر؛ لأنه جدير بهذا اللقب. وهكذا أئمة السلف المتقدمين فإنهم حقيقون بهذه الألقاب؛ كعبد الله بن المبارك، أو الإمام البخاري، فيُسلَّم ويُقبَل.

وأما **آية الله**: فكل مخلوق آية من آيات الله، كما قال أبو العتاهية:

وَفِي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلّ عَلَى أنّهُ الواحِدُ[(١)]

وغالباً ما يُستخدم هذا اللقب عند الروافض، لتبجيل مشايخهم، وهم ليسوا جديرين بذلك، فليسوا آية في العلم؛ بل هم آية في الجهل.

أما **(الإمام)** فيصح الوصف به؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]. والإمام من يؤتم به، ويُقتدى به في الأمور الشرعية. ويبقى النظر بعد ذلك هل يستحق هذا الوصف أم لا؟ وقد جرى توسع في ذلك، فصار بعض الناس يطلق لقب «الإمام» على من ليس بإمام، وليس متبوعاً، وربما كان كثير العلم، لكن لم يبلغ مرتبة الإمامة؛ لأن الإمامة تكون للعلماء المتبوعين، مثل: أحمد، والشافعي، وأبو حنيفة، ومالك، وسفيان الثوري، وابن عيينة، والأوزاعي، وأمثالهم. أما آحاد العلماء فيقال عنه: عالم، ومفتي، وفقيه، ومحدث، وأصولي، ومفسر وما أشبه ذلك.

وينبغي لطالب العلم، في هذا الزمن، زمن التباهي، ألا يتشوف لهذه الألقاب والرتب العلمية؛ من دكتور، وأستاذ، إلى غير ذلك، لكن إن خرج ذلك مخرج الخبر والتصنيف الوظيفي فلا بأس، أما التزين به، والتطلع له، فهذا انحراف في النية، وعلى الإنسان أن يغتبط بنعمة الله عليه أن أحل في قلبه العلم والإيمان، فهذا أعظم مفروح به، ولا تغني هذه الألقاب عنه شيئاً. وهل سمعتم يوماً بأنه قيل: سماحة الإمام أبو بكر الصديق؟ أو فضيلة الشيخ عمر بن الخطاب؟ يقال: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم أجمعين، كانوا أقل الناس تكلفاً، وأعمقهم علماً ـ فقد أصابوا كبد الحقيقة، وباشروا لب الدين؛ واستغنوا بذلك عن الألقاب، وإنما يتطلب هذه الألقاب من يريد أن يرقع عيبه.

* * *

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص٣٦).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **النهي عن التسمي بملك الأملاك.**

لقول الرسول ﷺ: «**إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك**» وهذه ليست صيغة نهي، لكنها تفيد النهي وزيادة، وهو والذم.

الثانية **أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.**

الذي في معناه: كقاضي القضاة، وحاكم الحكام، وشاهان شاه في الفارسية، كما قال سفيان.

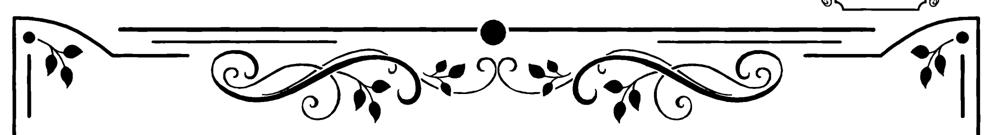
الثالثة **التفطن بالتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.**

يشير المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنه ينبغي التفطن إلى أن هذا التسمي يستجلب غضب الله وغيظه، ولو لم يقصد المرء ذلك.

الرابعة **التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه.**

أي: أن ترك هذه الأسماء المبهرجة إنما يجب أن يكون احتراماً لجناب الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتحقيقاً لتوحيده، وعدم منازعته شيئاً من خصائصه.





باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح: أنه كان يُكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «إنّ الله هو الحَكَم، وإليه الحُكم» فقال: إنّ قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمتُ بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال: «ما أحسن هذا! فما لك من الولد؟» قلتُ: شريح ومسلم وعبد الله، قال: «من أكبرهم؟» قلتُ: شريح، قال: «فأنت أبا شريح»، رواه أبو داود وغيره[١].

الشرح

قال المصنف رحمه الله:

(**باب: احترام أسماء الله تعالى**)؛ أي: باب وجوب احترام أسماء الله تعالى، والمراد بالاحترام: التعظيم؛ لأن لها حرمة. (**وتغيير الاسم**)؛ أي: تحويله وقلبه وتعديله، (**لأجل ذلك**)؛ أي: من أجل احترام أسماء الله تعالى.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

ظاهرة؛ لأن احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم من أجل ذلك الاحترام مما يحقق التوحيد.

قوله: (عن أبي شريح) أبو شريح صحابي جليل، اسمه هانئ بن يزيد الكندي، وكان ممن نزل الكوفة رضي الله عنه، وتوفي بالمدينة، سنة (٦٨هـ).

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في تغيير الاسم القبيح برقم (٤٩٥٥)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب القضاء، إذا حكموا رجلاً ورضوا به فحكم بينهم برقم (٥٩٠٧)، وابن حبان في كتاب البر والإحسان، باب إفشاء السلام وإطعام الطعام، ذكر إيجاب الجنة للمرء بطيب الكلام، وإطعام الطعام برقم (٥٠٤)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (٦٢) وصححه الألباني.

قوله: (أنه كان يُكنى) الكنية: هي ما صُدِّر بأب أو أم، ونحوه. واللقب: ما أشعر بمدح أو ذم.

قوله: (أبا الحكم) وليس له ولد اسمه الحكم، لكن لما اعتقد فيه قومه السداد، والصواب، والفصل في الأحكام كنَّوه: «أبا الحكم». فالأبوة هذه ليست أبوة ولادة، ولكنها تشعر بالإحاطة، والاستيعاب لوصف الحكم، والاختصاص به، فلذلك أنكره النبي ﷺ.

قوله: (إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكم) هذا دليل أن الحَكَم من أسماء الله الحسنى. ومعنى: أنه الحَكَم سبحانه؛ أي: أنه الحاكم، وله الحكمة، فهو يدل على معنيين: الحكم، والحكمة، فهو حاكم فلا راد لحكمه، وله الحكمة، وهو وضع الأمور في مواضعها الصحيحة. ويدل على هذا قول الله تعالى: ﴿وَمَا اَخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى اَللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ [الرعد: ٤١] فالحكم لله.

قوله: (إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمتُ بينهم، فرضي كلا الفريقين) ومصدر الرضا: أنه كان مسدداً، وموفقاً، وهذه صفة العاقل اللبيب؛ تجده يفقه الواقع، ويزن الأمور، ويتبصر في العواقب، فيأتي بحكم مرض للطرفين. ولهذا استحسن النبي ﷺ ذلك.

قوله: (ما أحسن هذا!) المشار إليه حسن، وهو الحكم المرضي للمختلفين، لكن الاعتراض على التسمية، وهذا من كمال إنصافه ﷺ.

قوله: («فما لك من الولد؟» فقلتُ: شريح، ومسلم، وعبد الله، قال: «من أكبرهم؟» قلتُ: شريح، قال: «فأنت أبا شريح» رواه أبو داود وغيره). أراد ﷺ بالولد هنا الذكور، دون الإناث، مع أن اللفظ يشملهما. وهذا من حسن تعامله وتعليمه، فلما أبطل اللقب الممنوع، أبدله بلقب مأذون، فكناه بأكبر أبنائه.

⁂ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأنه يدل على احترام أسماء الله، وعدم ابتذالها، ومنع التسمي بما يختص الله به من الأسماء، وتغييره إلى ما يليق بالمخلوق.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم التسمي باسم من أسماء الله تعالى التي تختص به، والإطلاق يدل على الاختصاص. والأصل: أنه يجوز أن يسمى المخلوق بما يسمى به الخالق، على اعتبار أن للمخلوق ما يليق به، وللخالق ما يليق به، **والأمثلة على ذلك كثيرة:**

ـ قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٣] مع أن العظيم من أسماء الله.

ـ وقال تعالى: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١] مع أن العزيز من أسماء الله.

ـ وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ [يوسف: ٤٣] مع أن الملك من أسماء الله. لكن إذا أشعر الاسم بالإطلاق والاستيعاب للمعنى، فهذا يختص بالله، ومثاله: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ [الفاتحة: ١]، فلا يجوز أن يتسمى مخلوق بالرحمٰن، ولا يجوز أن يتسمى مخلوق بالمتكبر. ومن هذا الباب: «أبو الحكم»، فإنه يدل على استيعاب الوصف كله.

٢ ـ أن الحَكَم من أسماء الله الحسنى.

٣ ـ جواز التحاكم إلى من هو أهل في بعض الخصومات، فلو اختصم شخصان، وقالا: لا حاجة أن نذهب إلى المحاكم الشرعية، والقضاة المعينين، رضينا بفلان، وهو أهل للحكم، فلا بأس، وقد كان الصحابة يفعلون ذلك فيما بينهم، لكن بشرط الأهلية، وقد ذكر الله ذلك، فقال: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ [النساء: ٣٥] والقول الراجح في هذه المسألة: أن حكم الحكمين ملزم، وليس مُعْلماً فقط، وإلا لم يكن للحكمين فائدة، إذا كان يمكن أن يؤخذ بقولهما أو يرد.

٤ ـ أن المشروع أن يُكنى الرجل بأكبر أولاده؛ لأن الشرع في الحقيقة يراعي السن؛ لهذا قال النبي ﷺ: **«كبر كبر»**(١)، وينبغي البداءة بالأكبر في التقديم، خلافاً لما يفعله بعض الناس بالبداءة باليمين. ومن صوره مثلاً: إذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية، باب الموادعة والمصالحة مع المشركين بالمال وغيره، وإثم من لم يف بالعهد برقم (٣١٧٣)، ومسلم في كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب القسامة برقم (١٦٦٩).

دخلتَ مجلساً وأردتَ المصافحة أو السقيا، أو الإطعام، أو غير ذلك من وجوه الإكرام، ألا تبدأ بمن عن يمينك في أسفل للمجلس؛ بل اقصد المقدم والكبير منهم، فابدأ به، مراعاة للسن، كما في هذه القصة، قال النبي ﷺ: «**من أكبرهم؟**». ثم خذ ذات اليمين بالنسبة لك، لا بالنسبة لمن بدأت به.

٥ ـ مشروعية تغيير الأسماء والكنى، والألقاب المذمومة، أو المحرمة، وهذا له صور متعددة، منها:

ـ تغيير ﷺ الأسماء المستبشعة؛ كتغييره اسم (حزن) إلى (سهل)[(١)]

ـ تغييره ﷺ الأسماء التي فيها تزكية؛ كتغييره اسم (برَّة) إلى (زينب)[(٢)].

ـ نهيه عن أسماء اتقاء محذور: فعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُسَمِّيَنَّ غُلَامَكَ رَبَاحاً، وَلَا نَجِيحاً، وَلَا يَسَاراً، وَلَا أَفْلَحَ، إِنَّمَا هِيَ أَرْبَعٌ، فَلَا تَزِيدُوا عَلَيْهِ**»[(٣)].

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

لأن النبي ﷺ استدرك عليه هذه الكنية، مع أنه لم يقصد بذلك منازعة الله تعالى في وصف من أوصافه، أو اسم من أسمائه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب اسم الحزن برقم (٦١٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب تحويل الاسم إلى اسم أحسن منه برقم (٦١٩٢)، ومسلم في الآداب، باب استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن... برقم (٢١٤١).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٣/ ١٥٠)، برقم (٥٨٣٨)، وصححه الألباني. وقال ابن حبان: «يُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ الْعِلَّةُ فِي الزَّجْرِ عَنْ تَسْمِيَةِ الْغِلْمَانِ بِالْأَسَامِي الْأَرْبَعِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي الْخَبَرِ هِيَ أَنَّ الْقَوْمَ كَانَ عَهْدُهُمْ بِالشِّرْكِ قَرِيباً، وَكَانُوا يُسَمُّونَ الرَّقِيقَ بِهَذِهِ الْأَسَامِي، وَيَرَوْنَ الرِّبْحَ مِنْ رَبَاحٍ، وَالنُّجحَ مِنْ نَجَاحٍ، وَالْيُسْرَ مِنْ يَسَارٍ، وَفَلَاحاً مِنْ أَفْلَحَ، لَا مِنَ اللهِ تَعَالَى ﷻ، فَمِنْ أَجْلِ هَذَا نَهَى عَمَّا نَهَى عَنْهُ».

الثانية **تغيير الاسم لأجل ذلك.**

لفعله ﷺ فإنه غيّر كنية أبي الحكم إلى أبي شريح.

الثالثة **اختيار أكبر الأبناء لكنيته.**

لقوله: «**من أكبرهم؟**» لكن هل يقال ذلك ولو كانت أنثى؟ لا، وإنما يُكنى الرجل بأكبر أبنائه الذكور، هذا من حيث الأصل؛ لأن جنس الذكر أفضل من جنس الأنثى، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] لكن التكني بالأنثى جائز عند أهل العلم، فقد يُكنى الرجل بالأنثى لشهرتها أو لفضلها، فقد تكون البنت أفضل من أخيها؛ لأن تفضيل الجنس لا يعني تفضيل الأفراد، فيوجد في الجملة من النساء من تفضل بعض الرجال، وقد كُني تميم الداري بابنته رقية، وقد يُكنى الرجل للتعريف به، وإن لم يُولد له، كما تكنت عائشة رضي الله عنها بأم عبد الله، وليس لها ولد، والمراد به ابن أختها عبد الله بن الزبير، وقد يُكنى بشيء له فيه أدنى ملابسة، ولو كان حيواناً، كما كُني عبد الرحمٰن بن صخر الدوسي بأبي هريرة، وكُني علي رضي الله عنه بأبي تراب، وقد يُكنى باسم مجموع، فيقال مثلاً: أبو الرجال أو أبو الأشبال، وما أشبه ذلك. فالحاصل: أنّ الأصل في الكنية أن تكون بأكبر الأولاد؛ **للأدلة التالية:**

١ ـ لقوله: «**من أكبرهم؟**».

٢ ـ ولقوله: «**كبر، كبر**».

٣ ـ ولأن كبر السن له اعتبار في الشرع.

لكن يجوز أن يكنى الرجل بأصغر أولاده، أو أوسطهم لميزة له مثلاً، كما كُني الإمام أحمد بأبي عبد الله، مع أن صالحاً أكبر من عبد الله لكن ذلك **بشروط:**

١ ـ أن يكون هناك مبرراً لهذا.

٢ ـ أن يخلو الأمر من المفسدة؛ لأن هذا قد يجر إلى الشحناء بين الأولاد.





باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ: «أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء ـ يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القرّاء ـ فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عناء الطريق، فقال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿...أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦]، ما يتلفت إليه، وما يزيده عليه»(١).

الشرح

قال المصنف رحمه الله:

(باب: من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول) الأقرب أن (من)

(١) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (١٦٩١١)، (١٦٩١٢)، (١٦٩١٦)، وتفسير ابن أبي حاتم برقم (١٠٠٤٦)، (١٠٠٤٧)، والمعجم الكبير، للطبراني برقم (٣٠١٧).

هنا بمعنى الذي، والتقدير: باب حكم الذي هزل. وتحتمل أن تكون اسم شرط، و(هزل) فعل الشرط، ولم يذكر الجواب، وتقديره: فقد كفر، كما يدل عليه سياق الآيات والأحاديث. وهذا الباب مهم، والحاجة إليه داعية، لا سيما في أزمنة تجرأ فيها الملاحدة، والمنافقون، والسفهاء، على الله، ورسوله، وكتابه، وشرعه، ودينه، وكرام أمته، فيُحتاج إلى التذكير فيه. وقد وقع نظيره في زمن النبي ﷺ، وأنزل فيه آيات. والهزل: السخرية والاستهزاء.

قوله: (بشيء فيه ذكر الله) شيء: نكرة، فتعم كل شيء فيه ذكر الله؛ مما يتعلق بذاته، أو أسمائه، أو صفاته، أو شرعه، أو قدره. **فيدخل في ذلك.**

- من سخر من إثبات ما أثبت الله لنفسه من صفات الكمال، ونعوت الجلال؛ كالصفات الخبرية؛ الوجه، واليدين، والعينين، والساق.

- من سخر بأحكامه؛ كحدٍّ من حدود الله؛ الرجم، أو الجلد، أو القطع، كما قال أولهم:

يدٌ بخَمسِ مئين عسجَدٍ وُدِيَتْ ما بالُها قُطعَتْ في ربعِ دينارِ؟[(١)]

- من سخر بالقرآن، أو بسوره من سوره، فاتخذها مادة للهزؤ؛ كأن يقول في سورة الجن: هذا من الخرافات. وكذلك من لحّن القرآن على لحون الفساق، أو استشهد به لغير ما أنزل.

- من سخر من مقام النبي ﷺ، وسُنَّته؛ كحديث الذباب: **«إِذَا وَقَعَ الذُّبَابُ فِي إِنَاءِ أَحَدِكُمْ فَلْيَغْمِسْهُ كُلَّهُ، ثُمَّ لِيَطْرَحْهُ، فَإِنَّ فِي أَحَدِ جَنَاحَيْهِ شِفَاءً، وَفِي الآخَرِ دَاءً»**[(٢)]، وكقول النبي ﷺ في النساء أنهن **«ناقصات عقل ودين»**[(٣)]، واتخذها مادة للنقد والتنقص.

- من سخر بخلق الله للهوام، والحشرات، ونحو ذلك، وزعم أن ذلك عبث لا فائدة فيه.

---

(١) ديوان أبي العلاء المعري (ص٥٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في باب: إذا وقع الذباب في الإناء، برقم (٥٧٨٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم برقم (٣٠٤)، ومسلم في الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات برقم (٧٩، ٨٠).

فهذا الهزل والسخرية يقع بصور متعددة، والذي لا يتقي الله ﷻ يندلق لسانه، ويستزله الشيطان، عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه قال النبي ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم**»[(١)]، وفي لفظ: «**وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ﷻ ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله ﷻ بها عليه سخطه إلى يوم القيامة**» فكان علقمة يقول: «كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث»[(٢)].

⁜ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

الهزل بشيء من ذكر الله، أو الرسول، أو القرآن، كفر مناقض للتوحيد.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾) الخطاب للنبي ﷺ، والمسؤول هم المنافقون. وقد نجم النفاق بعد غزوة بدر؛ لما أظهر الله الإسلام، واشتدت شوكة المسلمين، فصار الذين أبوا الإسلام من أهل المدينة يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر، ومردوا على النفاق. وظلوا كذلك، حتى وفاة النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ يعاملهم على ظواهرهم، ويكل سرائرهم إلى الله، ويغلظ عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٩﴾ [التوبة: ٧٣، التحريم: ٩]. وقد أسرَّ النبي ﷺ إلى حذيفة بن اليمان بأسماء المنافقين.

قوله: ﴿نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾؛ أي: أننا لم نقصد الاستهزاء، وإنما كنا نتجاذب أطراف الحديث، ونقطع الطريق، بما يتحدث به المسافر مع صاحبه. فرد الله تعالى عليهم في تتمة الآية: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥﴾ وهذا الاستفهام للتوبيخ والتقبيح؛ أي: ألم تجدوا مادة للهزؤ والسخرية إلا في حق الله، وآياته ورسوله؟! ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾. وسيأتي بيان سبب نزولها.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان برقم (٦٤٧٨).

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٥٨٥٢) وقال محققو المسند: «صحيح لغيره».

مناسبة الآية للباب:

مطابقة؛ لأن فيها ما يدل على كفر من هزل بشيء فيه ذكر الله، أو الرسول، أو القرآن.

فوائد الآية:

١ ـ أن الاستهزاء بالله، والقرآن، والرسول، كفر ينافي التوحيد. وبعض جفاة العوام، في بعض المجتمعات الإسلامية يتفوهون بكلمات لا يحسبون لها حساباً، تقشعر لها الأبدان، فيسبون الدين، وهذا استهزاء وزيادة.، فمن استهزأ بالله أو بالقرآن أو بالرسول فقد كفر كفراً مخرجاً من الملة؛ لأنه طعن في أصل الاعتقاد.

٢ ـ أن من قال الكفر، أو فعل الكفر، حتى لو لم يعلم أنه كفر، حُكم أن مقالته، أو فعله كفر، أما تحقيق الحكم عليه فيتوقف على انتفاء الموانع، وتمام الشروط؛ لأنه ربما كان مكرهاً، أو جاهلاً، أو مخطئاً، أو غير ذلك. ولما علم الله من حال هؤلاء المنافقين الكفر، قال: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

٣ ـ وجوب تعظيم الله، وكتابه، ورسوله؛ كما قال الله عن المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] فينبغي للمؤمن إذا قرع سمعه ذكر الله ﷻ أن يكون له حال غير الحال التي كان فيها؛ بأن يقوم في قلبه من الإجلال والتعظيم لله رب العالمين، ما يدل على وجله، وكذلك حين يذكر القرآن، أو يُؤتى به. وكان النبي ﷺ يعظم كتب الله، فلما دعته اليهود يوماً إلى الحكم في مسألة عرضت لهم، قال: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: ٩٣]، فأتوا بالتوراة يحملونها، «وقد كان ﷺ جالساً على وسادة، فلما أُتي بالتوراة نزع الوسادة من تحته، فوضع التوراة عليها، ثم قال: «**آمنت بك، وبمن أنزلك**»[1]، هكذا عظّم ﷺ كلام الله، فكيف بالقرآن العظيم، الذي هو أعظم كُتب الله، وأكملها، وأحدثها عهداً به؟! وكان

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الحدود، باب في رجم اليهوديين برقم (٤٤٤٩) وحسنه الألباني.

عكرمة بن أبي جهل يأخذ المصحف، فيضعه على وجهه، ويبكي، ويقول: «كلام ربي، كتاب ربي»[(١)].

وإنا لنأسف أن نجد من بعض الناس من لا يعظم المصحف، فتجد من يمد رجليه أمام حامل المصاحف، حتى يكاد أن يمس بقدمه المصحف، وقد نص الفقهاء الحنابلة على منع هذا[(٢)]. بل أني رأيتُ أحد التلاميذ خارج مدرسته، ينتظر ولي أمره، قد قعد فوق كتبه المتضمنة للآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، واتخذها وقاية لملابسه أن تمس الأرض! وإنما فعل هذا لأنه لم يُنشَّأ على تعظيم كلام الله، وكلام نبيّه ﷺ، فيجب علينا أن نربي أبنائنا وبناتنا، على إجلال كلام الله، وكلام نبيّه ﷺ.

٤ ـ قبول توبة المستهزئ إذا تاب؛ لقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] فدل ذلك على أن باب العفو مفتوح، والله تعالى إذا عفا، أو لم يعفُ، فإن ذلك مقترن بحكمته؛ فيعفو عن التائب، ولا يعفو عن المصر. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦]

٥ ـ أن الكفر كفران: كفر اعتقادي، وكفر عملي، خلافاً للمرجئة، فإن المرجئة يقصرون الكفر على كفر الاعتقاد، ولا يثبتون كفراً عملياً. والصحيح: أنّ الكفر يكون بالقول، ويكون بالعمل، ويكون بالاعتقاد، كما أن الإيمان يتعلق بالقول والعمل. فالكفر بالاعتقاد: أن يقوم في قلبه من النكران، والإباء، والاستكبار، والجحود، والاستحلال، ما ينافي الإيمان، حتى لو لم يفُه بلسانه. أو أن يعتقد عقيدة باطلة؛ كعقيدة الجهمية؛ فيزعم أن الله تعالى لا يتسمى باسم، ولا يتصف بصفة، وينكر الأسماء والصفات، فهذا كفر اعتقادي. والكفر بالقول: أن يتفوه بكلام كفري، عالماً، ذاكراً، مختاراً، كما وقع

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (٥٠٦٢).
(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٢/ ٢٨٦).

لهؤلاء. والكفر بالعمل: كأن يسجد لصنم، أو أن يلقي المصحف، أجلَّه الله، في القاذورات، أو نحو ذلك من الأفعال المنافية للإيمان، عالماً، ذاكراً، مختاراً.

قوله: (عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة): رواية التابعين من المراسيل، والمرسل: ما وقع فيه سقط في آخر إسناده؛ أي: من بعد التابعي. وقد أخرجها: ابن جرير، وابن أبي حاتم، وإسنادها حسن. أما رواية ابن عمر، فمتصلة.

ومحمد بن كعب: القرظي، كان مدنياً، وهو من ثقات التابعين، مات سنة عشرين ومائة. وزيد بن أسلم: ثقة مشهور، مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مات سنة ست وثلاثين ومائة. وقتادة: هو قتادة بن دِعامة السَّدوسي، تقدم ذكره مرات. رحمهم الله.

قوله: (دخل حديث بعضهم في بعض)؛ أي: السياق التالي مجموع أحاديثهم، لا حديث واحد منهم، فضمت أحاديث بعضهم لبعض، وهذا يحصل في الإخباريات، فكثيراً ما يذكر ابن إسحاق في السيرة هذا، ويقول: دخل حديث بعضهم في بعض، ولا شك أنه يُحتمل في الإخباريات ما لا يُحتمل في الأحاديث التي تتضمن العقائد والأحكام.

قوله: (أنه قال رجل في غزوة تبوك) هي آخر غزوة غزاها النبي ﷺ، سنة تسعٍ من الهجرة. وتبوك تقع شمال الجزيرة العربية، **على مشارف الشام**.

قوله: (ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء) المراد بالقراء: جمع قارئ، وأراد بهم هنا النبي ﷺ وفقهاء الصحابة، كما سيذكر. ثم بات يطلق على فقهاء التابعين الذين يحفظون القرآن والسُّنَّة.

قوله: (أرغب بطوناً) كناية عن النهم في الأكل والشرب، فبطونهم كبيرة واسعة من كثرة الأكل.

قوله: (ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء) وصفهم بغاية الجشع، والكذب، والجبن.

قوله: (يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك)

الأشجعي رضي الله عنه صحابي معروف، أول مشاهده خيبر، روى عدة أحاديث، مات سنة ثلاث وسبعين.

قوله: (كذبت) حق له أن يُكذِّبه؛ لأن هذا خبر مخالف للواقع.

قوله: (ولكنك منافق) لأن هذا الهزؤ لا يصدر عن مؤمن.

قوله: (لأخبرن رسول الله ﷺ) هذا يدل على جواز الوشاية لمصلحة، وليس من باب النميمة لما يترتب عليه من حفظ حوزة الدين، وقطع ألسنة العابثين، والمفسدين، والمرجفين.

قوله: (فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه) كما قال تعالى في حادثة أخرى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾ [التحريم: ٣].

قوله: (فجاء ذلك الرجل) الذي أطلق تلك الكلمة، معتذراً إلى رسول الله ﷺ.

قوله: (وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله! إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عناء الطريق) لم يعدم كلاماً يعتذر به؛ لأن المنافقين مردوا على كثرة الاعتذار، وزخرفة القول، كما قال الله: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة: ٩٠]، وقال: ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]. فعندهم من الصياغات اللفظية، وصفّ الكلام، وزخرفة القول، ما يلجؤون إليه في هذه المضائق.

قوله: (قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول لله ﷺ) النسعة: عبارة عن سير عريض مشدود، مضفر، من الجلد، يشد به الرحل على البهيمة والبعير، فيثبت الرحل.

قوله: (وإن الحجارة تنكب رجليه)؛ أي: تضرب رجليه، وهو يلحق النبي ﷺ، ويعتذر إليه.

قوله: (وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿...أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ما يلتفت إليه وما يزيده عليه) امتثالاً لأمر ربه.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة؛ لأن فيها بياناً لسبب نزول الآية الدالة على حكم من هزل بشيء فيه ذكر الله.

فوائد الحديث:

١ ـ بيان حال المنافقين وما تنطوي عليه نفوسهم من الحقد والغيظ على دين الله. وهذا كما هو موجود في المنافقين السابقين، موجود، وربما أشد، في منافقي زماننا الذين يحملون أسماء المسلمين، ويعيشون بين ظهرانيهم، وفي قلوبهم نقمة على دين الله، وأهله من العلماء، والدعاة، والمحتسبين، فتنضح قلوبهم، وألسنتهم، وأقلامهم، باللمز، والغمز، والطعن، وإرادة السوء. فهي حال تتكرر في كل جيل وقبيل؛ تجد أحدهم هُمَزة لُمَزة، بطرق ملتوية، فإذا ضاقت به السبل، وافتضح، قال: أردت كذا وكذا، وبالغ بالاعتذار.

٢ ـ كُفر من استهزأ بشيء فيه ذكر الله، أو آياته، أو رسله؛ فهؤلاء القوم ذموا رسول لله ﷺ وأصحابه القراء؛ كما قال الراوي: «يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء»، وطعنوا بهم بوصفهم الديني.

٣ ـ أن الإخبار والتبليغ عن أصحاب الفساد ليس من النميمة المحرمة. فإذا علم الإنسان أن قوماً يخططون لجريمة، أو يشيعون الفاحشة بين المؤمنين، أو يتَّجرون بالمخدِّرات، أو نحو ذلك من الأمور الضارة بالمجتمع؛ فالتبليغ عنهم واجب متحتم، وعبادة وقربة إلى الله ﷻ؛ بخلاف المنكرات القاصرة، التي قد يكون الستر فيها مقدماً. ولهذا لما أخبر النبي ﷺ فيما قاله بعض المنافقين، قال: «**هذا الذي أوفى الله له بأذنه**»(١)؛ أي: أنه نقل هذا القول. وأما النقل المحرم، فهو ما قُصد به المضارة؛ فمن سمَّع، سمَّع الله به، ومن ضارَّ، ضارَّ الله به، أما ما كان لدفع مفسدة عامة، فليس من النميمة؛ بل هو من النصيحة لله، ولرسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين، وعامتهم. فعلى الإنسان أن يميز بين الأمرين.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: ٧] برقم (٤٩٠٦)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار ﷺ برقم (٢٥٠٦).

٤ ـ وجوب الغلظة على المنافقين، وأشباههم من الفساق؛ لفعل النبي ﷺ بالمنافق، ولقول عوف: «كذبت، ولكنك منافق». فيحتاج المؤمن أحياناً إلى الغلظة على من يستحق أن يغلظ عليه. أما من صدر منه شيء جهلاً، أو خطئاً، فالأصل فيه الرفق، فإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف. وشاهد ذلك: ما جاء عن عائشة قالت: استأذن رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السَّام عليكم، فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «**يا عائشة! إن الله يحب الرفق في الأمر كله**» قالت: ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «**قد قلت: وعليكم**»(١)، وفي رواية: «**يا عائشة! إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**»(٢).

٥ ـ أنه ليس كل عذر يكون مقبولاً، وليس كل من اعتذر قُبل عذره، فمن الأعذار ما يُقبل، ومنها ما لا يُقبل. والأصل قبول العذر، فالله ﷻ يحب العذر، وقد جاء في صحيح البخاري: «**ولا شخص أحب إليه العذر من الله**»(٣)، لكن ليس كل عذر يقبل، وإلا كان الإنسان مستغفَلاً، فينبغي أن يميز الإنسان بين مقام ومقام؛ ولهذا قال الله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠] فقرن العفو بالإصلاح، فإذا كان في عفوك إصلاح فحيهلاً، وأما إذا عفوت، تمادى الظالم في غيه فلا، ولا كرامة. مثال ذلك: لو أن إنساناً قال لك: إني قد اغتبتك، وأرجو أن تسامحني، ورأيتَ عليه مظاهر الندم، والتوبة، فقلت: غفر الله لك، وعفا عنك، فلما كان من الغد جاءك وقال: اغتبتك أخرى، وبعد غد كذلك، فهذا لا يستحق العفو، حتى يرتدع، ويعقل لسانه.

ومن ذلك أيضاً: ما يجري في حوادث السيارات، أو غيرها من الجنايات، وترتب الديات والضمانات، فليس العفو سائغاً في كل حال؛ لأن من السفهاء من

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله برقم (٦٠٢٤)، ومسلم في كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم برقم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق برقم (٢٥٩٣).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول النبي ﷺ: «**لا شخص أغير من الله**»... برقم (٧٤١٦)، مسلم في كتاب اللعان برقم (١٤٩٩).

يظن أنه مهما فعل سيُعفى عنه، ويسقط عنه الحق، فيظل في سفهه وطيشه، ولو علم أنه سيكون عرضة للعقوبة المادية، أو البدنية، لحجزه ذلك عن التمادي.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **وهي العظيمة: أن من هزل بهذا كافر.**

لقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

الثانية **أنّ هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.**

أي: سواء كان المستهزئ منافقاً، أو غير منافق، فإنه يكفر كائناً من كان، لدلالة القصة.

الثالثة **الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.**

النميمة: يراد بها الإفساد بين الناس، وأما النصيحة: فيراد بها الإصلاح، ولو ترتب عليها أذى.

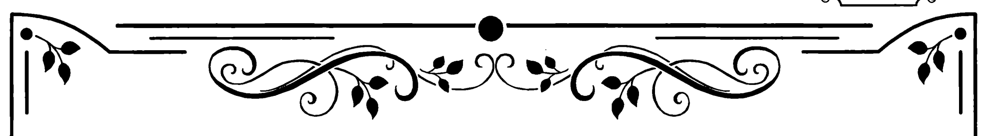
الرابعة **الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.**

العفو الذي يحبه الله هو المقرون بالإصلاح؛ لقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى ٤٠]، وأما الغلظة: فدل عليها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. فالغلظة تكون أنجع وأنجح في بعض الأحوال، كما أن الجرح لا يبرأ إلا بشقه، وإخراج المادة الفاسدة منه، فكذلك بعض الناس لا ينفع معه إلا التغليظ. وقد جرى لنا، ولغيرنا، أن جربنا التغليظ على بعض الغالطين فأيقظته من سكرته. ولو أن الإنسان ظل يرقق الكلام في كل حال؛ لتمادى في غيه، واستخف بالحقوق.

أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يُقبل.

الأصل في الاعتذار أن يُقبل للأدلة الدالة على العفو، كما تقدم، لا سيما إذا كان المعتذر محسناً، وما حصل منه كان هفوة، فإن علم أن الاعتذار باطل، لم يُقبل؛ كاعتذار المنافقين.





باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠]

قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به(١). وقال ابن عباس: يريد من عندي(٢).

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨]، قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب(٣). وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل(٤). وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف(٥).

عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، يذهب عني الذي قد قذرني الناس به، قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر» شك إسحاق «فأعطي ناقة عُشَراء، وقال: بارك الله لك فيها، قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب

---

(١) التفسير الوسيط، للواحدي (٤/ ٤٠).
(٢) بنحوه في تفسير القرطبي (١٥/ ٣٧٣).
(٣) تفسير القرطبي (١٥/ ٢٦٦).
(٤) تفسير البغوي، إحياء التراث (٤/ ٩٣)، وتفسير الخازن، دار الفكر (٦/ ٧٩).
(٥) تفسير الطبري، جامع البيان (٢١/ ٣٠٤).

عني الذي قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل، فأعطي بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها، فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إليّ بصري، فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والداً، فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم، قال: ثم أنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلوغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرصَ يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله ﷻ المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنتَ كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت، وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك، شاةً أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنتُ أعمى فرد الله إليّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك»(١) أخرجاه.

الشرح

قال المصنف رحمه الله:

(باب ما جاء في قول الله تعالى) أي: من الوعيد، كما في تتمة الآية: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠﴾.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٤٦٤)، ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق برقم (٢٩٦٤).

⌘ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

نسبة النعم إلى النفس وادعاء الاستحقاق دون الثناء بها على الله مناف للتوحيد.

قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ اللام لام القسم، والضمير يرجع: إلى الإنسان، إما جنس الإنسان، وإما إلى الكافر، المنكر للبعث، أو الشاك فيه، خاصة، كما يدل عليه قوله إثرها: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

قوله: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ المراد بالرحمة: الغنى، والصحة، والعز، وما أشبه من أنواع النعم الدنيوية.

قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ المراد بالضراء: الفقر، والمرض، والذل، ونحوها من صنوف المصائب الدنيوية.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾؛ أي: أني مستحق له، جدير به، أوتيته على علم، كما قال قارون. قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ هذا كفر الجحود والتكذيب.

قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ هذا كفر الشك والتردد، كما قال صاحب الجنتين: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٦].

قوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ عاقبة جحوده، وتكذيبه بالبعث، وكفره بالنعم.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقوال السلف في تفسير هذه الآية:

ـ قول مجاهد بن جبر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(هذا بعملي وأنا محقوق به)** أي: هذا الذي نلته من العز، والتمكين بعملي، وكدِّ يميني، وعرق جبيني، وجهدي، وحذقي، وأنا مستحق له، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨] فلم يثنِ بالخير على مسديه ونسب الفضل إلى نفسه.

ـ قول ابن عباس: **(يريد من عندي)**؛ أي: من عندي وليس من عند الله تعالى.

ـ قول قتادة: **(على علم مني بوجوه المكاسب)** هذه كلمة يقولها كثير من التجار الذين بسط الله لهم في الرزق؛ فتجد أحدهم إذا جلس في مجلس، أو في مقابلة إعلامية، أخذ يذكر أمجاده الشخصية، وحذقه، وإقدامه، وصحة توقعاته، وكيف تمكن من كسب هذه الأموال؟ وينسى أن الله ﷻ هو الذي يسر له، وفتح له أبواب الرزق، وأنقذه من أزمات، كان فيها على شفير الفقر والإفلاس، كل ذلك يطويه، وينهمك بالثناء على نفسه، وحذقه، وتجاربه.

ـ **(وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل)** كما قال الله ﷻ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر: ١٥]؛ أي: أن ذلك دليل كرامة عند الله، وهو ابتلاء وامتحان.

ـ **(وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف)**؛ أي: أني جدير به؛ لشرفي ومنزلتي، وغير ذلك، وهذه من آفات النفوس المزهوة، غير المخبتة، التي تتكبر، وتنسى فضل المنعم سبحانه.

وقد خلَّد الله في القرآن العظيم مثلاً، وعبرة، لهذا الصنف من المغرورين، في قصة قارون، فقال تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٢].

فوائد الآية والآثار:

١ ـ وجوب شكر النعمة، والثناء بها على مسديها، وهو الله سبحانه. والشكر يكون بثلاثة أمور: بالقلب، واللسان، والجوارح، كما قال الناظم:

أَفَادَتْكُمْ النَّعْمَاء مِنِي ثَلَاثَة   يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِير المحَجَّبا[١]

فيجب أن يشكر العبد ربه بقلبه: فيغتبط بنعمة الله، ويستشعر أن الفضل لله، وبلسانه: فيلهج دوماً بالثناء على الله، وشكره، وبجوارحه: فيسخرها في طاعة الله، وامتثال أمره.

٢ ـ تحريم الفخر، والخيلاء، والعجب بالنفس، وذمه.

٣ ـ وجوب الإيمان بالساعة والقيامة.

٤ ـ الافتتان بالدنيا سبب لإنكار البعث، لقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦].

٤ ـ وعيد من كفر بنعمة الله تعالى؛ لقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

ثم ذكر المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث أبي هريرة الطويل، المتفق عليه، **فقال: (عن أبي هريرة** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **أنه سمع رسول الله** ﷺ **يقول)** وهذا يدل على أن أبا هريرة قد تلقاه مباشرة من النبي ﷺ؛ لأنه صرح بالسماع، فإن أبا هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إنما هاجر عام خيبر، ومع ذلك، فهو من أكثر أصحاب النبي ﷺ رواية؛ بل قد روى أحاديث كثيرة، في حوادث جرت قبل هجرته، وهذا يدل على أنه كان يأخذ عن كبار الصحابة، ويتلقى منهم، ولا يضر أن يسقط الصحابيُّ من سمع منه من الصحابة، فمرسل الصحابي له حكم الاتصال. أما هذا الحديث، فقد صرح فيه بالسماع.

قوله: (إن ثلاثة من بني إسرائيل) بنو إسرائيل يطلق على اليهود والنصارى، وإسرائيل هو: يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتنسب إليه هاتان الأمتان، والتحديث عن بني

(١) البيت بلا نسبة في نهاية الأرب في فنون الأدب، ت: قمحية (٣/ ٢٣٣)، والمستطرف في كل فن مستظرف (ص٢٤٤)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٦/ ٢٧٤).

إسرائيل جائز، وربما قيل: إنه مشروع؛ لقول النبي ﷺ: «**وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»[(١)]، وهو ما يسميه العلماء «الإسرائيليات»، والمراد بها ما يُؤثر عن أنبياء بني إسرائيل. وقد بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وغيره من العلماء، أن الموقف من الإسرائيليات لا يخرج عن **ثلاثة أحوال**:

الأولى: أن تكون موافقةً لما في القرآن والسُّنَّة، فنقبلها ونصدقها؛ لأن شرعنا شهد لها بالصدق. مثال ذلك: ما ورد في العهد القديم، في سفر (التكوين) من ذكر خلق آدم وحواء، وإسكانهما الجنة، وإهباطهما إلى الأرض، وذكر الطوفان، وقصة إبراهيم، ويوسف، وأمثال ذلك، فهذه أخبار قد شهد لها كتابنا بالصحة، فنقبلها ونصدقها من حيث الجملة.

الثانية: أن تكون مخالفةً لما في القرآن والسُّنَّة، مما يتضمن إساءةً إلى جناب الرب تبارك وتعالى، أو إساءة إلى أنبيائه الكرام؛ كزعمهم ـ قبحهم الله ـ أن الله تعالى عما يقولون، ندم على إغراق أهل الأرض، وبكى، حتى رمدت عيناه، وأن لوطاً عليه السلام شرب الخمر وزنى بابنتيه، وأن سليمان عليه السلام عبد الأصنام، وأمثال ذلك، مما هو موجود في كتبهم التي بين أيديهم، فهذه نردها ونكذبها، ونعلم أنها مما امتدت إليه يد التحريف.

الثالثة: ما ليس في القرآن والسُّنَّة ما يصدقه ولا يكذبه، وهذا كثير جدّاً، فموقفنا منه التوقف، فلا نصدقه، ولا نكذبه؛ لقول النبي ﷺ: «**ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله ورسله، فإن كان باطلاً لم تصدقوه، وإن كان حقاً لم تكذبوه**»[(٢)]، فإذا عُرض على أهل العلم والدراية فرأوا أنه لا يوافق، ولا يخالف، فلا بأس بروايته؛ لعموم قول النبي ﷺ: «**وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج**»، وفي شرعنا غنية وكفاية، ولله الحمد، ولا محوج للاشتغال بالإسرائيليات.

قوله: (أبرصَ وأقرعَ وأعمى) نصبت هذه الثلاثة لأنها بدل من (ثلاثة) وهي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم (٣٤٦١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب برقم (٣٦٤٤) وضعفه الألباني.

اسم (إن) والبرص، والقرع، والعمى، آفات معلومة، **فالأبرص**: من كان في جلده شيء من البياض، وهو مرض جلدي معروف، يتقذره الناس. **والأقرع**: الذي سقط شعر رأسه، وغالباً ما يصيب الصبيان، وربما أصاب الكبار، فيكون في الرأس قروح ينشأ عنها تساقط الشعر، وهو أيضاً مما يستقذره الناس. **والأعمى**: من سُلب حاسة البصر، إما من أصل الخلقة، أو طرأ عليه.

قوله: (فأراد الله أن يبتليهم)؛ أي: يختبرهم، ولا ريب أن الله ﷻ يبتلي جميع عباده، كما قال: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] فلا يظن أحد أنه بمنجاة من الابتلاء، قال الله ﷻ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] ولا ينبغي للإنسان أن يسأل الله البلاء؛ بل ينبغي أن يسأل العافية؛ كما قال النبي ﷺ مرة لأصحابه، وقد حالت الشمس بينهم وبين عدوهم أن يقتتلوا، فقالوا: «وددنا يا رسول الله ﷺ لو أن لقينا أعداءنا»؛ أي: وحاربناهم، فقال النبي ﷺ: «**لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم، فاصبروا**»[(١)]. فربما قرأ طالب العلم في سير بعض العلماء والصالحين، الذين جرى لهم ابتلاء، فتاقت نفسه إلى أن يجري له كما جرى لهم، فهذا التمني ليس صواباً، فإنه لا يعلم ما يكون حاله إذا أصابه البلاء، فلربما فُتن. بل ينبغي له أن يسأل الله العافية.

قوله: (فبعث الله إليهم مَلَكاً) المَلَك: واحد الملائكة، وهم خَلْقٌ كريم من خَلق الله، خلقهم الله تعالى من نور، وأعطاهم القدرة على التشكل بهيئة البشر؛ كالمَلَك الذي أتى مريم، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ [مريم: ١٧]، والملائكة الذين أتوا إبراهيم ثم لوط ﵉ على هيئة شبان صِباح الوجوه، وكما كان جبريل يأتي النبي ﷺ على صورة دحية الكلبي. فهذا الملك أتى إليهم على صورة آدمي؛ لأنه لو أتى على صورته التي خلقه الله عليها لاستنكروه.

قوله: (فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟) مراده من مطالب الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس برقم (٢٩٦٦)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، والأمر بالصبر عند اللقاء برقم (١٧٤٢).

قوله: (لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به) تبادر إلى ذهنه الشيء الذي يقلقه دوماً، ويعاني منه، فتمنى ذهابه.

قوله: (فمسحه فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً)؛ أي: نال ما تمنى بقدرة الله الذي بعث إليه ذلك الملك.

قوله: (قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل، أو البقر، شك إسحاق) هو: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، أحد رواة الحديث، وليس الشك من النبي ﷺ قطعاً. وهو شك غير مؤثر سنداً، ولا متناً، فالعبرة حاصلة على كلا الاحتمالين.

قوله: (فأعطي ناقة عُشراء، وقال: بارك الله لك فيها) هذا يدل على أنه تمنى الإبل وليس البقر، فقد أعطي ناقة عُشراء، والعُشراء: هي التي بلغت شهرها العاشر، وصارت على وشك الولادة، وهي أثمن ما يكون من النوق؛ لأنه ينتفع من نتاجها، ودعا له بالبركة، ثم انصرف.

قوله: (فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً) مسح على رأسه، فنما شعره بإذن الله، وصار شعراً حسناً، ونال ما تمنى.

قوله: (فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل) والشك من الراوي، كما تقدم.

قوله: (فأعطي بقرة حاملاً، قال: بارك الله لك فيها) وهذا يدل على أن من أعطى عطيةً، ينبغي أن يدعو بالبركة ليتم الإحسان؛ لأنه قد يُؤتى الإنسان الشيء ولا يُبارك له فيه، وربما عاد وبالاً عليه. وكثير من الناس يملك الدخول العالية، والرواتب المجزية، لكن ماله يضمحل بسبب نزع البركة. ومن الناس من يُؤتى مالاً قليلاً، لكن يبارك له فيه، حتى يفضل عن حاجته. فينبغي أن يتنبه المؤمن للدعاء بالبركة، فإن الله ﷻ هو الذي يُبارك الأشياء.

قوله: (فأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إليّ بصري، فأبصر به الناس) هذا الأعمى سليم القلب، فقد أسند الرد إلى الله، أما الأولان فلم يسندا المسألة إلى الله ﷻ؛ بل قال كل منهما: «ويذهب عني الذي

قد قذرني الناس به» ولم يقولا: ويذهب الله. بخلاف الأعمى فقد كان من أول أمره مقرّاً بنعمة ربه، فدل على صلاح.

قوله: (فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والداً) أسند النبي ﷺ رد بصره إلى ربه لأنها نعمة في حقه، بينما لم يضف الإذهاب في حق صاحبيه إلى الله؛ لأنه ليست كرامة لهما بل ابتلاء، حيث قالا: ويذهب عني. جزاءً وفاقاً.

قوله: (فأُنتج هذان) الأفصح في هذه اللفظة أن تكون بصيغة المبني للمجهول «فأُنتج» أي: حصل لهما نتاج من إبلهما، وبقرهما، واللفظ يستخدم في الإبل والبقر.

قوله: (وولد هذا)؛ أي: صاحب الغنم، وهذا اللفظ يستخدم في الغنم.

قوله: (فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم) ابتلاءً من الله.

قوله: (ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته)؛ أي: أتى إلى الأبرص بصورة إنسان أبرص، وليس المقصود في صورته وهيئته الملائكية، ويحتمل أنه أتاه على الصفة التي أتاه بها أول مرة، لكن الأقرب ـ والله أعلم ـ أنه أتاه في صورة أبرص؛ لكي يصدق الابتلاء.

قوله: (فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري)؛ أي: أنا رجل مسكين، والأسباب، جمع سبب وهو الحبل، كما قال الله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥]، ومراده وسائل البلغة، والنفقة.

قوله: (فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيراً أتبلغ به في سفري) طلب منه بعيراً واحداً، وهو يمتلك وادياً، وذكَّره بنعمة الله عليه بالصحة والمال والجمال.

قوله: (فقال: الحقوق كثيرة) هكذا يتعلل أهل الشح والطمع حينما يُطلب منهم شيء؛ بكثرة الالتزامات والحقوق، والأمر ليس كذلك، وهذا يقع لكثير من أغنياء الأموال، فقراء القلوب؛ تجد عنده المال الطائل، لكنه بخيل، يقتر على

نفسه، وأهله، فضلاً عن الآخرين، ولا ينتفع بهذا المال الذي أعطاه الله إياه، ولو بلغ رصيده المليارات! فهو في الواقع فقير.

قوله: (**فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرصَ، يقذرك الناس، فقيراً، فأعطاك الله ﷻ المال؟**) قرره بذلك ليراجع نفسه، ويتذكر نعمة الله عليه، ويُعذر إليه.

قوله: (**قال: إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر**)؛ أي: أن هذا المال تحدَّر إليّ من أبي عن جدي عن جده، قد حزته حيازة قدرية، ونسي ما كان عليه، ولم يثنِ بالنعمة على ربه.

قوله: (**فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت**)؛ أي: ردك إلى حالك الأولى، من الفقر والآفة. والظاهر أنه عاد إلى حاله الأولى.

قوله: (**وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت، قال: وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين، وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: «قد كنتُ أعمى، فرد الله إليّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك شيئاً أخذته لله**)؛ أي: لا أتعقبك، ولا ألومك على شيء أخذته لله، وذلك شكراً لله ﷻ، واعترافاً له بالنعمة. (**«فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» أخرجاه**)؛ أي: البخاري ومسلم. فالجزاء من جنس العمل.

فما أحسن أن تتلى هذه القصة البليغة في المجالس، والمجامع، والمنابر؛ ليعتبر الناس بها، ويعلم كل أحد أن النعم بيد الله ﷻ، وأنه هو المعطي والمانع، وأنه يبلو عباده بالسراء والضراء، فلا يغتر بنعيم الدنيا، وينسى المنعم ـ سبحانه وبحمده ـ.

❋ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من بيان معنى الآية التي ترجم بها، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾، وأن زعم الإنسان استحقاقه لما أنعم الله به عليه منافٍ للتوحيد الواجب.

ويُستفاد من هذه القصة:

١ ـ وجوب شكر النعم، ونسبتها إلى الله.

٢ ـ التحذير من كفر النعم؛ وأنه سبب لسلبها.

٣ ـ جواز التحديث عن بني إسرائيل فيما لم يخالف الكتاب والسُّنَّة.

٤ ـ حكمة الله تعالى في الابتلاء.

٥ ـ الإتيان بـ(ثُم) كما في قوله: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك» فإن (ثم) يحصل بها تحقيق التوحيد والسلامة من الشرك.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير الآية.

وقد نقل المصنف تفسيرها عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وآخرين.

الثانية ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠]؟

اللام في قوله: ﴿لِي﴾ للاستحقاق، والمعنى: إني حقيق وجدير به.

الثالثة ما معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾.

أي: مستحق له بسبب عملي، وعلمي بوجوه المكاسب، وشرفي عند الله.

الرابعة ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

تقدم ذكر بعض هذه العبر من القصة، **ومنها:**

ـ بيان خطورة كفر النعم، وأنها سبب لزوالها.

ـ إن الأوَّلَيْن (الأقرع والأبرص) جحدا نعمة الله، فحل بهما سخط الله.

ـ أن الثالث (الأعمى) اعترف بنعمة الله وشَكَرها، فرضي الله عنه.

ـ أن الأعمى كان أكرمهم وأجودهم؛ لقوله: «**خذ ما شئت**» فدل هذا على جوده.

ـ أن الأعمى كان مخلصاً أيضاً لأنه قال: «**فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله**».

ـ ذم البخل؛ لأنه حمل صاحبه على الكذب، وجحد نعمة الله.

ـ الرفق بالضعفاء وإكرامهم، وتبليغهم مما يطلبون مما يمكن، والحذر من كسر قلوبهم واحتقارهم.

ـ اختبار الله لعباده، وامتحانه لهم.

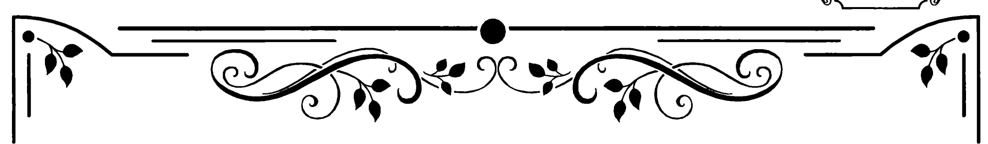
ـ مشروعية ذكر قصص بني إسرائيل وغيرهم فيما صح عن رسول الله.

ـ قدرة الملائكة على التصور بصور الآدميين، مع أنهم خلق عظيم.

ـ بيان قدرة الله بإبراء الأبرص، والأقرع، والأعمى، ورَزقهم.

ـ جواز المعاريض، والتمثيل لمصلحة؛ لقول الملك: «رَجُلٌ مِسْكِينٌ. . . إلخ».





باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١٩٠﴾ [الأعراف: ١٩٠]

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبّد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب(١).

وعن ابن عباس في الآية قال: «لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرنَي أيِّل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما، سمِّياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمَّياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾»(٢)، رواه ابن أبي حاتم.

وله: بسند صحيح عن قتادة، قال: «شركاء في طاعته، لم يكن في عبادته»(٣).

وله: بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] قالا: أشفقا ألا يكون إنساناً، وذكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما(٤).

---

(١) مراتب الإجماع، لابن حزم (ص١١٧).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم برقم (٨٦٥٤)، وتفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (١٥٥١٨)، والتفسير من سنن سعيد بن منصور برقم (٩١٩).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم برقم (٨٦٥٩).

(٤) تفسير ابن أبي حاتم برقم (٨٦٤٨).

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن تسمية الأولاد بأسماء معبّدة لغير الله ﷻ من الشرك به، وكفر النعمة.

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ المؤتِي هو الله ﷻ، والمؤتَى هما الوالدان.

قوله: ﴿صَٰلِحًا﴾؛ أي: خلقاً سويّاً، أو ولداً سويّاً، والمراد بالصلاح هنا ليس صلاح الدين، وإنما صلاح الخلقة؛ أي: تام الخلقة، ليس خِداجاً، والولد يطلق على الذكر والأنثى.

قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾؛ أي: جعل والداه للمنعم المؤتي شركاء في الطاعة، أو في نسبة النعمة إلى غير الله ﷻ. ولذلك صورٌ متعددة، منها:

الأولى: أن يعتقد الأبوان أن الذي منَّ عليهما بالحمل، والإنجاب غير الله: فهذا شرك أكبر.

الثانية: أن يضيفا سلامة المولود إلى سبب ظاهر: وهذا يقع كثيراً، فتجد بعض الناس يقول: لولا الطبيب فلان لاختنق الجنين، ونحو ذلك. فهذا شرك أصغر، كما تقدم.

الثالثة: أن يقدم محبة الولد على محبة الله: وهذا يقع لكثير من الوالِدِين، فيحجم عن طاعة الله ﷻ، وفعل مراضيه، خوفاً وضناً بأولادهما. وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ [التغابن: ١٤]. قال ابن جرير: «نزلت في عوف بن مالك الأشجعيّ كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه، ورقّقوه، فقالوا: إلى من تدعنا؟ فيرقّ، ويقيم، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾»(١)، فهذا منافٍ للإيمان الواجب لأنه ترك لواجب.

الرابعة: أن يسمِّيه باسم معبَّد لغير الله: كعبد مناف، وعبد شمس، وعبد النبي، ونحوها، فهذا يلتحق بالشرك، ويكون بحسب ما قام في قلبه، فإن

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٢٣/ ٤٢٤).

كان يقصد العبودية المطلقة فهو ـ لا شك ـ شرك أكبر، وإن كان مجرد اسم أعجبه، فهو محرم.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(قال ابن حزم)** هو: أبو محمد، علي بن أحمد بن حزم، عالم أندلسي، قرطبي، من أوعية العلم، وفحول العلماء، يوصف بأنه منجنيق العلماء؛ وذلك لقوة عارضته، وشدة عبارته على مخالفه. وهو على مذهب شيخه داود بن علي، مؤسس مذهب الظاهرية. وله مصنفات نافعة، منها: «المحلى» و«الفِصَل في الملل والأهواء والنحل»، و«مراتب الإجماع». وقد كان ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعظم من شأن أبي محمد، وينقل عنه كثيراً؛ لأنه صاحب سُنَّة ودليل، وكان شديداً على أصحاب الرأي، الذين يتوسعون في الآراء، إلا أنه بالغ بالأخذ بالظاهر حتى أبطل القياس. مات سنة ست وخمسين وأربعمائة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قوله: (اتفقوا على تحريم كل اسم معبّد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك)[1]، ومثلها: عبد شمس، وعبد الدار، وعبد ود. وهذه حكاية إجماع.

قوله: (حاشا عبد المطلب) لأن تعبيد عبد المطلب، جد النبي ﷺ للمطلب، إنما هو تعبيد خدمة، فقد كان أسود اللون، وكان يمشي مع المطلب، ويجاريه، وقد غاب عن قريش مدة، فلما عاد إلى مكة، ظنت قريش أنه غلام له، فجعلوا يقولون: عبد المطلب. وقد أقر النبي ﷺ هذا في قوله: **«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب»**[2]، فهذا وجه الاستثناء.

ويرى شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه لا يجوز حتى التسمي بعبد المطلب، وأن قول النبي ﷺ: **«أنا ابن عبد المطلب»** هذا خرج منه مخرج الإخبار، لا مخرج الإقرار[3]، وأن القاعدة المطردة: أنه لا يُعبّد أحد لغير الله عَزَّ وَجَلَّ، فكل من قال: عبد، فيجب أن يكون المضاف إليه اسم من أسماء الله الحسنى.

---

(١) مراتب الإجماع، لابن حزم (ص١١٧).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب من صف أصحابه عند الهزيمة، ونزل عن دابته واستنصر برقم (٢٩٣٠)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين برقم (١٧٧٦).

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٢٩٦).

قوله: (وعن ابن عباس في الآية، قال: لما تغشاها آدم، حملت) يشير إلى أول الآية: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٩]؛ يُفهم من كلام ابن عباس أن المعني بالآيتين آدم وزوجه؛ أي: لما تغشى آدمُ حواء، كناية عن الجماع، حملت من جرائه.

قوله: (فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة) هذه مقدمة إرهابية؛ كأنما يقول: أنا الذي بلغ بي الكيد أن أخرجتكما من الجنة، فكيدي متين وشديد، فاسمعا وأطيعا.

قوله: (لتطيعانني، أو لأجعلن له)؛ أي: لهذا الحمل.

قوله: (قرني أيِّل فيخرج من بطنك) الأيِّل: الذكر من الوعول، والوعل: حيوان يشبه الغزال يعيش في الجبال. وقد انتقل من خطابهما معاً، إلى خطاب حواء.

قوله: (فيشقه ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما)؛ أي: يشق بطنك بقرنيه!

قوله: (سمِّياه عبد الحارث) هذا مطلبه. والحارث اسم للشيطان، فأراد أن يُعبّد له، لا لله.

قوله: (فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت، فأتاهما فقال مثل قوله: فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت فأتاهما، فذكر لهما)؛ أي: ما ذكر في المرتين الماضيتين من التخويف.

قوله: (فأدركهما حب الولد، فسمَّياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم) هذا الأثر بهذا السياق، من رواية ابن أبي حاتم ضعيف لا تقوم به حجة. وممن أخرجه أيضاً سعيد بن منصور، وابن جرير، وقال العماد ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه؛ كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف، وجماعة من الخلف، ومن المفسرين، من المتأخرين، جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه ـ والله أعلم ـ أصله مأخوذ من أهل الكتاب»[1]. فيرى ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا الأثر وإن صحت نسبته إلى ابن عباس، فقد يكون مما أخذه عن أهل الكتاب.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٢٨/٣).

وقد استنكره العلماء المحققون سنداً ومتناً. ومنهم من صرفه عن الأبوين (آدم وحواء)، وقد نقل ابن كثير عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا كان في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم[1].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ بعد قول الحسن: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا، والله أعلم، فليس مرجع الضمير لآدم وحواء؛ بل المشركون من ذريته»[2]. فقد ذكر الله تعالى حالاً يقع فيه بنو آدم، وهو أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ينعم على الزوجين بالذرية، كما قال: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾، وهذا ما يكون في أشهر الحمل الأولى ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾؛ أي: حان زمن الولادة، واشتد التشوف إلى سلامة المولود، كما أن الفلاح يتشوف إلى سلامة زرعه إذا قارب الحصاد، فيخشى أن تصيبه آفة سماوية؛ أو يجتاحه ماء جارٍ يذهب به. ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ [الأعراف: ١٨٩]؛ أي: أقسما بالله جهد أيمانهما أن يشكراه إن رزقهما خلقاً سوياً، فهما يخشيان أن يخرج ميتاً، أو خداجاً، أو معيباً، أو غير ذلك. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، وهذا ـ كما سبق ـ له صور عديدة، منها: أن يعبِّداه لغير الله، أو أن ينسبا الفضل للسبب المباشر، وينسيا المسبِّب؛ كأن يقولا: بفضل نصيحة فلان، أو لولا الطبيب فلان، وينسيان المنعم الحقيقي، أو أنهما لا يشكران الله عَزَّ وَجَلَّ ظاهراً أو باطناً. مع أنهما قبل الولادة، ربما كانا يقومان الليل، ويصومان النهار، ويسألان الله تمام الحال، فلما حصل لهما مرادهما تركا ذلك.

فعلى هذا تفهم الآية، ولا محوج لهذه القصة الخيالية: من أن الشيطان تهددهما بأن يجعل في بطنها قرني أيل، يشقا بطنها. وقد استنكر شيخنا رَحِمَهُ اللَّهُ[3] هذه القصة من وجوه متعددة، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: هذه القصة باطلة **من وجوه:**

الأول: ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ، حتى حديث ابن عباس لم يرفعه إلى النبي ﷺ وهذا من الأخبار التي لا تُتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة[4].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٨). (٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٨).

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين (٢/ ٣٠٨).

(٤) حيث قال في الفصل في الملل والأهواء والنحل (١/ ٣٩٥): «وهذا الذي نسبوه إلى =

الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء لكان حالهما: إما أن يتوبا من الشرك، أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه، كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة الذين قالوا فيهما قولاً سيئاً، فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك، فقد أعظم الفرية، وإن كانا تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله، وعدله، ورحمته، أن يذكر خطئهما، ولا يذكر توبتهما منه، فهذا ممتنع.

الثالث: أن يقال: إن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء، ربما وقع منهم خطأ أو صغيرة، لكن لا يقع منهم شرك، ولا كبيرة عمداً.

الرابع: أنه قد ثبت في حديث الشفاعة الطويل، أن الخلائق تأتي آدم يوم القيامة ليشفع لهم عند ربهم، فيعتذر بالأكل من الشجرة، ولو كانت هذه القصة صحيحة لكان أولى أن يعتذر بها؛ لأنها أشد؛ لتعلقها بأصل الإيمان، فهذا يدل على عدم وجودها بالكلية.

الخامس: قول إبليس فيما ورد في الرواية: «أنا صاحبكم الذي أخرجكما من الجنة» هذا لا يقوله من يريد الإغواء، فالذي يريد الإغواء يقول قولاً فيه استدراج، مثل ما فعل حينما أراد منهما أن يأكلا من الشجرة، حيث قال لهما: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠] فأغراهما إغراءً. ثم إن تصديقه في قوله: «لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن، ولأفعلن» شرك في الربوبية؛ لأنه لا يملك الخلق، فلا يملك أن يجعل لهذا الجنين قرني أيل، فحاشا آدم وحواء أن يصدقاه في هذه الأكذوبة.

السادس: أن الله ﷻ ختم الآية بضمير الجمع، فقال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ ولم يقل: «يشركان» بالتثنية، فدل هذا أنه يقع من أزواج متعددين، يكفرون نعمة الله ﷻ، ولا يثنون بها على مسديها، فبهذا تسقط هذه الرواية، ولا يُعتد بها. فليت أن المصنف رحمه الله لم يذكر هذه الرواية في كتابه، لكن أبى الله إلا أن تكون العصمة إلا لكتابه، وسُنَّة نبيّه ﷺ.

وذكر هذه الأوجه ـ وإن طالت ـ في نقد هذه الرواية ينشئ لدى طالب العلم

= آدم عليه السلام من أنه سمى ابنه عبد الحارث، خرافة موضوعة مكذوبة، من تأليف من لا دين له، ولا حياء، لم يصح سندها قط».

دُربة يتمكن بها من نقد الروايات الضعيفة سنداً ومتناً؛ فإن الأحاديث الضعيفة والموضوعة يكون فيها علة زائدة عن مجرد ضعف السند؛ لأن ما كان من عند الله فهو معصوم؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال عن نبيِّه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣]. وأما المكذوب والموضوع فتجد فيه من النكارة ما يُعلم أنه ليس من عند النبي ﷺ. ونجد كثيراً من المحدِّثين النقاد إذا مر به حديث يستنكره، يقول: آثار الوضع عليه بادية. ولكن هذا لا يحسن من كل أحد، فلا ينبغي لطالب العلم المبتدئ أن يتعجل بالحكم على حديث ما، بأن آثار الوضع بادية عليه؛ لكونه يقرع سمعه لأول مرة؛ أو لأنه استنكر سماعه، أو لم يفهم المراد به، هذا أمر لا يجرؤ عليه إلا الراسخون.

قوله: (وله بسند صحيح عن قتادة قال: شركاء في طاعته، لم يكن في عبادته)؛ أي: إن الشرك الذي وقع منهما شرك طاعة، ولم يكن شرك عبادة محضة؛ كالركوع، والسجود.

(وله بسند صحيح عن مجاهد، في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قال: أشفقا ألا يكون إنساناً، وذكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما) وقد ذكرنا التحقيق في هذه المسألة.

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، على فرض صحة كونه تفسيراً للآية.

فوائد الآية:

١ ـ تحريم التسمية بكل اسم معبّد لغير الله، وهذا كثير، ومنه تسمية الروافض: عبد علي، وعبد الحسين، وعبد الرضا، وتسمية بعض الغلاة: عبد النبي، وتسمية النصارى: عبد المسيح.

٢ ـ أن تعبيد الأسماء لغير الله نوع من أنواع الشرك.

٣ ـ وجوب شكر نعمة الله على الأولاد؛ من بنين وبنات؛ وقد امتن الله تعالى على كثير من عباده فقال: ﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]، وقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الشعراء: ١٣٣].

٤ ـ أن من الشكر أن يُسمَّى الولد باسم معبَّد لله؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إن أحبَّ أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمٰن**»[١]، وقال: «**وأصدقها حارث وهمام**»[٢]، فكونها أحب إلى الله، لما فيهما من إظهار عبوديته. وللإنسان ـ بحمد لله ـ في هذا مسرح، فلو رُزق بتسع وتسعين ابناً لوسعه أن يُعبِّدهم لله ﷻ. حتى إن من العلماء من سمَّى ابنه عبد المصوِّر، وقال: لعلِّي لم أسبق إلى هذا[٣].

فينبغي للإنسان أن يحب هذه الأسماء المعبدة لله، الدالة على الإخلاص له، وأن لا يزهد فيها، وينزع إلى الأسماء الأخرى، مع أن في الأمر سعة؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**وأصدقها حارث وهمام**»، فلو تأملت لوجدت كل إنسان يدب على وجه الأرض، حارثاً وهماماً؛ لأن الحرث يدل على الفعل، والهم يدل على الإرادة، والإنسان لا يخلو من إرادة وفعل. فما من إنسان إلا عنده هم، سواء كان همه قويّاً أو ضعيفاً، وما من إنسان إلا وهو حارث، وليس المقصود حراثة الأرض فقط، وإنما الحرث الفعل، سواء كان حرثه قويّاً أو ضعيفاً. قال: «**وأقبحها حرب ومُرَّة**»[٤]، وتأمل ذوق النبي ﷺ! فهو ذوق رفيع؛ كره أن يُسمي الإنسان ابنه حرباً، لما فيه من العدوان، و(مُرة) فإن المرارة مذمومة. ومن تأمل في بعض أسماء الناس، وجد أسماء كثيرة تلتحق بحرب، وأسماء كثيرة تلتحق بمرة، فينبغي أن يكون مزاج المؤمن مزاجاً إيمانياً، مقارباً لمزاج النبي ﷺ، فيكون هواه تبعاً لما جاء به.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الآداب، باب النهي عن التكني بأبي القاسم وبيان ما يستحب من الأسماء برقم (٢١٣٢).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء برقم (٤٩٥٠) وصححه الألباني.

(٣) وهو الشيخ ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث قال في سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ١٤): «وإن من توفيق الله ﷻ إياي أن ألهمني أن أعبِّد له أولادي كلهم، وهم: عبد الرحمٰن، وعبد اللطيف، وعبد الرزاق، من زوجتي الأولى ـ رحمهم الله تعالى ـ وعبد المصور، وعبد الأعلى، من زوجتي الأخرى. والاسم الرابع ما أظن أحداً سبقني إليه، على كثرة ما وقفت عليه من الأسماء، في كتب الرجال والرواة، ثم اتبعني على هذه التسمية بعض المحبين، ومنهم واحد من فضلاء المشايخ، جزاهم الله خيراً».

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء برقم (٤٩٥٠) وصححه الألباني.

📖 قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **تحريم كل اسم معبّد لغير الله.**

وقد نقل ابن حزم الإجماع على ذلك، كما سبق.

الثانية **تفسير الآية.**

أي: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾، وسبق تفسيرها على ما قررنا، وأما أثر ابن عباس فإنه لا يصلح أن يكون تفسيراً لها؛ لما ذكرنا من نكارة السند، ونكارة المتن.

الثالثة **أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.**

أي: أن تسميتهما «عبد الحارث» لم يقصدا أن يعبِّداه لإبليس، وإنما قصدا اتقاء شره، على فرض صحة هذه القصة، فقد يقع بعض الناس في الشرك مع أنه ما قصده ولا أراده.

الرابعة **أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.**

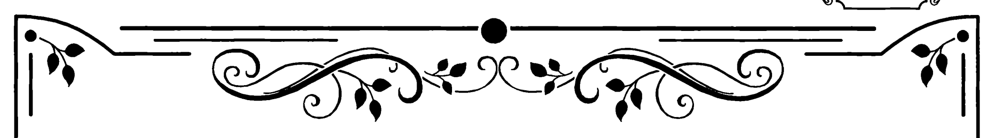
وذلك لعموم قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾، فمن تمعَّر وجهه واسودَّ وتبرَّم؛ لكان هذا من كفران النعم، ومشابهة أهل الجاهلية، وهذا يقع من بعض الجفاة في هذه الأزمان.

الخامسة **ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة، والشرك في العبادة.**

هذه الجملة استفادها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قول قتادة: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته». والحقيقة أن الطاعة نوع من العبادة، وإنما أراد عبادة خاصة. وأما الطاعة لغير الله فإنها غير العبادة، فنطيع الرسول ولا نعبده، ونطيع آباءنا وأمهاتنا ومن له ولاية علينا كولاة الأمر، وطاعتهم

ليست عبادة لهم. فالشرك في الطاعة يراد بها ما يتعلق بالتشريع، كما تقدم في باب: «من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله».





باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٠]

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾: يشركون(١). وعنه: سمَّوا اللات من الإلٰه، والعُزَّى من العزيز(٢). وعن الأعمش: يُدخلون فيها ما ليس منها(٣).

الشرح

❊ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لأنه يتعلق بنوع من أنواع التوحيد الثلاثة، وهو توحيد الأسماء والصفات، وله تعلق بتوحيد الألوهية، للأمر بدعائه بها. ففيه الرد على أصحاب التوسل الشركي، والبدعي، وبيان أن التوسل الشرعي يكون بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ﴾ قدّم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، فالله تعالى هو المستحق وحده للأسماء الحسنى. فيجب علينا أن نعتقد أن لله تعالى أسماء حسنى، خلافاً للجهمية التي زعمت أن الله تعالى لا اسم له، وأن الناس هم الذين اخترعوا الأسماء لله وأضافوها إليه، تعالى الله عما يقولون؛ بل له الأسماء التي تختص به، لا يشاركه في حقيقتها أحد، كما قال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]؛ أي: لا أحد يساميه سبحانه.

قوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ﴾ جمع اسم، وهو ما عين مسمَّاه، وهو مشتق إما من

---

(١) بنحوه في تفسير ابن أبي حاتم برقم (٨٥٨٤)، وتفسيره بـ(يشركون) عن قتادة.

(٢) زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٧٢)، وتفسير القرطبي (٧/ ٣٢٨).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم برقم (٨٥٨٧).

السِّمة؛ أي: العلامة، فهو علامة على حامله، أو من السُّمو، وهو العلو. فللَّه تعالى أسماء، كما أثبت ذلك في أربعة مواضع من القرآن: **أحدها**: هذا الموضع في سورة الأعراف، **والثاني**: قوله: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠]، **والثالث**: قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [طه: ٨]، **والرابع**: قوله: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحشر: ٢٤].

وأسماؤه تعالى حسنى؛ أي: بلغت الغاية في الحسن؛ لأن حسنى، على وزن «فعلى»؛ صيغة مبالغة. وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الروم: ٢٧]؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ﴾ [النحل: ٦٠]، ذلك أن كل اسم من أسماء الله قد بلغ الغاية في معناه، فلا يماثله، ولا يقاربه أحد ممن شاركه في اللفظ، ولا يمكن أن يقع اشتراك في الحقيقة، فالوصف التام الكامل لله ﷻ.

مثال ذلك: من أسماء الله ﷻ السميع، يدل على كمال سمعه، فلا يخفى عليه شيء من الأصوات، كما قالت عائشة ﵂: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت، تشكو زوجها وما أسمع ما تقول، فأنزل الله: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١]»(١).

والمخلوق سميع، وله صفة السمع، فيقع اشتراك في اللفظ، وفي أصل المعنى، الذي هو إدراك الأصوات. لكنه اشتراك في الذهن، أما خارج الذهن، فلا يمكن أن يقع اشتراك؛ لأنه إذا أضيفت صفة السمع لله اختص به، فصار سمعاً مطلقاً يليق به، ولا يشاركه فيه أحد، وإذا أضيفت للمخلوق، صار سمعاً محدوداً يليق به.

قوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ هذه ثمرة العلم بأسماء الله الحسنى، فيجب علينا أن ندعوه بها.

ودعاء الله تعالى **نوعان**:

الأول: **دعاء المسألة**: وهو أن يقدم الإنسان بين يدي مسألته اسماً من

---

(١) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية برقم (١٨٨) وصححه الألباني.

الأسماء المناسبة لدعائه، كأن يقول: يا رزاق ارزقني، ويا رحيم ارحمني، ويا جبار اجبرني، وهكذا.

الثاني: دعاء العبادة: وهو أن يمجد ربه ﷻ بهذه الأسماء، ويُثني بها عليه بلسانه، ويعمل بمقتضاها بجوارحه. **مثال ذلك:**

- قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيم السمٰوات والأرض ومن فيهن**»(١)، فهو لم يسمِّ حاجة، وإنما أثنى على الله بما هو أهله، فهذا دعاء عبادة.

- إذا علم العبد أن الله تعالى سميع، فلهج بذكره وشكره، وتلاوة كتابه، والدعوة إليه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لعلمه أن الله يسمع هذا الكلام منه فيرضيه، فيكون متعبداً لله بهذا الاسم، وحين يعقل لسانه عن الغيبة، والنميمة، والقذف، والشتيمة، واللغو؛ لعلمه بأن الله سميع يسمع كلامه، فيسخطه، كان بذلك متعبداً لله بمقتضى علمه بأسمائه.

قوله: ﴿وَذَرُوا﴾؛ أي: اتركوا، وجانبوا، وانبذوا، وما شابه ذلك.

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ الإلحاد مأخوذ من اللحد، وهو الميل؛ ومنه سمي لحد القبر لحداً؛ لميله عن سمت الحفر إلى اتجاه القبلة، فحافر القبر لا يزال يحفر بشكل رأسي، فإذا أراد أن مال إلى جهة القبلة، قيل: ألحد. والإلحاد شرعاً: الميل عن ما يجب اعتقاده أو عمله. والإلحاد في أسماء الله تعالى: الميل بها عن مراد الله بها.

وقد جرى الإلحاد في أسماء الله تعالى على صور متعددة: فمنها:

- تسميته بما لم يسم به نفسه: كتسمية النصارى له (الأب)، وتسمية الفلاسفة (علة فاعلة).

- اشتقاق أسماء للأصنام منها: كاشتقاق المشركين «اللات» من الإلٰه، و«العزى» من العزيز.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل برقم (٦٣١٧)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه برقم (٧٦٩).

ـ تمثيل صفاته بصفات خلقه: كقول المشبهة: سمع كسمعنا، وبصر كبصرنا، ويد كأيدينا.

ـ تعطيل أسمائه وصفاته، ونفيها: كقول الجهمية: ليس بسميع، ولا بصير، ولا عليم، وقول المعتزلة: سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعليم بلا علم، بمنزلة الأعلام المحضة.

ـ تحريفها: بصرفها إلى معنىً غير مراد لله؛ كتحريفهم معنى الاستواء إلى الاستيلاء، واليد إلى القدرة أو النعمة؛ بلا دليل! وتسمية ذلك تأويلاً، وهو تحريف وإلحاد.

ـ تجهيلها: بزعم أن معانيها مجهولة، لا سبيل للعلم بها، وأنها ألفاظ مجهولة المعنى.

قوله: (ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾: يشركون). وهذا قد رواه ابن جرير عن قتادة أيضاً بهذا اللفظ(١)؛ أي: يمثلون أسماءه بأسماء خلقه، وهذا من الإلحاد. أو يدعون غيره بما تقتضيه.

قوله: (وعنه: سموا اللات من الإلٰه، والعزى من العزيز)؛ أي: أنهم اشتقوا من أسمائه الحسنى أسماء كمؤنثة لآلهتهم. وهذا من الإلحاد.

قوله: (وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها)؛ أي: أنهم يسمون الله تعالى بما لم يسمِّ به نفسه، وهذا من الإلحاد.

فوائد الآية والآثار

١ ـ وجوب إثبات أسماء الله وصفاته كما أثبتها لنفسه.

٢ ـ أن جميع أسماء الله حسنى لا نقص فيها بوجهٍ من الوجوه.

٣ ـ أن أسماءه مختصة به، لا يشاركه في حقيقتها أحد، وإن وقع اشتراك في اللفظ وأصل المعنى.

٤ ـ وجوب دعائه والتوسل إليه بأسمائه.

٥ ـ وجوب مفارقة الملحدين في أسمائه وترك طريقتهم.

---

(١) تفسير الطبري، جامع البيان برقم (١٥٤٥٦).

٦ ـ الوعيد على من ألحد في أسمائه وصفاته.

* * *

📖 **ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

فيه مسائل:

الأولى **إثبات الأسماء.**

لقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾.

الثانية **كونها حسنى.**

لوصفها بذلك في قوله: ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

الثالثة **الأمر بدعائه بها.**

لقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾.

الرابعة **ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.**

لقوله: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾.

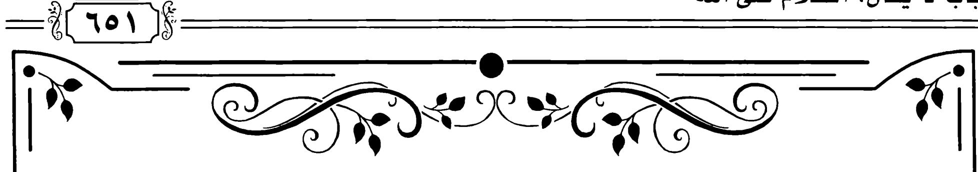
الخامسة **تفسير الإلحاد فيها.**

فسّره رَحِمَهُ ٱللَّهُ بما ساقه من كلام ابن عباس والأعمش، وأن من ذلك: أن يعتقد مماثلتها لأسماء المخلوقين، أو يدعو غيره، أو يشتق أسماء من أسمائه الحسنى للأصنام، أو يُسمى بما لم يسمِّ به نفسه.

السادسة **وعيد من ألحد.**

لقوله: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾.





باب لا يقال: السلام على الله

في «الصحيح» عن ابن مسعود ﵁ قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام»(١).

الشرح

⌘ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

من جهتين:

الأولى: لتعلقه بتوحيد الأسماء والصفات، فلا يسوغ أن يقول العبد: السلام على الله، وهو ـ سبحانه ـ السلام.

الثانية: أنه لما كان من معاني السلام: طلب السلامة للمخاطب من الآفات، لم يكن مناسباً أن يخاطَب الله تعالى بذلك؛ لأنه سبحانه لا يلحقه آفة، ولا ضرر، لكمال قوته وعزته. فالنهي عن قول: السلام على الله، من باب تنزيه لله ﷻ.

قوله: (وفي «الصحيح» عن ابن مسعود ﵁) هذا الحديث في الصَّحيحين، وأخرجه أيضاً أبو داود(٢)، والنسائي(٣)، وابن ماجه(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب ما يتخير من الدعاء بعد التشهد وليس بواجب برقم (٨٣٥)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة برقم (٤٠٢).

(٢) أخرجه أبو داود في باب تفريع أبواب الركوع والسجود، باب التشهد برقم (٩٦٨) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب السهو، ذكر ما ينقض الصلاة، وما لا ينقضها، التشهد الأول برقم (٧٥٨) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة، والسُّنَّة فيها، باب ما جاء في التشهد برقم =

قوله: (قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ)؛ أي: في الصلاة، وتحديداً في التشهد الأخير، كما دلت على ذلك بعض روايات الحديث.

قوله: (قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان) ربما أرادوا التحية لله، وربما دل الاقتران بين الجملتين أن المراد الدعاء بالسلامة، والسلام لا يكون تحية إلا لمن يسمع، وفلان وفلان، لا يسمعون خطابهم، فتعين أنهم أرادوا الدعاء لهم بالسلامة من الآفات، وهذا لا يستقيم في حق الله ﷻ.

قوله: (لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام) نهي مقرون بالتعليل؛ لأن من أسمائه الحسنى ـ سبحانه وبحمده ـ: السلام؛ لكونه سالماً من كل آفة، ونقص وعيب.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة، لما فيه من النهي الصريح، والتعليل الوجيه.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن قول: السلام على الله، ويقاس عليه ما أشبهه.

٢ ـ أن السلام من أسماء الله، بنص كتاب الله، في سورة الحشر، وسُنَّة نبيّه ﷺ الثابتة.

٣ ـ وجوب تعليم الجاهل، فإن النبي ﷺ لما علم ذلك من حال أصحابه، لم يكلهم إلى نياتهم، كما يقول بعض الناس، إذا رأى منكراً: اتركه على نيته، أو نيته طيبة؛ بل يجب تعليم الجاهل، وتنبيه الغافل، وتذكير الناسي، مع التماس الأعذار.

٤ ـ أن قرن الحكم بعلته يفيد ثلاثة أمور: طمأنينة القلب، وبيان سمو الشريعة، وإمكان القياس.

* * *

= (٨٩٩) وصححه الألباني.

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير السلام.

أي: أن المراد بالسلام في كلامهم: الدعاء بالسلامة. ومعناه في حق الله عَزَّ وَجَلَّ: السالم من كل آفة وعيب.

الثانية أنه تحية.

من معاني السلام: التحية، لكنها غير لائقة في حق الله. ولهذا أبدلهم بالتحيات بعد التشهد.

الثالثة أنها لا تصلح لله.

لقوله: «**لا تقولوا: السلام على الله**».

الرابعة العلة في ذلك.

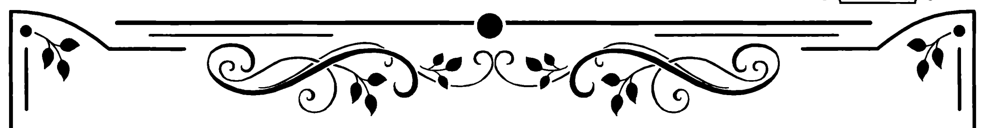
هذه علة منصوصة؛ أي: أن الله هو السلام فلا حاجة إلى أن يُدعى له بالسلامة من الآفات. ولا أن يحيًّا بالسلام؛ لأنه هو السلام.

الخامسة تعليمهم التحية التي تصلح لله.

حيث علَّمهم النبي ﷺ دعاء التشهد، فقالوا: «قد عرفنا كيف نسلم عليك، فكيف نصلي عليك؟»(١)، وهكذا، فينبغي لكل من انتدب لتعليم الناس إذا نهاهم عن شيء أن يفتح لهم شيئاً آخر، فإذا نهيت عن أمر فاذكر البديل، هذا إذا كان الأمر يحتمل بديلاً، أما إذا لم يكن يحتمل بديلاً فلست معنياً أن تخترع لهم شيئاً ليس في الوسع، لكن كلما سُد باب فينبغي أن يُفتح باب، حتى لا يبقى الإنسان متعلق القلب بالممنوع؛ ولهذا قال الله: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وأمثلة هذا كثيرة في سُنَّة النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء برقم (٣٣٧٠)، ومسلم في كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد برقم (٤٠٦).

باب قول: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت

في «الصحيح»: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة، فإن الله لا مُكره له»(١).

ولمسلم: «وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»(٢).

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان قول: «**اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت**» يُشعِر بعدم الصدق في الطلب، منع منها النبي ﷺ. فإن الدعاء هو العبادة، فلا بد أن يتصف الداعي بالرغبة والرهبة، كما قال الله ﷻ: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝٥٥ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]، وقال عن أنبيائه الكرام: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال عن صالحي المؤمنين: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦]. فلا يليق بالداعي أن يعلق دعاءه بالمشيئة؛ لأن ذلك يدل على عدم رغبة، وافتقار إلى الله ﷻ، ومنافاة لكمال التوحيد.

قوله: (في الصحيح) مراده في «الصحيحين»؛ البخاري، ومسلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له برقم (٦٣٣٩)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت برقم (٢٦٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت برقم (٢٦٧٩).

قوله: (عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت، اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت») أصل كلمة (**اللَّهُمَّ**): يا الله، فحذفت ياء النداء، وعوض عنها بالميم الدالة على الجمع، وإن لم تكن تدل على جمع الكثرة، لكن تدل على جمعية القلب. ومعنى المغفرة: الستر والتجاوز، ومنه سُمي المِغْفَر، وهو الخوذة التي تغطي الرأس مغفراً؛ لأنه يستر الرأس ويقيه.

قوله: (ليعزم المسألة)؛ أي: ليجزم في طلبه، ويحقق الرغبة، ولا يتردد.

قوله: (فإن الله لا مكره له) جملة تعليلية للنهي، لدفع توهم أن العزم في المسألة، وعدم التعليق بالمشيئة، بمنزلة الأمر والإملاء على الله. فبيّن النبي ﷺ أن هذا الاحتمال ممتنع من الأصل؛ لأن «الله لا مكره له»، فلا وجه للاحتراز. والطلب له **ثلاث أحوال**:

١ ـ الطلب من الأعلى للأدنى: يُسمى (أمر)؛ كقول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧].

٢ ـ الطلب من النظير للنظير: يُسمى (التماس)؛ كقول موسى للخضر ﵉: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [الكهف: ٦٦].

٣ ـ الطلب من الأدنى إلى الأعلى: يُسمى (دعاء)؛ أي: سؤال واستجداء؛ كقول الداعي: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

قوله: (ولمسلم: «وليعظم الرغبة»)؛ أي: ليسأل ربه ما شاء، مهما كان، مما لا يتضمن إثماً أو قطيعة رحم.

قوله: (فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)؛ أي: لا يُوجد عطاء عظيم على الله، بخلاف الآدميين، لو طلبت من أحدهم طلباً، لربما صار ثقيلاً عليه، وشاقاً، أما الله ﷻ فعنده خزائن السماوات والأرض. فليسأل المسلم ما بدا له من خير الدنيا والآخرة، ولهذا قال في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أُدخل البحر**»[1]، فلو اجتمع من بأقطارها من الأولين والآخرين، والإنس والجن، وسألوا وبالغوا في

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم برقم (٢٥٧٧).

المسألة، فأعطاهم الله كل ما سألوا، لم ينقص من ملك الله شيئاً يذكر.

مناسبة الحديث للباب:

مطابِقة، لما فيه من النهي عن تعليق الدعاء بالمشيئة، المُشعِر بضعف الرغبة، أو توهم الإكراه.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن الدعاء المعلق بالمشيئة.

٢ ـ الحث على دعاء الله تعالى، والإلحاح فيه.

٣ ـ وجوب تنزيه الله تعالى عما لا يليق به.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الاستثناء قوله: «**إن شئت**».

الثانية بيان العلة في ذلك.

وهي قوله: «**فإن الله لا مكره له**» وهاهنا **ثلاث علل**:

الأولى: أن هذه الصيغة تُشعِر بأن الله له مكره، وهذا هو الذي نفاه النبي ﷺ.

الثانية: إشعارها بأن الطلب ثقيل على الله، وقد نفاه النبي ﷺ بقوله: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**».

الثالثة: إشعارها بعدم الرغبة، والاستغناء، والفتور.

الثالثة قوله: «**ليعزم المسألة**».

من آداب الدعاء: أن يجزم في سؤاله.

الـرابـعـة **إعظام الرغبة.**

فلا حرج أن يقول الإنسان مثلاً: اللَّهُمَّ اجعلني من السابقين، أو في أعلى علِّيين. لكن ليس له أن يقول: اللَّهُمَّ أني أسألك منازل النبيين. فإن هذا عدوان في الدعاء؛ لأنه سأل ما لا ينبغي له، فإن منازل النبيين إنما تكون لهم، بخلاف لو قال: اللَّهُمَّ إني أسألك رفقة النبيين فلا بأس؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، فالرفقة لا يلزم منها التساوي.

الـخـامـسـة **التعليل بهذا الأمر.**

لقول النبي ﷺ في الرواية الأولى: «**فإن الله لا مكره له**»، وفي الثانية: «**فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**». فينبغي للمؤمن أن يحسن الدعاء، فقد كان عمر رضي الله عنه يقول: «إني لا أحمل هَمَّ الإجابة، وإنما أحمل هَمَّ الدعاء، فإذا أُلهِمت الدعاء، فإن الإجابة معه»(١). وينبغي له أن يتأدب مع ربه عز وجل في الدعاء، فيدعوه رغبة ورهبة، وتضرعاً وخفية، فإن ذلك من أسباب قبول الدعاء. ولا يدعو وهو غافل القلب، ضعيف الرغبة، أو متردداً، فإنه قد لا يجاب؛ ولهذا جاء في الحديث: «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**»(٢).

وينبغي للمؤمن أن يعلم ما جاء في الحديث: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**»(٣)، وقد سمَّاه الله عبادة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠] وأراد بالعبادة الدعاء، فيجب على المؤمن أن يعتني بالدعاء، ولا يقتصر على الأدعية المرتبة في الصلاة وحسب؛ بل ينبغي له أن يخصص وقتاً يدعو الله فيه، ويرفع يديه، سواء كان في فراشه، أو في مسجده، أو في سيارته، أو في عمله، ويستكثر من الدعاء، ويضع حاجته بين يدي ربه تبارك وتعالى، فإن الله تعالى يحب من عبده هذا، كما قيل:

---

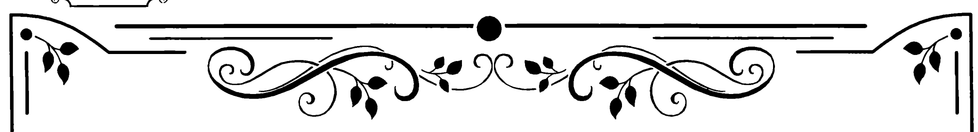
(١) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٢٢٩)
(٢) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الدعوات برقم (٣٤٧٩) وحسنه الألباني.
(٣) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل الدعاء برقم (٣٣٧٠)، وابن ماجه في كتاب الدعاء، باب فضل الدعاء برقم (٣٨٢٩) وحسنه الألباني.

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيُّ آدَمَ حِيْنَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ[١]

فالآدمي إذا سألته مرة أو مرتين تبرم منك، ونفض يده عليك، وأما الرب ـ سبحانه ـ فيغضب إذا تركت سؤاله.



(١) البيت مما أنشده الأصمعي في الدر الفريد وبيت القصيد (٢/ ٤٣).



باب لا يقول: عبدي وأَمَتي

في «الصحيح»: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: أطعِم ربَّك، وضِّئ ربَّك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»[(١)].

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن من كمال التوحيد أن لا يُعبِّر بألفاظ تُوهم الشرك في الربوبية والألوهية؛ كقول: عبدي وأمتي.

قوله: (في الصحيح) مراده في «الصَّحيحين».

قوله: (عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم»)؛ أي: لمملوكه، و**(لا)** ناهية، والفعل المضارع بعدها مجزوم بها، وقد اختلف العلماء في هذا النهي هل هو للكراهة أو التحريم؟

قال شيخنا رحمه الله: «والراجح التفصيل في ذلك، وأقل أحواله الكراهة»[(٢)].

واختار الشيخ عبد الرحمٰن السعدي رحمه الله أنه للكراهة، حيث قال: «وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول: عبدي وأمتي، إلى فتاي وفتاتي، تحفظاً عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور، ولو على وجه بعيد، وليس حراماً، وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذوراً بوجه، فإن

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق، وقوله: عبدي أو أمتي برقم (٢٥٥٢)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة... برقم (٢٢٤٩).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/٣٣٨).

الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص، خصوصاً هذه الألفاظ التي هي أمس بهذا المقام»[(١)].

قوله: **(أطعم ربك، وضئ ربك)** أمر للمملوك بإطعام سيده وتوضئته. وعلة النهي: ما في ذلك من المضاهاة؛ فإن كلمة الرب، وإن كانت تطلق بمعنى: السيد، إلا أنها تطلق بمعنى الخالق.

قوله: **(وليقل: سيدي)** الخطاب للمملوك؛ لأن السيادة عند الناس معناها: الرئاسة، وهي سيادة نسبية، فإنها سيادة على من تحت يده. فثمة فرق عند الإطلاق بين لفظ الرب والسيد:

١ ـ فإن (الرب) اسم من أسماء الله الحسنى باتفاق العلماء، وأما (السيد) فقد اختلف هل هو من أسماء الله الحسنى أم لا؟ وهو إن لم يأتِ به الكتاب، ولكنه مأثور عن النبي ﷺ، فإنه قد صح عنه أنه قال: «**السيد الله**»[(٢)]، فالراجح: أنه من أسماء الله.

٢ ـ أن لكلمة (الرب) وقعاً عظيماً في حس المخاطبين، بخلاف كلمة السيد.

ومع هذا يقع في الاسمين (الرب) و(السيد) اشتراك، فيطلقان على الخالق والمخلوق؛ كما قال تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٤١]، وقال النبي ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»[(٣)]، وكقوله ﷺ في حديث أشراط الساعة: «**إذا ولدت الأمة ربها**»[(٤)]، وأما راوية: «**ربتها**»[(٥)]، فقد قال شيخنا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لا إشكال فيه، لوجود تاء التأنيث، فلا اشتراك مع الله في اللفظ؛ لأن الله لا

---

(١) القول السديد شرح كتاب التوحيد، للسعدي (ص١٨٧).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح برقم (٤٨٠٦)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٠٠٥)، وأحمد برقم (١٦٣١٦)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل برقم (٣٠٤٣)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد برقم (١٧٦٨).

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ برقم (٤٧٧٧)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة الإيمان. . .، برقم (٩) وهذا لفظ مسلم.

(٥) أخرجه البخاري في التفسير، باب إن الله عنده علم الساعة برقم (٤٧٧٧)، ومسلم في الإيمان، باب معرفة الإيمان. . .، برقم (٨).

يقال له إلا رب، وفي حديث الضالة: «**حتى يجدها ربها**»[(١)]، وقال بعض أهل العلم: إن حديث الضالة في بهيمة لا تتعبد، ولا تتذلل، فليست كالإنسان، والصحيح: عدم الفارق؛ لأن البهيمة تعبد الله عبادة خاصة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨])[(٢)].

قوله: (**ومولاي**) مأخوذة من الولْي: وهو القرب والدنو، ولها استعمالات متعددة.

قوله: (**ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي**) لأن الذي يستحق العبودية المطلقة: هو الله ﷻ، فلا يليق أن يضيفها إلى نفسه، ولأن هذه الألفاظ تكسر خاطر مملوكه.

قوله: (**وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي**) لأن هذه الألفاظ ألطف، ولا تشعر بما تشعر به الألفاظ الأولى من المحاذير الشرعية. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠].

وقد ذكر شيخنا[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ تفصيلاً مفيداً في استعمال كلمة «عبد»، «وأمة»:

أولهما: إذا أضافه إلى غيره؛ كأن يقول: عبد فلان، وأمة فلان، فهذا جائز، والدليل عليه قول الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢] فإذا خرج هذا المخرج فهو جائز، ومما يدل عليه أيضاً، قول النبي ﷺ: «**ليس على المسلم في عبده، ولا فرسه صدقة**»[(٤)]، فأضاف العبد إلى غيره، فصار ذلك مستعملاً في الكتاب والسُّنَّة.

ثانيهما: أن يضيفه إلى نفسه، بأن يقول: «**عبدي وأمتي**»، فهذا إما أن يقع بصيغة الخبر، وإما أن يقع بصيغة النداء:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللقطة، باب ضالة الغنم برقم (٢٤٢٨)، ومسلم كتاب اللقطة برقم (١٧٢٢).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٤٠).

(٣) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/٣٣٨).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب ليس على المسلم في فرسه صدقة برقم (١٤٦٣)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه برقم (٩٨٢).

بصيغة الخبر: أن يضيفه إلى نفسه، بأن يقول مثلاً: أطعمتُ عبدي، وكسوتُ أمتي، وأعتقتُ عبدي، فهذا جائز بإطلاق.

بصيغة النداء: بأن يقول: يا عبدي ويا أمتي، فهذا أقل أحواله الكراهة.

أما استعمال كلمة «رب»، فجعل لها الشيخ[1] رحمه الله **ثلاثة أحوال**:

الأولى: أن يكون بصيغة الخطاب، بأن يقول مثلاً: أطعم ربك، وهذا الذي جاء في الحديث النهي عنه، فأقل أحواله الكراهة؛ دفعاً لمعنى السوء الذي قد يتبادر إلى الذهن.

الثانية: إذا جاء بصيغة الغيبة، فهذا لا بأس به، كما قال النبي ﷺ في ذكر علامات الساعة: «**أن تلد الأمة ربتها**»[2]، (ربة) مؤنث رب، فلا محذور فيه.

الثالثة: أن تكون بصيغة المتكلم؛ بأن يقول المملوك: ربي فلان، أو تقول الأمة: ربي فلان، فهذا جائز؛ لأن الله تعالى قد حكى مثله في كتابه، في قول يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣] وأراد به ـ عزيز مصر ـ، فإنه قد أكرم مثواه، وأحسن إليه.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيه من النهي الصريح عن هذه الألفاظ.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن كل لفظ يُوهم التشريك.

٢ ـ وجوب الأدب مع الله سبحانه وتعالى لفظاً ومعنىً.

٣ ـ سد جميع الطرق المفضية إلى الشرك.

٤ ـ ذكر البديل عن الألفاظ الممنوعة بألفاظ مشروعه أو مباحة.

* * *

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤] برقم (٤٧٧٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، برقم (٩).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **النهي عن قول: (عبدي وأمتي).**

لنص الحديث: «**ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي**».

الثانية **لا يقول العبد لسيده: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.**

وعلة النهي عن هذه الألفاظ **لأمرين**:

أولهما: البعد عما يوهم الشرك في الربوبية والألوهية، ومراعاة كمال التوحيد.

وثانيهما: الحرص على مراعاة شعور المملوك وعدم إيذائه.

الثالثة **تعليم الأول قول: فتاي، وفتاتي، وغلامي.**

تعليم الأول أي: السيد، قول: فتاي، وفتاتي، وغلامي، بدلاً من: عبدي، وأمتي.

الرابعة **تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.**

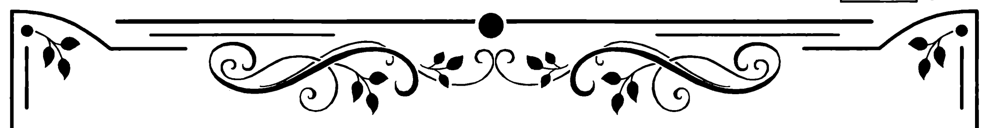
تعليم الثاني: أي: العبد، قول: سيدي ومولاي، بدلاً من أطعم ربك، وضئ ربك.

الخامسة **التنبيه للمراد وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.**

أي: أن النهي عن هذه الألفاظ من باب تحقيق التوحيد في الألفاظ، والمراد: تطهير اللسان، وتصفية القلب، من الشوائب التي قد تشوبه من جراء إطلاق مثل هذه الألفاظ المشكلة.







باب لا يُرد من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم كافأتموه»(١)، رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن رد من سأل بالله، منافٍ لتعظيم الله وإجلاله، وكمال توحيده.

وهذا أمر مدرك بين الخلق، فكيف مع الخالق؛ فإنه لو قال إنسانٌ لآخر: جئتك من طرف فلان، وأرغب إليك بكذا، وكذا، فردّه، لكان في ذلك غضاضة في حق المحيل. وإذا أجازه، وقضى حاجته كان ذلك علامةً على توقيره وإكرامه. فكذلك لو قال لآخر: أسألك بالله أن تعطيني كذا، أو أن تقضي لي كذا، فلبى طلبه، كان ذلك دليلاً على إعظامه للمسؤول به، وهو الله تبارك وتعالى؛ والعكس بالعكس. والمؤمنون يتفاوتون في هذا المقام بحسب إيمانهم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «أَنَّهُ ذَكَرَ رَجُلاً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيداً، قَالَ: فَأْتِنِي بِالكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي البَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَمَسَ

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله برقم (١٦٧٢)، والنسائي في السنن الكبرى في كتاب الزكاة، من سأل بالله برقم (٢٣٥٩) وصححه الألباني.

مَرْكَباً يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَباً، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى البَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلَاناً أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلاً، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيداً، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيداً، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَباً أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَباً يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَباً قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَباً، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: واللهِ مَا زِلْتُ جَاهِداً فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَباً قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَباً قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِداً»[1]، فينبغي إذاً أن يقوم في قلب المؤمن من تعظيم هذه المسألة ما يدل على تعظيمه لربه، المسؤول به.

قوله: (باب لا يُردُّ) (لا) نافية، بدليل رفع المضارع بعدها، والنفي يحتمل أن يكون للكراهة، وأن يكون للتحريم. **«يُردُّ»**: بأن لا يُعطى ما سأل.

قوله: (من سأل بالله) توسل بالله، ومن سأل بالله ﷻ فقد سأل بعظيم، كما أن من استعاذ بالله فقد استعاذ بعظيم.

قوله: (عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله، فأعيذوه») الاستعاذة: هي طلب العوذ، والإعاذة: هي الحماية والحفظ. فمن استعاذ بالله وجبت إعاذته من شر ما استعاذ منه، ولو كان المخاطب، كما قالت مريم رضي الله عنها: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: ١٨]، ومثله أن يقول إنسان لآخر: أعوذ بالله منك. أو أن يطلب منه أن يعيذه من شر مقدور على دفعه، لكي يكون سبباً في إعاذة الله لهذا المستعيذ. وعَنْ عَائِشَةَ، رضي الله عنها: أَنَّ ابْنَةَ

(١) أخرجه البخاري كتاب الكفالة برقم (٢٢٩١).

الجَوْنِ، لَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَدَنَا مِنْهَا، قَالَتْ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا: **«لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمٍ، الحَقِي بِأَهْلِكِ»**.

فإن من استعاذ لباطل ارتكبه، كفارٍّ بخربة، أو عليه حد، أو دم، لم يُعذ ولم يؤوى، لما سبق من قول النبي ﷺ: **«لعن الله من آوى محدثاً»**(١).

قوله: (ومن سأل بالله فأعطوه) هذا محل الشاهد من هذا الحديث للباب، وذلك بأن يقول: أسألك بالله كذا وكذا، فيعطى ما سأل؛ لما في ذلك من تعظيم المسؤول به، وهو الله تعالى. هذا مقيد بقدرة الإنسان، وعدم الإجحاف به، فلو سألك سائل مثلاً مالك، أو أن تعطيه سيارتك التي تركب فلا يلزمك، وليس من عدم تعظيم الله أن ترده، وإنما المراد ما تقدر عليه، ويكون من فضل مالك، ولك فيه سعة، أما إذا لحقك أو لحق من تعول ضرر، فهذا لا يجب عليك العطاء.

قوله: (ومن دعاكم فأجيبوه) هذه الجملة لا تتعلق بمسائل التوحيد، وإنما تتعلق بباب الأدب، وهو إجابة الدعوة. وقد حملها جمهور العلماء على إجابة وليمة العرس خاصة؛ لأن إجابة وليمة العرس واجبة؛ ولهذا جاء في الحديث: **«شر الطعام طعام الوليمة، يمنعها من يأتيها، ويدعى إليها من يأباها، ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله»**(٢).

وذهب بعض أهل العلم إلى أنها لا تختص بوليمة العرس؛ بل في كل دعوة؛ إذ أن من حق المسلم على المسلم إذا دعاه أن يجيبه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»** قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: **«إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»**(٣) ومع ذلك، فلا يجب على الإنسان أن يجيب دعوة وليمة العرس، ولا غيرها، إلا بشروط، **منها:**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله برقم (١٩٧٨).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب النكاح، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة برقم (١٤٣٢).

(٣) أخرجه مسلم في باب من حق المسلم، للمسلم برقم (٢١٦٢).

١ ـ أن يكون الداعي مسلماً؛ لورود الوصف به مقيداً في بعض الأحاديث بالأخوة الإيمانية.

٢ ـ أن لا يكون الداعي ممن يجب هجره؛ لبدعة أو معصية؛ لأن هجره وسيلة للإصلاح.

٣ ـ أن لا يكون في هذه الدعوة منكر لا يقدر على تغييره؛ كأن يدعى إلى حفل فيه معازف، ويعلم من حاله أنه لا يستطيع منعها، فلا يجب عليه إجابة الدعوة؛ بل لا يجوز. أما إذا كان يستطيع التغيير، فحينئذٍ تجب عليه الإجابة **من وجهين**:

الأول: لأنها دعوة مسلم.

الثاني: من باب تغيير المنكر، وتغييره واجب.

٤ ـ أن لا يكون كسبه حراماً: وهذه محل نظر؛ فيُفرق بين أن يكون الكسب حراماً، وبين أن يكون ذات الطعام حراماً. فالصحيح: أنه إذا كان محرماً لكسبه، لا لعينه، لا يضر؛ لأن النبي ﷺ كانت تدعوه يهود إلى طعامها فيجيب دعوتهم، مع أن الله وصفهم بأنهم ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾ [المائدة: ٤٢] وقد دعاه مرة، يهودي إلى خبز شعير، وإهالة سنخة[١]، فأجابه[٢]، لكن لو أن الداعي سرق، أو اغتصب شاة، وذبحها ودعا إليها، فلا تحل إجابته لأن عين الطعام محرم.

٥ ـ أن لا تتضمن تفويت واجب؛ كما لو دعا وقت صلاة الجمعة؛ لأن شهودها فرض عين.

٦ ـ أن لا تتضمن ضرراً على المدعو؛ كتفويت مصلحة راجحة، لا يمكن قضاؤها في غير هذا الوقت، أو حصول مضرة؛ كلقيا عدو، أو غريم ملازم، أو نحو ذلك، لم تجب.

فهذه شروط وجوب إجابة الدعوة. وإجابة الدعوة من الأخلاق الحسنة، لما في ذلك من إدخال السرور على المسلم، وتحقيق المودة بين المسلمين. وكما

---

(١) أي: متغيرة الرائحة. النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣١٥).

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٣٢٠١) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

تحب أن تجاب دعوتك فهم يحبون أن تجيب دعوتهم، فينبغي للإنسان أن يكون هيناً ليناً، حسن العشرة مع إخوانه، فيجيب دعوتهم، ولو قدر أنه وقع في هذه الدعوة منكر، فليجتهد في تغييره، فإن لم يحصل مراده انصرف، ولم يرتكب منكراً أشد منه.

قوله: (ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه») المعروف: اسم جامع للخير، كما أن المنكر اسم جامع للشر، والمراد هنا: قضاء حاجة، أو شفاعة، أو صدقة، أو هدية، أو ما أشبه. «تَروا»: بفتح التاء، بمعنى: تعلموا، ويجوز بضمها بمعنى: تظنوا؛ أي: حتى يغلب على ظنكم أنك قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

قوله: (فكافئوه)؛ أي: قابلوه بمثله؛ وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية، ويثيب عليها. فهذا من الآداب الشرعية بين المسلمين، وهو المكافئة، ومقابلة الإحسان بالإحسان.

قوله: (فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه)؛ أي: لم تتمكنوا من مقابلة إحسانه بصورة من صور الإحسان العملي، أو كان مثله لا يكافأ؛ كالسلطان، فاجتهدوا له في الدعاء، حتى يقع في القلب حصول المكافئة. والدعاء الصادق من أحسن المكافئة، فربما تدعو له بتوسعة الرزق، وكشف الضر، والشفاء، وما أشبه ذلك من الدعوات المستجابة ما يفوق إحسانه.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لتضمنه الأمر بإعطاء من سأل بالله، وعدم رده؛ إجلالاً لله.

فوائد الحديث:

١ ـ عدم رد من سأل بالله، إجلالاً لله، وتعظيماً له.

٢ ـ وجوب إعاذة من استعاذ بالله، ودفع الشر عنه.

٣ ـ وجوب إجابة دعوة المسلم.

٤ ـ مقابلة الإحسان بالإحسان. وهذا له صلة بالتوحيد؛ لأن الإحسان في الحقيقة نوع امتنان من المحسن على المحسن إليه، فكمال التوحيد أن تكون المنة

كاملة لله تعالى، لا يكون لمخلوق عليك منة. فإذا كافأت المحسن أسقطت المنة، وبقيت فقط، ممتناً لله رب العالمين. ولهذا قيل في الأمثال: «احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره»(١). فإذا استجدى الإنسان من غيره أصبح أسير فضله، وإذا استغنى عنه، كان وإياه على حد سواء، وإذا أحسن إلى غيره قلده منة.

فينبغي مقابلة الإحسان بالإحسان؛ لكي تخلص المنة لله تعالى، وكان النبي ﷺ قد بايع نفراً من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً، قال الراوي: «فلقد رأيتُ بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه»(٢) لكمال وفائهم بالبيعة، وكمال توحيدهم.

٥ ـ أن الدعاء نوع من المكافأة لمن لم يقدر عليها.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وفيه مسائل:

الأولى **إعاذة من استعاذ بالله.**

للأمر الصريح بذلك، تعظيماً لجناب الله.

الثانية **إعطاء من سأل بالله.**

تعظيماً وإجلالاً للمسؤول به، وهو الله تعالى، والأمر للوجوب، ما لم يتضمن السؤال إثماً، أو ضرراً على المسؤول؛ ففي الحديث: «**لا ضرر ولا ضرار**»(٣). وفي إعطاء السائل بالله فائدتان: **الأولى**: قضاء حاجة السائل. **الثانية**: تعظيم المسؤول، وهو الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٣٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس برقم (١٠٤٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره برقم (٢٣٤١) وقال الألباني: «صحيح لغيره».

الثالثة **إجابة الدعوة.**

وهذا إذا لم يكن ثَمَّ مانع من الإجابة، كما تقدم.

الرابعة **المكافأة على الصنيعة.**

الصنيعة: فعل المعروف. وفي المكافأة على المعروف **فائدتان:**

الأولى: تشجيع ذوي المعروف على فعله.

الثانية: أن الإنسان يرفع بها المنة.

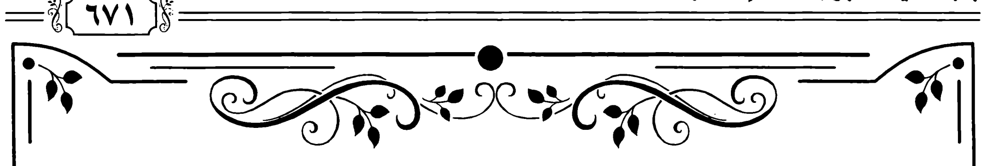
الخامسة **أن الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه.**

هذا هو البدل المشروع. لا كما يقول كثير من الناس: شكراً! فهذه ليست دعاءً، وإنما تعبير عما في النفس، بخلاف أن يقول له: جزاك الله خيراً؛ فهي جملة دعائية صالحة.

السادسة **قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه».**

هذا أمر وجدي، يجد الداعي في نفسه أنه قد أبلغ في المسألة، وأخلص في الدعاء لصاحبه، فإذا قام في قلبه ذلك كفى.





باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة»[(١)]، رواه أبو داود.

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما فيه تعظيم وجه الله عز وجل بحيث لا يُسأل به إلا أعظم المطالب الأخروية الباقية؛ الجنة، ولا يبتذل السؤال به في المطالب الدنيوية الفانية.

ولله سبحانه وجه كريم يليق بجماله، وجلاله، وكماله، وهو من الصفات الخبرية التي لا سبيل إلى إثباتها إلا الكتاب والسُّنَّة، فالدليل من كتاب الله قول الله عز وجل: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٧]؛ وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠﴾ [الليل: ٢٠] فأضاف الله الوجه إلى ذاته، فدل على أنه صفته.

وأما الأدلة من السُّنَّة فكثيرة، منها: حديث الباب، وقوله ﷺ: **«حجابه النور** - وفي رواية: **النار - لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه، ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[(٢)]. فنعتقد أن لله وجهاً حقيقياً لا يماثل وجوه المخلوقين، موصوفاً بالجلال والإكرام، لا يجوز أن يسأل به إلا أعلى المطالب، وأعلى المطالب بعد رؤية الباري جل جلاله الجنة.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة، باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى برقم (١٦٧١) وضعفه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: **«إن الله لا ينام»**، وفي قوله: **«حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»** برقم (١٧٩).

قوله: (باب: لا يُسأل بوجه الله) روي بالنفي، والنهي، ورواية النفي تدل على النهي أيضاً، وروي بالبناء للمجهول، وبالبناء للمعلوم، بالخطاب للمفرد «لا تَسألْ»[(١)].

قوله: (إلا الجنة) أو ما هو وسيلة إلى الجنة، وذكر الجنة إنما هو للتنبيه على المطالب العظام، وأعظمها النظر إلى وجه الله الكريم، فقد قال ﷺ في حديث عمار الطويل: **«وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ»**[(٢)].

قوله: (عن جابر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة» رواه أبو داود) وسكت عنه، وجاء في رسالته التي أرسلها إلى أهل مكة: أن ما سكت عنه فهو صحيح عنده، وهذا الحديث قد رواه جمع سوى أبي داود، ومنهم: البيهقي[(٣)]، والخطيب البغدادي[(٤)]، وابن عدي[(٥)]، ورمز له السيوطي بالصحة[(٦)]. وله شاهد من حديث أبي موسى عند الطبراني مرفوعاً: **«ملعون من سأل بوجه الله، وملعون من سُئل بوجه الله، فمنع سائله ما لم يسأل هجراً»**[(٧)]، فلعل الحديث أن يكون حسناً، وقد ضعفه بعض أهل العلم.

❁ مناسبة الحديث للباب:

مطابقة، لما جاء فيه من النهي أن يُسأل بوجه الله، إلا أعلى المطالب، وهي الجنة.

فوائد الحديث:

١ ـ إثبات صفة الوجه لله ﷻ.

٢ ـ وجوب تعظيم صفات الله وأسمائه.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٧٨٨٩).
(٢) أخرجه النسائي برقم (١٣٠٥)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١).
(٤) موضح أوهام الجمع والتفريق، للخطيب (١/ ٣٥١).
(٥) أخرجه ابن عدي في الكامل في ضعفاء الرجال (٣/ ٢٥٧).
(٦) الجامع الصغير من حديث البشير النذير برقم (٩٩٧٢).
(٧) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (١٨٣٧٨) وفي الدعاء برقم (٢١١٢).

٣ ـ عدم السؤال بوجه الله إلا الجنة، فلا يسأل بوجه الله شيئاً من أغراض الدنيا، لما فيه من الاستهانة والابتذال لهذا الوصف الشريف العظيم.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يُسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

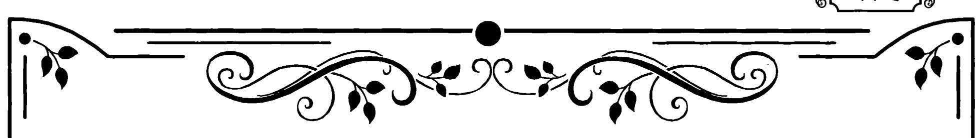
وغاية المطالب هي الجنة. فلا يسأل بوجه الله العظيم ما هو حقير، من حوائج الدنيا.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

وهي صفة ذاتية تُثبت لله عَزَّ وَجَلَّ من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تمثيل، ولا تكييف. فنثبت لله وجهاً حقيقياً على ما يليق بجلاله وعظمته. والمعطلة يؤوِّلون الوجه بالثواب، وذلك تحريف باطل لصراحة النصوص بإرادة الحقيقة، وامتناع حمله على المجاز.

واعلم أن المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لم يذكر إلا مسألتين، مع أنه قال: «فيه مسائل». والجواب ـ والله أعلم ـ أنه فعل ذلك لتتفق عبارته المطردة في جميع الأبواب، مع قصد التثنية، فإن العرب تطلق لفظ الجمع وتريد به المثنى، كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]؛ أي: قلباكما، والمراد عائشة وحفصة، أو على قول من يجعل أقل الجمع اثنين، كما حمل بعض الصحابة قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] على الأخوين.





باب ما جاء في اللَّو

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨].

وفي «الصحيح»: عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَّرَ الله، وما شاء فعل، فإنّ (لو) تفتح عمل الشيطان»(١).

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

ظاهرة، لتعلقه بالإيمان بالقدر؛ الذي يقتضي عدم الاعتراض على قضاء الله وقدره، والرضا بما قسم، و(لو) تفيد الاعتراض على القدر، وعدم الرضا به.

* * *

قول المصنف رحمه الله:

(باب: ما جاء في اللو) وفي بعض النسخ (لو)، ودخول الألف واللام على حرف (لو) لا يُراد به التعريف؛ لأن (لو) حرف، والحرف لا يُعرف، كما أن المعرفة لا تفيدها الألف واللام تعريفاً؛ كقول أحدهم:

رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بنَ الْيَزِيدَ مُبَارَكاً ... شَدِيداً بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ(٢)

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله برقم (٢٦٦٤).

(٢) البيت، لابن ميادة، يمدح الوليد بن يزيد، في ديوانه (ص١٩٢)، وخزانة الأدب (٢/ ٢٢٦)، =

فأدخل (أل) على اليزيد، وهو معرفة أصلاً؛ لكونه عَلَماً، فلا تفيده تعريفاً.

قوله: (**باب: ما جاء في اللَّو**)؛ أي: من النهي عنه، والذم لمن عرَّض به عند الأمور المكروهة؛ كالمصائب التي جرى بها القدر؛ لما فيه من الإشعار بعدم الصبر، والأسى على ما فات، مما لا يمكن استدراكه، والمضادة لكمال التوحيد، فالممنوع في (لو) التلهف على أمور الدنيا طلباً، أو هرباً، لا تمني القربات والطاعات، كما سيأتي.

قوله: (**وقول الله تعالى**: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾) القائل هم المنافقون، وكان ذلك يوم أُحد، حين غدا المسلمون إلى لقاء عدوهم من المشركين، وجرى لهم نصر أول النهار، لكن الرماة عصوا، وتركوا مواقعهم، فصارت الدائرة على المسلمين، وقتل من المسلمين نحو سبعين، فصار المنافقون يتحسرون، ويتندمون، ويستطيلون على النبي ﷺ؛ يقول قائلهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: لو أخذ محمد ﷺ بمشورتنا لما وقع علينا غلبة، وقتل؛ وذلك أن النبي ﷺ كان قد استشار أصحابه: هل يقاتلهم في أزقة المدينة، ويرمونهم من فوق البيوت والدور، أم يخرج إليهم؟ وكان ﷺ يميل إلى الرأي الأول، لكن شبان الصحابة الذين لم يشهدوا معركة بدر، كان فيهم توق للجهاد، اختاروا الثانية، فدخل النبي ﷺ ولبس لأمة الحرب ـ أداته ـ، وفي أثناء دخوله قال بعضهم لبعض: إنا قد حملنا رسول الله ﷺ على ما يكره، فلما خرج إليهم قالوا: يا رسول الله الأمر إليك، إن شئت قاتلناهم في المدينة، قال: «**لا ينبغي لنبيٍّ يلبس لأمته، فيضعها حتى يحكم الله**»[1]، فكان ما كان مما قدره الله ﷻ، وترتب عليه من الأمور الحسنة، والعبر العظيمة ما يعلمه المتأمل.

فقال هؤلاء المنافقون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ أي: أن قدر الله ماضٍ، ومشيئته نافذة، فمن كتب الله عليه أن

= وسر صناعة الإعراب (٢/ ٤٥١)، وشرح شواهد الشافية (ص١٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]... برقم (٩/ ١١٢).

يقتل فوالله ليبعثنه الله إلى مصرعه، فلا مجال للتحسر، فكل شيء بقدر، وكل شيء ماضٍ حسب ما كتب الله وقدر. ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ﴾؛ أي: لو قدر أنكم اكتننتم في البيوت ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾؛ أي: لخرج الذين قضى الله تعالى عليهم بالقتل منكم ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ أي: إلى مصارعهم، فيقتلوا، وحينئذٍ لا ينفعهم قعودهم، وبقاؤهم في البيوت، لكن الله أراد من وراء ذلك حكمة. ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: يختبر مكنونات الصدور؛ من الإخلاص لله ﷻ، والطاعة لنبيه ﷺ ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: يميز ما فيها من النيات الصالحة، أو الفاسدة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ أي: بمكنونات الصدور.

فهذه آية عظيمة، والشاهد منها للباب: ذم الله تعالى لهؤلاء المنافقين لقولهم: ﴿لَوْ﴾، فلا يجوز استعمال **(لو)** في الاستدراك على المصائب.

ولفظ **(لو)** له أوجه مختلفة، واستعمالات عديدة، وصور متنوعة، ولكل وجهٍ حكم؛ **كالتالي**:

١ - **أن تستخدم (لو)** للاعتراض على الشرع: كمن قال مثلاً: لو أن حد السرقة السجن عشر سنين لكان أفضل من القطع! فهذا محرم؛ بل مناف لشرط الإيمان، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ٦٥﴾ [النساء: ٦٥].

٢ - **أن تستعمل (لو) للاعتراض على القدر**: كقولهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ فالموت، والقتل، بقدر الله، فهذا القول اعتراض على القدر، وهو محرم.

٣ - **أن تستعمل (لو) للتندم والتحسر**: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان**» عمل الشيطان: هو التحسر والتندم، فلا يجوز استعمال **(لو)** للتندم والتحسر، وهذا كثير عند الناس، فتجد الطالب الذي رسب في الامتحان يقول: لو أني ما خرجت مبكراً، وصبرت لكنت أجبت الفقرة التي نسيتها، ويقول المصاب: لو أني تقدمت قليلاً ما وقع الحادث، ويقول التاجر: لو أني بعت أمس لربحت. وأمثال هذا كثير، فهذا أيضاً محرم.

٤ ـ **أن تستعمل (لو) على سبيل الاحتجاج بالقدر على معصية الله، أو ترك طاعة الله**: كقول المشركين: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] ولا حجة لهم؛ لأنهم ما علموا أن ذلك قدر الله عليهم إلا بعد وقوع ذلك منهم، بمحض إرادتهم، وسبق إصرارهم. فاستعمال **(لو)** على هذا الوجه استعمال باطل محرم.

٥ ـ **أن تستعمل (لو) على سبيل التمني**: كقول القائل ـ كما في الحديث ـ: «**لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهو بنيَّته، فأجرهما سواء**»(١)، فبعض الناس يقول: لو أن لي مال فلان؛ لتصدقت، وحججت، واعتمرت، وبنيت مسجداً، فهذا تمني، فهو يُجزى على نيته، وربما قال: لو أن لي مال فلان لفجرت، وشربت الخمر، ونحو ذلك من الأمور الباطلة، فهو بنيته أيضاً.

٦ ـ **أن تستعمل (لو) للتأسف على فوات الخير، أو التعليم، أو للخبر المحض**: كقول النبي ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي**»(٢)، فهذا النوع جائز قطعاً؛ لأن النبي ﷺ استعمله، وقد يكون مستحباً، إذا كان لغرض صحيح.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لتضمُّنها الاعتراض على القدر؛ بل وعلى الشرع؛ فكيف يكون لهم من الأمر شيء، والأمر لله ولرسوله ﷺ؟!

فوائد الآية:

١ ـ النهي عن قول **(لو)** في الأمور المقدرة.

٢ ـ وجوب الرضا بقضاء الله وقدره.

٣ ـ الحكمة المشهورة: «لا يغني حذر من قدر». فالقدر المرسوم لا بد من

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر في أبواب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر برقم (٢٣٢٥) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التمني، باب قول النبي ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت**» برقم (٧٢٢٩)، ومسلم في كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران... برقم (١٢١١).

وقوعه. لكن هذا لا يمنع العبد من فعل الأسباب؛ لأن القدر مغيب عنه، ولو كان القدر معلوماً لما كان لفعل الأسباب فائدة، لكن الله تعالى أخفى عنا القدر، وأظهر لنا الشرع، فينبغي فعل الأسباب.

٤ ـ أن من كُتب عليه الموت في موضع فلا بد له منه، وقد خرج النبي ﷺ يوم بدر إلى ميدان المعركة، قبل وقوعها وجعل يقول: «**هذا مصرع فلان**» ويضع يده على الأرض «**ها هنا، ها هنا**» فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ[1]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤] فقد عيّن الله تعالى البقعة التي سيموت فيها كل حي.

* * *

📖 **ثم ذكر المصنف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

قول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ وتتمة هذه الآية: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ القائلون هؤلاء هم المنافقون.

قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الأخوة هنا ليست أخوة الدين، ولكنها أخوة النسب؛ إذ الجميع من الأوس والخزرج. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي إخوانهم قولان: **أحدهما**: أنهم إخوانهم في النفاق، قاله ابن عباس. **والثاني**: إخوانهم في النسب، قاله مقاتل. فعلى الأول يكون المعنى: قالوا لإخوانهم المنافقين: لو أطاعنا الذين قتلوا مع محمد ما قتلوا، وعلى الثاني يكون المعنى: قالوا عن إخوانهم الذين استشهدوا بأحد: لو أطاعونا ما قتلوا)[2].

قوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾؛ أي: قعدوا عن الجهاد، ولم يخرجوا إليه. فالواو هنا تحتمل: أن تكون عاطفة، وأن تكون حالية؛ أي: الذين قالوا وقعدوا، فتكون (قعدوا) معطوفة على (قالوا)، أو تكون حالية؛ أي: أنهم قالوا لإخوانهم حال قعودهم، فهذان توجيهان، وكلاهما وجيه.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر برقم (١٧٧٩).
(٢) زاد المسير في علم التفسير (١/٣٤٦).

قوله: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾؛ أي: لو أطاعونا في القعود.

قوله: ﴿مَا قُتِلُواْۗ﴾؛ أي: ما وقع عليهم القتل.

قوله: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران: ١٦٨]؛ أي: ادفعوا آجالكم، إن كنتم صادقين في أن القعود يدفع عنكم قدر الله.

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة؛ لأن المنافقين استعملوا **(لو)** على وجه الاعتراض على القدر.

فوائد الآية:

١ ـ التحذير من قول **(لو)** على وجه الاعتراض على القدر.

٢ ـ أن مقتضى الصدق التسليم بالقدر؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾.

٣ ـ مشروعية مجادلة المنافقين في الحق.

قوله: **(وفي الصحيح)** مراده صحيح مسلم.

قوله: **(عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: احرص)** الحرص: هو جمع النفس، وبذل الجهد، للوصول إلى المقصود.

قوله: **(على ما ينفعك)** «**ما**» بمعنى الذي، فتفيد العموم؛ أي: في دينك، ودنياك.

قوله: **(واستعن بالله)**؛ أي: اطلب العون منه، ولا تتكل على قدرتك. بل استعن بمعبودك للوصول إلى مقصودك. وقد قيل:

إذا لم يكن عون من اللَّه للفتى   فأول ما يجني عليه اجتهاده

قوله: **(ولا تعجز)** وفي رواية: «**ولا تعجزن**»[1]، بنون التوكيد؛ أي: لا يقعد بك العجز عن الوصول إلى مرادك، كما يقول بعض المتخاذلين: قد! لعل! يمكن! وغيرها من الألفاظ التثبيطية.

قوله: **(وإن أصابك شيء)**؛ أي: إن وقع عليك مصيبة من قدر الله ﷻ.

قوله: **(فلا تقل: لو أني فعلت كذا؛ لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله،**

---

(١) مسند البزار، البحر الزخار برقم (٨٨٣٥).

وما شاء فعل)؛ أي: أن ما جرى كان بقدر الله، فلا بد من التسليم له. وضبطت: (قَدَرُ الله) و(قدَّر الله).

قوله: (فإن «لو» تفتح عمل الشيطان) جملة تعليلية؛ أي: إيلامه للنفس بالتحسر والتندم.

هذا الحديث من أعظم أسباب السعادة لمن فقهه؛ فقد أعطى النبي ﷺ توجيهاً عظيماً في مطلع الحديث بقوله: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف**»، ففيه استنفار للمؤمن أن يتحلى بالقوة، والصبر، والجلَد، ويتخلى عن صفات الضعف، والجزع، والرخاوة. وذلك أن الإنسان كائن بين ماضٍ ومستقبل. فكيف ينبغي له أن يرى الأمور الماضية؟ وكيف ينبغي له أن يرى الأمور المستقبلة؟

ـ أما **المستقبل**: فيواجهه بقاعدة: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**»، ويمضي في مصالحه بعزم وجد، مستعيناً بربه، غير آبه بالتثبيط والمثبطين.

ـ أما **الماضي**: الذي تبيّن فيه قدر الله، وجرى به القلم في اللوح المحفوظ، فيواجهه بقاعدة: «**قدر الله وما شاء فعل**»، فلا فائدة من قول: **(لو)** أو (ليت) فإن التحسر لا يغني شيئاً، ولا يرد مفقوداً، كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]. هكذا القوة.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأن فيه النهي الصريح عن قول **(لو)** على سبيل الاعتراض على القدر.

فوائد الحديث:

١ ـ الحض على تحصيل المنافع الدينية والدنيوية.

٢ ـ فعل الأسباب، والحرص هو استفراغ الجهد، وبذل الوسع، وأنه لا ينافي التوكل.

٣ ـ وجوب الاستعانة بالله؛ لتحصيل المطالب، وعدم الاعتماد على الذات، وترك الاستعانة.

وقد اجتاحت المكتبات في الآونة الأخيرة، كتب لمؤلفين غربيين، أو متأثرين بالغربيين، تندرج تحت تصنيف «تنمية المهارات»، تركز على الاعتماد على الذات، والثقة المطلقة بها، ولا تجد فيها ذكراً للاستعانة بالله ﷻ، والتوكل عليه. وهذه طريقة نشأت في أحضان الغرب العَلماني الذي لا يقيم وزناً، ولا اعتباراً لأمور الإيمان. ويجب أن يكون لأهل الإسلام طريقتهم المتميزة التي تجمع بين الاستعانة بالله، والتوكل عليه، وبذل الجهد، واستفراغ الوسع، في تحقيق الأهداف. وهذه الطريقة الشرعية أقوى، وأفضل، من الطرق التي يعوِّلون عليها، ويقيمون لها الدورات، ويعقدون لها المنتديات، تعوِّل على الذات، وكأن الإنسان قادر على فعل كل شيء، فيقولون: ليس هناك شيء مستحيل! هذا بيع للوهم، وتغرير بالمخاطبين، وزج بهم في المتاهات. فمهما قالوا من كلام تحفيزي، فلن يرتقي إلى هذا الكلام النبوي: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز**» فهذه العبارات خير من كثير من الغثاء الذي تمتلئ به رفوف المكتبات.

٤ ـ النهي عن العجز والبطالة؛ وإلغاء الأسباب.

٥ ـ إثبات القدر، ووجوب الإيمان به.

٦ ـ وجوب الصبر عند المصائب؛ لقوله: «**وإن أصابك شيء**» أي: من الأمور المستكرهة فيجب الصبر عند نزول المصائب؛ ولهذا قال الإمام أحمد: «ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن، أو بضعاً وتسعين»[(١)].

٧ ـ النهي عن قول (**لو**) على وجه التسخط.

٨ ـ إثبات عمل الشيطان، وهو الوسوسة.

٩ ـ الحذر من كيد الشيطان.

١٠ ـ إثبات محبة الله وتفاضلها، لقوله ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله**».

١١ ـ تفاضل المؤمنين؛ لأن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، فهذا يدل على تفاضل أهل الإيمان، خلافاً للمرجئة.

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ١٣٠).

١٢ ـ إبطال الاحتجاج بالقدر في المعايب دون المصائب.

١٣ ـ حسن تعليم النبي ﷺ؛ لأنه لما سد باباً فتح آخر.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى تفسير الآيتين في آل عمران.

وقد تقدم.

الثانية النهي الصريح عن قول (لو) إذا أصابك شيء.

لما فيه من التحسر والاعتراض على القدر.

الثالثة تعليل المسألة: بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

وهو الوسوسة، والحزن.

الرابعة الإرشاد إلى الكلام الحسن.

وهو قوله: «**قدر الله وما شاء فعل**» ففيه التسليم والرضا وحسن الظن بالله المورث للطمأنينة.

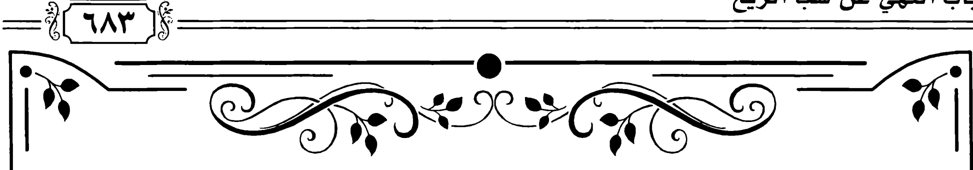
الخامسة الأمر بالحرص على ما ينفع، مع الاستعانة بالله.

لقوله: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله**»، فلا يفصل بينهما.

السادسة النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

لقوله: «**ولا تعجز**» أو «**ولا تعجزن**»، لمنافاته للتوكل الصحيح.





باب النهي عن سبِّ الريح

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون، فقولوا: اللَّهُمَّ إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به»(١)، صحَّحه الترمذي.

الشرح

⁂ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كانت الريح خَلقٌ من خلق الله، وجند من جند الله؛ فتارة يرسلها بُشراً بين يدي رحمته، وتارة يهلك بها من شاء، لا تجري بأمرها، ولا تسير بإرادتها، عاد سبها سبّاً لمرسلها ومجريها. وهذا منافٍ للتوحيد.

قوله: (عن أُبي بن كعب رضي الله عنه) أبي بن كعب بن قيس الأنصاري، من سادات الأنصار، وهو سيد القراء، فهو أقرأ الناس لكتاب الله، مات سنة ثلاثين.

قوله: (أن رسول الله ﷺ قال: لا تسبوا الريح)؛ أي: لا تشتموها، ولا تذموها إذا لحقكم بسببها أمر تكرهونه، وهذا أمر كان جارياً على ألسنة العرب في الجاهلية، ولا يزال بعض الجهال اليوم يفعله.

قوله: (فإذا رأيتم ما تكرهون)؛ أي: إما لشدة حرها كالسموم، أو لشدة بردها كالزمهرير، أو لقوتها كالأعاصير.

قوله: (فقولوا: اللَّهُمَّ إنا نسألك خير هذه الريح)؛ أي: الخير الذاتي فيها.

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الفتن، باب ما جاء في النهي عن سب الرياح برقم (٢٢٥٢) وصححه الألباني.

قوله: (وخير ما فيها)؛ أي: خير ما تحمله، فإنها تسوق السحاب الثقال، وتحمل حبوب اللقاح، وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرًۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [الأعراف: ٥٧].

قوله: (وخير ما أُمرت به)؛ أي: من تلقيح السحب، ونزول المطر، وإذهاب الحر، والحشرات. قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرًۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الفرقان: ٤٨]. وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الروم: ٤٨].

قوله: (ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به) شرها الذاتي، وشرها المحمول، والمأمور به. قال تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُمۡ أَن يُعِيدَكُمۡ فِيهِ تَارَةً أُخۡرَىٰ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم﴾ [الإسراء: ٦٩]، وقال: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ [الشورى: ٣٣]، وقال: ﴿وَفِى عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

قوله: (صححه الترمذي) وقد رواه أيضاً الإمام أحمد(١)، والنسائي(٢)، وهو صحيح.

فهذا أدب نبوي ينبغي للمؤمن أن يتأدب به، فإذا رأى الرياح، وهبوبها، فلا يتبرم، ولا يضيق، فيفضي به ذلك إلى سبها وهي مدبرة؛ بل يدعو بما ورد. وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، إِذَا رَأَى مَخِيلَةً فِي السَّمَاءِ، أَقْبَلَ وَأَدْبَرَ، وَدَخَلَ وَخَرَجَ، وَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فَإِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ سُرِّيَ عَنْهُ، فَعَرَّفَتْهُ عَائِشَةُ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَا أَدْرِي لَعَلَّهُ كَمَا قَالَ قَوْمٌ:** ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضًا

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢١١٣٨) وقال محققو المسند: «حديث صحيح».

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر الاختلاف على سليمان بن مهران في خبر أبي بن كعب في سب الريح برقم (١٠٧٠٤).

﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[١].

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة، لما فيه من النهي عن سب الريح، والاستعاضة عن ذلك بالدعاء الصالح.

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن سب الريح، والأصل في النهي التحريم، ولأن سب الريح سب لمدبرها، سبحانه.

٢ ـ الاستعاذة بالله ﷻ من كل شر. فلا يعيذ العبد من الشرور إلا الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١، ٢]. فالله تعالى هو الذي يعيذ العبد؛ ومن إعاذته له أن جعل له المعقبات، كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] فلا يفزع العبد إلى غير مولاه، فليملأ قلبه من الثقة به، والتوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة: ٥١].

٣ ـ أن الريح قد تكون مأمورة بخير؛ لقوله: «**وخير ما أمرت به**»، وقد تكون مأمورة بشر؛ لقوله: «**وشر ما أمرت به**». والله تعالى هو الذي يأمرها، ولا يأمرها إلا بما تقتضيه الحكمة.

٤ ـ حسن التعليم، بالإرشاد إلى البديل من الأقوال والأفعال، فلما نهى النبي ﷺ عن سب الريح، أعاضنا بهذا الدعاء الحسن الجميل الجامع.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى **النهي عن سب الريح.**

أي: لقوله: «**لا تسبوا الريح**» وهذا النهي للتحريم؛ لأن سبَّها سبٌّ لمن

---

(١) أخرجه البخاري في باب ما جاء في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]، برقم (٣٢٠٦).

خلقها وأرسلها، لكن لو وقع ذلك على سبيل الوصف والخبر فلا حرج؛ كأن يقول مثلاً: هبت ريح عاتية، أو باردة، فهذا لا بأس به، وإنما المحذور أن يصدر ذلك على سبيل السب والذم.

الثانية **الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.**

وهو قوله: «**اللَّهُمَّ إني أسألك من خيرها**» فهذا فيه إرشاد إلى قول الكلام النافع عند رؤية ما يكرهه، لكن مع فعل الأسباب الحسية أيضاً؛ كالاتقاء من شرها بالجدران، أو الجبال، ونحو ذلك.

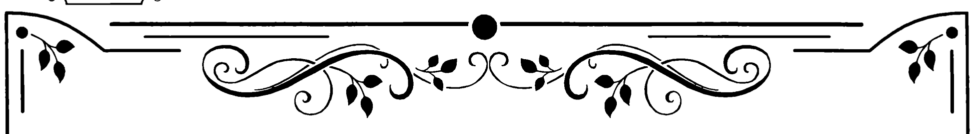
الثالثة **الإرشاد إلى أنها مأمورة.**

لقوله: «**وخير ما أُمرت به**».

الرابعة **أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.**

قد تكون خيراً، بأن يسوق الله بها السحاب الذي فيه المطر، وقد تكون عذاباً ينتقم الله بها ممن يشاء من عباده.





باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ﴾

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل. وفُسِّر أن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. وفُسِّر بإنكار الحكمة وإنكار القدر وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ، وأن يظهره الله على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد؛ بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ۝٢٧﴾ [ص: ٢٧] وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء، فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته، وحمده ووعده الصادق، فليعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله،

وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء[١]. ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر، وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ ... وَإِلَّا فَإِنِي لَا إِخَالُكَ نَاجِياً[٢][٣]

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان حسن الظن بالله ﷻ من مقتضيات الإيمان والتوحيد، وجب على المرء أن يحسن الظن بربه؛ في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وقدره، وشرعه، فمن ظن بالله السوء كظن أهل الجاهلية، فقد كفر.

وحسن الظن بالله في ذاته: أن يعتقد أن لله المثل الأعلى، والكمال المطلق، فليس كمثله شيء. **وحسن الظن بالله في أسمائه:** أن يعتقد أن له الأسماء الحسنى التي بلغت في الحسن غايته.

وحسن الظن بالله في صفاته: أن يعتقد أن صفاته كاملة، لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

وحسن الظن بالله في قدره: أن يعتقد أن الله حكم عدل لا يظلم مثقال ذرة، وأنه حكيم.

وحسن الظن بالله في شرعه: أن يعتقد أن أمره ونهيه عين الحكمة والمصلحة لكل جيل وقبيل.

فهذا الذي ينبغي أن ينطوي عليه قلب المؤمن، وأما إن كان غير ذلك فهو ظن الجاهلية. ولهذا قال في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[٤]، فإذا

---

(١) بنحوه في زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) البيت في ديوان ذو الرمة (ص٣٥٠) ونسبه في نهاية الأرب في فنون الأدب (٣/ ٧٥)، للفرزدق.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ =

كان ظن القلب بالله حسناً، فليبشر، فالله عند ظنه به. ومن ظن بالله ظن السوء، فليبشر بما يسوؤه.

ومن الناس من يسيء الظن بالله تعالى:

- **في ذاته، وأسمائه، وصفاته**: فيعتقد فيها التمثيل، أو التعطيل، أو يصفه بالنقائص والعيوب، كما قالت اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالت: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] وما أشبه ذلك.

- **وفي قدره**: بأن يقع في قلبه نقمة وسخط، إذا وقع عليه مصيبة قدرية، وربما فاه لسانه بهذا، وقال: ماذا صنعت؟ ولماذا جرى علي؟ لا أستحق كذا! ونحو ذلك. فهذا سوء ظن بالله، خلاف حال المؤمن الذي وصفه النبي ﷺ بقوله: «**عجبت للمؤمن؛ إن الله لم يقض قضاء إلا كان خيراً له**»(١)؛ وقوله: «**عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له**»(٢).

- **وفي شرعه**: فيطعن في حكمته، ويقول: لمَ شرع الله كذا؟! لمَ حرم شرب الخمر؟ لمَ الرجم؟ هذا قسوة! فيعترض على الشريعة وينتقدها.

فيجب على العبد أن يمتلئ قلبه ثقة بالله، وحسن ظنٍ به؛ فإن الظن هو خبيئة القلب عن الرب، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصافات: ٨٧]؛ أي: ماذا في قلوبكم عن الله؟ ويقول تعالى لأعدائه إذا حشرهم إلى النار: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣﴾ [فصلت: ٢٣].

فليفتش الناصح لنفسه مكنون قلبه، ويفحص ظنه بالله، ويتحقق أنه ظن حسن جميل، يجد الله عند ظنه به، وليعتصم بهذه العروة، فإنها توصله إليه سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ﴾؛ أي: المنافقون، والظن في الأصل خلاف اليقين،

= [آل عمران: ٢٨] برقم (٧٤٠٥)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى برقم (٢٦٧٥).

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (١٢١٦٠) وقال محققو المسند: «حديث صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير برقم (٢٩٩٩).

لكنه أحياناً يأتي بمعنى اليقين؛ كقوله عن الخاشعين: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝٤٦﴾ [البقرة: ٤٦].

قوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: غير ما يستحق، وخلاف الواقع من الحكمة وحسن التدبير.

قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من قوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: ظن أهل الجاهلية ﷻ، حيث اعتقدوا أن الله ﷻ لن ينصر رسوله، وأنه أبتر ليس له عقب، وأن ما نزل إليه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤﴾ [النحل: ٢٤].

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ بدل ثان من (يظنون) وهذا الاستفهام منهم بمعنى: النفي؛ فمرادهم: لن نحصل على نصر، ولا ظفر، ولا شيء مما نرجوه، أو أنه لا شأن لنا بتدبير الأمور، ولا باتخاذ القرار. فهي سوء ظن بالله؛ إما بقدره، أو شرعه.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يدبر، ويقضي، ويحكم، كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فوائد الآية:

١ ـ أن مَن ظن بالله غير الحق فقد شابه أهل الجاهلية.

٢ ـ أن مَن ظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة، فقد أساء الظن بالله.

٣ ـ إثبات الحكمة فيما يجريه الله ﷻ في شرعه وقدره.

٤ ـ خبث طوية المنافقين، وفساد معتقدهم، وهذا هو حالهم في كل جيل وقبيل؛ فهم زمن النبي ﷺ ينطوون على هذا الخبث والسوء، وفي زماننا من يسمون بالعلمانيين، أو الليبراليين، ينبذون الإسلام وشريعته، ويتمنون أن يحلوا في بلاد المسلمين طرائق الغرب، ونمط حياتهم، ففيهم شبه من سلفهم الذين ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

٥ ـ إثبات القدر، ووجوب الإيمان به.

٦ ـ وجوب الظن بالله ﷻ خيراً.

قوله: (وقوله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ (السَّوْءِ) بالفتح على القراءة المشهورة، وفي قراءة: (السُّوء)[1]، بالضم، وتمام الآية: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⑥﴾ [الفتح: ٦]. هؤلاء هم المنافقون والمنافقات، الذين لما هَمَّ النبي ﷺ بالخروج إلى مكة، عام الحديبية صاروا يشيعون الشائعات، ويقولون: ﴿لَن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]؛ بل ستفنيهم قريش وتقضي عليهم. فدعا عليهم الله تعالى، ودعاؤه عليهم حكمٌ وقضاء، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾؛ أي: دائرة العذاب والمذلة، فهي لازمة لهم أينما ذهبوا، لا تتخلف عنهم، وفوق ذلك: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، والغضب صفة حقيقية من صفات الله ﷻ، على ما يليق به، لا يشبه غضب المخلوقين، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾؛ أي: أبعدهم عن رحمته، فإنّ اللعن معناه الطرد والإبعاد. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾؛ أي: هيِّء لهم ﴿جَهَنَّمَ﴾ اسم من أسماء النار، قيل: سميت بهذا الاسم لتجهمها وظلمتها. ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا ⑥﴾ [الفتح: ٦]؛ أي: منزلاً ومآلاً.

مناسبة الآية للباب:

مطابقة، لتضمنها ذم مَن ظن أن الله لن ينصر دينه ونبيّه وحزبه والدعاء عليهم.

فوائد الآية:

١ ـ التحذير من سوء الظن بالله.

٢ ـ أن ذلك من صفات المنافقين والمنافقات.

٣ ـ إثبات صفة الغضب لله ﷻ على ما يليق به.

٤ ـ شؤم عاقبة المنافقين الظانين بالله ظن السوء؛ وتحققها؛ فإن هؤلاء المنافقين المخلفين، عام الحديبية أصابهم ندم عظيم؛ كونهم لم يخرجوا مع النبي ﷺ؛ لأن الله أباح غنائم خيبر لمن خرج مع النبي ﷺ للحديبية، وحرم منها

---

(١) هي قراءة ابن كثير وأبو عمرو، كما في السبعة في القراءات (ص٣١٦)، وحجة القراءات (ص٣٢١).

من لم يخرج، فلحقهم الندم على أمر دنيوي، فضلاً عما ادخر لهم الله من عذاب أخروي.

* * *

📖 **ثم نقل المصنف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ

نصّاً طويلاً من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وخلاصته: أن «ظن الجاهلية» الذي ظنه المنافقون، في سورة آل عمران، فسِّر **بتفسيرين**:

أحدها: أن الله لن ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل.

الثاني: أن ما أصابه والمؤمنين يوم أُحد، لم يكن بقدر الله، وحكمته.

وهو نفس «**ظن السوء**» الذي ظنه المشركون والمنافقون في سورة الفتح. فهذه **ثلاثة أمور**:

الأول: إنكار القدر: وعليه نفاة القدر من القدرية الأولى، والمعتزلة.

الثاني: إنكار الحكمة: وعليه نفاة الحكمة والتعليل من الجبرية؛ كالأشاعرة.

الثالث: إنكار أن يتم الله أمر رسوله، وأن يظهر دينه: وعليه المنافقون في كل جيل وقبيل.

فمن أنكر القدر، أو نفى الحكمة، وزعم أن الله يفعل لا لحكمة؛ بل لمحض المشيئة، كما وقع من بعض الفرق الإسلامية، أو ظن أن يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها الحق، فقد أساء الظن بالله.

أما المؤمن الصادق، فإنه يحسن الظن بربه؛ فحين وقف النبي ﷺ عام حجة الوداع، على الصفا، قال: «**لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»[(١)]، علم أن الله ﷻ لا يخلف الميعاد. ولما أحاطت الأحزاب بالمدينة، إحاطة السوار بالمعصم، وهم عشرة آلاف من غطفان، وقريش، واليهود من الجانب الآخر، جعل النبي ﷺ والمؤمنون يحفرون الخندق، فعرضت لهم عقبة كأداء، فدعوا النبي ﷺ ليرى، فأخذ النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ برقم (١٢١٨).

المعول، فضرب الصخرة ضربة، فأضاء نور، ثم ضرب الثانية فأضاء نور، ثم ضرب الثالثة فأضاء نور، فقال النبي ﷺ: «**ضربتُ ضربتي الأولى، فبرق الذي رأيتم، فأضاء لي منها قصور الحيرة، ومدائن كسرى، كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربتُ ضربتي الثانية، فبرق الذي رأيتم، أضاء لي معها قصور الحمر، من أرض الروم؛ كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل أن أمتي ظاهرة عليها، ثم ضربتُ الثالثة، فبرق الذي رأيتم، أضاء لي معها قصور صنعاء؛ كأنها أنياب الكلاب، وأخبرني جبرائيل أن أمتي ظاهرة عليها**»(١).

ففي هذه الشدة التي وصفها الله بقوله: ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾ [الأحزاب: ١٠] والنبي ﷺ واثق بربه، وينقل هذه الثقة، واليقين إلى المؤمنين، بينما يقول المنافقون: ماذا يعدكم محمد؟ لو ذهب أحدنا يقضي حاجته، لم يأمن على نفسه، ويظنون ظن السوء. فهذا هو الفرق بين المؤمنين، والمنافقين. وهذه الفروق لا تظهر إلا في المآزق والكرب، فيتبين فيها صدق الظن من كذبه، فوصف حال المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وحكى قول المنافقين: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم)**(٢)؛ أي: إذا جرى عليهم شيء من الأقدار صاروا يتساءلون في دواخلهم: لِمَ أجرى الله علينا كذا؟ ألسنا كذا؟ وأخذوا يُدلُّون على الله بأعمالهم، ويمنون بإسلامهم، وإن لم يفوهوا بألسنتهم.

قوله: (وفيما يفعله بغيرهم)؛ أي: لو جرى على غيرهم بعض المصائب، قالوا: «فلان ما يستأهل»! وهذا القول استدراك على الله، لا يجوز أن يُعبّر بمثل هذا التعبير.

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٤/ ٨٣، ٨٤).

(٢) بنحوه في زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢٠٦).

قوله: (ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله، وأسماءه، وصفاته، وموجَب حكمته، وحمده، ووعده الصادق) هذا يدل على شرف هذا الباب؛ باب العلم بأسماء الله وصفاته، فلُبُّ الإيمان أن يعرف العبد ربه، بمقتضى أسمائه وصفاته، فينبغي لنا أن نفقه هذا الباب فقهاً عميقاً، ولهذا قال في الحديث: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة**»[(١)]، فلو كان إحصاؤها بمجرد عدها، أو اتخاذ مسابح بتسع وتسعين خرزة، وسردها، لهان الأمر، ولكانت سلعة الله رخيصة، سهلة المنال، ولكن الأمر أعظم من ذلك، فإحصاؤها يكون باستنباطها من نصوص الكتاب والسُّنَّة، ومعرفة معانيها، والعمل بمقتضاها. فحينئذٍ يكون ظنه بالله حسناً، ويوصله الجنة.

قوله: (ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القدر، وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِن ذِي عَظِيمَةٍ   وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِياً[(٢)])[(٣)]

نبّه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ، ولفت نظر كل أحد إلى أن يفحص قلبه، ويستخرج خبيئته، وينظر؛ فربما وجد في قلبه آفة واعتراضاً؛ كأن يقول: «ما كان ينبغي كذا وكذا» أو «لو أنه كان كذا وكذا» على تفاوت بين القلوب في ذلك. فمن نجا من سوء الظن بالله فقد نجا من أمر شديد، ومزلق عظيم، وإلا فلا منجى. قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. والقلب السليم: هو السالم من كل شبهة تخالف خبر الله ورسوله، ومن كل شهوة تخالف أمر الله ورسوله، فليبشر صاحبه بالنجاة.

* * *

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشروط، باب ما يجوز من الاشتراط والثنيا في الإقرار... برقم (٢٧٣٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها برقم (٢٦٧٧).

(٢) البيت في ديوان ذو الرمة (ص٣٥٠)، ونسبه في نهاية الأرب في فنون الأدب (٣/ ٧٥)، للفرزدق.

(٣) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١١).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى تفسير آية آل عمران.

وقد تقدم تضمُّن مقالة المنافقين لسوء الظن بالله في قدره وشرعه وحكمته.

الثانية تفسير آية الفتح.

وقد تقدم بيان تضمُّن مقالة المنافقين والمشركين لسوء الظن بالله في قدره وشرعه وحكمته.

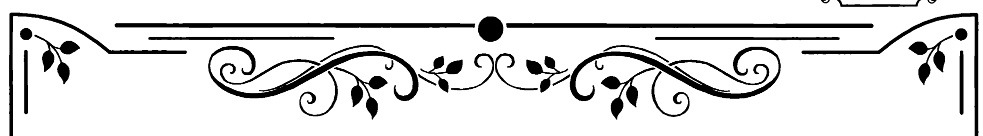
الثالثة الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

أي: سوء الظن بالله ﷻ أنواع متنوعة، وقد ذكر ابن القيم طرفاً منها.

الرابعة أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات، وعرف نفسه.

فالعلم بالله بمقتضى أسمائه وصفاته عصمة للعبد، وتطبيق ذلك على النفس من أسباب وقاية النفس من هذا الدغل، فينبغي للمرء أن يتفقد قلبه في حال الرخاء، حتى لا يخونه وقت الشدة.





باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهباً، ثم أنفقه في سبيل الله، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»(١).

ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرِّه»(٢)، رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربي ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»(٣).

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»(٤).

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»(٥). وفي «المسند» و«السنن»: عن ابن الديلمي قال: «أتيتُ أُبي بن كعب فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي، فقال: لو أنفقت مثل أُحد ذهباً

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في القدر برقم (٤٦٩٥) وصححه الألباني.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة برقم (٨).
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في القدر برقم (٤٧٠٠)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب القدر برقم (٢١٥٥) وصححه الألباني.
(٤) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢٢٧٠٥) وقال محققو المسند: «حديث صحيح».
(٥) القدر، لابن وهب برقم (٢٦).

ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار، قال: فأتيتُ عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك، عن النبي ﷺ»(١)، حديث صحيح، رواه الحاكم في «صحيحه».

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

الإيمان بالقدر من لوازم توحيد الربوبية، فلا يتم توحيد امرئ إلا بتحقيقه. والإيمان بالقدر يشمل: علم الله، وكتابته، ومشيئته، وخلقه، فمن أنكر ذلك؛ كله أو بعضه، فقد أخل بتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فلذلك ناسب إيراد هذا الباب في كتاب التوحيد.

* * *

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

(باب: ما جاء في منكري القدر)؛ أي: باب ما جاء من الوعيد في منكري القدر. والقدر: مصدر قَدَّر يُقَدِّر، وتعريفه الشامل: تعلق علم الله بالكائنات قبل وجودها، وكتابته إياها، ومشيئته، وخلقه لها، فهذا التعريف يتضمن **أربع مراتب**:

الأولى: العلم: وهي الاعتقاد الجازم بعلم الله المحيط بكل شيء، جملة وتفصيلاً، أزلاً وأبداً، ما كان، وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون. ما يتعلق بأفعاله؛ كالآجال والأرزاق، وما يتعلق بأفعال عباده؛ من الطاعات والمعاصي.

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٢١٥٨٩)، وأبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في القدر برقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في القدر برقم (٧٧) وصححه الألباني. ولم نجده عند الحاكم كما أشار الشيخ.

الثانية: الكتابة: وهي الاعتقاد الجازم بكتابة الله تعالى للمقادير، قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

الثالثة: المشيئة: وهي الاعتقاد الجازم بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى.

الرابعة: الخلق: وهي الاعتقاد الجازم بأن الله خالق كل شيء، فالله الخالق، وما سواه مخلوق. خلق جميع الأشياء؛ ذواتها، وصفاتها، وحركاتها.

فلا يتم إيمان امرئ بالقدر حتى يجمع هذه الأربع؛ فمن أنكر شيئاً منها، فقد أنكر القدر. والمنكرون للقدر على **درجتين**:

الدرجة الأولى: غلاة القدرية: وهم: «أتباع معبد الجهني» الذي ظهر في البصرة، كانوا ينكرون مراتب القدر الأربع، ويقولون: الأمر أنف! ولا قدر! والله أمر، ونهى، ولا يعلم من سيطيعه ومن سيعصيه، ولم يكتب، ولم يشأ، ولم يخلق أفعال العباد. وهذه مقالة شنيعة تستلزم إنكار علم الله، وهذا وصف له بالجهل، وإنكار مشيئته وخلقه، وهذا وصف له بالعجز. وكلاهما معلوم من الدين بالضرورة، فإنكارهما كفر صريح.

الدرجة الثانية: المعتزلة: الذين أثبتوا العلم والكتابة، وأنكروا المشيئة والخلق لأفعال العباد. فقالوا: عَلِم وكَتَب، لكن لم يشأ ولم يخلق؛ فللعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الله، وله فعل مستقل عن خلق الله، تعالى الله عما يقولون. فيلزمهم وصفه بالعجز.

وأما أهل الحق فقد هُدوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فأثبتوا جميع هذه المراتب، ولا شك أنه لا يتم إيمان امرئ إلا بالإيمان بالقدر بمراتبه الأربع.

* * *

📖 وقد ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ

تعقيب ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على روايته لحديث جبريل المشهور، فعَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا

وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرحمٰن الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ ـ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ ـ فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَداً مَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرحمٰن إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُفٌ، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي»، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ: «لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَباً، فَأَنْفَقَهُ مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ» ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ: **«الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً»**، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: **«أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»**، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: **«أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: **«مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»** قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: **«أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»**، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيّاً، ثُمَّ قَالَ لِي: **«يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»**(١) رواه مسلم، وهو أول حديث استفتح به صحيحه، ورواه أصحاب السنن، أبو داود(٢)،

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة برقم (٨).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في القدر برقم (٤٦٩٥) وصححه الألباني.

والترمذي[١]، والنسائي[٢]، وابن ماجه[٣]. فحديث جبريل هذا ـ كما قال الشراح ـ حديث عظيم؛ لأنه الدين كله. والشاهد منه قوله: **«أن تؤمن بالقدر خيره وشره»**. ونلحظ في جواب النبي ﷺ في شأن القدر **أمرين**:

أولاً: أنه أعاد ذكر العامل، فقال: **«وتؤمن بالقدر»** مما يدل على مزيد تأكيد للإيمان به

ثانياً: فصّل فيه ما لم يُفصل في غيره، فقال: **«خيره وشره»** لكثرة الغلط في هذا الباب.

قوله: (والذي نفس ابن عمر بيده) تأسياً بقَسَم النبي ﷺ، وفي رواية: (وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ).

قوله: (لو كان لأحدهم)؛ أي: القدرية الذين ينكرون القدر، ويقولون: لا قدر، والأمر أنف.

قوله: (مثل أُحد ذهباً) أُحد: جبل متوحد، يقع شمال المدينة، وقعت عنده المعركة المشهورة.

قوله: (ثم أنفقه في سبيل الله، ما قبله الله منه حتى يُؤمن بالقدر) الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان، لا ينفع من أنفق هذا المال الطائل من لم يؤمن بالقدر.

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، لما تضمنه كلام ابن عمر رضي الله عنهما من اشتراط الإيمان بالقدر لقبول العمل، والاستدلال على ذلك بحديث جبريل.

فوائد الحديث:

١ ـ أن إنكار القدر كفر؛ لأن النبي ﷺ عده من أصول الإيمان.

---

(١) أخرجه الترمذي، ت: شاكر في أبواب الإيمان، باب ما جاء في وصف جبريل للنبي ﷺ الإيمان والإسلام برقم (٢٦١٠) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب العلم، توقير العلماء برقم (٥٨٥٢) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب في الإيمان برقم (٦٣) وصححه الألباني.

٢ ـ عدم قبول أعمال منكر القدر؛ لقول ابن عمر، ويدل عليه قول الله ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤].

٣ ـ الاستدلال على الأحكام والأقوال بالكتاب والسُّنَّة؛ وهذا منهج أصيل يجب على طالب العلم أن يعتمده في كل ما يقرره، ولا يتبرم إذا سئل عن الدليل؛ بل يفرح؛ لأنه يدل على أن السائل يريد أن يعبد الله على بينة.

قوله: (عن عبادة بن الصامت) عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري، الخزرجي، أبو الوليد، أحد النقباء، بدري. مات سنة أربع وثلاثين رضي الله عنه.

قوله: (أنه قال لابنه) ابنه هو: الوليد بن عبادة، وكان قد ولد في عهد النبي ﷺ، لكنه كان صغيراً، فلم تثبت له صحبة؛ ولذلك يُعد من كبار التابعين. ويروى أنه قال له ذلك وهو على فراش الموت، ولا يخفى أن الإنسان على فراش الموت يمحض النصح، ولا يقول إلا ما يرى أنه أوكد الكلام، وأهمه، وأنصحه للسامع، لا سيما إذا كان المخاطب فلذة كبده، وهو ابنه.

قوله: (يا بني) هذا تلطف وتودد، يستجيش عاطفة المخاطب، كما قال لابنه وهو يعظه.

قوله: (إنك لن تجد طعم الإيمان) الإيمان له طعم وحلاوة، كما قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان**»(١)، وهذه الحلاوة حلاوة حقيقية، بمعنى: أن الإنسان يجدها، لكن لا يلزم من كونها حلاوة حقيقية، أن تكون كحلاوة السكر مثلاً، ولكن المراد: أنها بهجة، وسرور، وانشراح، يجدها المؤمن في قلبه.

قوله: (حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك)؛ أي: ما قدر الله عليك لا بد أن ينفذ فيك، ولا يمكن أن يتخلف عنك.

قوله: (وما أخطأك لم يكن ليصيبك)؛ أي: ما صرفه الله عنك من المقادير فلا يمكن بحال أن ينالك؛ لأن كل شيء بقدر، فليس شيء في الكون يقع خبط

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان برقم (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان برقم (٤٣).

عشواء، وضربة لازب؛ بل ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: ٨]. فيجب أن يمتلئ القلب بهذا اليقين.

قوله: (سمعتُ رسول الله ﷺ يقول) هذا استدلال من عبادة رضي الله عنه على تلك المقدمة، وهكذا ينبغي لمن قرّر شيئاً أن يعضد مقالته بالدليل حتى يحصل على القبول.

قوله: (إن أول ما خلق الله القلم) (القلم) تضبط بالفتح، وبالرفع، **فالأول**: على اعتبارها وقعت مفعول **(خلق)** فيكون المراد: ساعة أن خلق الله القلم، قال له: اكتب، و**(أول)** دالة على الظرفية. **والثاني**: وهو الرفع، باعتبار أن القلم خبر **(إن)**. فيكون المعنى: أن أول المخلوقات هو القلم، ولكن هذه الأولية أولية نسبية؛ لأن العرش هو أول المخلوقات. وهذا هو القول الصحيح؛ قال الله عز وجل: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] فهو سابق لخلق السماوات والأرض، فتكون أولية القلم أولية نسبية؛ أي: بالنسبة لخلق السماوات والأرض.

قوله: (فقال له: اكتب، فقال: ربِّ، ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)؛ أي: من تلك اللحظة إلى أن تقوم الساعة؛ فانصاع القلم لأمر ربه عز وجل.

قوله: (يا بني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني») هذه براءة من النبي ﷺ من منكري القدر، فمن لم يؤمن بما دلّ عليه هذا الحديث، فإن النبي ﷺ بريء منه براءة كاملة، تقتضي النقل عن الملة؛ لأن القدر من أركان الإيمان.

وهذا الحديث عن عبادة قد رواه أبو داود، والترمذي، والطيالسي[١]، وكذلك رواه ابن أبي عاصم[٢]، وسنده حسن ـ بحمد الله ـ، وفي علم مصطلح الحديث: الحديث الصحيح والحسن، يقبل خبرهما، ويعمل بحكمهما.

قوله: (وفي رواية لأحمد) وهذه الرواية ضعيفة، لكن إذا ضمت إلى ما سبق، كانت مقبولة المعنى، وربما كان لها طرق يعضد بعضها بعضاً.

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي برقم (٥٧٨).

(٢) السُّنَّة، لابن أبي عاصم برقم (١١١).

قوله: (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) وهذا المعنى مطابق لما تقدم.

قوله: (وفي رواية لابن وهب) هو: عبد الله بن وهب بن مسلم المصري، ثقة، مات سنة سبع وتسعين ومائة رَحِمَهُ اللَّهُ.

قوله: (قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يُؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار») هذا يدل على كفر منكر القدر.

فوائد الأثر:

١ ـ وجوب الإيمان بالقدر، وهذا ظاهر؛ والبراءة من منكره.

٢ ـ إثبات حلاوة الإيمان، وأن الإيمان بالقدر من أسباب حصولها، وقد يعجب الإنسان كيف يكون الإيمان بالقدر بما فيه الأقدار المؤلمة سبباً للحلاوة، مع أن الأقدار المؤلمة تجلب المرارة عادة! والجواب: أن المؤمنين تستحيل النقمة في حقهم نعمة، والمحنة منحة؛ ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]. فهداية القلب هذه حلاوة؛ قال علقمة رَحِمَهُ اللَّهُ: «هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم».

٣ ـ إثبات القلم، وكتابة المقادير، ولا يجوز تأويل هذه النصوص تأويلاً مجازياً، كما تصنع المعطلة، فيقول: القلم كناية عن كذا؛ بل يُقال: هو قلم حقيقي يكتب، والله أعلم بكيفيته وصفته، ولهذا لما عرج بالنبي ﷺ سمع صريف أقلام القدر[1].

٤ ـ ينبغي للأب تعليم الولد، والنصح له، والتلطف معه. وبعض الناس يكون قليل النفع لأولاده، يظن أن واجبه تجاه أولاده أن يطعمهم، ويسقيهم، ويكسوهم، ويؤويهم فقط! فلا يسوق إليهم علماً، ولا أدباً، ولا يبذل له نصحاً. وهذا تقصير بالغ، فإن حاجته إلى التربية، والتعليم، والنصح، أعظم من حاجته

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء؟ برقم (٣٤٩)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ برقم (١٦٣).

إلى الطعام، والشراب، واللباس. وينبغي لصاحب العلم أن يجتهد مع الأدنين قبل الأبعدين، وأن ينفع أهله وقرابته قبل غيرهم؛ كفعل عبادة بن الصامت.

٥ ـ قرن الحكم بالدليل.

٦ ـ توجيه الخطاب إلى الجماد؛ لأنه يعقل أمر الله؛ ففهم واستجاب، وسأل: «ماذا أكتب؟».

قوله: (وفي المسند والسنن) والمراد بالمسند هنا: مسند الإمام أحمد، وبالسنن: سنن أبي داود، وابن ماجه. فالمحدثون ـ رحمهم الله ـ لهم طرائق شتى في ترتيب مروياتهم:

فالمسانيد: رُتبت فيها الأحاديث على أسماء الصحابة. كمسند الإمام أحمد، وغيره، فيذكر مسند أبي بكر الصديق، ويسوق الأحاديث عنه، بقطع النظر عن موضوعها؛ فقد يكون أحدها في الإيمان، وآخر في الطهارة، وثالث في الأضاحي، وهكذا، فلا يجمعها موضوع واحد.

والسنن: رُتبت فيها الأحاديث على أبواب العلم. كـ«الصحيحين»، و«السنن الأربعة»، وغيرها، فيعقد باباً للإيمان، وآخر للطهارة، ثم الصلاة، ثم الزكاة، وهكذا على أبواب الفقه، بصرف النظر عن الراوي، فينتقل من صحابي إلى آخر.

والمعاجم: رتبت فيها الأحاديث على الشيوخ؛ كمعجم الطبراني رتبه على شيوخه، فيسرد مروياته عن أحد شيوخه، في موضع واحد، بصرف النظر عن موضوعه، وصحابيه، ثم ينتقل إلى مرويات شيخ آخر. وقد يرتب أشياخه على حروف المعجم.

وهذه طرق فنية لتقسيم العلم. والأنفع من الناحية العملية: السنن؛ لأنها تعين على البحث الموضوعي، فقد لا يعني من هو الصحابي الذي روى الحديث؛ لأن الصحابة كلهم عدول، لكن يعنينا الموضوع. وهناك من جمع بين الحسنيين؛ بالترتيب على الطريقتين؛ كبقي بن مخلد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد رتب مسانيد الصحابة على حسب الموضوعات.

قوله: (عن ابن الديلمي) عبد الله بن فيروز الديلمي، أبو بسر، ثقة، من كبار التابعين. أبوه فيروز الديلمي، قاتل الأسود العنسي، مدعي النبوة، في قصة

مشهورة رضي الله عنه(١).

قوله: (قال: أتيتُ أبي بن كعب) هو صاحب رسول الله ﷺ، وقد تقدمت ترجمته.

قوله: (فقلتُ: في نفسي شيء من القدر) مراده أنه قد وقع في نفسه شك وتردد في مسألة القدر، وهذا أمر طبيعي أن يطيف بقلب المؤمن أحياناً شيء من الشك؛ إما من داخل النفس، وإما من إلقاء الشيطان. وقد جاء رجل لابن عباس، فقال له: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله ما أتكلم به، قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال: وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد، قال: حتى أنزل الله عز وجل: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤](٢)، فقد يؤذي الشيطان ابن آدم بهذه الشكوك. لكن فرق بين الشك العارض، والشبهة المستقرة، فالشك العارض لا يكاد يسلم منه أحد، يطيف بالقلب شيء من الشبهات فيفزع المؤمن إلى المحكمات، ويعتصم بها، ويرد المتشابه إلى المحكم، إلى أن يشرح الله صدره، وينكشف له الأمر، أو يذهب فيسأل أهل الذكر، كما صنع ابن الديلمي، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

وإنما يُعاب من احتضن الشبهة، وروّج لها، ودعا إليها، كما فعل صبيغ بن عسل، الذي جاء في زمن عمر، فنفاه عمر من المدينة، وأدبه، في قصة مشهورة(٣). أما شيء يعتري الإنسان دون إرادته، فهذا لا يضره، وقد وقع لبعض أصحاب النبي ﷺ، فأتوا إلى النبي ﷺ وقال قائلهم: «يا رسول الله، إن أحدنا يجد في نفسه، يعرض بالشيء لأن يكون حممة ـ أي: فحمة محترقة ـ أحب إليه من أن يتكلم به، فقال: «**الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر! الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة**»(٤)،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه أبو داود في أبواب النوم، باب في رد الوسوسة برقم (٥١١٠) وقال الألباني: «حسن الإسناد».

(٣) الإبانة الكبرى، لابن بطة (١/ ٤١٤)، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٤/ ٧٠١)، والشريعة، للآجري (١/ ٤٨٣).

(٤) أخرجه أبو داود في أبواب النوم، باب في رد الوسوسة برقم (٥١١٢) وصححه الألباني.

وفي لفظ: «جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ، فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به، قال: «**وقد وجدتموه؟**» قالوا: نعم، قال: «**ذاك صريح الإيمان**»[1]، وكأنه كان يتوقع أن يحصل لهم ذلك، وما كان النبي ﷺ ليحمد الله ﷻ إلا لأمر محل حمد، وهو صريح الإيمان. وليس ذلك وصفاً للوسوسة، فلا يمكن أن تكون الوسوسة محض الإيمان، أو صريح الإيمان، فالوسوسة من الشيطان، ولكن محض الإيمان وصريحه هو: استشناعهم، وانزعاجهم، من هذا الذي وقع في نفوسهم، فذلك دليل على صراحة الإيمان في قلوبهم. فإذا هجم على قلب المسلم شيء من ذلك، ووجد في نفسه انزعاجاً، وألماً، وتمنى أن لو يخر من السماء أحب إليه من أن ينطق به، فليعلم أن ذلك دليل على صراحة الإيمان في قلبه، فليحمد الله ﷻ.

أما إذا كان يسترسل معه، ويستروح له، ويعجبه ذلك، وإذا جلس في مجلس قاءَ غثاءه، وأخرج خبيئة نفسه، وبث وساوسه، فذاك مفتون، زائغ، متبع للمتشابه.

قوله: (فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي) وهذا يدل على أمور:

- أنه لا ينبغي أن يدع المؤمن في نفسه ريبة؛ بل يسعى لاستجلائها.
- أنه يقصد أهل الذكر، كما أمر الله، ولا يسأل الجاهلين.
- أن يسر بها، ولا يجهر بها على الملأ، لئلا تنتقل الشبهة إلى أهل العافية.

قوله: (فقال: لو أنفقتَ مثل أُحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مِت على غير هذا، لكنتَ من أهل النار) هذه جمل رصينة محكمة، تُؤثر في النفس، وتثبت القلب، وتكنس ما فيه من شك. وتدل على وجوب الإيمان بالقدر، وأنه لا إيمان لمن لا يؤمن بالقدر، ولا قبول لعمله.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها برقم (١٣٢).

قوله: (قال: فأتيتُ عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ)؛ أي: كل هؤلاء الصحابة الأربعة الكرام رفع هذا الحديث إلى النبي ﷺ. وقد مر، آنفاً، قول عبادة بن الصامت رضي الله عنهم أجمعين.

قوله: (حديث صحيح، رواه الحاكم في صحيحه)؛ أي: في مستدركه؛ لأن الحاكم النيسابوري رحمه الله استدرك على «الصحيحين»؛ البخاري ومسلم، ما يظن أنه فاتهما، ولكنه لم يلتزم بشرطهما، وكأنه أراد أن يراجع ذلك فيما بعد فلم يمكنه؛ لانصرام الأجل، فجاء الذهبي رحمه الله لاحقاً، وتتبع مستدرك الحاكم، فوافقه في أشياء وخالفه في غيرها، فما وافق فيه الذهبيُّ الحاكمَ في استدراكه على «الصحيحين»، أو على أحدهما، فهو على شرطهما، أو شرط أحدهما، وما خالفه فيه فلا! فإن الذهبي إمام محقق، ومدقق، يُؤخذ بقوله.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لدلالته على وجوب الإيمان بالقدر، والتحذير من إنكاره.

فوائد الحديث:

١ ـ وجوب الإيمان بالقدر.

٢ ـ كفر منكري القدر.

٣ ـ الوعيد الشديد على من أنكر القدر.

٤ ـ سؤال العلماء عما يشكل من أمور الاعتقاد وغيرها؛ كما فعل ابن الديلمي.

فينبغي للإنسان أن يسأل، فإنما يدرك العلم بالسؤال، بعض العامة يقول: لا تسأل! لا تفتح على نفسك باباً! نعم، إن سألت جاهلاً، أو متعالماً، فقد فتحت على نفسك باب جهالة، لكن الله يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] فإذا وقع في نفس الإنسان شك، فيجب عليه أن يسعى في إذهابه، وليثق تمام الثقة أنه ليس في ديننا شيء يُستحى منه، أو يُعتذر عنه، أو ينافي العقل، أو الفطرة، فديننا كله حق، بحمد الله، نجهر به في

المحافل. وإنما يقع هذا لبعض المهزومين، المبهورين أمام المتحذلقين من العَلمانيين، أو الملاحدة، أو المتفلسفين، فيسلك مسلك الاعتذار عن شريعة الله، أو عن مسائل الإيمان، وهذا ضعف في العلم والشخصية، ورخاوة في الدين، إن لم تكن أكثر من ذلك، والعياذ بالله. فالواجب أن نعتز بديننا، ونعلم أنه إن خفي هذا الأمر على فلان، أو علان، فقد علمه الراسخون، فينبغي سؤال أهل العلم عما أشكل. وهذا لا يختص بالأمور العملية، أو الاعتقادية؛ بل في كل شيء؛ ولهذا قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة، الذي استفتى أصحابه لما أصابته شجة، وأصابته جنابة وقالوا: لا بد لك من غسل، فاغتسل، فمات: **«قتلوه قتلهم الله، هلَّا سألوا، إذ لم يعلموا، إنما شفاء العي السؤال»**(١).

٥ ـ سؤال أكثر من عالم؛ فابن الديلمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد سأل أُبي بن كعب، وحذيفة، وابن مسعود، وزيد ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. وهذه المسألة **لها حالات:**

الأولى: إذا كان مراد الإنسان بالسؤال زيادة التثبت واليقين فلا بأس، فهذا حسن، كما هاهنا.

الثانية: أن يكون سؤال الإنسان ناتجاً من عدم طمأنينة لإجابة العالم الأول، فلا حرج عليه أيضاً أن يسأل غيره، ليذهب الشك.

الثالثة: أن يسأل يريد بذلك تتبع الرخص، والبحث عما هو أسهل وأخف، كما يفعل بعض الناس؛ يتصلون بعديد من طلاب العلم ليسألوهم عن مسألة واحدة، ثم يقارنون الإجابات، ويأخذون أسهلها، وأخفها، بصرف النظر عن الدليل، أو التعليل، فهذا لا يجوز. فيجب أن يكون مراد الإنسان إصابة الحق؛ ولهذا قال العلماء: من تتبع الرخص تزندق؛ لأنه إذا صار يأخذ الرخصة في كلام كل عالم سيخرج بتوليفة من الرخص التي تخرجه عن سمت الشريعة، فإن الذي

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم برقم (٣٣٧)، وابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب في المجروح تصيبه الجنابة، فيخاف على نفسه إن اغتسل برقم (٥٧٢)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٣٠٥٦)، والحاكم في المستدرك على الصحيحين برقم (٦٣٠) وحسنه الألباني.

رخص في هذه المسألة، أو أخطأ فيها، قد أصاب في الباقي، فإذا كان الإنسان يلتقط هذه المنثورات، وشواذ الفتاوى، وزيغة الحكيم، خرج بدين ملفق.

٦ ـ وجوب كشف الشبهات عن الناس، والاجتهاد في البيان لهم، وعدم نهر السائل.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

أي: لقول ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا واستدلاله بحديث جبريل.

الثانية: بيان كيفية الإيمان.

وهو: «**أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**».

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

لقول ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «لو أنفقتَ مثل أُحد ذهباً، ما تُقبل منك حتى تُؤمن بالقدر» وهو يدل على أن من لم يؤمن بالقدر كافر؛ لأن الكافر هو الذي لا يُقبل منه العمل.

الرابعة: الإخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يُؤمن به.

لقول عبادة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان» وذلك لأن الإيمان بالقدر يُوجب طمأنينة في القلب، وبشاشة.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

وهو القلم؛ لقوله: «**إن أول ما خلق الله القلم**» وهي أولية نسبية؛ أي: بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض، أما الأولية المطلقة للمخلوقات فهو العرش.

السادسة **أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى يوم قيام الساعة.**

لقوله: «فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» كما في رواية أحمد وغيره.

السابعة **براءته ﷺ ممن لم يُؤمن به.**

لقوله: «**من مات على غير هذا فليس مني**» وهذه البراءة مطلقة؛ لأن من لم يؤمن بالقدر كافر كفراً مخرجاً عن الملة.

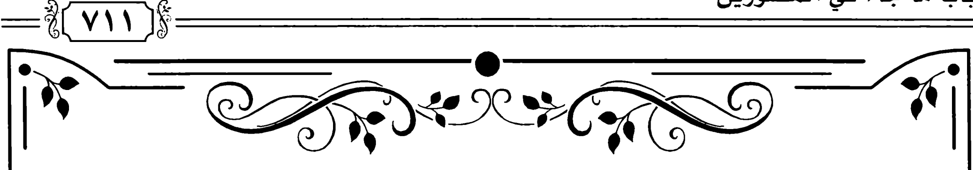
الثامنة **عادة السلف في إزالة الشبه بسؤال العلماء.**

يُؤخذ هذا من قصة ابن الديلمي؛ لأنه قال: «**فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت**» بعد أن أتى أُبي بن كعب.

التاسعة **أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته؛ وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.**

لقول ابن الديلمي: «**كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ**» وبهذا تزول الشبهات، وهذا عند المؤمن، أما غيره فلا ينتفع، لقول ﷻ: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].





باب ما جاء في المصوِّرين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؛ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»(١)، أخرجاه.

ولهما: عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله»(٢).

ولهما: عن ابن عباس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفْساً يعذب بها في جهنم»(٣).

ولهما عنه مرفوعاً: «من صوَّر صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»(٤)، ولمسلم: عن أبي الهياج قال: «قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرِفاً إلا سويته»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب نقض الصور برقم (٥٩٥٣)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان.. برقم (٢١١١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير برقم (٥٩٥٤)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة باب تحريم تصوير الحيوان... وأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة برقم (٢١٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب بيع التصاوير التي ليس فيها روح، وما يكره من ذلك برقم (٢٢٢٥)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة برقم (٢١١٠) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب من صوَّر صورة كلِّف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ برقم (٥٩٦٣)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة برقم (٢١١٠).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر برقم (٩٦٩).

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

من جهتين، لازمة، ومتعدية:

المتعدية: أن التصوير هو منشأ الشرك، كما تقدم في أول هذا الكتاب، في: «باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم، وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين» بما يغني عن إعادته.

اللازمة: أن التصوير مضاهاة لخلق الله، فهو منازعة للربوبية؛ لأن الذي يأخذ إزميلاً ومطرقة، وينحت حجراً أو خشباً، ليشكل منه ما يشبه خلق الله من ذوات الأرواح، أو يأخذ قلماً، أو ريشة، ويخطط ويرسم ما يشبه خلق الله، فكأنما يضاهي الله عز وجل في خلقه.

قوله: (**عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى:**) هذا حديث قدسي، أو إلٰهي؛ معناه من الله، ولفظه من النبي ﷺ.

قوله: (**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**) هذا استفهام للنفي والإنكار؛ أي: لا أحد أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي. وهذه الصيغة «ومن أظلم» وردت في القرآن في تسع مواضع:

- قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤].

- وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠].

- وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ في أربعة مواضع: [الأنعام: ٢١]، [الأنعام: ٩٣]، [هود: ١٨]، [العنكبوت: ٦٨].

- وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾ في موضعين: [الكهف: ٥٧]، [السجدة: ٢٢].

- وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [الصف: ٧].

وفي السُّنَّة، في حديث الباب: (**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**). و(أظلم) على وزن (أفعل) التفضيل! والجمع بينها أن يقال هذا تفضيل باعتبار معين؛ ففي باب الصد عن سبيل الله لا أظلم ﴿مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا

ﱡﭐ ﱠ﴿اسْمُهُ﴾ [البقرة: ١١٤]؛ لأن المساجد هي محل ذكر الله. وفي باب الشرك لا أظلم ممن ذهب يخلق كخلق الله؛ لأن المصور يضاهي، ويحاكي خلق الله، وهكذا. يجري التفضيل باعتبار ما أضيف إليه.

قوله: (فليخلقوا ذرة) الأمر ليس على حقيقته، وإنما خرج مخرج التهديد، والتعجيز، والتحدي؛ كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝﴾ [فصلت: ٤٠]. والذرة: هي النملة الصغيرة، مثَّل بأصغر المخلوقات التي يبصرونها، وهذا تحدٍّ بالغ، فلم يأمرهم أن يخلقوا جملاً، أو فيلاً، أو نحو ذلك، ولن يستطيعوا.

قوله: (أو ليخلقوا حبة) واحدة الحَب، وهو ما يخرج من النبات والزروع.

قوله: (أو ليخلقوا شعيرة) الشعير نوع آخر من الحبوب، فالحب غالباً ما يطلق على الحنطة، مثَّل بهما لضآلتهما، مبالغةً في التحدي والتعجيز.

مسألة: حكم التصوير:

التصوير، من حيث الجملة، **نوعان:**

النوع الأول: تصوير ما له روح. ويُعبر عنها العلماء أحياناً: بما له ظل، **وله ثلاث حالات:**

الأولى: أن يكون له جُرم: وذلك ما يحصل بالنحت والتشكيل؛ كأن ينحت بمطرقة وأزميل حجراً، أو خشباً، أو يأتي بطين أو صلصال، ويجعله على صورةٍ من صور ذوات الأرواح. فهذا محرم بالإجماع[(١)].

الثانية: أن يكون بالتخطيط والتلوين: بأن يأخذ قلماً أو ريشة فيرسم صورةً من صور ذوات الأرواح؛ من آدمي، أو طير، أو حيوان، أو ينصب أمامه إنساناً، فيرسمه على لوحة أو ورقة، فهذا أيضاً محرم؛ لأن المضاهاة فيه ظاهرة، والدليل عليه حديث النمرقة، في حديث عائشة رضي الله عنها لأن الرسم على النمرقة يكون سطحيّاً، ليس له ظل، فأمر النبي ﷺ فقطعت، فجُعلت وسادتين[(٢)].

---

(١) ينظر: فتح الباري (١٠/٣٨٨)، وإكمال المعلم (٦/٦٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس، باب ما وطئ من التصاوير برقم (٥٩٥٤)، ومسلم في اللباس والزينة باب تحريم تصوير الحيوان... وأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة برقم (٢١٠٧).

الثالثة: أن يكون بآلة التصوير التي تُسمى (الكاميرا): فهذه لم تكن في زمن النبي ﷺ، ولا عند السلف المتقدمين، وإنما وجدت في العصور الأخيرة. وقد اختلف العلماء المعاصرون في حكمها، وهل يُعد التقاطها تصويراً، يدخل في عمومات النصوص أم لا؟

ـ فذهب جمع من العلماء إلى أن ذلك من التصوير المحرم، وفاعله يسمى مصوراً، وبالتالي فإنه مشمول بالأحاديث الواردة في تحريم التصوير، ووعيد المصورين[(١)].

ـ وذهب بعض العلماء المعاصرين[(٢)]: إلى أن ذلك وإن سُمي تصويراً اصطلاحاً، لكنه ليس تصويراً في الحقيقة؛ لأن الذي يلتقط الصورة عن طريق الآلة ليس له دور في تشكيلها وتصويرها؛ بل الصورة الملتقطة هي الصورة التي خلقها الله، كما لو وقف الإنسان أمام مرآة، فبدت صورته عليها، فالصورة المنعكسة في المرآة ليس لأحد دخل في تصويرها؛ لأنها الصورة التي خلقها الله انعكست على المرآة؛ وكذا لو وقف الإنسان على حافة بركة ساكنة لانعكست صورته على الماء، فهذه الصورة هي الصورة التي خلقها الله، قالوا: كذلك هذه الآلة، إنما تحبس الصورة التي خلقها الله ﷻ؛ ولهذا لو ضغط زر الآلة كبيرٌ أو صغير، ذكرٌ أو أنثى، مبصرٌ أو أعمى، لخرجت ذات الصورة، فهذا العمل ليس تصويراً؛ لأن هذه الصورة هي التي خلقها الله ﷻ تماماً، كما لو كتبت نصاً، ثم وضعته على آلة التصوير، وسحبت منه صورة، فيقال عن هذا الخط: هذا خط فلان الكاتب، الذي كتب الأصل؛ كذلك يقال: هذه الصورة التي نتجت من التقاط الآلة هي الصورة التي خلقها الله، ولا شأن لهذا الإنسان بها. فأصحاب هذا القول سهلوا الأمر، وقالوا: إن التصوير «الفوتوغرافي» لا يدخل في مضاهاة خلق الله ﷻ.

لكن يبقى أن الناتج في الحالين، يُسمى «صورة»، فيتطرق المنع، لا من

---

(١) من العلماء المعاصرين الذين ذهبوا إلى تحريم التصوير الفوتوغرافي: الشيخ ابن باز رحمه الله، والشيخ صالح الفوزان وغيرهم، يرون تحريمه إلا لضرورة أو حاجة.

(٢) من العلماء المعاصرين الذين ذهبوا إلى جواز التصوير الفوتوغرافي: الشيخ محمد الصالح العثيمين رحمه الله.

جهة كونها مضاهاة لخلق الله، وإنما لكون ذلك صورة، تتعلق بها أحكام الصور. فيقال: هذا الناتج لا يجوز اقتناؤه إلا لحاجة أو ضرورة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة**»[(١)]، فالصور التي تتخذ لإثبات الهُوية، أو لضبط المسائل الجنائية، أو الطبية، أو غير ذلك مما فيه ضرورة أو مصلحة راجحة، يباح اتخاذها، واقتناؤها، من باب أن ذلك ليس تصويراً، وإنما هو حبس للظل، لا أقل ولا أكثر، هذا ما يتعلق بالقسم الأول، وهو تصوير ما له روح.

تصوير ما لا روح فيه. وهذا جائز.

النوع الثاني: تصوير ما لا روح فيه: فله ثلاث حالات:

الأولى: تصوير ما يصنعه الآدمي: كالطاولة، والكرسي، والسيارة، مما لا تحلها الروح، فهذا جائز باتفاق العلماء[(٢)].

الثانية: تصوير ما هو من صنع الله مما يكون نامياً: كالشجر، أو الزرع، أو نحو هذا مما لا روح فيه، ولكن فيه نمو، فهو خلق من خلق الله ينمو، فقد نقل عن بعض السلف؛ كمجاهد بن جبر رحمه الله أنه يكرهه[(٣)]، وقيل: مباح، وهذا الثاني أقرب؛ ولهذا قال ابن عباس للمصور: «إن كنت لا بد فاعلاً فاصنع الشجر وما لا نفس له»[(٤)]، فلا بأس أن يصور الإنسان الأشجار، والأنهار، والحبوب، والثمار، ونحو ذلك.

الثالثة: تصوير ما ليس بنامٍ : كالجبال، والبحار، والأنهار، ونحو ذلك، فهذا جائز بالاتفاق.

❋ مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيه من الوعيد على فاعليه، ووصفه بأظلم الظلم.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء، آمين... برقم (٣٢٢٥)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان... برقم (٢١٠٦).

(٢) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٩١).

(٣) شرح النووي على مسلم (١٤/ ٩١).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة، باب لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة برقم (٢١١٠).

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم التصوير.

٢ ـ أن المصور من أظلم الظالمين بشهادة رسول رب العالمين.

٣ ـ إثبات صفة الكلام لله ﷻ؛ لقوله: «**قال الله تعالى**» فالقول هو الكلام؛ فالله تعالى يتكلم بكلام حقيقي، مسموع، يليق بجلاله، ولا يشبه كلام المخلوقين.

٤ ـ أن التصوير مضاهاة لخلق الله ﷻ؛ لقوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**» فالكاف للتشبيه، ولا يلزم أن تكون المشابهة من جميع الوجوه.

٥ ـ اختصاص الله ﷻ بالخلق؛ لاستحالة أن يخلق أحد سواه: الذرة والشعيرة والحبة.

قوله: (ولهما)؛ أي: للشيخين؛ لأنه قال في الحديث السابق: «أخرجاه».

(عن عائشة ﵂ **أن رسول الله** ﷺ **قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله»)**؛ أي: يشابهون صنع الله ﷻ، فهؤلاء هم أشد الناس عذاباً يوم القيامة.

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة للترجمة، لما فيه من الوعيد على المصورين.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم التصوير.

٢ ـ أن التصوير مضاهاة لخلق الله.

٣ ـ تفاوت العذاب يوم القيامة بحسب الجرم؛ لقوله: «**أشد**».

٤ ـ أن التصوير من كبائر الإثم، وعظائم الذنوب.

٥ ـ وجوب احترام جناب الربوبية؛ لقوله: «**يضاهون بخلق الله**».

قوله: (ولهما) هكذا قال ﵀، والواقع أن الحديث بهذا اللفظ في مسلم، فقط.

قوله: (عن ابن عباس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ **يقول: «كل مصور**

في النار») وهذا العموم أريد به الخصوص؛ أي: كل مصور لذات روح. وفيه تخويف بليغ؛ فقد حكم بأن كل مصور في النار، وهو من نصوص الوعيد التي تجري على ظاهرها.

قوله: (**يجعل له بكل صورة صوَّرها نفْساً يعذب بها في جهنم**)؛ أي: كل صورة صورها، تنقلب نفساً تعذبه في جهنم، فبقدر ما استكثر من الصور، يكثر من يعذبه في جهنم.

قوله: (ولهما: عنه مرفوعاً: «من صوّر صورةً في الدنيا، كُلِّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ») هذا أيضاً تعجيز بالغ، فيُؤتى له بتلك الصورة ويقال له: أحي ما خلقت، وأنى له أن يحييها؟! لأن الإحياء بيد الله ﷻ.

❋ مناسبة الحديثين للباب:

مطابقة للترجمة؛ لأن فيهما الوعيد الشديد على المصورين.

فوائد الحديثين:

١ ـ تحريم التصوير، وأنه من كبائر الذنوب لترتب الوعيد الشديد عليه.

٢ ـ أن التصوير يتناول كل ما فيه مضاهاة لخلق الله، سواء كان نحتاً، أو تشكيلاً، أو تخطيطاً.

٣ ـ طول عذاب المصورين؛ لأنه يقال لهم: أحيوا ما خلقتم، ولا يمكن أن يقع منهم ذلك ولو طال الزمن.

٤ ـ شدة عذاب المصورين؛ وتفاوته قلةً وكثرة.

٥ ـ اختصاص الله ﷻ بالخلق، فلا يشاركه أحد في ذلك.

قوله: (ولمسلم: عن أبي الهياج قال: «قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»)، أبو الهياج، حيان بن حصين الأسدي، الكوفي، تابعي، ثقة.

قوله: (ألا أبعثك) ألا: أداة تنبيه وتحضيض، أبعثك: أي: أوجهك، والبعث بمعنى: الإرسال.

قوله: (على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ) إذاً اكتسب بذلك حكم الرفع؛

لأن الحديث المرفوع قد يكون مرفوعاً حقيقة، وقد يكون مرفوعاً حكماً. وفي هذا الأسلوب إغراء ظاهر.

قوله: (ألا تدع صورة إلا طمستها)؛ أي: ألا تترك صورة إلا أزلتها ومحوتها. فهذا موضع الشاهد. فدل ذلك على أن النبي ﷺ كان يأمر أصحابه بطمس الصور، ودل على أن الصور شر، ومدعاة للشرك؛ لما فيها من مضاهاة خلق الله. ومما يُؤسف له في الآونة الأخيرة كثرة انتشار الصور، لا سيما في الملبوسات، فيجد الناس مشقة بالغة أن يجدوا ملابس لأبنائهم وبناتهم خالية من الصور. ويجب على الإنسان إذا ابتلي بشيء من هذه الصور أن يطمس الرأس؛ لحديث: «**الصورة الرأس، فإذا قطع الرأس فليس بصورة**»(١). فإذا تم طمس الرأس إما بلون غامق يذهبه، أو بأن يخيط عليه شيئاً يخفيه، فقد زال المحذور. فإذا قطع الرأس، ولو كان تمثالاً، وبقي سائر البدن فليس بصورة. وأما ما يفعله بعض الناس برسم خطٍّ بين الرأس والبدن، فهذا لا يغني شيئاً، ولا يحصل به الطمس، وأما الصور التي ليست على شيء من خلق الله ﷻ، ولا يوجد لها نظير في خلق الله تعالى، فلا تعد صورة، ولا فعلها تصويراً. كما يفعل بعضهم، يرسم فاكهة أو خضرة، أو منزلاً، أو سيارة، ويجعل لها عينين، وأنفاً ونحو ذلك، فليس ذلك مضاهاةً لخلق الله؛ لأنه لا يوجد في خلق الله ما هو على هذه الشاكلة، لكنه نوع من العبث.

قوله: (ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)؛ أي: مرتفعاً، بارزاً، إلا جعلته مساوياً للأرض. ولا بأس بأن يسنَّم قدر شبر، فإن هذا التسنيم يحفظ القبر من أن تجرفه السيول، ولأنه ينخسف مع الوقت، ولكي يميزه فلا يُقعَد عليه، أو تُقضى عليه الحاجة، وما أشبه.

❋ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لتضمنه ما يدل على تحريم الصور، ووجوب طمسها وإتلافها.

فوائد الحديث:

١ ـ وجوب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ فها

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٤٦٩٥) موقوفاً على ابن عباس.

هم أصحاب رسول الله ﷺ يرثون منه ذلك، وينقلونه إلى التابعين، فيأمرونهم بإزالة المنكر؛ بطمس الصور، وتسوية القبور المشرفة.

٢ ـ تحريم التصوير، ووجوب إزالة الصور بطمسها أو محوها.

٣ ـ تحريم رفع القبور، ووجوب تسويتها بالأرض، ومن رفْع القبور البناء عليها، كما يقع في كثير من البلدان، فإذا مات فيهم من يعظمونه بنوا على قبره بناءً، وجعلوا عليه قبة، فهذا من أعظم أسباب الشرك؛ لأن النفوس تتعلق بهذا المقبور الذي جعل عليه هذا البناء.

وهذا البناء والتزويق الذي يكون على القبر لا ينفع الميت شيئاً، فإن كان رجلاً صالحاً سيتأذى من جراء ما يقع عنده من شرك، ودعاء غير الله تعالى؛ بل الذي ينفع الميت هو السلام عليه، والدعاء له، وحسب. وأشرف القبور قبر النبي ﷺ، لا يزيد الإنسان إذا زاره أن يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ويمضي؛ ولما رأى علي بن الحسين من يدخل في خوخة عند قبر النبي ﷺ قال له: «ما أنت ورجل بالأندلس إلا سواء»[(١)]، ثم قال: إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**»[(٢)]، وقد مر في أول الكتاب.

٤ ـ وجوب هدم هذه القباب المبنية على القبور، عند الاستطاعة. فيجب على من بسط الله يده، وقدر على إزالة المنكر أن يزيل البناء الذي على القبور، حتى تحسم مادة الشرك والغلو.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ:

فيه مسائل:

الأولى التغليظ الشديد في المصورين.

وهذا بيّن من النصوص، ومنها قوله: «**أشد الناس عذاباً**»، وقوله: «**ومن أظلم**

---

(١) هذه العبارة ذكرها شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٨٣).

(٢) الأحاديث المختارة، للضياء المقدسي برقم (٤٢٨) وقال الألباني في موسوعة الألباني في العقيدة (٢/ ٤٩٨): «وفي إسناده رجل من أهل البيت مستور، وبقية رجاله ثقات».

ممن ذهب يخلق كخلقي»، وقوله: «**يجعل له بكل صورة صوَّرها نفساً يعذب بها في جهنم**» فهذا الوعيد لم يأتِ مثله في كثير من الكبائر، مما يدل على التغليظ فيه.

الثانية **التنبيه على العلة وهي ترك الأدب مع الله؛ لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».**

هذا أدب واجب متعين؛ لأن في مضاهاة خلق الله ﷻ منافاة لحقه سبحانه؛ لأنه سبحانه هو الخالق البارئ المصور، فلا يليق بغيره أن يفعل مثل ذلك.

الثالثة **التنبيه على قدرته وعجزهم؛ لقوله: «فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة».**

وتقدم أن هذا الأسلوب يراد به التعجيز، والتحدي.

الرابعة **التصريح بأنهم أشد الناس عذاباً.**

أي: لقوله: «**أشد الناس عذاباً الذين يضاهئون بخلق الله**».

الخامسة **أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.**

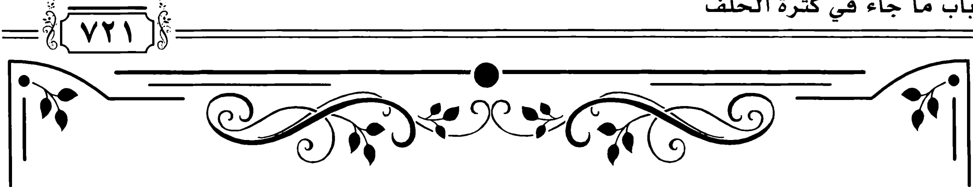
بأن تستحيل هذه الصور إلى نفوس يخلقها الله ﷻ، فتتولى تعذيبه في نار جهنم.

السادسة **أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.**

وهذا تكليف لا يتمكن من فعله، لكن فائدته: إطالة العذاب؛ لأنه لا يمكنه أن يخرج من النار حتى يأتي بهذا الأمر، ولا يمكن أن يأتي به، فدل على طول مكثه.

السابعة **الأمر بطمسها إذا وجدت.**

كما أمر النبي ﷺ علياً، وكما أمر علي أبا الهياج.



باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الحلف مَنفقة للسلعة، مَمحقة للكسب»(١)، أخرجاه.

وعن سلمان: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلِّمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِط زانٍ، وعائلٍ مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه»(٢)، رواه الطبراني بسند صحيح.

وفي «الصحيح»: عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً، «ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب البيوع، باب: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝٢٧٦﴾ [البقرة: ٢٧٦] برقم (٢٠٨٧) بلفظ: **«الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة»**، ومسلم في كتاب المساقاة، باب النهي عن الحلف في البيع برقم (١٦٠٦) بلفظ: **«الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للربح»**.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير برقم (٨٢٢)، والمعجم الأوسط برقم (٥٧٣٥)، والمعجم الكبير برقم (٥٩٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ برقم (٣٦٥٠)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم برقم (٢٥٣٥).

وفيه: عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» قال إبراهيم: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»(١).

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

من كمال التوحيد: احترام اسم الله تعالى، فلا يصح أن يكون اسمه مبتذلاً بالأيمان، يجريه الإنسان على لسانه في كل صغيرة وكبيرة، أو لا يبالي أن يحنث في يمينه.

فقوله: (باب: ما جاء في كثرة الحلف) من الوعيد. أراد به أن يحترم الإنسان اسم الله تعالى فلا يجعله جارياً مجرى الكلام المعتاد؛ بل يعظمه، ولا يتكلم به إلا في الأمور الجليلة.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾) حفظ اليمين يكون في صور متعددة:

أولاً: عدم الإكثار من الحلف، فلا يجعل الإنسان اليمين يجري على لسانه في الأمور التافهة، كما يقع من بعض الناس، فمن حفْظ اليمين ألا يأتي الإنسان باليمين إلا فيما يستحق، أو إذا توجه إليه اليمين عند الحاكم الشرعي، أو إذا أراد التأكيد لأمر مهم.

ثانياً: عدم الحِنث فيه إلا لمصلحة راجحة: فإذا حلف فليحفظ يمينه ولا يخرمه؛ بل يلتزم به، اللَّهُمَّ إلا أن يبدو له ما هو خير؛ لقول النبي ﷺ: **«إذا حلفتَ على يمين فرأيت غيرها خيراً منها، فأتِ الذي هو خير، وكفِّر عن يمينك»**(٢)، وفي

(١) أخرجه البخاري في كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ برقم (٣٦٥١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب من سأل الإمارة وكل إليها برقم (٧١٤٧)، ومسلم في كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها، أن يأتي =

رواية: «**فليأت الذي هو خير، وليكفر عن يمينه**»[١]؛ أي: أن له أن يقدم الكفارة، ثم يأت الذي هو خير، وله أن يأت الذي هو خير، ويكفر بعد ذلك.

ثالثاً: أن يكفِّر عن يمينه إذا وقع منه الحنث، ويتبرر منه بالكفارة. والكفارة: ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ﴾ [المائدة: ٨٩].

واليمين التي تجب فيها الكفارة هي ما توفر **فيه ثلاثة شروط**:

الأول: أن تكون باسم من أسماء الله، أو بصفة من صفاته، بأن يقول: والله، وبالله، وتالله، أو: وعزة الله، وقدرة الله، ونحوه.

الثاني: أن تكون منعقدة؛ أي: يعقد قلبه عليها، فلو خرجت مخرج اللغو فلا يجب بها كفارة، كما يجري على ألسنة الناس قول: والله، وهو لا يريد اليمين، كما يقول الرجل لصاحبه: والله أن تدخل أولاً، وهو لا يريد اليمين، وإنما يريد التكريم.

الثالث: أن تكون على أمر مستقبل؛ كأن يقول الحالف: والله لا ألبس هذا الثوب، أو: لا آكل هذا الطعام، أو: لا أدخل هذا البيت، أو: لا أكلم فلاناً، فهذه كلها أمور مستقبلة. أما إذا حلف على أمر ماضٍ فلا تتعلق به كفارة؛ لأنه إما أن يكون صادقاً أو كاذباً، فإن كان صادقاً فلا شيء عليه، وإن كان كاذباً فهي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار. وقيل: إن اليمين الغموس هو ما اقتطع بها مال امرئ مسلم؛ كأن يترافع اثنان عند حاكم شرعي، فتطلب البينة من المدعي، فلا يكون عنده بينة، فيتوجه اليمين إلى المدعى عليه، فيبذل اليمين وهو كاذب؛ ليستبقي ما في يده، أو لينال ما لا حق له فيه.

وكثير من الناس يتساهل في الأيمان، فيحلف على أمر مضى أنه قد وقع، وهو لم يقع، ويشتد الأمر لو وثقه بأن حلف على المصحف؛ يقال له: احلف

= الذي هو خير، ويكفر عن يمينه برقم (١٦٥٢).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الأيمان، باب ندب من حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها برقم (١٦٥٠).

على المصحف، فيضع يده على المصحف ويحلف. فينبغي للمؤمن العاقل ألا يكثر الحلف، ولا يحنث لغير حاجة، وإذا حنث، فلا يدعها من غير تكفير.

❋ مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لما تضمنته من الأمر بحفظ الأيمان.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب حفظ اليمين، وعدم ابتذاله.

٢ ـ أن حفظ اليمين احترام لجناب المحلوف به، وهو الله تعالى.

قوله: (عن أبي هريرة ﵁ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: الحلف مَنفقة للسلعة) (منفقة) بفتح الميم، والمراد: ترويج للسلعة؛ لأن البائع الذي ينادي على سلعته ويقول: والله أعطيت فيها كذا وكذا، ولم يعطَ، يُنَفِّق سلعته بالحلف الكاذب.

قوله: (ممحقة للكسب) المحق: الإتلاف والإهدار. عوقب بنقيض قصده. فهو، وإن استطاع أن يروج سلعته، إلا إن العاقبة وخيمة، فقد يسلط الله تعالى عليه آفة تمحق هذا الكسب، كما قال الله ﷻ: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

فوائد الحديث والآية:

١ ـ التحذير من ترويج السلع بالأيمان.

٢ ـ شؤم عاقبة من نفَّق سلعته بالحلف الكاذب.

٣ ـ أن العبرة ليست بترويج السلعة وبيعها؛ بل بما يجعله الله تعالى من بركة. وهذا أمر يجب أن يكون نصب عيني الإنسان، فلا يكون همه جمع الأموال؛ فلو جمع أموال الناس بالباطل، ثم لم يبارك له فيه، كان زاداً له إلى النار، وخسر الدنيا والآخرة. فقليل مبارك خير من كثير منزوع البركة.

قوله: (وعن سلمان) هو: سلمان الفارسي، أبو عبد الله، صحابي مشهور، هاجر من فارس إلى المدينة، ليلقى رسول الله ﷺ في قصة مشهورة، أشار بحفر الخندق. مات سنة ست وثلاثين.

قوله: (أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثة لا يكلمهم الله)؛ أي: لا يكلمهم الله

تعالى تكليم تكريم، وإلا فقد يكلمهم تكليم تأنيب، كما يقول لأهل النار: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] وهذا على سبيل التبكيت.

قوله: (ولا يزكيهم)؛ أي: لا يطهرهم ولا يوفقهم إلى التوبة بسبب هذه الأعمال التي اقترفوها.

قوله: (ولهم عذاب أليم)؛ أي: شديد الألم، موجع؛ وذلك في الآخرة.

قوله: (أشيمطٌ زانٍ) تصغير أشمط، وصغره للتحقير، والمقصود به من كان به شيب، فهو كناية عن تقدمه في السن؛ وذلك أنه جمع بين وصفين، اجتماعهما سبة له: أنه بلغ من الكبر أن شاب شعره، ومع ذلك يقارف الزنا، فالذنب في حقه مضاعف؛ لأنه وقع مع ضعف الداعي، فهو أعظم جرماً مما لو وقع ذلك من شاب شديد الشهوة

قوله: (وعائل مستكبر) وهذا اجتمع فيه وصفان لا يجتمعان في العادة؛ الفقر، والكبر، والكبر مذموم مطلقاً، لكن لو وقع من غني لقيل: غره ماله، وما بين يديه من الخدم والحشم، وتعلق الناس به، لكن كيف يتكبر عائل صعلوك؟

قوله: (ورجل جعل الله بضاعته)؛ أي: جعل اسم الله وسيلة لتسويق بضاعته، ومركباً لنيل لعاعة من الدنيا؛ لا يشتري ولا يبيع إلا بيمينه؛ إذا أراد أن يشتري، يقول: والله! قد وجدته بأقل، وإذا أراد إن يبيع قال: والله! قد عُرض عليّ أكثر. أو نحو هذه العبارات. ويعتبر هذا نوعاً من المهارة، والحذق، في ترويج السلع، كما يقع لكثير من الباعة، ويغفلون، في حمَّى الطمع، والجشع عن العواقب، فاستحق هؤلاء المتبجحون الثلاثة هذا الوعيد الشديد: «**لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**».

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من الوعيد الشديد على من استهان بالأيمان، واتخذها سُلَّماً لعرض دنيوي.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم الزنا، وشدة قبحه من الكبير.

٢ ـ تحريم الكبر، وشدة قبحه من الفقير.

٣ ـ التحذير من استعمال الحلف في البيع والشراء.

٤ ـ وجوب احترام اسم الله وإجلاله.

٥ ـ إثبات صفة الكلام لله ﷻ؛ لقوله: «**لا يكلمهم الله**» لأنه يكلم سواهم.

٦ ـ أن التزكية تكون من الله؛ ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**»[1]، فلا تزكو النفوس إلا بتزكية الله ﷻ. ومن الناس من يجتهد في الرياضات، والمجاهدات، دون أن يستحضر هذا المعنى، فلا يصل إلى مبتغاه، فقد يحمل نفسه على الأمور الشديدة، ويدع الملاذ والشهوات، يريد بذلك أن يتسامى بنفسه؛ لكنه لا يبلغ مراده، حتى يستعين بمعبوده، ويسأله أن يزكي نفسه، فييسر الله له أسباب الهدى، وطهارة النفس، بجهد أقل.

قوله: (وفي «الصحيح») المراد ها هنا: الصحيحان.

قوله: (عن عمران بن حصين رضي الله عنه**)** صاحب رسول الله ﷺ، وقد تقدمت ترجمته.

قوله: (قال: قال رسول الله ﷺ: خير أمتي قرني) القرن المراد به: الطبقة المقارنين من الناس، فمن قارنك وعاصرك فهم قرنك، وأصحاب النبي ﷺ هم قرنه. والمراد بالأمة هنا: أمة الإجابة، لوصفهم بالخيرية، فهم الذين سبقت لهم من الله الحسنى، بأن استجابوا له ﷺ ودخلوا في عقد الإسلام. وأما أمة الدعوة: فتشمل كل من وجد بعد بعثة النبي ﷺ إلى قيام الساعة؛ لأن الدعوة موجهة إليهم، وعليه قول النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة في صحيح مسلم: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة؛ يهودي، ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[2]. وقرن النبي ﷺ الصحابة الكرام، والصحابي: هو من لقي النبي ﷺ مؤمناً به في حياته، ومات على ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل برقم (٢٧٢٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبيّنا محمد ﷺ إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته برقم (١٥٣).

قوله: (ثم الذين يلونهم) وهم التابعون الكرام، الذين أدركوا الصحابة.

قوله: (ثم الذين يلونهم)؛ أي: أتباع التابعين.

قوله: (ثم الذين يلونهم)؛ أي: أتباع أتباع التابعين.

قوله: (قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً) شك عمران، لكن الحديث الذي يليه يرجح أنه ذكر بعد قرنه مرتين؛ ولهذا يُعبّر العلماء بالقرون الثلاثة الفاضلة، وهم الصحابة، والتابعون، وأتباع التابعين. وهم خير أمة محمد ﷺ، وهم أهل الرواية والدراية، وهم الذين حفظ الله بهم الدين، وفيهم المحدثون الكبار، والفقهاء الراسخون في العلم، والعبَّاد الصالحون. فهم، من حيث الجملة، أفضل ممن جاء بعدهم.

ولا يمتنع أن يأتي أفراد في قرون متأخرة، أفضل من أفراد في قرون متقدمة. ولا يمتنع أن يوجد في القرون الثلاثة الفاضلة أقوام من أهل البدع والأهواء، كما هو معلوم مشهور؛ كالخوارج، والرافضة، والقدرية. لكن البدعة، كلما بعد زمنها عن عهد النبوة، غلظت واشتدت. وكذلك المبتدعة أنفسهم، يكثرون في الأزمنة المتأخرة، ويقلون في الأزمنة المتقدمة.

وأصحاب القرون الثلاثة يسمون في الاصطلاح: السلف الصالح، لكن مصطلح السلف ينسحب على من سار على طريقتهم، ولو تأخر زمانه. فقد يقال عن عالم ما: سلفي، وهو في القرن الخامس عشر الهجري، والمراد بوصفه بالسلفية: أنه سار على طريقة السلف الصالح، وقد يوصف شخص بأنه: خَلَفي، وهو في القرون الأولى؛ لأنه لم يسر على طريقتهم.

قوله: (ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون)؛ أي: أنهم يبذلون الشهادة دون طلب؛ لفسقهم، وعدم اكتراثهم، واستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تثبتهم وتحريهم للصدق.

قوله: (ويخونون ولا يؤتمنون) الخيانة: هي الخداع في موضع الائتمان، فهم مخادعون، لا يأمنهم الناس على أموالهم، ولا مصالحهم.

قوله: (وينذرون ولا يوفون)؛ أي: يلزمون أنفسهم بأمور، ثم لا يفون بهذه النذور.

قوله: (ويظهر فيهم السِّمَن) السمن: هو كثرة اللحم والشحم، وكأن المراد: إقبالهم على ملاذ الدنيا، واشتغالهم بالمآكل والمشارب، حتى ظهر فيهم السمن، وصارت سمة عامة لقرنهم، خلاف القرون الفاضلة. وقد وجد هذا بالفعل في التاريخ الإسلامي. وهذا وصف طردي، لا يراد به أن السمنة حرام، فتلك أمور قدرية، ترجع إلى أسباب عضوية، كما قال النبي ﷺ في الخوارج: «**سيماهم التحليق**»(١)، مع أن حلق شعر الرأس في المناسك أفضل من تقصيره؛ لكنه ذكر وصفاً طردياً، لا يريد به ﷺ تحريم الحلق، وإنما من باب الإخبار، بهذه العلامة الفارقة التي تكثر فيهم. ولهذا لما قام صبيغ بن عسل في مسجد رسول الله ﷺ وقال قولاً، نزل عمر ﷺ من المنبر، وأتى إليه، وكشف رأسه، قال: «لو وجدتك محلوقاً لضربت رأسك»(٢)؛ ظن أنه من الخوارج.

مناسبة الحديث للباب:

خفيَّة، تستنبط من قوله: «**يشهدون ولا يستشهدون**» لأن اليمين تقارن الشهادة عادة.

فوائد الحديث:

١ ـ فضل القرون الثلاثة الفاضلة، أو الأربعة، وهم: الصحابة، والتابعون، وتابعوهم بإحسان.

٢ ـ ذم التساهل والمسارعة في الشهادة.

٣ ـ أن الشهادة واليمين لا تتعين ولا تتوجه إلا عند حاكم شرعي. وكثير من الناس يحرجه غيره، ويقول له: احلف على كذا! يتنازع الزوجان؛ فيقول الزوج لزوجته: احلفي على كذا، أو تقول الزوجة لزوجها: احلف على كذا، أو يقول الصاحب لصاحبه: احلف على كذا! فلا يجب عليه بذل اليمين، فله أن يقول: أنا لست ملزماً بالحلف.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم برقم (٧٥٦٢).

(٢) الشريعة، للآجري (١/ ٤٨٢)، والإبانة الكبرى، لابن بطة (١/ ٤١٤)، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة (٤/ ٧٠٢).

٤ ـ ذم الخيانة، وفضل الأمانة.

٥ ـ ذم عدم الوفاء بالنذور ووجوب الوفاء بها؛ لقوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٧].

٦ ـ ذم الترف والتوسع في المآكل والمشارب التي تورث السمن.

٧ ـ علم من أعلام النبوة، حيث أخبر النبي ﷺ بأمور مستقبلة، ووقعت كما أخبر.

قوله: (وفيه: عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته») هذا يدل على المسارعة في بذل الأيمان، والشهادات، فلا يدري يحلف أولاً أو يشهد أولاً؛ أي: يقدم الشهادة أو الحلف؛ لسهولة الأمر عليه. بخلاف أهل الورع والتقى؛ فإذا أراد أحدهم أن يقول كلمة وَزَنَها، وفكَّر في آثارها، ومقتضياتها، فلا يقول إلا حقاً، يحتاط لدينه، ويحترز لنفسه، ولا يبذل اليمين إلا في موضعه، هذا هو الواجب على المؤمن. أما هؤلاء المذمومون فقد هانت عليهم الشهادة، وهان عليهم اليمين، وهان عليهم اسم الله ﷻ، حتى صار من أرخص الأشياء، يبذلونه بطلب وغير طلب.

قوله: (قال إبراهيم) هو: النخعي رحمه الله.

قوله: (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار)؛ أي: كان السلف يؤدبون صبيانهم على الشهادة، بألا يحلفوا، ولا يشهدوا، إلا بحق. وإذا حنثوا أدَّبوهم على ذلك.

وهكذا ينبغي لأهل الإسلام أن يُنشِّؤا ناشئتهم؛ صبيانهم وبناتهم على تعظيم اسم الله ﷻ، وشعائر الدين، فهذا أمر يستنبت في القلوب منذ الصغر. فعلى المربِّين؛ من الآباء، والأمهات، والمعلمين، تعظيم شعائر الله؛ لأن الطفل كالمرآة الصقيلة، يظهر وينطبع فيه كل شيء؛ فإذا ربَّى الإنسان صغاره على تعظيم جناب الله ﷻ، وعدم المساس بالحرمات، نشأ معظماً لذلك، مجلّاً له، وإذا رأى أنه يحلف بالله، ويخفر العهد، ثم لا يجد من يوبخه ويؤنبه، تساهل بذلك.

❊ مناسبة الحديث والأثر للباب:

ظاهرة، لما فيه من التحذير من المسارعة في بذل الأيمان، والتربية على احترامه.

ويُستفاد منه:

١ ـ أن القرون الفاضلة هي الثلاثة الأولى اتفاقاً، فلم يقع فيه شك كما في حديث عمران.

٢ ـ ذم التسرع في الشهادة واليمين.

٣ ـ عَلَم من أعلام النبوة، حيث أخبر النبي ﷺ بأمر مستقبل، فوقع كما أخبر.

٤ ـ حرص السلف الصالح على تربية أولادهم على تعظيم جناب الله.

❊ ❊ ❊

📖 ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى **الوصية بحفظ الأيمان.**

لقوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾.

الثانية **الإخبار بأن الحلف: «منفقة للسلعة، ممحقة للبركة».**

كما أخبر النبي ﷺ، فهو ينفِّق السلعة ويروجها، لكن العاقبة وخيمة، فإنه يمحق البركة.

الثالثة **الوعيد الشديد في من لا يبيع إلا بيمينه، ولا يشتري إلا بيمينه.**

وقد جاء ثلاثة أنواع من الوعيد: **«لا يكلمهم الله، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم»**.

الرابعة **التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.**

جرى التنبيه بمثالين: **أحدهما**: «**أشيمط زانٍ**» فداعي الشهوة عنده ضعيف، **ثانيهما**: «**عائل مستكبر**» فالفقر لا يوجب الكبر؛ بل ضد ذلك.

الخامسة **ذم الذين يحلفون، ولا يُستحلفون.**

لكن هذا ليس على إطلاقه، فقد حلف النبي ﷺ ولم يستحلف في مواضع عدة؛ بل أمره الله سبحانه أن يحلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف، في قوله: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣]، وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، وفي قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وذلك لغرض التأكيد.

السادسة **ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة، وذكر ما يحدث بعدهم.**

لقوله: «**خير الناس**» أو «**خير أمتي**» فهذا التخيير شهادة نبوية لأهل تلك القرون، ولا شك أن السلف خير من الخَلَف، وإنما ظهرت البدع وانتشرت في الخَلَف، وبذلك يتبين بطلان عبارة المتكلمين: «مذهب السلف أسلم، ومذهب الخلف أعلم وأحكم» فيقال: هذه كلمة متناقضة؛ لأن السلامة ثمرة للعلم والحكمة، فكيف تصفون السلف بالسلامة، ولا تصفونهم بالعلم والحكمة، وأنى للخلف أن يوصفوا بالعلم والحكمة، ولا يوصفون بالسلامة؟ فلو كان عندهم علم وحكمة لسلموا، لكنهم وقعوا في مزالق خطيرة، حيث رغبوا عن طريقة السلف الصالح، واختاروا لأنفسهم طرق دخيلة. فمذهب السلف أسلم وأعلم وأحكم.

السابعة **ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.**

لدلالته على المسارعة، وهذا إذا لم يحتج إلى شهادتهم، فإذا دعوا للشهادة لزم القيام بها، وحرم كتمانها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقال: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

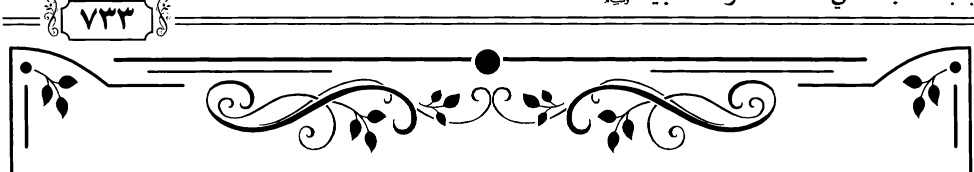
الثامنة كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

وهذا ضرب تأديب، وهو يدل على أن الضرب أسلوب تربوي، خلافاً لما يروِّجه بعض أدعياء التربية في العصور الأخيرة، فإنهم يذمون الضرب بإطلاق، ويعتبرون أنه منافٍ لحقوق الإنسان، وحقوق الطفل، وحقوق المرأة، كيف والله ﷻ قد قال في آية النشوز: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤] وإنما أراد الله ﷻ الضرب غير المبرح، لا الضرب الذي يُسمى في عرف المتأخرين: «العنف الأسري»، لكنه ضرب تأديب يطامن النشوز، والترفع على الزوج؛ فإن وجود ألم بدني يطفئ فوعة الكبر والترفع لدى الزوجة، هذا إذا لم تُجْدِ الوسيلتان الأوليان، وهما: الموعظة والهجر، فهو أسلوب تربوي قرآني معتمد، فلا يستحي منه الإنسان، أو يحاول أن يعتذر عنه، وهو شرع الله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

وكذلك في تربية الأبناء والبنات قال النبي ﷺ: «**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها لعشر سنين**»(١)، فهذا الضرب ضرب تأديب وتهذيب؛ لأن الإيلام الجسدي، ينبه الصبي والجارية على الالتزام. لكن لا يكون الضرب بدافع التشفي والحنق، كما يقع من بعض الآباء والأمهات، حيث يضربون أبناءهم ضرباً مبرحاً، فهذا لا يجوز شرعاً. فالولد إذا لم يجدِ معه الكلام الرفيق، والترغيب والترهيب، فلا حرج حينئذٍ أن يمسه بشيء من ألم؛ لكي يحصل ما فيه مصلحة له. والإيلام له صور متعددة، فالطفل يُوخز أحياناً، بالإبرة، ولا يرى الناس في ذلك بأساً! لأن له فيها مصلحة وهو العلاج، وربما استعمل بعض الناس الكي، وربما حصل منهم تأنيب بالكلام المقذع أشد من الضرب. فالمقصود: أن التربية لها صور متعددة، لكن على المربي دوماً أن يستصحب روح الشفقة والنصح على من تحت يده من زوج، أو ولد، ولا يتخذ من هذه الأساليب سبيلاً للتشفي، والانتقام، وإنفاذ الغيظ.

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٣٢٣٤)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (٦٧٥٦) وقال محققو المسند: «إسناده حسن».



باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيّه ﷺ

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١].

وعن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله.

اغزوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكُف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين.

فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيّه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيّه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم أن تَخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيّه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله، أم لا»(١)، رواه مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيته =

الشرح

⌘ مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

رعاية ذمة الله وذمة نبيّه ﷺ من تعظيم حق الله ورسوله، كما أن إخفار ذمة الله وذمة نبيه ﷺ ضد ذلك. فحماية ما يتعلق باسمه وذكره، من التوحيد الواجب.

قوله: (باب: ما جاء في ذمة الله وذمة نبيّه)؛ أي: من التعظيم، ووجوب الوفاء بها، ورعايتها. والمقصود بالذمة: العهد، وهو ما يكون بين المتعاقِدِين أو بين المتعاقَدين، من صلح، أو شرط.

قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ الإيفاء: هو إعطاء الحق تامّاً. وعهد الله له صور متعددة، **منها**:

- **البيعة**: فإذا أعطى الإنسان صفقة يده، وثمرة فؤاده، لسلطان، فإنه لا يجوز أن ينقض عهده، ويخرج عليه. وقد جاء في لزوم ذلك نصوص كثيرة.

- **العقود والصلح**: الذي يجري بين المسلمين وأعدائهم، فيجب الوفاء به، ويحرم نقضه.

- **اليمين**: فإذا بذل اليمين لأحد موثّقاً عهده، بذكر اسم الله ﷻ، فإنه لا يجوز له أن يخفر ذلك، ويحنث في يمينه، كما تقدم في باب: (ما جاء في كثرة الحلف).

قوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾؛ أي: لا تحلوا عقدة اليمين والعهود المبرمة، سواء كان ذلك في بيعة أو في أي يمين، أو كان في بيع وشراء.

قوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ تُوكيدها بذكر اسم من أسماء الله تعالى. وتتمة الآية: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ وهي جملة حالية؛ أي: لا يليق بكم ذلك. وأتبعها بما يشعر بالوعيد، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾؛ أي: ما تفعلونه من نقض العهود والأيمان.

= إياهم بآداب الغزو وغيرها برقم (١٧٣١).

مناسبة الآية للباب:

ظاهرة، لما في الآية من الأمر بالوفاء بعهد الله، والنهي عن نقض الأيمان المؤكدة باسمه.

فوائد الآية:

١ ـ وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق؛ وهذا أصل عظيم من أصول الأخلاق؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**إني لا أخيس بالعهد**»؛ أي: لا أنقضه «**ولا أحبس البُرد**»[1]؛ أي: صاحب البريد؛ لأنه دخل بأمان، فهذا من أخلاق الإسلام المعتبرة.

٢ ـ تحريم نقض العهود؛ ويتناول ذلك كل عهد وميثاق أبرمه المؤمن مع غيره، سواء كان مع مؤمن مثله، أو مع كافر، فإن الأمر لا يختلف.

فأهل الإسلام فإنهم يرعون العهود والمواثيق، حتى أن الله تعالى قال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] فمن شدة رعاية العهود والمواثيق أنه إذا قامت قرائن على الخيانة، وخاف أهل الإسلام أن يغدر بهم عدوهم، فإنهم لا يبادؤونهم بالغدر؛ بل ينبذون إليهم عهدهم على سواء، علانية، ويقولون: ليس بيننا وبينكم عهد ولا ميثاق؛ أي: نحن وأنتم في حل. وذلك إلا إذا بدت قرائن ومقدمات، وإلا فإنهم أحفظ الناس للعهود.

٣ ـ الوعيد على من نقض العهود والمواثيق.

قوله: (عن بريدة) هو: بريدة بن الحُصَيب، أبو سهل الأسلمي، أسلم قبل بدر. مات سنة ثلاث وستين رضي الله عنه.

قوله: (قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية، أوصاه بتقوى الله) كان النبي ﷺ يسعى في نشر دين الله، وتبليغ رسالات ربه، بما وسعه، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله. وفي هذا رد على بعض المتخاذلين الذين يعتذرون إلى الكفار، فيزعمون أن الجهاد في الإسلام للدفاع فقط! والحق أن

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في الإمام يستجن به في العهود برقم (٢٧٥٨) وصححه الألباني.

الجهاد في الإسلام يكون للدفع، ويكون للطلب. فمن مقاصد الشريعة أن تكون كلمة الله هي العليا، وهذا لا يتأتى، أحياناً، إلا بالسيف والسنان. والجهاد أوسع من القتال؛ فالجهاد يتناول الجهاد باللسان، والبيان، كما يتناول الجهاد بالجوارح؛ وهو القتال، ولا يجوز إخراج القتال من الجهاد كما يفعل بعض المعتذرين المسكونين بالتهمة، فيحاولون أن يبرؤوا الإسلام ـ زعموا ـ من أن يكون قد انتشر بالجهاد في سبيل الله، فنقول: نعم قد انتشر الإسلام بالجهاد في سبيل الله، والنبي ﷺ يقول: «**وجُعل رزقي تحت ظل رمحي**»(١)، وأخبر بأنه: «**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**»(٢)، وهم الطائفة المنصورة. وأهل الإسلام هم أرحم الخلق بالخلق؛ يسوقونهم إلى الجنة سَوقاً، ويدلُّونهم على الخير دلّاً.

وهم كما قال المنصفون من الباحثين الغربيين: أرحم الفاتحين، فلا يُعلم فاتح، أو متغلب، رفق بالمغلوب، كما رفق أهل الإسلام بغيرهم؛ لأن مقاصدهم ليست مقاصد دنيوية، وإن جرى لهم مغانم تبعاً، وإنما إدخال الناس في دين الله. لهذا كان النبي ﷺ يجهز الجيوش والسرايا. أما الجيش: فهو كثير العدد، وأما السرية: فإنها تبلغ نحو أربعمائة فرد. والسرية، ربما خرجت من البلد ابتداءً لمهمة خاصة، وربما تنفصل عن الجيش لأداء مهمة استطلاعية، وربما تنفرد للحراسة، وحفظ مؤخرة الجيش. وقد رتبت الشريعة على هذه الأحوال أحكاماً متعددة في أبواب الجهاد، فجعلت لمن يخرج في السرية إن خرج من البلد الخُمس، وإذا كانوا قد انفصلوا من الجيش في مبتدأ أمرهم فإن لهم: الربع بعد الخُمس، وإذا كانوا بعد رجوعه يحرسون مؤخرتهم فلهم الثلث بعد الخمس؛ لأن الخطر فيه أشد، على تفاصيل معروفة في كتاب الجهاد، من أبواب الفقه.

ودل **قوله**: (**إذا أَمّر أميراً**) على أنه لا بد من إمارة؛ فلا يصلح الناس فوضى لا سَراة لهم، لا سيما في هذه الأمور الخطيرة التي تتطلب اتخاذ قرار؛

---

(١) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في الرماح (٤/ ٤٠) وأخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٥١١٥) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف».

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبيّنا محمد ﷺ برقم (١٥٦).

ولهذا أمر النبي ﷺ إذا كان ثلاثة في سفر، أن يؤمِّروا عليهم أميراً، فقال: «**إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم**»(١)، حتى يحسم الخلاف، وليس من شأن الأمير أن يتشهى في حكمه، وإنما يتحرى الصواب والأصلح لمن تحت إمرته، بعد أن يشاورهم في الأمر. قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قوله: (أوصاه) الوصية: هي العهد بالشيء على وجه الاهتمام.

قوله: (بتقوى الله تعالى) هذه أعظم وصية، وقد وصّى الله تعالى بها الأولين والآخرين، فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، لا سيما لهؤلاء الذين استقبلوا الجهاد في سبيل الله، ومواجهة العدو، والدعوة إلى الإسلام. والتقوى: أن يجعل بينه وبين عذاب الله وقاية؛ بفعل أوامره، وترك مناهيه.

قوله: (وبمن معه من المسلمين خيراً)؛ أي: وأوصاه أن يرفق بهم، ويحتاط لهم، ولا يشق عليهم، ولا يعرضهم للتهلكة، وأن يشاورهم في الأمر. فإن الأمير يحتاج إلى الوصية بذلك، فإذا كان الأمير مستبداً، أو فظاً غليظ القلب، فإنه يعنت على من معه، وقد كان النبي ﷺ شديد الرفق بأمته، كما وصفه ربه بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات: ٧]؛ وهكذا ينبغي أن يكون خلفاؤه من بعده، سواء كانت خلافة عامة، أو خاصة، فيستوصوا بمن معهم من المسلمين خيراً.

قوله: (فقال: اغزوا) فعل أمر من الغزو؛ أي: اشرعوا في الغزو، وهو الجهاد في سبيل الله.

قوله: (بسم الله) الباء يحتمل أن تكون للاستعانة؛ أي: مستعينين بالله، وتحتمل أن تكون للابتداء؛ أي: ليكن أول ما تقولونه: «**بسم الله**»، كما يقول الإنسان هذه الكلمة الطيبة عند ابتداء الطعام، والشراب، ودخول المسجد،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمِّرون أحدهم برقم (٢٦٠٨) وقال الألباني: «حسن صحيح».

ودخول المنزل، ونحو ذلك، فإن هذا الاسم الشريف ما قارن شيئاً إلا حلت فيه البركة، ولا نُسي في شيء إلا نُزعت منه البركة، وشواهد هذا كثيرة. ولا مانع من حملها على الأمرين معاً.

قوله: (في سبيل الله) هذه جملة عظيمة؛ أي: اعقدوا نياتكم على أن يكون غزوكم في سبيل الله؛ لأن القتال ربما وقع حمية، أو شجاعة، أو لغرض الغنيمة؛ ولهذا لما سُئل النبي ﷺ: فإن أحدنا يقاتل غضباً، ويقاتل حميَّة، قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله** ﷻ»[١]. فيجب أن يكون هذا هو الدافع للغزو، لا دوافع وطنية، ولا قومية، ولا حزبية، ولا دنيوية، يجب أن يكون الغزو في سبيل الله؛ أي: لتكون كلمة الله هي العليا، وهذا هدف واضح بيّن، ومقصد شرعي، وأما ما سواه فلا، إلا ما يدخل في ذلك تبعاً، كما قال الله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٣] وقال: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠].

قوله: (قاتلوا من كفر بالله) كما قال في آية أخرى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: ٢٩]. لكن هذا يختلف من زمن إلى زمن، ويجب أن يكون وفق السياسة الشرعية التي يقدرها أهل الحل والعقد، وولاة الأمور من المسلمين، فلا ينفرد بهذا آحاد وأفراد، وإلا صارت الأمور فوضى. فهذا أصل عظيم أن يكون الجهاد في سبيل الله، وأن يقاتل من كفر بالله.

قوله: (اغزوا ولا تغُلُّوا) الغلول: هو اقتطاع شيء من الغنيمة قبل قسمتها، وهو من الكبائر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]. ولما قال بعض الصحابة: فلان شهيد، قال ﷺ: «**كلا، إني رأيته في النار في بردة غلها، أو عباءة**»[٢]، وسُئل عن رجل، فقال: «**بلى، والذي نفسي بيده، إن**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب من سأل، وهو قائم، عالماً جالساً برقم (١٢٣)، ومسلم في الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا برقم (١٩٠٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول، وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون برقم (١١٤).

الشملة التي أصابها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً»[١]، نسأل الله العافية.

قوله: (ولا تغدروا) الغدر: هو الخيانة في موضع الائتمان، وهو من الصفات الخبيثة التي برّأ الله تعالى منها نبيّه والمسلمين، فليس من شأن أهل الإسلام الغدر بحال. ومن الغدر نقض العهد، وهذا أحد أوجه مناسبة هذا الحديث للباب، فالغدر مذموم، ولا يقره الشرع، سواء على مستوى الأفراد، أو على مستوى الغزاة أو الجيش.

قوله: (ولا تمثّلوا) التمثيل: تشويه القتيل بقطع بعض أعضائه، فقد كان الناس في الحروب يتشفون من خصومهم بجز نواصيهم، وقطع أنوفهم، وآذانهم، وأطرافهم، ونحو ذلك، يفعلون ذلك بدافع الغيظ، والحنق. حتى إن المشركين فعلوا ذلك في أصحاب النبي ﷺ يوم أُحد، فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنُربينَّ عليهم، فلما كان فتح مكة، أنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦][٢]، ثم قال ﷺ: **«ولا تمثّلوا»**.

قوله: (ولا تقتلوا وليداً) الوليد: الصبي الصغير، وقد يطلق على العبد الرقيق، وقد جاء في رواية: «**لا تقتلوا صبياً، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيراً، ولا مريضاً، ولا راهباً**»[٣]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى عن قتل النساء والصبيان[٤]، فهذه أخلاق عالية لم ترتق إليها المعاهدات الدولية.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة خيبر برقم (٤٢٣٤)، ومسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون برقم (١١٥).

(٢) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة النحل برقم (٣١٢٩)، والنسائي في الكبرى في سورة الإسراء برقم (١١٢٧٩) وقال الألباني: «حسن صحيح الإسناد».

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (١٨١٥٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب قتل النساء في الحرب برقم (٣٠١٥)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب برقم (١٧٤٤).

قوله: (وإذا لقيتَ عدوك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ) شك من الراوي، ولا يضر، هما بمعنى واحد. ودلت الجملة على هدف الجهاد في الإسلام.

قوله: (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكُف عنهم) (فأيتهن) مرفوعة بالابتداء، وخبره: (أجابوك).

قوله: (ثم ادعهم إلى الإسلام) (ثم) ربما كانت مقحمة في السياق؛ لأنها تدل على ترتيب غير مقصود، فالصواب إسقاطها بأن يقال: فاقبل منهم، وكف عنهم، وادعهم إلى الإسلام. فأول ما يبادأ به العدو من المشركين أن يُدعى إلى الإسلام، فيقال لهم: قولوا: لا إلٰه إلا الله، محمد رسول الله.

قوله: (فإن أجابوك فاقبل منهم)؛ أي: لا يحملنك طمع أن ترد إسلامهم لغرض دنيوي؛ من مغنم، أو غيره؛ فالمسلمون دعاة لا جباة.

قوله: (ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين) دار المهاجرين إذ ذاك هي المدينة، وقد كان هذا مطلوباً في ذلك الوقت؛ لأن من كان يؤمن من قبائل العرب يُدعى إلى أن يعزز سواد المسلمين في المدينة بالهجرة إليها، والدفاع عن بيضة الإسلام، والتهيؤ للنفير في سبيل الله. ولكن هذه الهجرة تابعة للسياسة الشرعية؛ ولهذا لم يجعلها شرطاً في قبول إسلامهم.

قوله: (وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين)؛ أي: إن هاجروا فإنه يحصل لهم من الأعطيات، ما يحصل للمهاجرين؛ لأنهم حبسوا أنفسهم، واستعدوا للنفير في سبيل الله متى ما طُلب منهم، فلذلك كان لهم حظ من بيت المال من الغنيمة، والفيء، كما أن عليهم ما على المهاجرين من النصرة.

قوله: (فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين) لم يجعل الهجرة شرطاً في قبول إسلامهم؛ بل أقرهم على أن يبقوا إن شاؤوا في دارهم وموطنهم، لكن عليهم أن يعلموا بأن حكمهم كأعراب المسلمين، الذين يقيمون في بواديهم، ولا ينتقلون إلى دار الهجرة، يجري عليهم حكم المسلمين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء.

قوله: (**إلا أن يجاهدوا مع المسلمين**) فإن جاهدوا مع المسلمين فهم شركاء في الغنيمة.

قوله: (**فإن هم أبوا**) أبوا الدخول في عقد الإسلام، وأصروا على كفرهم.

قوله: (**فاسألهم الجزية**)؛ أي: افرض عليهم الجزية عن يد وهم صاغرون. والجزية: هو رسم مالي يكون على آحاد المشركين القادرين على بذله، فلا يحتسب طفل، ولا شيخ فانٍ، ولا عجوز فانية، وإنما يكون ذلك على الغني، والقوي المكتسب.

قوله: (**فإن هم أجابوك، فاقبل منهم، وكف عنهم**) وهدف الجزية أن تكون كلمة الله هي العليا؛ لأن بذلهم للجزية دليل الصغار، والخضوع لحكم أهل الإسلام، فيقرون على البقاء على ما هم عليه، ويسمون أهل ذمة.

وهذه المسألة وقع فيها الخلاف:

١ ـ فذهب الإمام الشافعي[١] وأحمد[٢] إلى أن أحكام الذمة تتعلق باليهود والنصارى فقط.

٢ ـ وذهب الإمام مالك[٣] إلى أنها تتناول كل مشرك، وكتابي، عربي أو أعجمي. وحديث بريدة يؤيد ما ذهب إليه مالك رَحِمَهُ الله؛ لأنه قال: «**إذا لقيتَ عدوك من المشركين**» ولم يقيد هذا بمشركي أهل الكتاب.

٣ ـ إلا أن أبا حنيفة[٤] رَحِمَهُ الله استثنى مجوس العرب ومشركيهم، فقال: مجوس العرب ومشركيهم لا يقبل منهم جزية. فصارت الأقوال في هذه المسألة ثلاثة.

قوله: (**فإن هم أبوا، فاستعن بالله وقاتلهم**) تلك هي الخصلة الثالثة، إذا أبوا الإسلام، وأبوا الجزية، فما بقي إلا القتال. ونبَّه على أمر الاستعانة بالله

---

(١) الأم، للشافعي (٤/ ٢٥٤)، والحاوي الكبير (١٤/ ٢٨٤).

(٢) المغني (١٠/ ٥٥٨).

(٣) المدونة (١/ ٥٢٩)، والنوادر والزيادات على ما في المدونة من غيرها من الأمهات (٢/ ٢١٤).

(٤) النتف في الفتاوى، للسغدي (١/ ١٩٠).

بين يدي القتال؛ لأن النصر من الله تعالى، كما قال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن) الحصن: البناء المنيع، الرفيع، الذي يتحصن بها المحاربون.

قوله: (فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيّه، فلا تجعل لهم ذمة الله، وذمة نبيّه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك) هذا هو موضع الشاهد من هذا الحديث للباب؛ فحينما يحاصر الجيش أو السرية حصناً من حصون المشركين، فينقطع عنهم المدد، والطعام، والشراب، وغير ذلك، يرضخون، ويلجؤون إلى الصلح، فربما قالوا: اجعل لنا ذمة الله وذمة نبيّه، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، صوناً لهما، وأحاله إلى ذمته وذمة أصحابه.

قوله: (فإنكم أن تخفروا ذممكم، وذمة أصحابكم، أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيّه) لأنه ربما وقع من الجيش، أو من بعض إفراده نقض للذمة، بسبب ظلم أو جهل، فحينئذٍ يعظم الجرم؛ لأنهم أعطوهم بالله، فلهذا نهاهم النبي ﷺ عن ذلك.

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن؛ فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله) هذه صورة أخرى: بأن يقولوا: أنزلنا على حكم الله؛ أي: شرع الله. وهذا لا يتأتى إلا لرسول الله ﷺ.

قوله: (فلا تنزلهم على حكم الله) ليس هذا صرفاً لهم عن حكم الله، وإنما أراد النبي ﷺ أنهم قد يصيبون حكم الله، وقد لا يصيبونه.

قوله: (ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله فيهم أم لا؟) أمره أن ينزلهم على حكمه الذي يتحرى فيه حكم الله، وقد يصيب، وقد يخطئ في إصابته، وفرق بين المقامين.

⁂ مناسبة الحديث للباب:

مطابقة، فقد تضمن النهي عن جعل ذمة الله، وذمة نبيّه في المعاهدات، خشية إخفارها.

فوائد الحديث:

١ ـ مشروعية الجهاد في سبيل الله، والرد على من زعم نسخ الجهاد.

٢ ـ مشروعية بعث السرايا والجيوش لهذا الغرض، وأن هذه من مهام الإمام.

٣ ـ مشروعية التأمير، وأن لا يُترك الناس فوضى.

٤ ـ مشروعية الوصية بتقوى الله ﷻ في جميع الأمور.

٥ ـ أن على الإمام أو الأمير بأن يرفق بمن معه من المسلمين.

٦ ـ أن الجهاد يجب أن يكون في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا.

٧ ـ تحريم الغلول، والغدر، والتمثيل، وقتل الأولاد.

٨ ـ وجوب البداءة بدعوة المشركين إلى الإسلام أولاً، وقبول ذلك منهم.

٩ ـ الدعوة إلى الهجرة إلى دار الإسلام إذا اقتضى الأمر ذلك.

١٠ ـ أن من هاجر إلى دار الإسلام استحق من الغنيمة والفيء، ومن لم يهاجر لم يستحق.

١١ ـ أن الجزية بديل عن الإسلام لمن أباه، لتكون كلمة الله هي العليا.

١٢ ـ أن الجزية شريعة ثابتة. وكثير من الإسلاميين العصرانيين، نتيجة لضغط الواقع، والتفوق المادي، والتقني، والعسكري، للأمم الأخرى على أهل الإسلام، وطغيان الأفكار الليبرالية، صاروا يعتذرون عن الشريعة، ويستحون من الإقرار بشريعة الجهاد في سبيل الله، ووجود الجزية في الإسلام، وكأنهم موكولون بالاعتذار عن الشرع، وهذا ليس إليهم؛ الدين دين الله، والله ﷻ أعلم بما حكم وشرع. وهذه الإجراءات ترجع إلى باب السياسة الشرعية، فأمر الجهاد، والجزية، تقدر بحسب الأحوال؛ فحينما تكون الأمة في حال ضعف، ولا تقوى على القتال في سبيل الله، تفعل ما هو أصلح لها، وهو المهادنة والصبر، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]؛ بل لو اقتضى الأمر أن يبذل أهل الإسلام ما يستدفعون به شر المعتدين، فلا مانع من ذلك، وقد جرى ذلك حينما أحاطت الأحزاب بالمدينة، فهمّ النبي ﷺ أن يصالح غطفان على ثلث ثمار المدينة، ويرجعوا عنهم. واستشار سعد بن معاذ،

وسعد بن عبادة في ذلك، فقالا له: يا رسول الله أمراً تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما**»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة، إلا قرىً أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذاك**»(١).

فهذه الأمور تتعلق بباب السياسة الشرعية، والذي يقدر الجهاد، والجزية، والصلح، هم ولاة الأمر، وأهل الحل والعقد، وليس متروكاً إلى الأفراد أن يجتهدوا فيه ما شاؤوا، ويتخذوا من الأفعال، والتصرفات ما شاؤوا، وإلا أصبح الأمر فوضى، وجرى على أهل الإسلام من المصائب والتبعات ما لا يخفى، فيجب على أهل الإسلام أن يكونوا يداً واحدة، وأن يأتمروا بأمر أمرائهم.

١٣ ـ وجوب الاستعانة بالله في جميع الأمور؛ لقوله: «**فاستعن بالله، وقاتلهم**»، وقال لمعاذ: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللَّهُمَّ أعنِّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»(٢)، فلا غنى للمؤمن عن الاستعانة بالله.

إِذَا لَـمْ يَـكُـنْ عَـونٌ مِـن الـلَّـهِ لِـلـفَـتـى فـأَوَّلُ مَـا يَـجـنـي عَـلَـيْـهِ اجْـتِـهـادُهُ(٣)

١٤ ـ احترام ذمة الله وذمة نبيّه ﷺ، والتفريق بينها وبين ذمة المسلمين.

١٥ ـ وجوب احترام حكم الله وحكم نبيّه ﷺ، والتفريق بينه وبين الاجتهاد الشخصي.

١٦ ـ عدم التعبير في المسائل الاجتهادية بعبارة «حكم الإسلام في كذا

---

(١) سيرة ابن هشام، ت: السقا (٢/ ٢٢٣).

(٢) أخرجه أبو داود في باب تفريع أبواب الوتر، باب في الاستغفار برقم (١٥٢٢)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١٢٢٦) وصححه الألباني.

(٣) هذا البيت نسبه في الفرج بعد الشدة، للتنوخي (١/ ١٧٧) للإمام علي، ولم نجده في ديوانه.

وكذا» سواء من السائل أو المجيب، إلا في الأمور القطعية التي قام عليها الدليل الصحيح الصريح. ولكن يجيب المجتهد بما يرى، ولا يقطع بأن هذا حكم الله، وحكم رسوله ﷺ.

١٧ ـ جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش، ومن معه.

١٨ ـ ارتكاب أخف المفسدتين دفعاً لأشدهما؛ لقوله: «**اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك**». فقد ينشأ عن هذا مفسدة، لكنها أخف من مفسدة خفر ذمة الله وذمة نبيّه، وكذلك بالنسبة للحكم، قال: «**فأنزلهم على حكمك وحكم أصحابك**» لأنه إن لم يصب حكم الله تكون المفسدة في ذلك أهون. وفوائد هذا الحديث كثيرة جمة، وفيما ذكر كفاية.

* * *

📖 ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى **الفرق بين ذمة الله وذمة نبيّه ﷺ وذمة المسلمين.**

ذمة الله وذمة نبيّه لها من الرعاية والاحترام القدر العظيم، وأما ذمة المسلمين فدون ذلك، مع وجوب رعايتها، والوفاء بها.

الثانية **الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.**

لقوله: «**فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيّه**».

الثالثة **قوله: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله».**

بأن يقع ذلك لله تعالى، وفي سبيل الله، ولإعلاء كلمة الله.

الرابعة **قوله: «قاتلوا من كفر بالله».**

وهذا نص في مشروعية الجهاد بالقتال والسيف.

الخامسة **قوله: «استعن بالله وقاتلهم».**

وجوب الاستعانة بالله ﷻ في جميع الأمور.

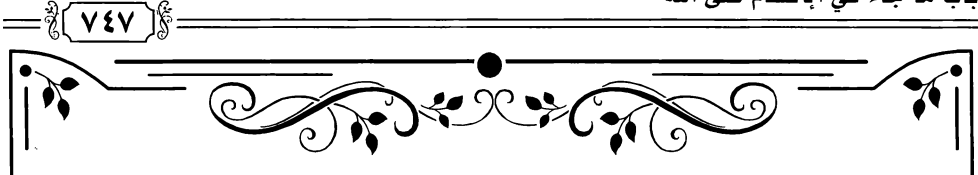
السادسة **الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.**

حكم الله تعالى قطعي الصحة والمصلحة، وحكم العلماء اجتهادي ظني، قد يصيب وقد يخطئ.

السابعة **في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟**

أي: لقوله: «**ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله فيهم أم لا؟**» وهذا ليس خاصاً بالصحابة؛ بل من بعدهم من باب أولى.

❀ ❀ ❀



باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله ﷻ: من ذا الذي يتألّى عليّ ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرتُ له، وأحبطتُ عملك»[1]، رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[2].

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لأن الإقسام على الله، على سبيل التحجُّر، من سوء الأدب، المنافي لكمال التوحيد.

قوله: (عن جندب بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل) اختصر المصنف هذا الحديث، وأصله كما في «سنن أبي داود» مرفوعاً: **«أن رجلين من بني إسرائيل كانا متواخيين، أو متآخين، فكان أحدهما يُذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصِر، فوجده يوماً على ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلِّني وربي، أبُعثتَ عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنتَ بي عالماً، أو كنتَ على ما في يدي**

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى برقم (٢٦٢١).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي برقم (٤٩٠١) وصححه الألباني.

قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهب به إلى النار». «قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» هذه الكلمة هي قوله: «والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة».

قوله: (من ذا الذي يتألى عليّ) استفهام إنكاري، وإلا فإن الله تعالى يعلم من هذا الذي تألّى. والتألّي: هو الحلف، والأليَّة: اليمين. كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ [النور: ٢٢]؛ أي: لا يحلف، وقال الله: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٢٦]؛ أي: يحلفون على عدم وطئهن، وقال الشاعر:

قَلِيلُ الألايَا حَافِظٌ لِيَمِينِهِ ... فَإِنْ سَبَقَتْ مِنْهُ الأَلِيَّةُ بَرَّتِ[1]

قوله: (ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك)؛ أي: أهدرته وأبطلته.

قوله: (وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد) ولفظه: «مجتهد في العبادة»، وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «أَنَّ رَجُلاً مَرَّ بِرَجُلٍ وَهُوَ سَاجِدٌ فَوَطِئَ عَلَى رَقَبَتِهِ، فَقَالَ: أَتَطَؤُ عَلَى رَقَبَتِي وَأَنَا سَاجِدٌ، لَا وَاللهِ، لَا يَغْفِرُ اللهُ لَكَ هَذَا أَبَداً، قَالَ: فَقَالَ اللهُ: اتَتَأَلَّى عَلَيَّ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ»[2].

قوله: (تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته) هذا من فقه أبي هريرة، وصدق أبو هريرة! فهذا رجل عابد، مجتهد في العبادة، فاه بكلمة عظيمة أتت على جميع عمله السابق؛ فمن هو حتى يحجّر رحمة الله الواسعة! كان يسعه أن يستمر في موعظته، وأن يقول له: اتَّقِ الله، ودع ما أنت فيه، لكن تمادى به الحال إلى أن قال هذا المقال! فأحبط الله تعالى عمله، ومعنى: (أوبقت)؛ أي: أهلكت وأضاعت.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ لأن الرجل أقسم على الله، وتحجَّر واسعاً.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم الإقسام على الله ﷻ على سبيل التحجر والتضييق.

---

(١) ديوان كثيِّر عزة (ص٣٨).

(٢) جامع معمر بن راشد (١١/١٨٣)، برقم (٢٠٢٧٥).

٢ ـ الحذر من فلتات اللسان، ونفثات الصدور، فإن الغضب ـ والعياذ بالله ـ يردي صاحبه في المهالك؛ ولما استوصى رجل النبي ﷺ فقال: «أوصني» قال: **«لا تغضب»** قال: «أوصني» قال: **«لا تغضب»** قال: «أوصني» قال: **«لا تغضب»** فردد مراراً، قال: **«لا تغضب»**(١)، فعلى الإنسان أن يتقي شؤم الغضب؛ ولهذا قال النبي ﷺ: **«وإذا غضب أحدكم فليسكت»**(٢)؛ لأنه إذا سكت سلم، فلم يبدر منه طلاق، ولا عتاق، ولا قذف، ولا شتيمة.

وقد ذكر النبي ﷺ للغضب **حلولاً متعددة**:

منها: إن كان قائماً فليقعد، وإن كان قاعداً فليستلق، لقوله ﷺ: **«إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع»**(٣).

ومنها: الوضوء، قال النبي ﷺ: **«فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»**(٤)؛ لأن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم، قال النبي ﷺ: **«ألا ترون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه»**(٥)، وإنما يطفئ النارَ الماء؛ فالوضوء يذهب الغضب؛ بل قد جاء أيضاً: «فليغتسل»(٦)، ووقع ذلك من معاوية رضي الله عنه حين سبه رجل وهو على المنبر، فنزل، وذهب، واغتسل، ورجع وهو يتقاطر من الماء، وذكر حديث الاغتسال(٧)؛ لأن هذا يبرد البدن والقلب.

٣ ـ خطر اللسان، كما جاء في الحديث: **«وهل يكب الناس على وجوههم**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب برقم (٦١١٦).

(٢) أخرجه أحمد، ط. الرسالة في (٢١٣٦) وقال محققو المسند: «حسن لغيره».

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب برقم (٤٧٨٢) وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب برقم (٤٧٨٤) وضعفه الألباني، وأحمد، ط. الرسالة برقم (١٧٩٨٥) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف».

(٥) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة برقم (٢١٩١) وقال الألباني: «ضعيف لكن بعض فقراته صحيح». وأحمد، ط. الرسالة برقم (١١١٤٣) وقال محققو المسند: «إسناده ضعيف».

(٦) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢/ ١٣٠)، وشرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة برقم (٢٧٧٥) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع برقم (٣٩٣٣).

(٧) فيض القدير (٤/ ٤١٣)، والفتح المبين بشرح الأربعين (ص٣٣٥).

في النار ـ أو قال ـ على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم»[(١)].

مسألة: يُشكل على ما تقدم: أن النبي ﷺ قال في حديث أنس بن النضر: **«رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين، لو اقسم على الله لأبره»**[(٢)]، وفي حديث آخر: **«كم من أشعث، أغبر، ذي طمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك»**[(٣)]. فكيف يجمع بينها؟

الجواب: الإقسام على الله ﷻ له **أربع حالات**:

الأولى: أن يقسم على ما أخبر الله تعالى به ورسوله: فهذا جائز؛ كأن يقول لشخص، وهو يعظه: يا فلان اتَّقِ الله ﷻ، والله الذي لا إلٰه إلا هو إن اتقيت الله ليجعلن لك مخرجاً، فهذا جائز؛ لأن هذا أقسم بناء على خبر الله ورسوله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢]. ومن ذلك ما كان يصنعه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيام حصار التتار لدمشق، حيث كان يطوف على الجند، وهم على الأسوار، ويحلف لهم أنهم منصورون، فيقولون له: قل: إن شاء الله، فيقول: أقول: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً[(٤)]؛ أي: أن الأمر لا يحتاج التعليق على المشيئة؛ لأن هذا بخبر الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وخبر الله لا يتخلف.

الثانية: أن يقسم على الله لقوَّة رجائه، وحسن ظنه بالله ﷻ: فهذا جائز، وعليه يحمل حديث أنس بن النضر، فإن أنس بن النضر من خيار الصحابة، سليم القلب، كان إذا أقسم على الله أبره، ومن ذلك أَنَّ الرُّبَيِّعَ وَهِيَ ابْنَةُ النَّضْرِ كَسَرَتْ ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فَطَلَبُوا الأَرْشَ، وَطَلَبُوا العَفْوَ، فَأَبَوْا، فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ؛ فَأَمَرَهُمْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة برقم (٣٩٧٣)، والترمذي، ت: شاكر في أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة برقم (٢٦١٦) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب الصلح في الدية برقم (٢٧٠٣)، ومسلم في القسامة، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها برقم (١٦٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي، ت: شاكر، في أبواب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك رضي الله عنه برقم (٣٨٥٤) وصححه الألباني.

(٤) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٨٧).

بِالقِصَاصِ، فَقَالَ أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ: أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فَقَالَ: «**يَا أَنَسُ كِتَابُ اللهِ القِصَاصُ**»، فَرَضِيَ القَوْمُ وَعَفَوْا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»، زَادَ الفَزَارِيُّ، عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسٍ: فَرَضِيَ القَوْمُ وَقَبِلُوا الأَرْشَ[١]. ومن ذلك قصة البراء بن مالك، وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ إذا حمى الوطيس، واحتدم القتال مع المشركين، يأتون إليه، ويقولون: أقسم على ربك لما منحتنا أكتافهم[٢]، فما هو إلا أن يقسم على ربه حتى يمنحهم الله أكتافهم. فإذا صدر هذا من إنسان يعلم حاله مع ربه ﷻ، ونتج ذلك عن حسن ظن بالله، فهو جائز.

الثالثة: أن يقسم إنسان على الله ﷻ لعجبه بنفسه، وغروره: فهذا حرام، فكيف يقسم على الله وهو يعلم من حاله التفريط، والتقصير!

الحالة الرابعة: أن يقسم على الله تضييقاً وتحجراً: فهذا من الكبائر، كما في حديث الباب.

* * *

ثم قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

الأولى **التحذير من التألي على الله.**

لقوله: «**من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان**» فأحبط عمله بذلك.

الثانية **كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.**

الثالثة **أن الجنة مثل ذلك.**

استنبط المصنف هاتين المسألتين من كون هذا العابد الذي أفنى عمره في العبادة، حبط عمله بكلمة، وكون المسرف على نفسه أحسن الظن بربه، وقال:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جامع العلوم والحكم، ت: الأرنؤوط (٢/٣٤٩).

«**خلِّني وربي**»، فهذا يدل على قرب الجنة والنار كما جاء في الحديث: «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**»(١).

الرابعة فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة...» إلى آخره.

وهو حديث بلال بن الحارث المزني: «**إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله ﷻ له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله ﷻ عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه**»(٢).

الخامسة أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

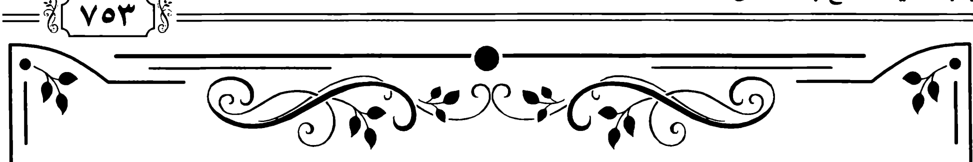
فهذا الرجل غُفر له بسبب يبغضه، وهو أن يقوم أحد على رأسه يؤنبه، فيحلف عليه بهذا اليمين المخوف، فيكون سبباً في غفران ما بدر منه، والله يفعل ما شاء، ويحكم ما يريد.



---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب «**الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك**» برقم (٦٤٨٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة برقم (٣٩٦٩)، والترمذي، ت: شاكر في أبواب الزهد، باب في قلة الكلام برقم (٢٣١٩) وصححه الألباني.



باب لا يُستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!» فما زال يسبِّح، حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد»(١)، وذكر الحديث. رواه أبو داود.

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان الشافع بمنزلة الطالب من المشفوع إليه، كان الاستشفاعُ بالله على أحد من خلقه تنقصاً لجناب الربوبية، وعكساً للقضية. فالله تعالى له المثل الأعلى لا يستشفع به على أحد.

قوله: (عن جبير بن مطعم رضي الله عنه) هو: جبير بن مطعم بن عدي من بني عبد مناف، وكان ذا وجاهة في قريش، مات سنة سبع وخمسين رضي الله عنه.

قوله: (قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ) الأعرابي واحد الأعراب، وهم الذين يسكنون البوادي. أما العربي: فواحد العرب. ومن شأن الأعراب أن يكثر فيهم الجهل والجفاء؛ قال الله ﷻ: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ [التوبة: ٩٧] وذلك لأنهم لم ينالوا حظّاً من العلم والتهذيب، مثل ما يناله المستوطنون في المدن. فمن استوطن المدن زال عنه وصف الأعرابية، وحصل له من التعلم ما

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة، باب في الجهمية برقم (٤٧٢٦) وضعفه الألباني.

لم يحصل لمن كان في باديته؛ وقد نهى النبي ﷺ عن التعرب بعد الهجرة، فقال ﷺ: «**اجتنبوا الكبائر السبع**» فسكت الناس فلم يتكلم أحد، فقال النبي ﷺ: «**ألا تسألوني عنهن؟ الشرك بالله، وقتل النفس، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وقذف المحصنة، والتعرب بعد الهجرة**»(١).

قوله: (فقال: يا رسول الله نهكت الأنفس) «نهكت»؛ أي: جهدت، وضعفت، وتلفت.

قوله: (وجاع العيال) هم من يعولهم الإنسان؛ من زوج، وولد؛ بسبب الجدب، وانقطاع المطر.

قوله: (وهلكت الأموال) أراد بالأموال الإبل والغنم؛ لأنها عامة أموال الأعراب.

قوله: (فاستسق لنا ربك)؛ أي: اطلب لنا السقيا، بدعاء ربك. وهذا القدر لا بأس فيه.

قوله: (فإنا نستشفع بالله عليك)؛ أي: نجعل الله شافعاً لنا عندك في طلبتنا هذه! وهذا أمر عظيم جداً، أن يجعل الله ﷻ بمنزلة الشافع إلى النبي ﷺ. وهو موضع الشاهد.

قوله: (وبك على الله) هذا لا بأس به، أن يجعل النبي ﷺ في حياته، شافعاً لهم عند الله، فيدعو لهم، ويستسقي لهم. وهذا الدعاء نوع من الشفاعة؛ وقد تقدم أن الشفاعة: طلب الخير للغير، وأنها مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر؛ وذلك لأن الشافع انضم إلى المشفوع له، فبعد أن كان وتراً، صارا شفعاً.

قوله: (فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!») (سبحان) اسم مصدر؛ أي: تنزيهاً لله. وتسبيح النبي ﷺ لربه في هذا المقام مناسب جداً؛ لأنه معظِّم لله تعالى، ومقدِّر لمقام الربوبية، فلما رأى أنه قد نيل منه، غضب لله ﷻ، وسبَّح؛ كما أمره ربه: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨] فمن أسس الدين والتوحيد: التسبيح، فإن العلم بالله يقوم على ركنين: التسبيح والتحميد،

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٥٥٠٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٤٥).

فحمد الله معناه: وصفه بصفات الكمال، ونعوت الجلال، وتسبيح الله: تنزيهه عن صفات النقص والعيب، ومماثلة المخلوقين، فإذا اجتمع التسبيح والتحميد تحقق التوحيد، ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢] فجمع بين التسبيح والتحميد. وفي حديث أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه مرفوعاً: «**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْد لِلَّهِ تَمْلَآنِ ـ أَوْ تَمْلَأُ ـ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**»[(١)].

قوله: **(فما زال يسبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه)**؛ أي: عُرف التأثر في وجوه أصحابه؛ فأصحابه ﷺ يغضبون لغضبه ﷺ، ويرضون لرضاه، فلما رأوا نبيّهم، وحبيبهم، قد لحقه هذا التأثر، تأثروا لذلك، وظهر ذلك في وجوههم، لكمال إيمانهم بربهم، ومحبتهم لنبيِّهم.

قوله: **(ثم قال النبي ﷺ: ويحك)** كلمة زجر، مثل: ويلك، لكنها ألطف وقعاً؛ التماساً للعذر للمتكلم، بسبب جهله.

قوله: **(أتدري ما الله؟)** هذا استفهام إنكاري، فيه إشارة إلى قلة علم المخاطب بالله، وغلبة الجهل عليه، وحصول الجفاء منه.

قوله: **(إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه)**؛ أي: وصفه، ومقامه، وما ينبغي له سبحانه، أعظم مما ظننت من جواز الاستشفاع به على خلقه.

وهذا الذي وقع من الأعرابي بسبب الجهل والجفاء، لا يزال ـ إلى يومنا هذا ـ يقع من قليلي العلم، جفاة الطباع، من السوقة، والفساق، وأهل الغفلة.

قوله: **(رواه أبو داود)** ورواه ابن أبي عاصم[(٢)]، والطبراني[(٣)]، والبغوي[(٤)]، وابن خزيمة[(٥)]، والبيهقي[(٦)]، وقد اختلف في ثبوته، فقوّاه ابن القيم رحمه الله،

---

(١) أخرجه مسلم في باب فضل الوضوء، برقم (٢٢٣).
(٢) السُّنَّة، لابن أبي عاصم، برقم (٤٦٦). (٣) المعجم الكبير، للطبراني (٢/ ١٦٨).
(٤) مصابيح السُّنَّة برقم (٤٤٥٥).
(٥) التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، لابن خزيمة برقم (١٤٨).
(٦) الأسماء والصفات، للبيهقي (٢/ ٣١٨).

وأجاب عن علله[١]، وضعّفه ابن عساكر[٢]، واستغربه ابن كثير[٣]. وقال شيخنا: فيه ضعف، ولكن معناه صحيح[٤].

مناسبة الحديث للباب:

مطابقة؛ لأنه يدل على تحريم الاستشفاع بالله على أحد من خلقه، وشدة النكير في ذلك.

فوائد الحديث:

١ ـ تحريم الاستشفاع بالله على أحد من خلقه. ومن ذلك قول بعض العامة لصاحبه: وجه الله أن تفعل كذا! فهو من الاستشفاع والتوجه بالله على خلقه[٥].

٢ ـ وجوب تنزيه الله عما لا يليق به عموماً.

٣ ـ قوة تعظيم النبي ﷺ لربه، وعلمه به؛ لأن هذا الذي اعتراه يدل على قوة الإيمان، وامتلاء القلب بالإجلال. ويشبهه أن الإمام مالك رحمه الله لما قال له السائل: كيف استوى؟ أطرق ملياً، وعلته الرحضاء، وارفضّ عرقاً، ووجد موجدة شديدة لسؤاله، ثم رفع رأسه، وأجاب بالجواب المشهور: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا صاحب بدعة، ثم أمر به فأخرج[٦]، فبعض الأسئلة تنم عن انطواء القلب على فساد وآفة، فلذلك يشتد وقعها، ويغلّظ في الرد على السائل.

---

(١) عون المعبود وحاشية ابن القيم (١٣/ ١٠).

(٢) قال في البداية والنهاية (١/ ١١): «وقد صنف الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقي جزءاً في الرد على هذا الحديث، سمّاه: (بيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط) واستفرغ وسعه في الطعن على محمد بن إسحاق بن بشار راويه، وذكر كلام الناس فيه».

(٣) البداية والنهاية (١/ ١٢).

(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٥٠٩).

(٥) انظر: المناهي اللفظية لشيخنا محمد بن صالح العثيمين (ص٢٧٦)، مسألة رقم (٣٤٣)

(٦) الأسماء والصفات، للبيهقي برقم (٨٦٧).

٤ ـ وجوب إنكار المنكر، وتعليم الجاهل.

٥ ـ جواز الاستشفاع بالنبي ﷺ في حياته، لكونه ﷺ أنكر عليه الجملة الأولى، ولم ينكر عليه الجملة الثانية. أما بعد مماته ﷺ فلا تجوز مخاطبته بذلك، كأن يقف الإنسان على قبره ويقول: يا رسول الله اشفع لنا، أو: يا رسول الله سل الله لنا كذا وكذا، فهذا لا يجوز؛ لأنه توسل بدعي. ولهذا لما توفي النبي ﷺ، واحتاج المسلمون إلى الاستسقاء في زمن عمر، لم يقم عمر على قبر النبي ﷺ، ويستشفع به، وإنما قال: اللَّهُمَّ إنا كنا إذا قحطنا استسقينا بنبيِّك فتسقينا، وإنا نستسقيك بعم نبيّك فاسقنا[1]، فيقوم العباس يدعو، فيسقون. فلا يستشفع بالنبي ﷺ، ولا يتوسل به بعد مماته؛ بل يتوسل بطاعته وبالاقتداء به، والتسنن بسُنَّته. أما في حياته فيتوسل بدعائه. وكذلك بعد البعث؛ فإن له الشفاعة العظمى؛ فإن الناس يأتون إليه، ويطلبون منه الشفاعة حين يعتذر عنها آدم، وأولو العزم من الرسل، حتى تؤول النوبة إليه، فيقول: «**أنا لها**»[2].

٦ ـ الحذر من كل ما يوهم التسوية بين الله وبين نبيّه، وهذه لطيفة؛ فهاتان جملتان كأنهما كِفَّتي ميزان: «إنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله» فكأنه جعل الله تعالى، والنبي ﷺ بمنزلة سواء، فهذا معنى مذموم.

ومن الصور المشابهة والواقعة في حياة الناس اليوم: ما يفعله بعض الناس حينما يزخرفون محاريب المساجد، فيكتبون: (الله ـ محمد)! على حد سواء، فإن هذا يوقع في قلوب العامة والناشئة المماثلة، حتى إنك تسمع من بعض الأعاجم في المطاف من يقول: يا الله يا محمد، يظن أن هذين الاسمين بمنزلة واحدة، فينبغي التنبه لهذه الدقائق.

* * *

---

(١) صحيح ابن خزيمة برقم (١٤٢١).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم برقم (٧٥١٠)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (١٩٣).

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى **إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك».**

هذا الإنكار وقع بالقول والفعل، أما بالقول فبتسبيحه ﷺ، وقوله: «**ويحك**» وأما بالفعل:

الثانية **تغيره تغيراً عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.**

فتمعَّر وجهه ﷺ، وإن كان هذا ليس صريحاً في الحديث، لكن معرفة أصحابه لذلك دليل عليه، فإن وجه النبي ﷺ مرآة لقلبه، فلهذا دوماً تجد في الأحاديث: «فرأينا وجهه يتهلل، كأنه مذهبة»[(١)]، أو «فرأيت الكراهة في وجهه»[(٢)]، ونحو هذا، فيظهر منه صدق الانفعال.

الثالثة **أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».**

فدل على أن الاستشفاع به في حياته بمعنى طلب الدعاء منه، مشروع، غير منكر.

الرابعة **التنبيه على تفسير «سبحان الله».**

أي: أن السياق دل على أن معناها التنزيه.

الخامسة **أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.**

وشواهد هذا كثيرة؛ كالرجل الذي دخل عليه المسجد، وهو يخطب الجمعة، فاستسقى، حتى لم ينزل عن المنبر إلا والمطر يتحادر على لحيته[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة، أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار برقم (١٠١٧).

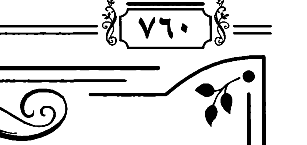
(٢) أخرجه ابن حبان في كتاب الزينة والتطييب، ذكر ما يستحب للمرء ترك كسوة الحيطان بالأشياء التي يريد بها التجمل دون الارتفاق برقم (٥٤٦٨) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في أبواب الاستسقاء، باب من تمطر في المطر حتى يتحادر على لحيته برقم (١٠٣٣).

واستسقى مرة، فقال: «**اللَّهُمَّ اسقنا**»، فقال أبو لبابة بن عبد المنذر: يا رسول الله إن التمر في المرابد، فقال: «**اللَّهُمَّ اسقنا حتى يقوم أبو لبابة عرياناً، فيسد ثعلب مربده بإزاره**»، وما يرى في السماء سحاب، فأمطرت، فاجتمعوا إلى أبي لبابة، فقالوا: إنها لن تقلع حتى تقوم عرياناً فتسد ثعلب مربدك، كما قال رسول الله ﷺ، ففعل، فأصحت السماء[(١)]، وقع هذا استجابة من الله لنبيِّه ﷺ.



(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى برقم (٦٥٠٩)، وأبو عوانة برقم (٢٥١٥)، والطبراني في الدعاء برقم (٢١٨٦) وفي المعجم الصغير برقم (٣٨٦) من طريق محمد بن حماد به، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢١٥): «فيه من لا يعرف».



باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخِّير رضي الله عنه قال: انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله تبارك وتعالى» قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طَوْلاً، فقال: «قُولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشَّيطانُ»(١) رواه أبو داود، بسند جيد.

وعن أنس رضي الله عنه أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»(٢) رواه النسائي، بسند جيد.

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان التوحيد لا يتم إلا بتحقيق أركانه، وصيانة جنابه مما يفضي إلى ثلمه وانتقاصه، من معاول الشرك، القولية والعملية، عقد المصنف هذا الباب.

وقد تقدم نظير هذه الترجمة، وهو «باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك» وأعادها المصنف اهتماماً بالمقام، والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في كراهية التمادح برقم (٤٨٠٦) وصححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل: سيدنا وسيدي برقم (١٠٠٠٦).

وهذا الباب فيه حمايته بسد الطرق القولية؛ فكل قول يفضي إلى الغلو يخشى منه الوقوع في الشرك، ويتعين اجتنابه، ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

قوله: (باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ) لا شك أن النبي ﷺ حَمى (حِمى التوحيد) وسد جميع الطرق المفضية إلى الشرك، وهكذا سائر إخوانه من النبيين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ووصْفه بالمصطفى وصف مطابق، فإن الله تعالى اصطفاه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] فأنبياء الله مصطفون أخيار. والحماية هي الصيانة عن كل ما يثلمه ويفسده، إما في أصله، أو في كماله الواجب، أو في كماله المستحب.

قوله: (عن عبد الله بن الشخِّير ؓ) هو: عبد الله بن الشخير بن عوف العامري، أسلم يوم الفتح.

قوله: (قال: انطلقتُ في وفد بني عامر، إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا) استهلوا خطابهم بالتبجيل، والثناء، والمدح، كما تفعل الوفود حينما تقدم على الكبراء، وهكذا تعوَّدوا في جاهليتهم، ووصفوه بالسيادة.

قوله: (السيد الله تبارك وتعالى) فأراد النبي ﷺ أن يعلم هذا الوفد، حديثي العهد بالإسلام، الاقتصاد في الكلام، وأن لا يدب فيهم الغلو، فبيّن أن السيادة المطلقة لله تعالى.

وقد اختلف العلماء في إطلاق اسم «السيد» على غير الله ﷻ:

ـ فقال قوم بالجواز، واستشهدوا بقصة سعد بن معاذ ؓ حين أقبل بعد غزوة بني قريظة محمولاً على حمار؛ لكونه أصيب في أكحله، فقال النبي ﷺ للأنصار: **«قوموا إلى سيدكم»**[(١)].

ـ ومنع ذلك آخرون: مستدلين بحديث الباب، وروي ذلك عن مالك[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير، باب إذا نزل العدو على حكم رجل برقم (٣٠٤٣)، ومسلم في الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد برقم (١٧٦٨).

(٢) نقله عنه ابن القيم في بدائع الفوائد، ت: العمران (٣/ ١١٧٥) ولم نجده في كتب المالكية.

ـ والصحيح: أنه إذا قُصد بالسيادة، السيادة المطلقة فلا شك أن هذا لا يجوز إلا لله تعالى، فإن معنى السيد: من له السؤدد والشرف. وغاية السيادة إنما تكون لله ﷻ.

وفي هذه الأزمنة المتأخرة، صار لفظ السيد مبتذلاً، فكل خطاب يصدر من أي جهة يدبج بعبارة: السيد فلان، وقد يكون صعلوكاً، ليس له سيادة على أحد. فلم يعد هذا الاسم يعطي معنى السيادة، بخلاف ما مضى؛ إذا قيل: السيد، فإنه ينصرف إلى الكبراء والأمراء، ومن له وجاهة في قومه. فلما انتفى هذا المحذور، وهو اعتقاد السيادة المطلقة للمخاطب، فلا بأس باستعماله. لأن الأصل أنه يجوز أن يسمى المخلوق بما يسمى به الخالق على اعتبار أن ما للمخلوق يليق به، وما للخالق يليق به. ولعل النبي ﷺ لحظ هذا المعنى في قوم حديثي عهد بإسلام، وفدوا عليه، فخشي أن يتجارى بهم الأمر، فيغلوا فيه ﷺ.

قوله: (وأفضلنا فضلاً) الفضل: الخير والزيادة؛ أي: فأنت أكثرنا خيراً.

قوله: (وأعظمنا طَوْلاً)؛ أي: عطاءً وبذلاً، ولا شك أن النبي ﷺ كما قالوا، وزيادة.

قوله: (قولوا بقولكم، أو بعض قولكم)؛ أي: قولوا بما يخاطب به بعضكم بعضاً، عادةً، أو بعض قولكم الذي ذكرتموه الآن، لا كله، وإن كان حقيقاً به، تأديباً لهم وتعليماً.

قوله: (ولا يستجرينكم الشيطان)؛ أي: لا يتخذنكم الشيطان جرياً، والجري: هو الرسول والمندوب الذي يُبعث لإبلاغ الخبر، كما يقال: لا تكن بريداً للشيطان.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة، لما فيه من التحفظ في الأقوال، وسد باب الغلو المفضي إلى الشرك.

فوائد الحديث:

١ ـ تواضعه ﷺ، وأدبه مع ربه، ولهذا لما خيّر النبي ﷺ بين أن يكون

مِلكاً رسولاً، أو عبداً رسولاً، أشار إليه جبريل أن تواضع، فقال: «**بل عبداً رسولاً**»[(١)]، وقد ضرب النبي ﷺ أروع الأمثلة في التواضع الكريم الشريف، الذي لا دناءة فيه؛ فلما أتاه رجل، فكلمه، جعل ترعد فرائصه، فقال له: «**هوِّن عليك، فإني لست بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد**»[(٢)]، والقديد: هو اللحم المجفف؛ أي: أني كسائر الناس. فلم يكن النبي ﷺ يتعالى أو يتباهى، أو يتخذ الخدم، والحشم، والأبهة بين يديه؛ بل كان على سجيته. ومع ذلك، جمع الله تعالى له بين المحبة والمهابة، فمن رآه هابه، ومن جالسه أحبه.

٢ ـ التحذير من الغلو في المديح، والتكلف في الألفاظ؛ وهذا يقع كثيراً من الشعراء، فإن الشعراء يستزلهم الشيطان، ويستهويهم، فيجري على ألسنتهم من وحيه ووسواسه ونفخه ونفثه، ما يجعلهم يرفعون المحقرين إلى أعلى المراتب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**»[(٣)].

٣ ـ أن السؤدد المطلق لا يكون إلا لله تعالى؛ لقوله ﷺ: «**السيد الله**».

٤ ـ أن من أسماء الله الحسنى: السيد.

٥ ـ الحذر من مزالق الشيطان؛ لقوله: «**ولا يستجرينكم الشيطان**».

٦ ـ أنه لا بأس بشيء يسير من المِدحة، من غير كذب ولا غلو؛ لقوله: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم**» فالشيء اليسير، الذي يتضمن التعريف، لا بأس به؛ ولهذا كتب النبي ﷺ: «**من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم**»[(٤)]، فهذا فيه مدحة، وهو إخبار بالواقع، أما الأسجاع المتكلفة، والألقاب المفخمة، فإنها مذمومة.

* * *

---

(١) أخرجه أحمد، ط. الرسالة برقم (٧١٦٠) وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة، باب القديد برقم (٣٣١٢) وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن المدح، إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح برقم (٣٠٠٢).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٦٤] برقم (٤٥٥٣)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام برقم (١٧٧٣).

📖 **ثم قال المصنف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا)** لا شك أن النبي ﷺ خير البرية، وهو سيد ولد آدم، ولا ريب، كما أنه من خيار سلالة قريش سؤدداً وشرفاً، لكنه ﷺ لم يقرهم على ذلك.

قوله: (يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان)؛ أي: بما جرت به عادتكم في مخاطبة بعضكم بعضاً، ولا يوقعنكم الشيطان في الهوى، ويذهب بعقولكم.

قوله: (أنا محمد) هكذا ذكر اسمه الصريح دون مقدمات وألقاب.

قوله: (عبد الله ورسوله) هذان الوصفان الكريمان اللذان يوصف بهما النبي ﷺ، كما قال في الحديث الآخر: «**لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله**»(١)، وفي هذين الوصفين ردٌّ على أهل الجفاء، وأهل الغلو؛ فقوله: «**عبد الله**» رد على أهل الغلو الذين يرفعونه فوق منزلته، وفي قوله: «**ورسوله**» رد على أهل الجفاء الذين لا ينزلونه منزلته التي تليق به، وهي الرسالة، فلهذا كان الجمع بين الوصفين هو التعبير المناسب.

قوله: (ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي) فربما توهموا أنه يعجبه ذلك، فبيّن لهم أنه لا يحب ذلك، وأن نفسه الطيبة الكريمة المتواضعة تستنكف، وتنفر من هذه الأساليب.

قوله: (التي أنزلني الله عَزَّ وَجَلَّ**)** وهي منزلة العبودية، والرسالة والنبوة.

قوله: (رواه النسائي بسند جيد) وهو حديث صحيح.

❋ مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ كسابقه، لما فيه من النهي عن التوسع في المدح حماية منه ﷺ لجناب التوحيد، وسد طرائق الشرك.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ [مريم: ١٦] برقم (٦٨٣٠) وفي كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت برقم (٦٨٣٠).

فوائد الحديث:

١ ـ النهي عن الغلو في شخص النبي ﷺ، وترك الألفاظ المتكلفة.

٢ ـ حمايته ﷺ لجناب التوحيد، وسده جميع الطرق المفضية إلى الشرك.

٣ ـ أن أجلَّ وصفين يوصف بهما النبي ﷺ: العبودية والرسالة.

٤ ـ الرد على أهل الغلو، وأهل الجفاء.

٥ ـ التحذير من استزلال الشيطان وإيقاعه في الهوى؛ وذلك أن الشيطان يتفنن في جر الناس إلى الوقوع في الشرك، فيأتي الصالحين، والعبَّاد من باب تعظيم النبي ﷺ، فيوقعهم في المحظور؛ كالذين يغلون في النبي ﷺ بإقامة الموالد، ويدبجون المدائح والقصائد، ويأتون بأوصاف لا تليق إلا بالله ﷻ، كما مثَّلنا بقصيدة البوصيري، التي يخاطب فيها النبي ﷺ:

يا أكرَمَ الخلقِ ما لي مَن ألوذُ به   سِوَاكَ عِندَ حُلولِ الحادِثِ العَمِمِ
إنْ لم تكُن في مَعَادِي آخِذاً بِيَدِي   فَضْلاً وإلا فَقُلْ: يا زَلَّةَ القَدَمِ
فَإِنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتِهَا   وَمِنْ عُلُومِكَ عِلْمَ اللوحِ وَالقَلمِ(١)

فجعل الدنيا والآخرة من جود النبي ﷺ وجعل علم اللوح والقلم من علوم النبي ﷺ. سبحان الله! ماذا أبقى لله؟ فلا شك أن هذا من استهواء الشيطان بدعوى محبة النبي ﷺ.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولــــى تحذير الناس من الغلو.

أي: لقوله: **«قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان»**.

(١) من بردة البوصيري. ينظر: ثلاثية البردة بردة الرسول ﷺ (ص٨١، ٨٢).

الثانية **ما ينبغي أن يقول من قيل له: أنت سيدنا.**

يقول: «**السيد الله**».

الثالثة **قوله: «لا يستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.**

وهذا ملحظ مهم، فليس كل كلام حق يقر؛ بل يجب أن ينظر إلى بواعثه، ومآلاته، فإنهم قالوا قولاً يستحقه، لكنه أنكر عليهم خوفاً من أن يتجارى بهم الغلو، وينزلوه فوق منزلته.

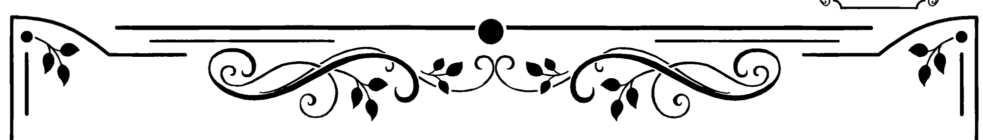
الرابعة **قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».**

أي: أن النبي ﷺ قد أحله ربه منزلة كريمة، وهي منزلة العبودية والرسالة، فلا يزاد عليها. وقد وصفه ربه بالعبودية التامة؛ لأن العبودية درجات، فهناك العبودية الكونية التي يخضع لها كل أحد، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣] فتشمل المؤمن والكافر، والبر والفاجر، والإنسان والحيوان، والطير والهوام، وهناك عبودية خاصة، وهي العبودية الشرعية التي يقوم بها المؤمنون الممتثلون لأوامر الله، المنتهون عن نواهيه، وهناك عبودية خاصة الخاصة، وهي عبودية الأنبياء والمرسلين، وأكملها عبودية الخليلين: إبراهيم، ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ، فهذه هي العبودية التامة. وقد وصفه الله تعالى بها في أشرف منازله، في أشرف ليلة مرت به؛ ليلة الإسراء والمعراج، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وفي أشرف أحواله، وهو حال تنزل القرآن، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، في أشرف أعماله، وهو الدعوة إلى الله، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]. فوصف العبودية وصف شريف كامل، كما قال الشاعر:

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا   وَكِدْتُ بِأَخْمُصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا
دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ: يَا عِبَادِي   وَأَنْ صَيَّرْتَ أَحْمَدَ لِي نَبِيًّا[1]



(١) نسب البيتين في المفاخرة بين الماء والهواء (ص٤٦)، للقاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



باب ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(١).

وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله(٢).

وفي رواية للبخاري: يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع(٣)، أخرجاه.

ولمسلم: عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ برقم (٤٨١١)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم (٢٧٨٦) بلفظ: «أنا الملك، أنا الملك».

(٣) صحيح البخاري في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ برقم (٤٨١١).

أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون»[(١)].

وروي عن ابن عباس قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمٰن إلا كخردلة في يد أحدكم»[(٢)].

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»[(٣)].

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[(٤)].

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم»[(٥)] أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار برقم (٢٧٨٨).

(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطة برقم (٢٣٧).

(٣) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (٥٧٩٤). وقال محققه: أثر أبي ذر، خرَّجه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٣٢٨)، ونسبه لأبي الشيخ في العظمة، وابن مردويه، والبيهقي في الأسماء والصفات، وخرجه ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٣) وساق لفظ ابن مردويه وإسناده، من طريق محمد بن عبد التميمي، عن القاسم بن محمد الثقفي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر. تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر (٥/ ٣٩٩). وقال محقق تفسير ابن كثير: وهو منقطع، وقد جاء موصولاً فرواه ابن أبي شيبة في صفة العرش برقم (٥٨) من طريق المختار بن غسان، عن إسماعيل بن مسلم عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ عَنْ أَبِي ذَرٍّ الغفاري رضي الله عنه، مرفوعاً بنحوه. وسيأتي أيضاً موصولاً من طريق آخر وهو الذي يليه من رواية ابن مردويه. تفسير ابن كثير، ت: سلامة (١/ ٦٨٠).

(٤) تفسير الطبري، جامع البيان، ت: شاكر برقم (٥٧٩٤).

(٥) العلو، للعلي الغفار (ص٤٥).

ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ، قال: وله طرق[١].

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تبارك وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم»[٢]، أخرجه أبو داود وغيره.

الشرح

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن غاية التوحيد: أن يجل العبد ربه، ويعظمه غاية التعظيم؛ لا سيما ما يدل على علوه المطلق. فجعله المصنف مسك الختام لكتاب التوحيد.

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ أي: أن المشركين ما عظموا الله عز وجل حق تعظيمه.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ جملة حالية تدل على عظمة الرب، حيث أن فمن هذه صفته، وقدرته، حقه التقدير، والتعظيم، والإجلال.

قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾؛ أي: تنزيهاً له عما وقع من

---

(١) العلو، للعلي الغفار (ص٤٦).

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السُّنَّة أبواب تفسير القرآن، باب في الجهمية برقم (٤٧٢٣)، والترمذي، ت: شاكر، في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحاقة برقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه في افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فيما أنكرت الجهمية برقم (١٩٣)، وأحمد، ط. الرسالة برقم (١٧٧٠) وضعفه الألباني.

هؤلاء المشركين من عبادة الأصنام، فأشركوا معه غيره، فلم يقدروه حق قدره.

قوله: (عن ابن مسعود ﷺ قال: جاء حَبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ) الحَبر: هو العالم الراسخ من اليهود، وجمعه أحبار، ويصح بالكسر: حِبر، سُمي حبراً من التحبير؛ وذلك لأن الحِبر يبقى؛ فلما كان العلم يرسخ في قلبه صار بمنزلة الحِبر. وقد كان اليهود مجاورين للنبي ﷺ في المدينة.

قوله: (إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد!) لم يخاطبه بلفظ الرسالة؛ لأنه لم يُسلِّم له بذلك، مع أن رسالته، وصفته موجودة في كتبهم، وكانوا يستفتحون به على العرب، لكن الكبر منعهم من اتباعه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة: ٨٩].

قوله: (فقال: يا محمد! إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إِصبع)؛ أي: نجد في كتبنا. وقيل:

وَهَمْزُ أُنْمُلَةٍ ثَلِّثْ وَثَالِثُهُ وَالتِّسْعُ فِي أُصْبُعٍ وَاخْتِمْ بِأُصْبُوعٍ[1]

أي: أن همزة (أنملة) مثلثة تنطق بالفتح، والكسر، والضم، وكذلك حَرْفها الثالث، وهو الميم مثلثة، فتتكون تسع لغات، كلها فصيحة. ومثلها (أصبع) فالهمزة، والباء، تُستعمل معها الحركات الثلاثة: الفتحة، والكسرة، والضمة، تراوح بينها، ففيها تسع لغات، كلها فصيحة، وتزيد لغة عاشرة، وهي أن تقول: أصبوع. فمهما نطقتها أصبت.

قوله: (والشجر على أصبع، والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه)؛ أي: تبسم تبسماً بليغاً، حتى ظهرت النواجذ. وهن الأضراس.

قوله: (تصديقاً لقول الحَبر، ثم قرأ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك أنا الله. وفي رواية لمسلم عن ابن عمر مرفوعاً:

---

(١) البيت بلا نسبة لقائل في حاشية البجيرمي على شرح المنهج، التجريد لنفع العبيد (٤/ ١٤٦).

«يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟») يا لها من روايات تملأ القلب تعظيماً لله ﷻ، وهي حق على حقيقتها، لا تستلزم التمثيل، والتكييف، فإن بعض الناس إذا سمع مثل هذه الأحاديث استشنع، وأصابه رعدة! كما مر آنفاً عن ابْنَ عَبَّاسٍ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ هَذَا، فَقَامَ رَجُلٌ فَانْتَفَضَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مَا فَرَّقَ مِنْ هَؤُلَاءِ، يَجِدُونَ عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ»[1]. وسبب ذلك أنه يتبادر إلى ذهنه لوثة التشبيه، لكن من عرف الله، علم أن ذلك اتفاق في الأسماء، لكن الحقائق والمسميات مختلفة، وأنه يدل على أن الله ﷻ له يدان حقيقيتان، تليقان بجلاله وعظمته، يقبض بهما ويطوي، كما أخبر، وله أصابع ﷻ، لا ندرك كنهها، ولا كيفيتها، لكننا نثبت حقيقتها اللائقة به سبحانه، وليس من لازم إثبات حقيقتها، إدراك كيفيتها، فإذا قال الله ﷻ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قلنا ما قال ربنا: له صفة القبضة، والقبضة من صفات اليد الحقيقية. وإذا قال: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فنثبت له اليمين، والطي، فهو «يطوي»، و«يأخذهن» و«يهزهن» ويقول: «على أصبع» فنثبت ما أثبت النبي ﷺ لربه، ونقبل كلام الله وكلام نبيّه ﷺ ـ؛ ولا نتعرض له بتمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تحريف. لأن شروط القبول قد اجتمعت في كلام الله، وكلام نبيّه ﷺ، **وهذه الشروط هي:**

١ ـ **العلم المنافي للجهل**: فالله تعالى أعلم بنفسه من غيره، ونبيّه ﷺ أعلم بربه.

٢ ـ **الصدق المنافي للكذب**: والله تعالى أصدق قيلاً، ونبيّه ﷺ صادق مصدوق.

٣ ـ **البيان** : والله سبحانه أحسن حديثاً، ونبيّه ﷺ أفصح الناس، ليس فيه فهاهة ولا عِيّ.

٤ ـ **النصح** : فالنبي ﷺ هو أنصح الأمة للأمة. فلما اجتمعت هذه

---

(١) جامع معمر بن راشد (١١/ ٤٢٣)، رقم (٢٠٨٩٥).

الأوصاف الأربعة لزم قبول الخبر، ولم يجز رده، ولا التجني عليه بأنواع التأويلات الباطلة التي سلكها أهل التأويل من المتكلمين، فنثبت ما أثبته الرب لنفسه، معتقدين أنه حق على حقيقته، ولا نشقى بها؛ كما شقي بها أهل التأويل، فقالوا: إن النبي ﷺ ضحك من قول الحبر استهجاناً له؛ لأن اليهود أهل تجسيم! فكيف يصح هذا التأويل، وقد صرح ابن مسعود رضي الله عنه بقوله: «تصديقاً لقول الحبر»؟ هذا من شؤم المقدمات الفاسدة، وإلا فلا مانع من إثباته، ما دام قد صح به الخبر، فنعتقد أنه حق على حقيقته، وإن لم تطق عقولنا إدراك كيفيته.

قوله: (ثم يأخذهن بشماله) قال بعض الشراح إن هذه اللفظة: شاذة، غير محفوظة، واستدل بقول النبي ﷺ: **«وكلتا يديه يمين»**[(١)]، والصحيح: أنها لفظة ثابتة، مروية بسند صحيح؛ والمراد أن الله تعالى له يدان كريمتان، ميمونتان؛ يمين، وشمال، لكن شماله ليست كشمال المخلوقين؛ فالمخلوقون في الغالب تكون الشمال أنقص، وأضعف من اليمين، فلما خشي النبي ﷺ أن يتوهم متوهم هذا النقص، نزه الله عن ذلك، وقال: **«وكلتا يديه يمين»**.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة جلية، لما تضمنه من بيان قدرة الرب العظيمة الباهرة، التي توجب قدره حق قدره.

فوائد الحديث:

١ ـ اعتقاد يهود صدق نبوته ﷺ في قرارة نفوسهم، وجحودهم لها ظاهراً، بسبب كبرهم.

٢ ـ أن ما جاء به النبي ﷺ مصدق لما بين يديه من الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

٣ ـ عظيم قدرة الله وسلطانه.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم برقم (١٨٢٧).

٤ ـ أن من الضحك ما يقع تصديقاً وإقراراً.

٥ ـ فساد مذهب أهل التأويل، ومصادمته للنصوص.

٦ ـ الاستشهاد بالقرآن في المواضع المناسبة.

٧ ـ إثبات اسم الله **(الملك)**، وما تضمنه من صفة الملك.

٨ ـ إثبات الصفات الخبرية: الأصبع، القبضة، اليمين، الشمال، على حقيقتها اللائقة به تعالى.

٩ ـ إثبات الصفات الفعلية: الهز، والطي، والأخذ، على حقيقتها اللائقة به تعالى.

١٠ ـ إثبات القيامة والمعاد، وما يقع فيها من أحداث جسام.

١١ ـ شؤم عاقبة التجبر والكبر، وانفراد الله بهما.

قوله: وروي عن ابن عباس قال: «ما السماوات السبع، والأرضون السبع، في كف الرحمٰن إلا كخردلة في يد أحدكم») الخردل: نبت له حب صغير أسود، واحدته خردلة، يعبر به عن الشيء المتناهي في الدقة والصغر. وقد ذكره المصنف بصيغة التمريض؛ «روي»، ومثل هذا، إن صح، له حكم الرفع؛ لأنه لا مساغ للاجتهاد فيه.

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، لما يشعره من عظمة الله، وقدرته، الموجبة لقَدره حق قَدره.

فوائد الأثر:

١ ـ إثبات صفة «الكف» لله تعالى، حقيقةً على ما يليق بجلاله.

٢ ـ عظم الرب سبحانه، وقدرته.

٣ ـ إثبات السبع في عدد السماوات والأرض.

قوله: (وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة، ألقيت في ترس». قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض») تقدم الكلام على تخريج هذا الحديث والأثر، أول الباب. وهما يدلان

على صغر السماوات السبع منسوبةً للكرسي، وصغر الكرسي منسوباً للعرش.

مناسبة الحديث والأثر للباب:

ظاهرة جلية، لما يشعران من صغر هذه المخلوقات العظيمة في ملك الله، مما يوجب تعظيمه.

فوائد الحديث والأثر:

١ ـ إثبات الكرسي والعرش.

٢ ـ عظم ملكوت الله، ووجوب قدره حق قدره، سبحانه.

٣ ـ أن العرش غير الكرسي، خلافاً لمن فسره به.

قوله: (وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم» أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ، قال: وله طرق) وممن رواه أيضاً: الدارمي[(١)]، وابن خزيمة[(٢)]، والطبراني[(٣)]، والبيهقي[(٤)]، والخطيب البغدادي[(٥)]، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح[(٦)]، وصححه الذهبي[(٧)]. وله حكم الرفع.

مناسبة الأثر للباب:

ظاهرة، لما تضمنه من سعة أقطار السماوات، وذكر الكرسي، والماء،

---

(١) الرد على الجهمية، الدارمي (ص٥٥)، ونقض الإمام عثمان الدارمي على المريسي الجهمي (١/ ٤٧١).
(٢) التوحيد، لابن خزيمة (٢/ ٨٨٥).
(٣) المعجم الكبير، الطبراني برقم (٨٨٩٤).
(٤) الأسماء والصفات، البيهقي برقم (٨٢٠).
(٥) موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ١٨).
(٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد برقم (٢٨٤).
(٧) العلو، للعلي الغفار (ص٧٩).

والعرش، مما لا يحيط به خيال، ولا يدخل تحت قياس، وعلو الرب فوق جميع خلقه، وعلمه بهم.

فوائد الأثر:

١ ـ سعة خلق الله، وعظم ملكوته.

٢ ـ أن السماوات سبع طباق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

٣ ـ إثبات الكرسي، والماء، والعرش، وأنها فوق السماوات.

٤ ـ أن العرش غير الكرسي، خلافاً لمن فسره به.

٥ ـ إثبات علو الذات.

٦ ـ إثبات معية الله بعلمه، وأن علوه لا ينافي معيته، كما قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

قوله: (وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم» أخرجه أبو داود، وغيره).

هذا الحديث يُسمى: «حديث الأوعال»، ولكن المصنف أسقط ذكر الأوعال مع ثبوته في حديث أبي داود، فقال بعد ذكر كثف البحر: **«ثم فوقَ ذلكَ ثمانيةُ أوعالٍ، بين أظلافِهم ورُكبِهم مثلُ ما بين سماءٍ إلى سماءٍ، ثم على ظُهورهم العرشُ، بين أسفلِه وأعلاهُ مثلُ ما بينَ سماءٍ إلى سماءٍ»**، والمقصود بالأوعال: حملة العرش الثمانية. وهو حديث مختلف فيه، فقد رواه، كما تقدم تخريجه، أبو داود، والإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، وأقره الذهبي[1]، وقال ابن العربي في «شرح الترمذي»: حسن

---

(١) المستدرك على الصحيحين، للحاكم برقم (٣٤٢٨).

صحيح[١]، واحتج به ابن خزيمة[٢]، وصححه الجوزقاني[٣]، وشيخ الإسلام ابن تيمية[٤]، وابن القيم[٥].

فسلف الأمة، وأئمتها، احتملوا هذا الحديث، واحتجوا به. وفيه ذكر المسافات بين السماوات، وكثف كل سماء، فيجب علينا أن نعتقد ما دلت عليه هذه الأحاديث، من عظم خلق السماوات والأرض، وأعظم من ذلك: إثبات علو الله ﷷ بذاته فوق مخلوقاته، فإن قارئ هذا الحديث يفهم منه إثبات العلو المطلق لله ﷷ، فكما أنه عليٌّ بصفاته هو عليٌّ ﷻ بذاته، فذاته فوق كل شيء، كما قال عن نفسه: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وفسّره نبيّه ﷺ بقوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء**»[٦]، فله العلو المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

مناسبة الحديث للباب:

ظاهرة؛ كالأحاديث والآثار السابقة، الدالة على عظيم خلق الله، وعلوه على خلقه.

فوائد الحديث:

١ ـ التعليم بطريقة السؤال والجواب، لاستثارة الأذهان.

٢ ـ عظم الأجرام السماوية، الدالة على عظم خالقها ومدبرها سبحانه.

٣ ـ الرد على الملاحدة القائلين أن الكون لا خالق له، وأنه ليس ثمّ إلا فضاء، ومجرات تقاس بالسنين الضوئية، وجدت صدفة! أو أوجدتها الطبيعة! فراراً من إثبات الخالق الحكيم. قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ

---

(١) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٦/ ١٥٦).
(٢) التوحيد، لابن خزيمة (١/ ٢٣٥).
(٣) الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير (٧٩/ ١).
(٤) منهاج السُّنَّة النبوية (٨/ ٣٧٨)، ومجموع الفتاوى (١٩٢/ ٣).
(٥) تهذيب السنن (٧/ ٩٤)، واجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ١٦٢)، والتبيان في أقسام القرآن (ص٢٦٧).
(٦) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع برقم (٢٧١٣).

﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الطور: ٣٥، ٣٦].

٤ ـ إثبات البحر، وهو الماء المذكور في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧].

٥ ـ إثبات حملة العرش الثمانية.

٦ ـ إثبات العرش، وأنه سقف العالم.

٧ ـ إثبات العلو المطلق لله تعالى، علواً ذاتياً، وفوقيته على العرش.

٨ ـ الرد على نفاة العلو، من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، ومن سار على طريقتهم، فإن منهم من يقول: بحلول الله في كل مكان، تعالى الله عما يقولون، ومنهم من ينفي الجهات الست. والشرع، والعقل، والفطرة، والإجماع، تدل على علو الله فوق سماواته، حتى قال بعض علماء الشافعية: إن في القرآن العظيم أكثر من ألف دليل أو أزيد تدل على أن الله تعالى عالٍ على الخلق، وأنه فوق عباده(١).

٩ ـ إحاطة علم الله بكل شيء.

١٠ ـ أن علّوه تعالى لا ينافي معيته، فهو قريب في علوه، عليٌّ في دنوه.

* * *

ثم قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فيه مسائل:

الأولى: **تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.**

أي: يقبضها بيده حقيقة، على ما يليق بجلاله، كما دلت عليه الآية، والحديث الصحيح.

الثانية: **أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ، لم ينكروها، ولم يتأولوها.**

أي: العلوم التي تتضمن إثبات علو الله ﷻ وصفاته، مما بقي في كتبهم،

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ١٢١).

يجدونها عندهم؛ وأقرهم عليها النبي ﷺ لم ينكروها ولم يؤولوها، كما صنع المتكلمون من المعتزلة والجهمية والأشاعرة.

الثالثة **أن الحَبر لما ذكر للنبي ﷺ صدَّقه ونزل القرآن بتقرير ذلك.**

لقول ابن مسعود رضي الله عنه: «**فضحك النبي ﷺ، حتى بدت نواجذه؛ تصديقاً لقول الحَبر**» ثم استشهد النبي ﷺ بالآية.

الرابعة **وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحَبر هذا العلم العظيم.**

وهذا الضحك منه ﷺ تعجباً وتصديقاً لموافقة ما قاله هذا اليهودي لما جاء به القرآن، كما صرح به ابن مسعود، لا كما يزعم النفاة؛ أنه وقع استهجاناً وإنكاراً.

الخامسة **التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.**

كما في «الصحيحين»، أو انفرد به أحدهما، فللّه تعالى يدان كريمتان حقيقيتان.

السادسة **التصريح بتسميتها الشمال.**

لقوله في رواية مسلم: «**بشماله**» وهي محفوظة، وإنما قال النبي ﷺ: «**وكلتا يديه يمين**» لدفع توهم من توهم أن الشمال في حق الخالق كالشمال في حق المخلوق؛ أنقص من اليمين.

السابعة **ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.**

لقوله: «**أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**» فهؤلاء الذين يخرجون عن طورهم ويظنون في أنفسهم ما ليس لهم، يظهر خزيهم، وحقارتهم، حتى إنه لا يجيبه

أحد منهم، فما أعظمها من موعظة لمن وقع في نفسه شيء من ذلك.

الثامنة **قوله: «كخردلة في كف أحدكم».**

هذا التشبيه لبيان صِغَر وحقارة المخلوقات بالنسبة إلى الكرسي أو العرش.

التاسعة **عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء.**

لوصفه في رواية ابن جرير: **«كدراهم سبعة ألقيت في ترس»**.

العاشرة **عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.**

لوصفه في حديث أبي ذر بأنه: **«كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة»**.

الحادية عشرة **أن العرش غير الكرسي والماء.**

أي لقوله: **«وبين الكرسي والماء خمسمائة عام والعرش فوق الماء»** فقد جمع بينها، فلا تكون شيئاً واحداً، ولا يفسر بعضها ببعض.

الثانية عشرة **كم بين كل سماء إلى سماء.**

بيّنه النبي ﷺ بأنه خمسمائة عام.

الثالثة عشرة **كم بين السماء السابعة والكرسي.**

بيّنه النبي ﷺ بأنه خمسمائة عام.

الرابعة عشرة **كم بين الكرسي والماء.**

بيّنه النبي ﷺ بأنه خمسمائة عام.

الخامسة عشرة **أن العرش فوق الماء.**

لقوله في أثر ابن مسعود: «والعرش فوق الماء».

السادسة عشرة أن الله فوق العرش.

أي: لقوله في أثر ابن مسعود: «والله فوق العرش»، حديث العباس: «والله فوق ذلك».

السابعة عشرة كم بين السماء والأرض.

بيّنه النبي ﷺ بأنه خمسمائة عام.

الثامنة عشرة كثف كل سماء خمسمائة سنة.

بيّنه النبي ﷺ بأنه خمسمائة عام.

التاسعة عشرة أن البحر الذي فوق السماوات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة. والله أعلم.

أي: لقوله في حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: **«وبين السماء السابعة والعرش، بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض»**.

والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى الشرح.



فهرس المراجع

- **القرآن الكريم.**
- الأبشيهي، محمد بن أحمد بن منصور: **المستطرف في كل فن مستظرف**، الناشر: عالم الكتب بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
- ابن أبي حاتم، عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس: **تفسير القرآن العظيم**، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ط٣، ١٤١٩هـ.
- ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد: **المصنف في الأحاديث والآثار**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.
- ابن أبي عاصم، عمرو بن أبي عاصم: **السُّنَّة**، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ.
- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم: **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.
- ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
- ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف: **النشر في القراءات العشر**، المحقق: علي محمد الضباع، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن: **تلبيس إبليس**، الناشر: دار الفكر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.
- ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمٰن: **تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير**، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **اجتماع الجيوش الإسلامية**، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، الناشر: مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **التبيان في أقسام القرآن**، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء**، الناشر: دار المعرفة، المغرب، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **الطب النبوي**، تحقيق: عبد الغني عبد الخالق، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **بدائع الفوائد**، المحقق: علي العمران، دار النشر: دار عالم الفوائد.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، المحقق: شعيب الأرناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة، الكويت، ط٢، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر، ط٢، ١٣٩٤هـ.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **متن القصيدة النونية**، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، ١٤١٧هـ.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: **مدارج السالكين بين منازل «إياك نعبد وإياك نستعين»**، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ابن المبارك، عبد الله بن المبارك: **ديوان الإمام عبد الله بن المبارك**، تحقيق: سعد كريم الفقي، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر المنصورة.
- ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي: **الإعلام بفوائد عمدة الأحكام**، المحقق: عبد العزيز المشيقح، الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد: **الإبانة الكبرى**، المحقق: رضا معطي وآخرون، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، المحقق: ناصر العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٧، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **الاستغاثة**، تحقيق: محمد علي عجال، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٧هـ.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **التسعينية**، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد بن إبراهيم العجلان، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **الرد على المنطقيين**، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **الزهد والورع والعبادة، المحقق**: حماد سلامة، محمد عويضة، الناشر: مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٧هـ.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **الصفدية**، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر، مكتبة ابن تيمية، مصر، ط٢، ١٤٠٦هـ.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **العبودية**، المحقق: محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **الفتاوى الكبرى**، لابن تيمية، الناشر: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **الفرقان بين أولياء الرحمٰن وأولياء الشيطان**، تحقيق: د. عبد الرحمٰن بن عبد الكريم اليحيى، الناشر: دار الفضيلة، الرياض.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام**، جمعه ورتبه وطبعه على نفقته: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، ط١، ١٤١٨هـ.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **النبوات**، دراسة وتحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **أمراض القلب وشفاؤها**، الناشر: المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٩هـ.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة**، المحقق: ربيع بن هادي عمير المدخلي، الناشر: مكتبة الفرقان، عجمان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **قاعدة في المحبة**، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة، مصر.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **مجموع الفتاوى**، المحقق: أنور الباز، عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، ط٣، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: **منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- ابن تيمية، أحمد عبد الحليم: **كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، تحقيق: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي، الناشر: مكتبة ابن تيمية.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان: **سر صناعة الإعراب**، تحقيق: د. حسن هنداوي، الناشر: دار القلم، دمشق، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ابن حبان، محمد بن حبان: **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ابن حجر، أحمد بن علي: **الاصابة في تمييز الصحابة**، المحقق: دار النشر البلد: كلكتا (الهند) الطبعة، سنة الطبع: ١٨٥٣م.
- ابن حجر، أحمد بن علي: **بلوغ المرام من أدلة الأحكام**، المحقق: محمد الفقي، دار النشر: المطبعة السلفية، مصر، ١٣٤٧هـ.
- ابن حجر، أحمد بن علي: **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حجر، أحمد بن علي: **مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد**، المحقق: صبري عبد الخالق أبو ذر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- ابن حزم، علي بن أحمد: **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.
- ابن حزم، علي بن أحمد: **المحلى بالآثار**، الناشر: دار الفكر، بيروت، بدون طبعة وتاريخ.
- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق: **التوحيد وإثبات صفات الرب** عز وجل، المحقق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق: **صحيح ابن خزيمة**، المحقق: د. محمد الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت.
- ابن دريد، محمد بن الحسن: **الاشتقاق**، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الجيل، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.
- ابن راهويه، إسحاق بن إبراهيم: **مسند إسحاق بن راهويه**، المحقق: د. عبد الغفور بن عبد الحق البلوشي، الناشر: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.
- ابن رجب، عبد الرحمٰن بن أحمد: **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم**، المحقق: شعيب الأرناؤوط، إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٧، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- ابن رجب، عبد الرحمٰن بن أحمد: **روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)**، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- ابن رجب، عبد الرحمٰن بن أحمد: **مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي**، المحقق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة الطبعة: ١/ ٢ ـ الثانية، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م، جـ ٣ ـ الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣ م جـ ٤ ـ الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
- ابن سعد، محمد بن سعد: **الطبقات الكبير**، المحقق: علي محمد عمر، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، المحقق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله: **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، محمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٣٨٧هـ.
- ابن عبد الوهاب، سليمان بن عبد الله بن محمد: **تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.
- ابن عدي، عبد الله بن عدي الجرجاني: **الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث**، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م.

- ابن قدامة، عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد: **الشرح الكبير على متن المقنع**، الناشر: دار الكتاب العربي، أشرف على طباعته: محمد رشيد رضا صاحب المنار.
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد: **الكافي في فقه الإمام أحمد**، الناشر: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
- ابن قدامة، عبد الله بن أحمد: **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**، تحقيق: عبد الله التركي، الناشر: دار هجر، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر: **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الناشر: دار المعرفة، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٦م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر: **تفسير القرآن العظيم**، المحقق: سامي سلامة، الناشر: دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
- ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني: **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.
- ابن مفلح، إبراهيم بن محمد: **المبدع في شرح المقنع**، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
- ابن مفلح، محمد بن مفلح: **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، الناشر: عالم الكتب (بدون طبعة).
- ابن مفلح، محمد بن مفلح: **الفروع ومعه تصحيح الفروع لعلاء الدين علي بن سليمان المرداوي**، المحقق: عبد الله التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم: **لسان العرب**، الناشر: دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.
- ابن هبة الله، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله: **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل**، تحقيق: محب الدين العمري، الناشر: دار الفكر بيروت، ١٩٩٥م.
- ابن هشام، عبد الملك بن أيوب: **السيرة النبوية**، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.
- ابن وهب، عبد الله بن وهب: **القدر وما ورد في ذلك من الآثار**، المحقق: د. عبد العزيز عبد الرحمٰن العثيم، الناشر: دار السلطان، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ.

- أبو الفتح، عبد الرحيم بن عبد الرحمٰن: **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: عالم الكتب، بيروت.
- أبو الفيض، أحمد بن عبد اللطيف: **المفاخرة بين الماء والهواء (مطبوع ضمن كتاب المفاخرات والمناظرات)**، عُني بها: د. محمَّد الطَّيَّان، الناشر: دار البشائر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.
- أبو حاتم، محمد بن حبان: **الثقات**، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، الناشر: دار الفكر، ط١، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.
- أبو زرعة، عبد الرحمٰن بن محمد: **حجة القراءات**، محقق الكتاب ومعلق حواشيه: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة.
- أبو شامة، عبد الرحمٰن بن إسماعيل: **الباعث على إنكار البدع والحوادث**، المحقق: عثمان أحمد عنبر، الناشر: دار الهدى، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
- أبو نعيم، أحمد بن عبد الله: **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، الناشر: السعادة، بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.
- أبو يعلى، أحمد بن علي: **مسند أبي يعلى**، المحقق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
- الآجري، محمد بن الحسين: **الشريعة**، المحقق: عبد الله الدميجي، دار النشر: دار الوطن، الرياض.
- الإشبيلي، أبو محمد عبد الحق: **الأحكام الشرعية الكبرى**، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، الناشر: مكتبة الرشد ـ السعودية ـ الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- الأصبحي، مالك بن أنس: **المدونة**، الناشر: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.
- الأصبحي، مالك بن أنس: **موطأ الإمام مالك**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، مصر.
- الأصبهاني، إسماعيل بن محمد: **الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السُنَّة**، المحقق: محمد بن ربيع المدخلي، الناشر: دار الراية، السعودية، الرياض، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
- الأصفهاني، الحسين بن محمد: **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

- آل الشيخ، محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف: **فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ**، جمع وترتيب وتحقيق: محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم، الناشر: مطبعة الحكومة بمكة المكرمة، ط١، ١٣٩٩هـ.
- الألباني، محمد بن نوح: **صحيح الأدب المفرد**، للإمام البخاري، الناشر: دار الصدّيق، الطبعة، ط١، ١٤٢١هـ.
- الألباني، محمد بن نوح: **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، الناشر: المكتب الإسلامي.
- الألباني، محمد بن نوح: **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي.
- الألباني، محمد بن نوح: **غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام**، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٤٠٥هـ.
- الأندلسي، محمد بن يوسف أبو حيان: **تفسير البحر المحيط**، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- البُجَيْرَمِيّ، سليمان بن محمد: **التجريد لنفع العبيد = حاشية البجيرمي على شرح المنهج، (منهج الطلاب اختصره)** زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين، للنووي ثم شرحه في شرح منهج الطلاب) الناشر: مطبعة الحلبي بدون طبعة، ١٣٦٩هـ ـ ١٩٥٠م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: **الأدب المفرد**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: **التاريخ الكبير**، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، طبع تحت مراقبة: محمد عبد المعيد خان.
- البخاري، محمد بن إسماعيل: **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري**، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، (مصورة عن السلطانية بإضافة، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ط١، ١٤٢٢هـ.
- البروجردي، محمد بن حَمَد: **الفتح على أبي الفتح**، المحقق: عبد الكريم الدجيلي، الناشر: دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط٢، ١٩٨٧م.
- البزار، أحمد بن عمرو: **مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار**، المحقق: محفوظ الرحمٰن زين الله وآخرون، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١ (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

- البعلي، محمد بن علي: **مختصر الفتاوى المصرية**، لابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، السعودية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- البغدادي، أحمد بن علي: **الفقيه والمتفقه**، المحقق: عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ.
- البغدادي، أحمد بن علي: **المتفق والمفترق**، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد صادق آيدن الحامدي، الناشر: دار القادري، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- البغدادي، أحمد بن علي: **تاريخ بغداد**، المحقق: الدكتور بشار عواد، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
- البغدادي، أحمد بن علي: **موضح أوهام الجمع والتفريق**، المحقق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.
- البغدادي، أحمد بن موسى: **السبعة في القراءات**، المحقق: شوقي ضيف، الناشر: دار المعارف، مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ.
- البغدادي، عبد القادر بن عمر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- البغدادي، محمد بن الحسن بن حمدون: **التذكرة الحمدونية**، الناشر: دار صادر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.
- البغوي، الحسين بن مسعود: **شرح السُّنَّة**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- البغوي، الحسين بن مسعود: **مصابيح السُّنَّة**، تحقيق: د. يوسف عبد الرحمٰن المرعشلي، وآخرون، الناشر: دار المعرفة بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- البغوي، الحسين بن مسعود: **معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي**، تحقيق: محمد عبد الله النمر وآخرون، الناشر: دار طيبة، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- البغوي، عبد الله بن محمد: **معجم الصحابة**، المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني، الناشر: مكتبة دار البيان، الكويت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: **الآداب**، المحقق: أبو عبد الله السعيد المندوه، دار النشر: مؤسسة الكتب الثقافية، البلد: بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: **الأسماء والصفات**، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

- البيهقي، أحمد بن الحسين: **السنن الكبرى**، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: **المدخل إلى السنن الكبرى**، المحقق: د. محمد ضياء الرحمٰن الأعظمي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: **دلائل النبوة**، المحقق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
- البيهقي، أحمد بن الحسين: **شعب الإيمان**، تحقيق: د. عبد العلي حامد، إشراف: مختار الندوي، الناشر: مكتبة الرشد بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.
- التاودي، ابن سودة: **حاشية التاودي على صحيح البخاري**، الناشر: العلمية، بيروت، ط١.
- التبريزي، محمد بن عبد الله: **مشكاة المصابيح**، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.
- **تخريج أحاديث منتقدة في كتاب التوحيد**، للشيخ فريح بن صالح البهلان، ط. دار الأثر، ١٤١٥هـ.
- الترمذي، محمد بن علي: **نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ**، تحقيق: عبد الرحمٰن عميرة، دار النشر: دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.
- الترمذي، محمد بن عيسى: **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي.
- **التعريفات**. المؤلف: علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.
- التلمساني، أحمد بن محمد: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت لبنان، ط١، ١٩٦٨م.
- التنوخي، المحسن بن علي: **الفرج بعد الشدة**، تحقيق: عبود الشالجي، الناشر: دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.
- الثعالبي، عبد الملك بن محمد: **المنتحل**، المحقق: الشيخ أحمد أبو علي، الناشر: المطبعة التجارية، عرزوزي وجاويش، الإسكندرية، ١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م.
- الجورقاني، الحسين بن إبراهيم: **الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير**، تحقيق: د. عبد الرحمٰن الفريوائي، الناشر: دار الصميعي، الرياض، مؤسسة دار الدعوة التعليمية الخيرية، الهند، ط٤، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

- حسين، حسن (معاصر): **ثلاثية البردة بردة الرسول ﷺ**، الناشر: دار الكتب القطرية، الدوحة، ط١، ١٤٠٠هـ.
- حنبل، أحمد بن محمد: **الزهد**، المحقق: يحيى بن محمد سوس، الناشر: دار ابن رجب، ط٢، ٢٠٠٣م.
- حنبل، أحمد بن محمد: **مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله**، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
- حنبل، أحمد بن محمد: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، المحقق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.
- حنبل، أحمد بن محمد: **من كلام أحمد بن حنبل في علل الحديث ومعرفة الرجال**، المحقق: صبحي البدري السامرائي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.
- الخازن، علي بن محمد: **تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل**، دار النشر: دار الفكر، بيروت ـ لبنان، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
- الخلال، أحمد بن محمد: **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**، تحقيق: الدكتور يحيى مراد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- الدارمي، عثمان بن سعيد: **الرد على الجهمية**، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير، الكويت، ط٢، ١٩٩٥م.
- الدارمي، عثمان بن سعيد: **نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد**، تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي، الناشر: مكتبة الرشد، السعودية، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
- **الدر النضيد في تخريج كتاب التوحيد**: صالح بن عبد الله العصيمي، الناشر: دار ابن خزيمة، ط. الأولى، ١٤١٣هـ.
- الذهبي، محمد بن أحمد: **العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها**، المحقق: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.
- الذهبي، محمّد بن أحمد: **المهذب في اختصار السنن الكبير**، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمِي، بإشراف: أبي تَميم يَاسر بن إبراهيم، الناشر: دار الوطن للنشر، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- الذهبي، محمد بن أحمد: **سير أعلام النبلاء**، الناشر: دار الحديث ـ القاهرة، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

- **زاد المسير في علم التفسير**: المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني: **تاج العروس من جواهر القاموس**، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي: **شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك**، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.
- الزمخشري، محمود بن عمر: **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار النشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- السِّجِسْتاني، سليمان بن الأشعث: **سنن أبي داود**، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- السعدي، عبد الرحمٰن بن ناصر: **القول السديد شرح كتاب التوحيد**، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، ط٢، ١٤٢١هـ.
- السُّغْدي، علي بن الحسين: **النتف في الفتاوى**، المحقق: المحامي الدكتور صلاح الدين الناهي، الناشر: دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، عمان ـ الأردن، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.
- السفيري، محمد بن عمر: **المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية ﷺ من صحيح الإمام البخاري**، تحقيق: أحمد فتحي عبد الرحمٰن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
- السمرقندي، محمد بن أحمد: **تحفة الفقهاء**، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
- السمعاني، منصور بن محمد: **تفسير القرآن**، المحقق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.
- السمين الحلبي، أحمد بن يوسف: **الدر المصون في علوم الكتاب المكنون**، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.
- سيبويه، عمرو بن عثمان: **الكتاب**، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
- السيوطي، عبد الرحمٰن بن أبي بكر: **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، تحقيق: مركز هجر للبحوث، الناشر: دار هجر، مصر، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

- السيوطي، عبد الرحمٰن بن أبي بكر: **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، الناشر: مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- الشافعي، محمد بن إدريس: **الأم**، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ.
- الصالحي، محمد بن يوسف: **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد**، تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود، الشيخ علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل: **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار النشر: دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل: **نكت الهميان في نكت العميان**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.
- الصنعاني، عبد الرزاق بن همام: **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.
- **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**: ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: المحقق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.
- الضياء المقدسي، محمد بن عبد الواحد: **الأحاديث المختارة**، المحقق: عبد الملك دهيش، الناشر: مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ط٣، ٢٠٠٠م.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: **المعجم الأوسط**، المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين، القاهرة.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: **المعجم الكبير**، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢.
- الطبراني، سليمان بن أحمد: **مسند الشاميين**، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.
- الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك**، وصلة تاريخ الطبري (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ)، الناشر: دار التراث بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.
- الطبري، محمد بن جرير: **جامع البيان في تأويل القرآن**، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

- الطبري، محمد بن جرير: **صريح السُّنَّة**، المحقق: بدر يوسف المعتوق، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، ط١، ١٤٠٥هـ.
- الطحاوي، أحمد بن محمد: **شرح معاني الآثار**، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار ـ محمد سيد جاد الحق) راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د. يوسف المرعشلي، الناشر: عالم الكتب، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
- الطيالسي، سليمان بن داود: **مسند أبي داود الطيالسي**، المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
- العاملي، محمد بن حسين: **الكشكول**، المحقق: محمد عبد الكريم النمري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.
- العثيمين، محمد بن صالح: **القول المفيد على كتاب التوحيد**، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، ط٢، ١٤٢٤هـ.
- العجلي، أحمد بن عبد الله: **تاريخ الثقات**، الناشر: دار الباز، ط١، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م.
- العراقي، عبد الرحيم بن الحسين: **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار**، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار (مطبوع بهامش إحياء علوم الدين)، الناشر: دار ابن حزم، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.
- العسكري، الحسن بن عبد الله: **الصناعتين**، المحقق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، ١٤١٩هـ.
- العظيم آبادي، محمد أشرف بن أمير: **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، ومعه حاشية ابن القيم: **تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته**، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.
- العكبري، عبد الله بن الحسين أبو البقاء: **شرح ديوان المتنبي**، المحقق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.
- الفاكهي، محمد بن إسحاق: **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، المحقق: د. عبد الملك عبد الله دهيش، الناشر: دار خضر ـ بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.
- الفراء، يحيى بن زياد: **معاني القرآن**، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي وآخرون، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر.
- القرطبي، محمد بن أحمد: **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

- القسطلاني، أحمد بن محمد: **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، الناشر: المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.
- القيرواني، عبد الله بن (أبي زيد): **النَّوادر والزِّيادات على مَا في المدَوَّنة من غيرها من الأُمهاتِ**، تحقيق: د. عبد الفتّاح محمد الحلو وآخرون، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- الكتاني، محمد بن جعفر: **الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السُّنَّة المصنفة**، دار النشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م ـ .
- الكناني، أحمد بن أبي بكر: **مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه**، المحقق: محمد المنتقى الكشناوي، الناشر: دار العربية، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.
- اللالكائي، هبة الله بن الحسن: **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة من الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة**، تحقيق: د. أحمد سعد حمدان، الناشر: دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢هـ.
- الماوردي، علي بن محمد: **الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني**، المحقق: الشيخ علي محمد معوض، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
- الماوردي، علي بن محمد: **تفسير الماوردي = النكت والعيون**، المحقق: السيد ابن عبد المقصود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- المباركفوري، صفي الرحمٰن: **الرحيق المختوم**، الناشر: دار الهلال، بيروت، ط١.
- المباركفوري، محمد عبد الرحمٰن: **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.
- المتقي الهندي، علي بن حسام الدين: **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، المحقق: بكري حياني، صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.
- **المجالسة وجواهر العلم**: المؤلف: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي (المتوفى ٣٣٣هـ). المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: جمعية التربية الإسلامية (البحرين ـ أم الحصم)، دار ابن حزم (بيروت ـ لبنان)، تاريخ النشر: ١٤١٩هـ.
- **مجلة التراث العربي**، العدد ٢.
- مجموع مؤلفات الإمام محمد بن عبد الوهاب. القسم الأول: **العقيدة والآداب الإسلامية**: ٧/١، ط: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

- المزي، يوسف بن عبد الرحمٰن: **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.
- المستعصمي، محمد بن أيدمر: **الدر الفريد وبيت القصيد**، المحقق: الدكتور كامل سلمان الجبوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.
- مغلطاي، مغلطاي بن قليج: **إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، المحقق: عادل بن محمد، أبو محمد أسامة بن إبراهيم، الناشر: الفاروق الحديثة، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.
- المناوي، محمد عبد الرؤوف: **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.
- المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي: **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، تحقيق: مصطفى محمد عمارة، الناشر: مكتبة مصطفى البابي الحلبي، مصر، (تصوير، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت) ط٣، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.
- النسائي، أحمد بن شعيب: **عمل اليوم والليلة**، المحقق: د. فاروق حمادة، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.
- النووي، يحيى بن شرف: **الأربعون النووية**، عُنِيَ بِهِ: قصي محمد نورس الحلاق، أنور بن أبي بكر الشيخي، الناشر: دار المنهاج للنشر والتوزيع، لبنان ـ بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.
- النووي، يحيى بن شرف: **المجموع شرح المهذب (مع تكملة السبكي والمطيعي)**، الناشر: دار الفكر.
- النووي، يحيى بن شرف: **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.
- النووي، يحيى بن شرف: **رياض الصالحين**، المحقق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٣، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.
- النيسابوري، محمد بن عبد الله: **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج: **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- الهيتمي، أحمد بن محمد: **الفتاوى الحديثية**، مصطفى الحلبي، ط٢.
- الهيتمي، أحمد بن محمد: **الفتح المبين بشرح الأربعين**، عني به: أحمد جاسم محمد المحمد، قصي محمد نورس الحلاق، أبو حمزة أنور بن أبي بكر الشيخي الدّاغستاني، الناشر: دار المنهاج، جدة، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م.
- الهيثمي، علي بن أبي بكر: **كشف الأستار عن زوائد البزار**، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
- الهيثمي، علي بن أبي بكر: **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، المحقق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.
- الواحدي، علي بن أحمد: **أسباب نزول القرآن**، المحقق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح، الدمام، ط٢، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
- الواحدي، علي بن أحمد: **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار النشر: دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت ط١، ١٤١٥هـ.
- الواحدي، علي بن أحمد: **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، وآخرون، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**